رحلة العمر

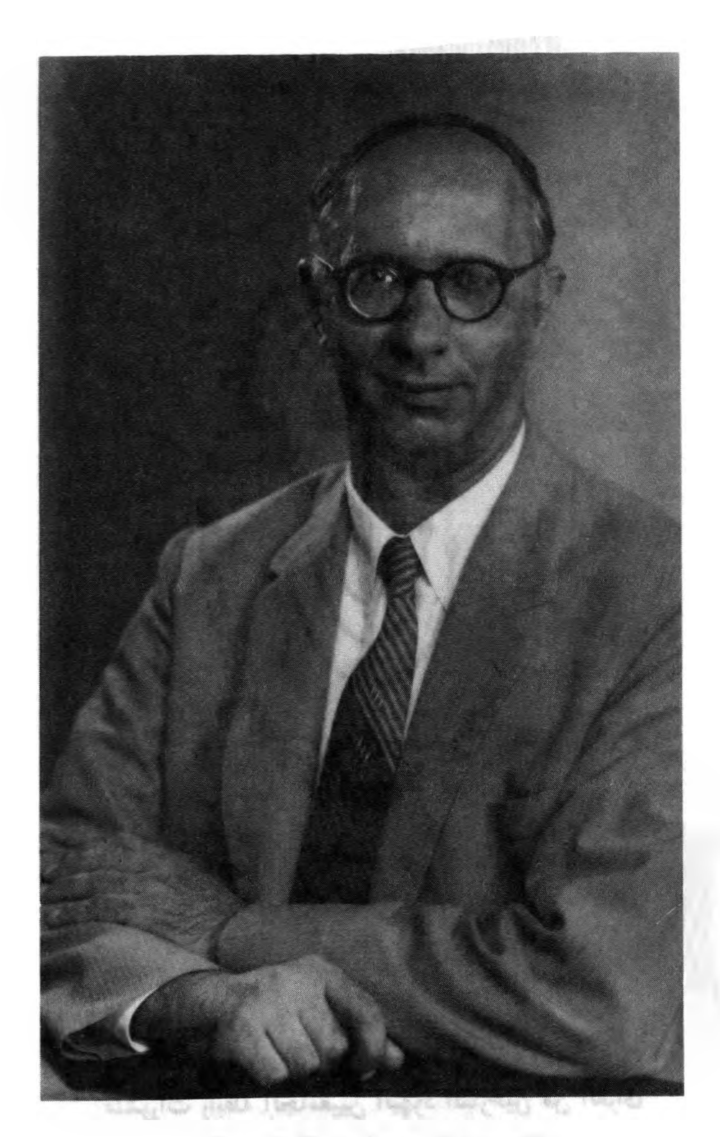
من ضفاف دجلة الى وادي التيّمس

ذكريات وخواطر

مير بصري

راجعها وقدّمها للطبع
البروفسور شموئيل موريه
والدكتور نسيم قزاز

أورشليم - القدس ١٩٩١



صاحب المذكرات في لندن سنة ١٩٦١

رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق في اسرائيل

رحلة العمر

من ضفاف دجلة الى وادي التّيمس

ذكريات وخواطر

مير بصري

راجعها وقدّمها للطبع
البروفسور شموئيل موريه
والدكتور نسيم قزاز

اورشليم ـــ القدس، ١٩٩١

رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق هي جمعية علمية ثقافية اجتماعية ادبية تأسست عام ١٩٨٠ غرضها تعزيز التعاون بين الجامعيين اليهود النازحين من العراق في مجال البحث العلمي والنشاط الاجتماعي والثقافي والادبي والفني عن طريق نشر مؤلفات اليهود النازحين من العراق والابحاث التي كتبت عن يهود العراق وعقد الندوات العلمية والثقافية والادبية.

وأحببت صاحبك كنفسك

(توراة: سفر اللاويين ١٩:١٨)

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة ... فمسرح أظباء ومرعى لغزلان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أنى توجهت ... ركائبه، فالحبّ ديني وإيماني

الشيخ الاكبر
محيي الدين ابن عربي
(١١٦٥ ـ ١٢٤٠م)

أيها الاخوان، إنّي تاجر، ... سلعتي أعرض في جنب الطريق
فقفوا، ماذا يريد الناظر؟ ... كلّ ما عندي سخيف وعتيق
أعرض الحبّ وعطفاً وابتسامة ... والكلام الناعم الحلو الرقيق،
وخيوط النور او سجع الحمامة ... رحّبت بالفجر والغصن الوريقِ
وأبيع الحلم غضّاً والأماني ... والخيال الخصب فيّاض المعاني،
صاعداً نحو الأعالي الخافية
فهلّموا... بل أراكم ساخرين ... تسرعون الخطو شأنَ الزاهدين
في هباء ورسوم بالية

مير بصري

هذه المذكرات

بقلم البروفسور ش. موريه

في غمرة الحرب المعروفة «بعاصفة الصحراء» التي أكلت الأخضر واليابس والتي دارت رحاها في الخليج هذا العام، تبرز أهمية مذكرات الاستاذ الكبير مير بصري «رحلة العمر، من ضفاف دجلة الى وادي التيمس». فهذه المذكرات تشير الى ان العراق الذي تحرر من طغيان الحكم العثماني لم يتحرر من أساليب القمع السياسي التي مارسها العثمانيون ولم يستغل الاسس الديمقراطية والسياسية الجديدة التي قام عليها العراق الحديث وفشل في استغلال ثرواته الطبيعية والقومية لبناء مجتمع حديث ومتطور حُرّ يعيش في رخاء وسلام ويتعاون لصلحة شعبه وجيرانه والعالم، فكانت حياته السياسية مليئة بالثورات والانقلابات والمذابح والفتن والقمع السياسي والعسكري حتى صبغت الادب العراقي بصبغة سياسية ميزته عن باقي البلدان العربية.

بدأ الملك فيصل الاول حكماً ديموقراطياً رائده الحرية والعدالة والمساواة فنهض العراق نهضة مباركة لعبت فيها الاقليات الدينية والقومية وعلى رأسها الطائفة اليهودية دوراً ايجابياً بنّاءً. لكن خلفاءَه من السياسيين الذين استولوا على مقاليد الحكم، بسبب صغر سن ملوك وادي الرافدين، قادوا العراق الى هاوية التطرّف واضطهاد الاقليات التي كان لها شأن في حضارة العراق، فبدأوا أول ما بدأوا بسحق الآثوريين عام ١٩٣٣ واعقب ذلك انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ ثم جاءت حركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ التي سببت مذبحة «الفرهود» ضد يهود العراق ثم كانت «الوثبة» عام ١٩٤٨ فحصدت بنادق رجال الشرطة الطلاب المتظاهرين. وتلتها ملاحقة المثقفين والطلاب من الشيوعيين واليسار العربي والقوميين لسحق كل معارضة فزُجّ بهم في السجون وعُلّقوا على أعواد المشانق. وهكذا فقد العراق خيرة شبابه المثقف. ثم حاربوا الأكراد وشردوهم ولاحقوا اليهود في أواخر الاربعينات بتهمة النشاط الشيوعي والصهيوني واعدموا شفيق عدس عام ١٩٤٨ انتقاماً لفشلهم في حرب ١٩٤٨، حتى اضطروهم الى الهجرة الجماعية عام ١٩٥٠ ــ ١٩٥١.

وعند توالي الانقلابات بعد ثورة عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨ توالت المذابح بين الشيوعيين والبعثيين وانقلب العراق من نظام يحكمه البوليس الى نظام يحكمه الجيش ايضاً خاصّةً بعد ان تسنّم حزب البعث العراقي مقاليد الحكم فيه، هذا الحزب الذي نجح في سحق ثورة الاكراد بقنابل الغازات السامة وانتصر بواسطتها على الايرانيين دون ان يجني ثمار هذا النصر.

وهكذا انتقل العراق من دولة بوليسية شغلها الشاغل القضاء على المثقفين والمعارضين والاقليات القومية الى دولة عسكرية تحت حكم البعث عكفت على بناء جيش اغدقت عليه بدون حساب من ثروات العراق النفطية الغزيرة حتى اصبح رابع اقوى جيش في العالم. وقد حاول العراق البعثي حلّ المشكلات السياسية التي ثارت مع جيرانه الايرانيين والعرب عن طريق الحروب، فكانت الطامة الكبرى وتوالت الكوارث على العراق فانتصرت القوة الغاشمة على الحكمة وهو امر حذّر منه احد كبار الادباء والمفكرين العرب وهو الاستاذ توفيق الحكيم وخاصة في مسرحيته «سليمان الحكيم»: فقد كان هذا الكاتب المسرحي القدير يمثل الضمير الانساني وقلب مصر النابض وذهنها الوقّاد الخلاق فكان يدعو الى التفاهم والتعايش السلمي والاخاء بين الشعوب والطبقات وهو من الذين قالوا بوجوب التعادل

بين القوة والحكمة لكي تستطيع الشعوب البقاء والحياة بسلام، وهذه حرب الخليج لخير برهان على صدق ما ذهب اليه هذا الاديب الحكيم.

اذن، فلنشر مذكرات الاستاذ مير بصري اهمية كبرى اليوم لانها تشير بوضوح الى هذا التدهور الذي حلّ في العراق نحو التمسك بالقوة ونبذ الحكمة في السياسة الداخلية والخارجية وتنبأت بما سيحدث وحذّرت من مغبته.

هذه المذكرات التي كتبها احد كبارالادباء والشعراء والمفكرين اليهود النازحين من العراق لها اهمية تأريخية ليس بسبب المناصب الحكومية التي تبوّأها المؤلف ولمكانته المرموقة في المجتمع العراقي فحسب بل ايضاً لنشاطه الادبي والعلمي وتمثيله للعراق في مؤتمرات علمية واقتصادية وللصداقة التي كانت وما تزال تربطه بكبار السياسيين والاقتصاديين والباحثين والصحفيين في العراق وغيرها من البلدان العربية. لذلك فإني أرى أن هذه المذكرات ستسد ثغرة كبيرة في فهم الحياة الادبية والاقتصادية والسياسية والصحفية والعلمية والاجتماعية في العراق عامة وعند يهودها خاصة. لقد كتب الاستاذ مير مذكراته بموضوعية ونزاهة ووعي تاريخي ومسؤولية المؤرخ امام الاجيال والتاريخ وصوّر بقلم سلسل وموهبة ادبية الشخصيات المختلفة والمواقف الحية المؤثرة مُستحوذاً على اهتمام القارىء ومزوّداً الباحثين بمادة غزيرة لتكمل النقص في كتب التاريخ الرسمية. فهو يشيد من جهة بأواصر المودة والصداقة والاخاء التي ربطته باخوانه من المسلمين والمسيحيين العراقيين والعرب ومن جهة أخرى ويشير في نفس الوقت الى الحيف الذي اصابه في الوظائف الحكومية من جراء يهوديته من جهة اخرى وعلى رأسها اهمال اقتراح جريدة «السجل» العراقية تعيين الاستاذ مير بصري وزيراً للمالية ورفض اقتراح مماثل قدمه داود باشا الحيدري للسيد محمد الصدر بسبب احداث عام ١٩٤٩ واحتمال اقامة دولة اسرائيل.

ولا يسعني عند كتابة هذه المقدمة تحت وابل المطر والصواريخ العراقية التي تطلق على اسرائيل مارة فوق بيتي في اورشليم ـ القدس في طريقها الى تل ابيب لتزرع الدمار والخراب بين سكان آمنين لا ناقة لهم في هذه الحرب ولا بعير، الا وأتذكر صدى صوت شاعر العراق بدر شاكر السيّاب وهو في الكويت في نهاية الخمسينات يحن الى العراق، هذا الصدى الذي يعكس خيبة امل الشاعر من الحصول على مبتغاه من المال في الكويت فيقول:

اصيح بالخليج:...
«يا خليج! يا واهب اللؤلؤ والمحار والرّدى»
فيُرجعُ الصّدى كأنه النشيج:
«يا خليج! يا واهب المحار والرّدى»

وهكذا يسقط الصدى كلمة اللؤلؤ رمز الغنى والمال فيصبح الخليج: «واهب المحار البخس الثمن والموت» مثلما هو عليه الآن بعد ان لوّثت مياهه ملايين البراميل من النفط الخام التي اهدرت جزافاً ولوث جوّه الدخان المتصاعد من مئات الآبار المشتعلة.

ولا يسعنا امام هذه الكوارث والويلات التي تجرها هذه الحروب الا أن نرجو لها النهاية العاجلة لتجنب الشرق الاوسط مزيداً من الكوارث لتستطيع شعوبه التفرغ للبناء والتعايش السلمي لخير المنطقة بأسرها. فمن مفارقات هذه الحرب وصواريخها التي اطلقت على اسرائيل ان اول من مات فيها طفلة عربية ماتت اختناقاً من القناع الواقي من الغازات واول بيت دمرته هو بيت يعود لامرأة يهودية هاجرت من العراق وان اغلب المتضررين من الصواريخ في رمات غان هم من اليهود الذين قدموا من العراق فقال قائلهم، أقام رشيد عالي مذبحة الفرهود عام ١٩٤١ وطردنا صالح

جبر من العراق عام ١٩٥١ واليوم يلاحقنا صدّام بصواريخه. مخرباً بيوتنا على رؤوس اطفالنا ونسائنا وشيوخنا.

ان هذه المذكرات بالاضافة الى المذكرات الاخرى التي اصدرتها رابطتنا: «حياتي في وادي الرافدين» لانور شاؤل و «كل شيءٍ هادىء في العيادة» للدكتور سلمان درويش و «بيت في بغداد» لاسحٰق بار ــ موشيه ورواية «نزوله وخيط الشيطان» لسمير نقاش لتشكّل موسوعةً مُهمة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والادبية ليهود العراق خاصة وللعراق عامة لا يستطيع الباحث المهتم بشؤون العراق التغاضي عنها.

والآن وقد وضعت الحرب اوزارها نأمل ان يحلّ السلام الشامل، وتنصرف دول الشرق الاوسط والعالم الى السلام وبناء مستقبل افضل من التعاون والأخاء بما فيه الخير لشعوبها ولشعوب العالم اجمع وتتحقق نبوّة انبياء اسرائيل وتحل محلّ مصانع الاسلحة معاهد للعلم لخدمة الانسانية جمعاء.

ولا يسعنا في ختام هذه المقدمة الاّ ان نقدم باسم ادارة الرابطة واعضائها تعازينا الى رئيس الرابطة الفخري الدكتور داود سلمان ــ سالا بوفاة زوجته الدكتورة ايرينه في حادث تحطم طائرة كانت تقلّها مع صديقتها السيدة فكتوريا نسيم الهمه الله وعائلته الصبر والسلوان واسكن الفقيدتين فسيح جناته.

وأخيراً أُقدم شكري للدكتور داود سلمان ــ سالا الرئيس الفخري لرابطتنا وللدكتور نسيم قزّاز الذي راجع الكتاب وساهم في تقديمه للطبع ووضع له فهرس الاعلام وللسيدة اورنا السون والآنسة لبنى صفدي المعيدة في قسم اللغة العربية في الجامعة العبرية على مساعدتها في مراجعة مسودّات الكتاب.

١٩٩١/٢/١٤

البروفسور ش. موريه
الجامعة العبرية وجامعة بار ايلان
ورئيس رابطة الجامعيين اليهود
النازحين من العراق

رحلة العمر

من ضفاف دجلة الى وادي التّيمس

بغداد في مطلع القرن العشرين (١)

بغداد عاصمة الرشيد ومدينة الف ليلة وليلة وحاضرة الترف والبذخ شهدت مجداً عظيماً وذلاً مهيناً. تقلبت عليها الازمان في تاريخها الذي امتدّ اكثر من ألف ومائتي سنة، فارتفعت بعلمها وادبها وثرائها قروناً طويلة، ثم هوت في عصور الانحطاط لتكون مركز ولاية قاصية في جسم السلطنة العثمانية الشاسعة. وحتى في عصرها الزاهر، حين كانت النجم المتألق في سماء القرون الوسطى، لم تخلُ من الخصاص التي يسكنها المعدمون والطرق الضيقة المستوحلة وآلاف الناس الذين يلفّهم الفقر المدقع. وقد قال الفقيه الاديب عبد الوهاب ابن نصر الثعلبي الذي اضطر ان يهجر بغداد في اواخر القرن العاشر الميلادي لعسره وضيق ذات يده:

بغداد دار لاهل المال طيّبة   وللمفاليس دار الضنك والضيق

رقدت بغداد زماناً طويلاً رقاداً هنيئاً تتناوبه كوابيس الخوف والفقر والجهل. وتقدم القرن التاسع عشر فأخذت الدولة العثمانية الهرمة تطبق مناهج الاصلاح في الحكم والعلم والاقتصاد والاجتماع. وأخيراً بلغ شيء من تلك المناهج الاصلاحية الى ولاية بغداد البعيدة، لا سيما حين جاءها مدحت باشا والياً سنة ١٨٦٩. فلما أطلّ القرن العشرون بدأت العاصمة العراقية بالنهوض شيئاً فشيئاً، توسع عمرانها وزادت مدارسها ومرافقها وكثر اتصالها بالعالم الخارجي. ثم ابتسمت في عهد الوالي ناظم باشا الذي استطاع خلال مدة وجيزة لا تزيد على العشرة اشهر ان يبثّ روحاً جديدة من النشاط والأمل والأمن الشامل.

كان لليهود في بغداد دائماً موقع ممتاز(٢)، وقد عاشوا بسلام خلال العصور مع مواطنيهم من المسلمين والمسيحيين، مارسوا التجارة والمهن الاخرى وأخذوا في العهد الاخير يميلون الى العمل في دوائر الحكومة والمصارف والشركات الاجنبية. كانوا في اوائل القرن يؤلفون ثلث سكان بغداد ويسيطرون على الاعمال التجارية، فاذا الاسواق مغلقة في ايام السبت والاعياد الموسوية، حين يخرج آلاف الرجال والنساء والاولاد بملابسهم الزاهية الى ضفاف النهر وضواحي المدينة للنزهة والاستجمام. وكانت المدارس اليهودية(٣)، وفي مقدمتها مدرسة الاليانس الفرنسية، تجتذب أرقى الطبقات من مختلف الاديان والعناصر، وكان علماء الدين اليهودي مرجعاً للطوائف اليهودية الشرقية من استانبول والقدس الشريف الى أطراف الهند والصين حيث هاجر الشباب والكهول وانشأوا المحلات التجارية وكوّنوا لأنفسهم مكانة مرموقة.

كانت الدولة العثمانية دولة متسامحة رضيّة هيأت لطوائفها الدينية في مختلف ولاياتها وأقاليمها حكماً داخلياً شبه ذاتي يرأسه رئيس الطائفة او الحاخام الاكبر او البطريرك والمطران. وكان لكل طائفة مجالسها الجسمانية والروحانية واوقافها ومدارسها ومحاكمها المذهبية التي تنظر في شؤون جماعتها المدنية. وكان أبناء هذه الطوائف معفون من التجنيد لقاء مبالغ سنوية يجبيها رؤساؤهم ويدفعونها الى الخزينة العامة. وقد أنشئت خلال القرن التاسع

عشر مدن وقصبات كثيرة في وسط العراق وجنوبه، ولا سيما في المراكز العشائرية والزراعية التي شجع أهلها على الاستيطان، نمضى اليها العديد من الاسر اليهودية ليسكنوها ويعملوا فيها ويتولوا امور التجارة والصيرفة خصوصاً.

وفي سنة ١٩٠٨ اعلن الدستور العثماني في العاصمة التركية، فثبتت المساواة وأطلقت الحريات العامة ونشرت الصحف وافتتحت المدارس والمعاهد ونشطت التجارة والاعمال. ومضى نواب الامة الى استانبول ليرفعوا اصواتهم الى جانب زملائهم القادمين من مختلف الاقاليم التركية في اوربة الشرقية وآسية الغربية والجنوبية وافريقية الشمالية.

في تلك البيئة وذلك الزمن ولدت، انا مير شلومو حاي بن شاؤل بن بصلئيل المعروف باسم بصري بن عزرا بن يهوشع بن عوبديا بن اسحق حيم بن موشي بن ابراهيم بن نسيم بصري([٤])، وكان مولدي في مساء الثلاثاء ١٩ أيلول ١٩١١ بدارنا الواقعة في محلة تحت التكية من بغداد، تلك الدار التي اشتراها أبو جدي عزرا يهوشع عوبديا سنة ١٨٥٩ وبقينا نسكنها الى سنة ١٩٣٧ حين انتقلنا الى الاحياء الجديدة في شمالي بغداد. وكانت محلة تحت التكية في الاصل محلة اسلامية تقع الى جانب الاحياء اليهودية، وفيها مسجد بلا منارة كان لا يزال قائماً في السنين الماضية حتى هدمت دارنا وسائر انحاء المحلة سنة ١٩٤٨ لتصبح جزءاً من الشارع الجديد الذي عرف باسم شارع الجمهورية.

عرفت اسرتنا في بادىء الامر باسم آل بصري، ثم باسم جدنا عوبديا، ثم عدنا الى تسمية آل بصري في أواخر القرن التاسع عشر. وكان اول من عرف من هذه الاسرة الحاخام ابراهيم بن الحاخام نسيم بصري، وكان يمتلك مخطوطة دينية قديمة موقعة باسمه ومؤرخة سنة ١٧٠٦، ثم آلت سنة ١٧٣٦ الى يهودا بن اسحق حيم بن موشي بن الحاخام ابراهيم بن الحاخام نسيم بصري. وانتقلت هذه المخطوطة بعد قرنين من الزمن الى داود سلمان ساسون، من اسرة داود ساسون الشهيرة، وقد ذكرها في كتابه «خيمة داود» المطبوع في لندن.

اشتهر بعد ذلك من رجال الأسرة التاجر عزرا بن يهوشع عوبديا، وهو جدّ أبي، وقد ترك دفتراً بخط يده يتضمن معلومات ومذكرات وحسابات. كتب هذا الدفتر الفريد بين سنة ١٨٢١ و ١٨٦١، وتوفي بعد خمس سنوات سنة ١٨٦٦. ذكر انه ولد سنة ١٧٨٨ وتزوج سنة ١٨١٤ وأنجب خمسة أبناء وثلاث بنات كان جدي رابع اولاده وثاني أبنائه الذكور. وقال انه كان في بادىء أمره صائغاً بالاشتراك مع أخيه الكبير يوسف، لكنه سرعان ما رأى ان هذه المهنة تجعل صاحبها سارقاً بدون قصد منه، لان ذرّات الذهب تتساقط في الكور عند العمل ويجمعها الصائغ من الرماد بين حين وآخر، وهي بذلك تضيع على صاحب الذهب. ولذلك قرّر أن يترك هذه المهنة وينصرف الى التجارة. وكان اول ما فعله ان استخرج الذهب الذي في الكور وصفّاه وقدّر ثمنه فوزعه على الاشخاص الذين كلفوه بصياغة المصوغات. ثم افترق عن اخيه، وقد حسبا أرباحها وتوزعاها، فكانت حصة كل منها ٨٠٠٠ قرش رومي اي نحو ٢٠ ليرة ذهب في سعر ذلك الوقت، ونذر ان يخصص عُشر أرباحه للاعمال الخيرية والفقراء. ونظم شعراً باللغة العبرية في هذا المعنى ختمه سائلاً المولى تعالى ان يوفقه للالتزام بما عزم عليه. وقد جرى على هذه الطريقة طول حياته مسجلاً تبرعاته السنوية بغير انقطاع.

يذكر عزرا عوبديا بعد ذلك انه غادر بغداد بأسرته سنة ١٨٣١ هرباً من الوباء الذي اجتاح البلد، فمضوا الى «العرب» وعادوا بعد اشهر حين زالت آثار المرض. وفي السنة التالية سافر الى الموصل لاشغال تجارية على ما يظهر. وحين بلغ جدي بصري اشدّه منحه ابوه رأس مال قدره ١٣٠٢٧ قرشاً رومياً لينفرد بأعماله التجارية (نحو ٢٨ ليرة عثمانية ذهب).

مضى بعض رجال الاسرة في القرن التاسع عشر الى الهند واستانبول، وقد عاد اسحق شالوم يوسف عوبديا من الهند بعد ان جمع ثروة طائلة فأنشأ كنيساً في بغداد يحمل اسمه.

واشتهر من أبناء الاسرة اخو عزرا، وهو الحاخام الياهو يهوشع عوبديا الذي ولد سنة ١٧٩٠ وتوفي في ١٤ كانون الثاني ١٨٩٥ عن ١٠٥ سنين. كان من الاحبار المشهورين في عهده، ترده الأسئلة الدينية من انحاء البلاد العثمانية والهند وتولى رئاسة المحكمة الشرعية في بغداد. ذكره الرحالة بنيامين الثاني الذي زار بغداد سنة ١٨٤٨ فقال انه «حاكم ديني رجل ثريّ وعالم». وذكره ايضاً الرحالة يعقوب اوبرماير سنة ١٨٧٦ فقال انه «عالم كبير ومعظم ابناء البلد يسألونه عن شؤونهم للعمل حسب أقواله». وقال ايضاً انه «يسلك طريقاً وسطاً فلا يتشدد في احكامه على العوام بكلام غريب جديد مستنبط من عادات أصحاب القبّالة (المتصوفين)...» وكانت له منزلة لدى أشراف المسلمين، فكان صديق نقيب الاشراف الذي كثيراً ما كان يستشيره في الامور العامة.

وقد اشتهر بذاكرته العجيبة وعلمه الغزير بالتوراة والتلمود وأحكام الشريعة، وترك تلاميذ عديدين. وبالرغم من شيخوخته لم يضعف بصره ولم تهن قواه الفكرية. وكان رضيّ الخلق متواضعاً خافت الصوت. ولما توفي اقفلت الاسواق وشيعه الناس كبيرهم وصغيرهم. وأبّنه الحاخام الشهير يوسف حييم، وأبرق خبر وفاته الى ازمير والقدس.

حدثني عنه عمي المرحوم حسقيل بصري المتوفى سنة ١٩٤٥ عن ٨٢ عاماً، وقد عرفه جيداً في سنيه الأخيرة وكان يزوره دائماً، فقال انه احتفظ بقواه العقلية والبدنية وقد أربى على المائة، وكان رجلاً انيساً يميل الى التسامح ويقول:

«كن دائماً متساهلاً كبيت (مدرسة) هليل ولا تكن متشدداً كبيت شمّاي». وكان الحاخامون كثيراً ما يسألونه عن فتاواه فيقول: راجعوا الكتاب الفلاني صفحة كذا تجدوا المصدر. وكان يقول ان كثيراً من رجال الدين يميلون الى التصلّب والتحريم لمجرّد الجهل وعدم اتعاب النفس بالمراجعة وبسبب التقاعس عن استعمال ادلة منطق الشرع الموسوي.

أما جدي بصلئيل بصري عوبديا فولد سنة ١٨٢٢ ومارس التجارة منذ نعومة أظافره. وقد تزوج سنة ١٨٤٤ وانجب ثلاث بنات وخمسة أبناء. وكانت وفاته في ١٩ حزيران ١٨٩٣.

حدث في سنة ١٩٠٠ حادث مفجع أثر تأثيراً كبيراً في مقدّرات الاسرة: فقد اغتيل عمي الكبير شلومو حاي (سليمان) في ٢٥ حزيران من تلك السنة في قضية تافهة تتعلق بغضبه من صاحب المقهى الذي كان يجلس لديه كل مساء وانتقاله مع جماعته الى مقهى آخر. كان عمي صيرفياً معروفاً، وعمل صرافاً للاوردو أي الجيش التركي المرابط في بغداد. وكانت له صلة طيبة برجال التجارة وضباط الجيش على السواء، وقد قضى نحبه وعمره لا يتجاوز الرابعة والخمسين.

لا تزال قصة هذه الفاجعة عالقة في ذهني كما رواها لي ابي وكبار العائلة مراراً. كان عمي يجلس كل مساء في مقهى بمحلة قنبر علي القريبة من دارنا يحف به جماعة من اصدقائه. وفي ذات مساء مرّ بالمقهى ضابط كبير من معارف عمي راكباً على فرسه، فسلّم عليه ودعاه الى الجلوس لتناول القهوة، وصاح «الوير» عليه على عادة ذلك الزمن، اي ان عمي يدفع اجور المقهى عن جميع الجالسين اكراماً للضيف. وكان في المقهى احد أبناء آل الجميل الذين يعدون أنفسهم وجهاء المحلة، فنادى صاحب المقهى ودفع اليه الاجور وحرم عمي من ذلك الشرف.

وعلى أثر ذلك انتقل عمي تتبعه جماعته الى مقهى آخر في نفس المحلة. وقد توسط بعض اهل الخير لاصلاح ذات البين

بين الطرفين، وقرّر عمي أن يعود الى مقهاه السابق بعد أيام قليلة. لكن الامر لم يرق في عين ابن اخي صاحب المقهى، وكان شاباً نزقاً، فلحق بعمي ليلاً وطعنه بخنجره، فنقل جريحاً جرحاً خطراً وقضى نحبه في تلك الليلة.

هرب الجاني، لكن قبض عليه بعد أمد قصير وزجّ في السجن تمهيداً لمحاكمته. لكن آل جميل التزموه ودبروا له الهرب من السجن، فمضى الى حائل ملتجئاً الى اميرها ابن رشيد. واستمرت المراجعات سنين عديدة للقبض عليه واسترداده واحالته الى القضاء.

وعلى اثر تلك الحادثة سافر عمي ساسون وعائلته الى استانبول فأقام فيها وتوفي بها سنة ١٩١٨. وكان لعمي شلومو ولدان: يوسف وعمره آنذاك ١٨ سنة، ويعقوب (جاك) وعمره لا يتجاوز السنة الواحدة. فعقد قران شقيقتي عمومة (فكتوريا) على يوسف بعد سنتين او ثلاث، وكان عمرها لا يتجاوز ١٢ سنة. وفي سنة ١٩٠٥ اخذ اصغر اعمامي صيّون أسرته وأسرة أخيه القتيل وسافر بهم الى مصر، فاستقروا في القاهرة. وقد توفي يوسف هناك سنة ١٩٥١ وعمي صيون سنة ١٩٥٢، اما بقية أفراد العائلتين فتركوا مصر سنة ١٩٦٢ بعد صدور قرارات التأميم التي شلّت التجارة والاعمال ومضوا للاقامة في روما وباريس. وسافر أبناء كبرى عمّاتي حبيبة الى الولايات المتحدة. وقد أتيح لي أن أرى اثنين منهم لأول مرة بعد نحو أربعين سنة حين زرت نيويورك سنة ١٩٤٤.

وظلّ عمي حسقيل يتابع قضية استرداد المجرم من حائل دون جدوى. وبعد مضيّ عدة أعوام جاء رجل بدويّ ملثّم الى السوق يسأل عن حسقيل بصري، فأخذ اليه في محله التجاري بخان مرجان، ذلك الخان الذي أصبح فيما بعد متحف الآثار العربية، وقال له: أعطني حلوان البشارة. ان المجرم الذي قتل اخاك فتح حانوتاً للبقالة في بلدة حائل وعرف بسوء خلقه ومنازعاته مع الناس، وقد تخاصم اخيراً مع رجل نجديّ فطعنه بالخنجر وقضى عليه، وكان ذلك قبل أعوام قليلة من الحرب العظمى الاولى.

وقد اخبرني يعقوب سركيس أنه وجد في الرسائل التجارية التي تعود الى جده وأخواله من آل عبود رسالة مؤرخة في سنة ١٨٨٨ تشير الى الصيرفي شلومو بصري.

كان أبي رابع اولاد جدي بصري وثالث أبنائه الذكور. ولد سنة ١٨٦٠ واقترن بوالدتي وعمره ٢٨ سنة. وقد وجدت في سجل الزواج للطائفة الاسرائيلية في بغداد ان ابي تزوج في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٨٨ من فرحة ابنة الحاخام عزرا روبين موشي حييم دنكور على صداق قدره ٤٥٠ ليرة ذهب. وكان عمر والدتي آنذاك ١٢ سنة!

مارس والدي التجارة طول حياته. وكان يستورد السيوف والملابس العسكرية والنياشين وغير ذلك من العاصمة التركية، لذلك كان محله التجاري في «خان الزرور» وبعد ذلك في «خان الرماح» في سوق السراي القريب من دار الحكومة يحفل في ساعات العصر بالضباط الأتراك الذين يأتون لابتياع لوازمهم أو يجلسون لاحتساء القهوة. وكان أصحاب المصالح من المجنّدين وذوي الصلة بـ «الاوردو» يأتون الى أبي ملتمسين وساطته في قضاء حاجاتهم. وقد سمعت ان الجيش البريطاني، حين اقترب من بغداد وأصبح سقوطها في يده متوقعاً، قام أبي وعمي بجلب حدّاد الى دارنا عمل أياماً في قطع السيوف وجعلها سكاكين منزلية. ثم دفنا الرتب والنياشين العسكرية في سرداب الدار وحرقا كل المراسلات والدفاتر القديمة، ومنها ما يعود الى عشرات السنين، خوفاً من الاحتلال البريطاني. ولم يسلم من ذلك الحريق سوى دفتر مذكرات جدي الاكبر عزرا عوبديا، اذ أن عمي صيون أخذه معه الى مصر وتسلمته منه بعد سنين طويلة.

كان أبي رجلاً متديناً دون تعصب او تشدّد. كان يعرف اللغات العربية والتركية والعبرية، وقد أصرّ عليّ، وانا في

صباي، ان أذهب الى الصلاة يومياً وان أقوم بالمراسم الدينية. أرسلني خلال العطل المدرسية الى بعض المدارس الدينية لدراسة التوراة وأسفار الانبياء والمزامير، ثم علمني بنفسه، قبل وفاته، فصولاً من التلمود الذي يتضمن أحكام الديانة الموسوية وأقوال الأحبار وحكمهم.

اذكر، وانا صبيّ يافع، انني كنت كثيراً ما أرافق والدي الى الكنيس قبيل الفجر لاقامة صلاة الصبح. كان ايوان الكنيس(٥) قابعاً في شبه ظلمة تنيرها شموع وقناديل زيت خافتة. وقد جلس عدة رجال اكثرهم شيوخ مسنّون وأخذوا يرتلون المزامير والتسابيح الدينية انتظاراً لحلول وقت الصلاة. كانت اصواتهم ترتفع حيناً وتنخفض أحياناً، بينما تنحني رؤوس وتصمت شفاه اذ تأخذ اصحابها سنة خفيفة من الكرى. ثم يغمر القاعة تراتيل متهدجة ترتفع كالبخور في السكون وتشيع جواً من الرهبة القدسية والخشوع البليغ. تسمع أحياناً الاصوات الراتبة ترتّل الأناشيد الصوفية الحالمة، تلك التي ردّدتها الألسنة التقيّة مئات الأجيال، منها المتسامية الى الآفاق السماوية العليا، ومنها المعبّرة عن آلام النفس البشرية وما يعتلجها من ايمان وحنين وخوف ومسرّة روحية وانجذاب صوفيّ. ولو هيّىء للعيون ان ترى الاشباح المحلقة في المعبد لرأت مؤلفي تلك الآيات الروحانية، الاحبار الذي عاشوا قبل مئات السنين، ومنهم من استشهد في سبيل الٰهه وتوراته، الشعراء الذين نزل عليهم الوحي الربّاني فنطقت ألسنتهم بالأناشيد الخالدة: ابن جبيرول ويهودا اللاوي وزملاؤهم من الأندلس، اسرائيل نجارة الدمشقي...

وبعد حين تدخل أشعة الفجر من الكوى فتنير المعبد شيئاً فشيئاً، فتسكت التراتيل وتبدأ الصلاة. وأعود الى البيت وانا أحمل شعوراً دافقاً يملأ نفسي ولا يزول الا حين أذهب الى المدرسة وأجلس على المقعد في الصفّ.

من الذين أثروا فيّ كثيراً في عهد الصبا عمي حسقيل الذي كان رجلاً مهيباً قويّ الشخصية. كان أصدقاؤه من رجال الادارة والثقافة في ذلك العهد، كممتاز الدفتري (والد الوزير علي ممتاز) ومشتاق افندي (والد طالب مشتاق) والحاج صالح الملّي وغيرهم. وكان له ولع بالموسيقى الشرقية والمقامات ومعرفة جيدة بالآلات الموسيقية التي يعزف عليها. وقد غرس هذا الولع في قلوب أبنائه الذين درس أكثرهم الفنون الموسيقية الشرقية وبرزوا فيها. وقد سافر أصغر أبنائه نعيم الى لندن وعمل أعواماً طويلة في قسم الاذاعة العربية وأصبح رئيساً لقسم الموسيقى والغناء الشرقي فيها.

سافر عمي حسقيل الى استانبول مرتين. وفي المرة الثانية اندلعت نيران الحرب في اواخر سنة ١٩١٤، وكان عازماً على الرجوع الى بغداد، لكن صعب عليه ذلك. ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى قررت الحكومة التركية تأليف لجنة «جهادية» من أعضائها محيي الدين الكيلاني عضو مجلس الاعيان ورؤوف الچادرچي والحاج صالح الملّي للسفر الى العراق ودعوة العشائر الى شدّ أزر الحكومة التركية في حربها الضروس. واختير عمي محاسباً فخرياً للّجنة، فقدم معها الى بغداد حيث انتهت مهمته.

وجدير بالذكر ان صلات أبي وعمي التجارية كانت وثيقة مع استانبول، فلما زال عهد الاتراك في العراق وتحوّلت مجاري التجارة الى اوربة واليابان، لم يستطيعا أن يتكيّفا حسب الظروف الجديدة فتضاءلت أعمالها وحلت بها الخسائر. ولذلك لم يمل جيل أسرتنا الطالع الى التجارة، بل أصبحنا موظفين ومدرسين وأطباء. وهاجر اثنان من اولاد عمي حسقيل في اوائل سنوات العشرين من العراق، فذهب يوسف الى مارسيلية ومضى سالم الى سان باولو في البرازيل.

وكانت عمتي خزنة التي توفيت سنة ١٩٤٨ عن ٨٦ عاماً من النساء الفواضل اللواتي يسعين في مصالح الناس قريبهم وبعيدهم. توفي زوجها منذ سنوات كثيرة ومات اولادها في طفولتهم، فعاشت معنا، وكانت حلوة الحديث، كثيرة الحفظ للاقاصيص والامثال، فزينت طفولتنا بأحاديثها ورعايتها. وقد وصفتها في كتابي «رجال وظلال» وصفاً صادقاً.

ومن الاحاديث التي كنت أسمعها كثيراً في صباي وصف الحياة البغدادية في اواخر القرن التاسع عشر، وخصوصاً وباء الهيضة (الكوليرا) والطاعون الذي كان يجتاح البلاد في العديد من السنين، فكانت الأسرة تترك بغداد وتذهب الى ضواحي الأعظمية هرباً من الداء، ثم تبتعد شيئاً فشيئاً الى أعالي دجلة كلما جاءها «المكاري» الذي يجلب الطعام وسائر اللوازم كل يومين او ثلاثة أيام بأخبار اشتداد المرض وتزايد الوفيات وانتقال الوباء الى الأنحاء القريبة. كان أفراد الأسرة يقيمون في الدور والخيام بين البساتين أياماً وأسابيع، حتى اذا ما عادت الامور الصحية الى نصابها عادوا الى بغداد.

وأذكر، وانا طفل صغير، ولعلّ تلك كانت اولى الذكريات التي ترتسم في ذهن الطفولة، أننا في «قفّة» تدور بنا في النهر والمياه تحيط بنا من كل جانب الى مدّ البصر. وقد فهمت بعد زمن طويل ان بغداد غرقت في اواخر سنة ١٩١٤ حين انكسر السدّ المحيط بالطرف الجنوبي من المدينة فتدفقت مياه الفيضان واجتاحت جانب الرصافة. وقد انتقلت الاسرة في «قفّة» الى الكرخ واستأجرت داراً لبثت فيه أسابيع حتى انحسر الماء وزال الخطر.

وكانت والدتي امرأة طيبة هادئة عمرت طويلاً وتوفيت ببغداد في سنة ١٩٦٣ عن ٨٧ عاماً، وقد أنجبت خمس بنات وأربعة أبناء كنت ثانيهم. وكان والدها عالماً دينياً وقوراً، وهو الحاخام عزرا ساسون بن روبين بن موشي بن حييم بن موشي بن نسيم دنكور. وأسرة دنكور من الاسر البغدادية القديمة، نبغ منها في القرنين التاسع عشر والعشرين عدد من الحاخامين ورجال التجارة والاعمال. وقد تولى بعضهم رئاسة الحاخامين أمثال الحاخام الاكبر اليشاع نسيم دنكور «الحاخامباشي» في العقدين الأخيرين من القرن الماضي. وكان جدي الحاخام الاكبر عزرا دنكور رجل دين عصرياً، كثير التسامح، بعيد عن التعصب. وقد مضى الى الهند وأصبح رئيساً دينياً لليهود في رانغون، ثم عاد الى بغداد وأسس محلاً تجارياً لئلا يتكسب من وراء الدين. وأنشأ مطبعة عبرية عربية سنة ١٩٠٢، فكانت من أقدم المطابع في العراق ودامت أكثر من خمسين سنة بعد أن تعهدها ابنه الياهو دنكور. وانتخب جدي رئيساً للحاخامين سنة ١٩٢٣ فظل في منصبه أربع سنوات، ثم توفي سنة ١٩٣٠ عن ٨٢ عاماً. وأذكر، وانا صبي، اكتظاظ داره في أيام العيد بالمهنئين والزوار، وفي مقدمتهم عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء والقنصل الفرنسي وغيرهما. ولما قضى نحبه أقيمت له المآتم في أنحاء العراق وأبّنته الجرائد في بغداد والقدس الشريف ولندن. وقد جمعنا ما قيل في تأبينه في المحافل والصحف ورسائل التعزية في كتاب «ذكرى الحاخام عزرا دنكور» طبع في مطبعته باللغات العربية والعبرية والانكليزية سنة ١٩٣١.(٦)

مارس اخوالي التجارة، وذهب احدهم، موشي يهودا المعروف باسم موريس، قبل الحرب العالمية الاولى الى تركية. ثم تنقل بين ألمانية وانكلترة وكندة حتى استقر به المقام سنة ١٩٢٤ في شنغهاي من أعمال الصين حيث زوال التجارة والصيرفة. ثم احتل المدينة اليابانيون وتدهورت فيها الاعمال، فعاد الى بغداد سنة ١٩٤٦، ثم مضى الى لندن حيث أدركه الحمام سنة ١٩٦٢.

أذكر وانا طفل رجلاً يخدم في دارنا اسمه ابراهيم ابو خليل. والحقيقة انه لم يكن خادماً، بل كان شبه حارس او بواب ليس له أي عمل معيّن يجلس في اكثر الاحيان، وقد تقدمت به السن، في حجرة خصصت له في الطابق الأرضي ويقضي اوقاته صامتاً او يكلم نفسه بصوت مسموع ويأتي بحركات غريبة بيديه ووجهه.

قيل لي انه ذهب في شبابه الى الهند وأحب امرأة هناك حتى جنّ بغرامها. وعاد الى بغداد فكان يسير في

الطرقات كالمعتوه، فيجري خلفه الاولاد يسخرون منه، وهو يرفع يده ليضربهم فيهربون ليعودوا الى مضايقته. لم يكن خطراً، بل كانت ملامحه تدلّ على الحزن والبؤس وهو يهذي بذكر حبيبته القصية.

ومرّت جدّتي ذات يوم فرأته على تلك الحال من الزرايه، فلم يكن منها الا أن عطفت عليه ودعته الى الاقامة في دارنا حيث أمضى نحواً من أربعين سنة. ومرض في شيخوخته فنقله عمي الى دار لاحدى النساء منحها دراهم لخدمته والعناية به. قال لعمي حسقيل: «يا أبا يوسف، أتتركني أموت بعد كل هذه السنين؟» فأجابه: «حاشا، انك أصبحت فرداً من العائلة، وتؤمّن راحتك هنا اكثر من دارنا». وكان هو وافراد الأسرة يعودونه كل يوم ويأخذون له الطعام والفواكه، حتى أدركه الحمام بعد أمد غير طويل.

وقد ولد أخي البير بعد وفاته فسمّي باسمه «البير ابراهيم».

البيئة والنشأة

في تلك البيئة وفي ذلك الزمن ولدت ونشأت. وكان من حسن حظي أنني ترعرعت في عهد متفتح متسامح متطلع الى النهضة والثقافة، بين قوم متعاطفين متعاونين على تباين أديانهم ومذاهبهم ومنازعهم. وفي وسعي أن أقول ان أساتذتي واصدقائي وزملائي منذ عهد الصبا كانوا من اليهود والمسيحيين والمسلمين شيعتهم واهل سنّتهم، ولم أكد أشعر يوماً ما بأني طارىء عليهم، غريب عنهم. وقد كتب اليّ الصديق مصطفى علي الاديب الكبير (الذي أصبح فيما بعد وزير العدل في حكومة الثورة سنة ١٩٥٨) عند صدور كتابي «رجال وظلال» سنة ١٩٥٥ يقول:

«وفي كتابك ظاهرة حملتني قسراً على أن انتبه لها، ان كانت متعمدة مقصودة فجميلة، وان جاءت عفواً واتفاقاً فأجمل.

رأيت أن قد شارك في تأليف الكتاب وتكوينه أناس ينتحلون نحلاً مختلفة وينزعون الى معتقدات من شأنها أن تباعد بين معتنقيها وسواهم جمعتهم جامعة الادب في هذا السفر القيّم، غير آبهة لتلك الخلافات والفروق ولا عابئة بما لها من أثر في الحياة: فالمؤلف موسوي، وأصحاب المقدمات مسيحي ومسلمان كل منها ينتمي الى احدى الطائفتين. فكتابك عندي تباشير خير لتقارب الافكار ووحدة ابناء آدم... فالبشر بعد تاريخه الدامي وبعد ما شاد مدنيته هذه التي يفخر بها وأقامها على اسس من الهمجية تكدست فيها جماجمه وتجمعت اشلاؤه لا بدّ أن يثوب الى رشده ويرجع الى صوابه فيتدبر ويتفكر... ولا بدّ أن «يعقل» فيخلع عنه نير التقاليد ويتحرر من العادات فيتقارب ويتفاهم ويتحد.. ولا بدّ أن يدين بدين الانسانية ويقدّس الاخوّة البشرية، وهو سائر نحو هدفه وإن كان سيراً وئيداً. واذا ما سار فهو واصل لا محالة».

ذلك ما كتبه مصطفى علي الاديب المفكر الحرّ. ولا ريب ان اختيار كتاب المقدمات لكتابي «رجال وظلال» جاء عفواً، فكانوا رفائيل بطي (مسيحي) وعباس العزاوي (سنّي) والدكتور مصطفى جواد (شيعي) الذي قال في كلمته: «طلب اليّ صديقي... مؤلف هذه القصص والصور القلمية من «رجال وظلال» أن أقدم هذه الثمرة الادبية المباركة من ثمرات أدبه... فألفيت طلبه تحلّة لي لا تحلّة لأدبه الغنيّ عن التقديم...»

ذكريات الطفولة، يا لها من ذكريات وكأنها شريط سينمائي يمرّ في مخيّلة صاحبها. شريط يحلو حيناً ويمرّ أحياناً، يشتدّ ويضعف ويقوى. وانني لأظن حين أعرض ذكريات الصبا والشباب والكهولة انها انما سيرة شخص آخر عاش في هذه الدنيا، سعد وشقي وتعذب، ضحك وبكى، بسم للحياة آناً وكثيراً ما تألم لما فيه من مآسٍ وفواجع قريبة وبعيدة. تلك الذكريات جزء من أنفسنا، أحلام تراودنا ليلاً ونهاراً، تلوّن عيوننا بألوان الفجر والشفق، لولاها لم نكن ما نحن عليه من هيئة وتفكير.

مرضت وانا في الواحدة من سنّي مرضاً شديداً، لا اذكره بطبيعة الحال، ولكنني أتصوّره وكأنه حقيقة حسبما سمعته بعد ذلك من امي وجدّتي. لقد اشرفت على الهلاك، وكنت من الموت قاب قوسين او أدنى، فنقلت بناءً على اشارة الطبيب الى دار اخرى لبعض اقاربنا، قضيت فيها شهراً وبعض شهر في دور الشفاء والنقاهة. وكان هؤلاء الاقارب مثال اللطف والحنان، وأصبح ولدهم بمثابة الاخ الكبير العزيز لي الى يوم وفاته.

أول ما أذكره وانا طفل انتقالنا الى جانب الكرخ يوم غرق بغداد، ثم زواج شقيقتي، ولم يبق في بالي منه سوى الحلواني وعماله يصنعون الحلوى اللذيذة في دارنا لحفلة عقد القران. وأرى بعد ذلك خالي، وقد عاد من استانبول لزيارة بغداد وأهله زيارة قصيرة قبل سفرته الطويلة الى المغرب والمشرق، جاء يزورنا فهربت من لقائه خجلاً وغطّيت عينيّ باليدين... وحدثت سرقة في دارنا فأذكر الشرطي (الجندرمة) التركي الذي جاء الى دارنا للتحقيق...

وأذكر بعد ذلك ذهابي مع أخي الكبير صالح الى كتّاب المعلم ابراهيم القصير،(٧) وانا لم أتجاوز الرابعة، لأجل الدراسة، لكنني لم اداوم سوى أيام معدودة. أجلستني زوجة المعلم أمامها تعلمني حروف الابجدية، فقالت لي: قل «ألف».

ـ قل «ألف»

ـ لا تقل: قل، بل «ألف» فقط.

ـ لا تقل قل بل ألف فقط.

ـ لا، لا، قل «باء».

واستمر الدرس على هذا المنوال حتى يئست المرأة الفاضلة منّي، فعدت الى البيت ألازمه وألعب فيه حتى ادخلت الى المدرسة في السنة التالية.

دخل الجيش الانكليزي بغداد في آذار ١٩١٧، واذكر في صباح ذلك اليوم انني أطللت من النافذة فرأيت قوماً يتراكضون وقد حملوا ما نهبوه من الاسواق من مال ومتاع. ورفع بعضهم بصره الينا وقالوا: انتظروا، سنعود اليكم بعد أن نمضي بما نحمله! وكان الاتراك قد انسحبوا من المدينة في الليلة السابقة بعد ان اضرموا النار في السوق وفجّروا مخازن البارود والعتاد في الباب الوسطاني. وأشرف البريطانيون على البلدة من جهة ديالى صباحاً، لكنهم لم يدخلوها. وخرج اليهم فريق من الاشراف والتجار وأخبروهم بأن الترك قد اخلوا المدينة وان الامن قد اختلّ فيها. فأرسل القائد الانكليزي طليعة من القوات الهندية، ثم دخل الجنرال الفاتح السير ستانلي مود مع اركان حربه وجنوده قبيل الضحى من باب المعظم. ولم تظهر طلائع الجيش البريطاني حتى اسرع الناهبون ولاذوا بالفرار واختفوا في دورهم خوفاً من جيش الاحتلال.

وفي خريف تلك السنة حلّ شهر محرّم. ورغب الجنرال مود ان يشاهد المآتم الحسينية التي تقام في طرق بغداد، فرتّب ضباطه الأمر مع رؤساء فرق التعازي. ولما كانت المواكب تمرّ بالشارع العام الذي عرف فيما بعد بشارع الرشيد، تحرّى الضباط الانكليز المنازل المطلة على الشارع فوجدوا ان افضلها وأليقها دار صهرنا التاجر الياهو عبودي چويلة، وكانت داراً فسيحة ذات ثلاث طوابق ولها شرفة كبيرة مطلة على الشارع. واستأذنوا صاحب الدار في مجيء القائد وأركان حربه ليلاً ليشاهدوا مواكب التعزية وطلبوا منه أن لا يكون فيها احد سوى هو وأسرته والاقربون اليه على أن يأووا الى الطابق الثالث ويتركوا الطابقين الارضيين لضباط القائد وحراسه.

وكان كذلك. فقد جئنا الى الدار عصراً وصعدنا الى الطابق الاعلى. وفي المساء قدم الجنود البريطانيون فاحتلوا الدار والطريق المؤدي اليها واتخذوا ما رأوه من اجراءات الأمن. وقدم بعد ذلك القائد وكبار رجاله فجلسوا في شرفة الطابق الثاني. ولم يكن معهم سوى صهرنا الذي قام بواجب الضيافة.

ولم يكد الظلام يطبق على المدينة حتى بدت طلائع حملة المشاعل والفوانيس وسارت مواكب المحلات موكباً بعد موكب. فهؤلاء يضربون على الصدور ويرددون التعازي، وأولئك يضربون على رؤوسهم

بالخناجر فيسيل الدم على ثيابهم المصبوغة بالنيل الازرق. وكان المنظر مهيباً بقي عالقاً بمخيّلة الطفل الذي شاهده من الشرفة العالية. وكان كل موكب يصل امام الدار يقف دقائق معدودة ليؤدي طقوسه تحت انظار القائد البريطاني. واستمرّت المسيرة ساعات تبارى فيها اهالي الكاظمية وأحياء بغداد في اظهار تعلقهم بالامام الحسين والاعراب عن حزنهم لفاجعته الاليمة ــ ذلك الحزن الذي تواصل وتعاظم بعد مرور مئات السنين على مأساة شهيد كربلاء.

وبعد سنة واحدة اعلنت الهدنة واستبشر العالم بالسلام. وقد احتفلت القوات البريطانية بهذا الحادث السعيد فأقامت معالم الزينة على ضفاف دجلة والجسر الذي يتوسط البلدة الصغيرة آنذاك والمعروف باسم «جسر مود». واذكر اننا كنّا في دار خالي المطلة على النهر، فشاهدنا الاعلام والانوار مرتفعة على البواخر الراسية في دجلة وسمعنا فرقعة الالعاب النارية المطلقة في الهواء التي تنير السماء بألوانها القزحية الزاهية.

وكانت خاتمة ذكريات تلك الأيام الغابرة سفر اخي صالح الى مصر لاكمال دراسته. فقد ذهبنا لتوديعه الى الباخرة الراسية في رصيف دجلة التي نقلته الى البصرة.وركب من الثغر باخرة بحرية الى بمبي حيث امضى اياماً، ثم استقلّ باخرة اخرى الى بور سعيد بطريق عدن والبحر الاحمر، فوصل الى القاهرة بعد رحلة طالت اكثر من شهر، وكان ذلك في ربيع سنة ١٩٢١.

وفي صيف تلك السنة جاء الامير فيصل الى بغداد وقرّر المناداة به ملكاً على العراق في ٢٣ آب. وفي صباح ذلك اليوم قال لي ابن عمي صالح الذي جاء من استانبول في زيارة لبغداد بعد غياب نحو من عشرين سنة ونزل ضيفاً علينا، انه يأخذني معه الى السراي ــ لمشاهدة حفلة التتويج. خرجنا صباحاً من الدار وبلغنا سوق السّراي، فأدخلني الى خان ابي بعد ان اشترى لي كعكاً في الطريق وقال: اجلس هنا وانتظرني لاذهب وأرى ما يكون وارجع اليك. وغاب ساعة ثم عاد وقال: هناك ازدحام شديد ولم استطع رؤية شيء يذكر.

ذلك كل ما أذكره عن انشاء المملكة العراقية وعمري آنذاك نحو عشرة اعوام.

أيام الدراسة

في صيف سنة ١٩١٥ ادخلت كتّاب المعلم ابراهيم القصير، وكان من الكتاتيب المعتبرة مجاوراً لمدرسة «الأليانس» في حيّ التوراة، فلم أداوم فيه سوى برهة وجيزة ولم أتعلم فيه شيئاً يذكر. وفي خريف تلك السنة أدخلت مدرسة التعاون الابتدائية، وهي مدرسة حديثة أنشئت على أثر اعلان الدستور التركي، وكان مديرها شمعون افندي معلم نسيم من الاداريين الحازمين الذين لا يتساهلون في خرق النظام.

كان شديداً على التلاميذ كبيرهم وصغيرهم يرتجفون بين يديه ويخافون لسانه الهادر وعصاه الغليظة. كانت المدرسة تمثل حياته وتحقق كل آماله، يرعى تلامذته ويريد خيرهم، معتقداً ان الدرس اذا قرن بالنظام والاخلاق الحميدة والمثابرة يكون سبيل النجاح في المستقبل. وقد رسمت له صورة قلمية في فصل «معلم المدرسة» من كتابي «رجال وظلال».

كنت تلميذاً مجتهداً كثير الحياء، فكان يظهر لي المودة والتقدير. بقيت في تلك المدرسة سبع سنوات رسمت لي نهجاً قويماً في الحياة وسبكت صباي في قالب من الجدّ والرزانة. كان المدير يعلمنا هو نفسه الجغرافية والحساب ومبادىء العلوم، وأخوه يعقوب افندي يعلمنا العبرية والتوراة. أما العربية فكان يدرسنا اياها السيد جواد محمود (ابو هاشم جواد وزير الخارجية في عهد عبد الكريم قاسم)، وكان في بادىء أمره يلبس الجبّة والعمامة ويطلق لحيته. وجئنا ذات صباح فلم نعرفه لأنه حلق ذقنه وارتدى الزيّ العصري واعتمر السيدارة (وهي لباس الرأس الوطني الذي انتشر بعد مجيء الملك فيصل الأول). ودرسنا في الصفوف الأخيرة اللغة الانكليزية على يد المستر ماير، وهو تركي من سلانيك.

وفي صيف سنة ١٩٢٢ درستني اختي اللغة الفرنسية فالتحقت في خريف تلك السنة بمدرسة الأليانس. وكانت مدرسة راقية أسستها جمعية الاليانس الاسرائيلية الفرنسية سنة ١٨٦٤، ثم أنشأ لها المحسن العراقي الاصل السر البرت داود ساسون بناية حديثة. وقد اسست جمعية الاليانس مدرسة اخرى للبنات سنة ١٨٩٢، بلغ عدد طالباتها في حين من الاحيان نحواً من ألفين. وألحقت بها صفوف خاصة لتعليم الخياطة والتطريز. وتبرع المحسن السر اليعازر خضوري الذي غادر العراق صبياً وأصاب ثروة كبيرة في الشرق الأقصى ولندن ببناية لمدرسة البنات افتتحها الوالي جمال بك سنة ١٩١١.

كان عدد الطلاب في مدرسة الاليانس للبنين في عهد دراستي اكثر من ألف، وقد ضاقت البناية بصفوفها فأضيفت اليها عمارات تبرع بها مناحيم صالح دانيل وغيره من المحسنين. وكان اكثر طلابها من اليهود، لكن عدداً غير قليل من المسلمين والمسيحيين انتموا اليها في عهودها المختلفة، منهم توفيق السويدي رئيس الوزراء العراقية ويوسف رزق الله غنيمة(٨) وزير المالية وابراهيم الخضيري سفير العراق في باريس واللواء غازي الداغستاني معاون رئيس أركان الجيش وغيرهم. أما المدرسون فكانوا من مختلف الجنسيات والاديان ومن العراقيين والأجانب.

علمنا اللغة العربية وقواعدها في اول سنة انتمائي الى مدرسة الاليانس الشيخ محمد صالح السهروردي الذي اصبح فيما بعد مفتش الاوقاف العام. كان قصير القامة، شديداً على التلاميذ، يجول في الصف وفي يده عصا يضرب بها يميناً

ويساراً. وكان معلقاً على الجدار صور كبيرة للحيوانات المختلفة، فكان يسأل بعض التلامذة: هل هذا كلب او ذئب؟ فاذا أجاب التلميذ قائلاً: ذئب، ضربه على يده وقال: كلا، هو كلب... وكان أحياناً اذا اشتد صخب الصبيان، يصيح: والله لآخذكم الى الصباغ يصبغ جلدكم! والصباغ هو مسيو موريس صبّاغ معاون مدير المدرسة لشؤون الانضباط، وأصله من المغرب وقد أتم دراسته في مدرسة المعلمين في باريس. فقال احد التلامذة: وهل المسيو صباغ يصبغ الأحذية؟

ـ اسكت، اسكت!

كان صالح أخي يرسل لي من مصر بعض المجلات والكتب، فاقتبست منها معلومات ووضعت «كتاباً» بعنوان «تاريخ مصر الحديث» نسخته بخط جيد وقدّمته الى الشيخ السهروردي. فاستحسنه وأثنى على جهدي في «تأليفه» ثم رفعه أمام التلاميذ وقال: هذا زميلكم قد ألّف كتاباً في تاريخ مصر، وانتم لا تكادون تعرفون القراءة!...

وفي السنة التالية قام بتدريسنا العربية السيد محمود الوتري. وفي شهر كانون الثاني ١٩٢٤ زار مدرستنا الملك فيصل الاول يصحبه جعفر باشا العسكري رئيس الوزراء ووزير المعارف وعدد من كبار الموظفين والمرافقين. وقد استعدت المدرسة لاستقباله استقبالاً يليق بمقامه، وعهد الى بعض طلاب الصفوف العالية بتلاوة خطب الترحيب به، أما انا فاستدعاني السيد محمود وقال لي: سيزور المدرسة جلالة الملك ويتفقد الصفوف، فاحفظ قصيدة صفيّ الدين الحلي:

سل الرماح العوالي عن معالينا واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا؟

وصرت أتلو القصيدة أمامه كل يوم فيقول لي: انها قصيدة حماسية فلا تقرأها بهذه النبرة الواطئة، بل تحمّس وارفع صوتك، وحرّك يدك الى الاعلى وكأنك في صولة القتال. وفي اليوم المعهود دخل الملك الى صفنا فتلوت القصيدة بين يديه على الوجه الذي علّمنيه معلم العربية، حتى اذا ما بلغت قول الشاعر:

بيض صنائعنا، سود وقائعنا خضر مرابعنا، حمر مواضينا

ربّت الملك على كتفي وقال لي: أحسنت.

كانت دروسنا كثيرة بلغات أربع، فكنّا نداوم ٦ ساعات يومياً صباحاً وبعد الظهر ستة أيام في الاسبوع، ولا تبدأ العطلة السنوية عادة قبل حلول شهر آب وحرّه اللافح. وكانت اللغة الفرنسية تأخذ المحل الاول من دراستنا، فكنا ندرس بها اللغة وقواعدها وآدابها والتاريخ القديم وتاريخ فرنسة والجغرافية والفيزياء والكيمياء والحساب والرياضيات. ودرسنا في السنة الاخيرة الاقتصاد وعلم الاجتماع. وكان مدرسونا من خريجي مدرسة المعلمين في فرساي (قرب باريس)، وأصلهم من بلاد المغرب التابعة آنذاك لفرنسة. أما مدير المدرسة فكان حين التحقت بها المسيو باسّون. ثم خلفه في السنة التالية المسيو داود ساسون الايراني الأصل خرّيج باريس.

وأذكر ان وفداً امتحانياً قدم من باريس في احدى السنين فأشرف على امتحاننا باللغة الفرنسية والتاريخ والادب الفرنسي. وقد أجبت على كل الاسئلة بدقة استحسنها عضوا الوفد، ثم قال لي احدهما: انك تستحق أعلى درجة، ولكننا لا نعطي أحداً أكثر من ٩٫٥. فاذا شئت الدرجة الكاملة، وهي ١٠، فلا بدّ ان تجيب على سؤال خارج المنهاج. قلت: لا بأس. فقال لي: كلنا نعلم ان الملك لويس السادس عشر اوفد كبير أمنائه في بدء عهد الثورة

الفرنسية الكبرى الى المجلس الوطني آمراً بفضه، فردّ عليه الخطيب ميرابو بكلمته المأثورة: نحن هنا بارادة الشعب ولن نخرج الا بقوة الحراب! فما اسم كبير امناء الملك؟ قلت: كان اسمه المركيز دي درو بريزة Marquis de Dreux Brezé (وكنت قد قرأت اسمه في بعض الكتب التاريخية المفصلة). فالتفت الممتحن الى صاحبه وقال: هل اسمه هذا صحيح؟ فأجابه: انا مثلك لا أذكر اسمه. ولم يكن لهما بدّ من منحي الدرجة الكاملة.

ودرسنا العربية في الصفوف العالية، مع عناية بالتاريخ والادب، الشيخ عبد العزيز الشواف الذي كان يدرس في مدرسة الحقوق وأصبح فيما بعد قاضي بغداد، وكان رجلاً مهيباً محترماً حريصاً على اللغة وقواعدها. ثم خلفه لفترة قصيرة توفيق السمعاني الذي اصدر في الثلاثينات جريدة الزمان وكان من ألمع الصحفيين. ولا بدّ من ذكر الاستاذ محمد الفراتي شاعر دير الزور الذي اشترك في الثورة السورية سنة ١٩٢٥، ثم جاء الى بغداد هارباً من نقمة الفرنسيين فاحتضنته المدرسة الفرنسية وكلفته بالتدريس فيها. وكان كثيراً ما يحضره شيطان الوحي وهو يدرسنا في الصف، فيطلب الينا ان نلازم السكون بينما هو ينظم الشعر، حتى اذا ما فرغ من نظمه قرأ علينا الابيات وفسّر لنا معانيها. وقد نظمت أبياتاً عرضتها عليه فاستحسنها وشجعني على قرض الشعر، لكنه قال ان تلك الابيات مختلّة الوزن وأشار عليّ بدراسة العروض. وقد مضى بعد ذلك الى البحرين للتدريس، فلما عاد بعد سنوات ماراً ببغداد علمت بقدومه فزرته مع لفيف من الطلاب في الفندق وتذكرنا أيامه الماضية في مدرستنا التي احتفظ لها في نفسه أطيب الذكرى.

وكان آخر مدرسي العربية الاديب اللبناني بديع مالك، وكان شاباً عصرياً مطلعاً على الآداب الحديثة ومعجباً بوجه خاص بأدباء لبنان والمهجر.

درسنا الى جانب التوراة والديانة الموسوية اللغة العبرية الحديثة على الاستاذ اسحق بونفيس، وهو تركي الاصل من استانبول ضليع بتلك اللغة وآدابها كما كان متضلعاً من اللغة الفرنسية والثقافة العامة. وكان يمتلك مكتبة عبرية من مطبوعات بولندة وروسية وفلسطين. كان يخصني برعاية خاصة ويعيرني كتبه، وبذلك هيء لي الاطلاع على الآداب العبرية في عهد النهضة الحديثة. قرأت روايات ابراهام مابو الوجدانية الرقيقة، وشعر ليبنسون وغوردن وبيالك وتشرنخوفسكي ومقالات احاد هعام الفلسفية(٩). واطلعت ايضاً على الشعر الاندلسي الجميل الذيساير الشعر العربي الاندلسي وضاهاه في عصوره الزاهرة، وحملة لوائه ابن جبيرول وابن عزرا وابو الحسن اللاوي (يهودا هليفي) وغيرهم. وقد نظمت الشعر بالعبرية حيناً كما نظمته بالفرنسية، لكنني انصرفت عنهما بعد ذلك الى الشعر العربي.

وأهديت الى الحاخامخانة دائرة المعارف العبرية (اوصار يسرائيل) المطبوعة سنة ١٩٠٦ في عشرة أجزاء، فأخذتها من جدي الحاخام عزرا دنكور واحداً فواحداً وطالعتها ونقلت عنها بحوثاً كثيرة تتعلق بالتاريخ وتراجم الأشخاص.

ولا بدّ لي ان أذكر أخيراً دروسنا الانكليزية، وقد درّسنا اياها مدرسون مختلفون أبرزهم المستر جورج عوبديا. علمنا اللغة وقواعدها وتاريخ انكلترة، وكان يتشدد مع الطلاب بالتحدث بالانكليزية في صفّه دون العربية او غيرها. وكان يقول: سيأتي يوم تقولون آسفين: درّسنا المستر عوبديا الانكليزية فلم نحسن الاستفادة من دروسه!

كان في المدرسة مكتبة عامرة بالكتب الفرنسية والعربية والانكليزية. وكنت منذ حداثة سني نهماً ولوعاً بالمطالعة، فتعرفت آنذاك الى أساطين الادب العالمي: موليير وراسين وكورناي ورابليه وفولتير وروسو، ثم لامارتين

وفكتور هوغو والفرد دي فنيي وسائر الشعراء والروائيين الذين جعلوا اللغة الفرنسية لغة العلم والآداب. وشغفت بأناتول فرانس الروائي الساحر الذي فتح لناظريّ عالماً ساطعاً من الآثار والافكار، وبيير لوتي ذي القلم الساحر الذي يأخذ قارئه الى أراضٍ بعيدة في الشرق والغرب وبحار لا نهاية لها تفيض بالحبّ والعواصف الوجدانية. وماذا عن فلاماريون ورحلاته الفلكية في مرمى الكواكب والنجوم، وجول فيرن وسياحاته العجيبة في الفضاء وباطن الأرض ولجّة البحر. وماذا عن شكسبير وبيرون وشيلي و هـ. ج. ويلز وبرنارد شو؟

ثم الادب العربي الحيّ من الجاهلية الى عصر النهضة الحديثة. وقد أعجبت بوجه خاص بأبي فراس الحمداني والمتنبي والبارودي واسماعيل صبري وشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي ونقولا فياض... أية لذة روحية في تلاوة الشعر وتلاوة اسفار الحكمة والقصص! لم يكن اولئك في عرفي أدباء خالدين، بل رأيت فيهم اساتذة واصدقاء، وتمثلتهم أحياء استمع اليهم وأحاورهم وأستمد منهم المعرفة، أذهب معهم في رحلات سحرية تمتد عبر التاريخ وتنتهي في أكوان لم تشاهدها عين بشرية.

وقد أولعت بتراجم الاشخاص منذ نعومة اظفاري. كان لدينا معجم «لاروس» الشهير وفيه، الى جانب القسم اللغوي، تراجم مختصرة للقدماء والمحدثين، ثم وجدت ضالّتي في المكتبة العامة التي كنت أزورها في كثير من الامسيات: أشهر مشاهير الشرق وتاريخ الآداب العربية لجرجي زيدان، دائرة معارف البستاني، المجلدات الكاملة للمجلات الشهيرة كالمقتطف والهلال ولغة العرب والمشرق، ودائرة المعارف البريطانية، ودواوين الشعراء العراقيين والمصريين والسوريين وغيرهم... أية ثروة باذخة في متناول اليد، حسبك أن تأخذ ما تشاء منها بلا حساب وتتمتع وتأنس وتستفيد. نقلت عن تلك الكتب والصحف عدة دفاتر بقيت مرجعاً لي على مرّ السنين.

لم تعن المدرسة كثيراً بالالعاب والرياضة البدنية، ولعلّ سبب ذلك كثرة الدروس وقلة الوقت. لكنها كانت تنظم لنا بين الحين والحين رحلات ممتعة الى ضواحي بغداد وزيارات لدور السينما لمشاهدة الافلام العالمية والثقافية. كنا ننهض صباحاً في بعض الأيام الشامسة المعتدلة الهواء، حاملين زادنا معنا، فنجد السيارات الكبيرة في انتظارنا لتقلّنا مع معلمينا الى ظاهر البلد. نجلس في ظل الاشجار الباسقة او على ضفاف النهر او بين البساتين التي تخترقها الجداول الرقراقة ويعطر جوّها شذا الازهار والياسمين، فنتحدث ونلعب ونجري في سباق لاهث الى المساء.

وفي سنة ١٩٢٥ اصدرت صحيفة مدرسية باسم «العالم المصور» كنت اخطها بيدي وأنسخ بضع نسخ منها لتوزيعها على اصدقائي من الطلاب. وضعت على ما أذكر عدة أعداد منها تضمنت اخباراً مقتبسة من الصحف وبعض الشذرات المترجمة. وشكلت فرقة تمثيلية صغيرة اشترك فيها أقاربنا فمثلنا رواية مردخاي وهامان وبعض المسرحيات الاخرى المقتبسة عن كتاب أعارني اياه معلمنا اسحق بونفيس.

وزار بغداد في تلك الآونة السر اليعازر خضوري وولداه والسر داود عزرا (بحر) وعقيلته فاحتفت بهم مدرستنا. وأعدّ لي بونفيس خطاب ترحيب بالغة العبرية ألقيته بين أيديهم. وان ذكرى تلك الأيام البريئة السعيدة لتترك في قرارة النفس حلاوة ولا حلاوة العسل على الشفاه.

في تموز ١٩٢٥ افتتح اول مجلس للأمة فدعيت مدرستنا مع بعض المدارس الاخرى للاصطفاف مع الشرطة والجنود في طريق الموكب الملكي. اصطففنا في حرّ الضحى اللافح على الرصيف ومرّ أمامنا النواب في العربات او على الاقدام، وكانت السيارات قليلة العدد في تلك الأيام.

وكان ابن عمي وسميّي مير الذي يكبرني بعشر سنين يحسن الضرب على العود والكمنجة وله صوت جميل.. وكان له اصدقاء كثيرون من السوريين واللبنانيين الذين يعملون في بغداد. واذكر انه كان يصطحبني في ليالي الصيف المقمرة لنزهة في القارب على نهر دجلة، ومعنا الدكتور عبد العزيز الكنفاني او سواه، فيرتفع صوت الموسيقى والغناء منسجماً مع ضربات المجذاف. ونعود بعد ساعات بعد أكلة لذيذة من السمك «المسقوف».

وفاة ابي

رأيت الموت وجهاً لوجه اول مرة وانا في السادسة عشرة من عمري. مرض أبي ولازم الفراش شهوراً، وكان الطبيب يعوده بين الحين والحين فلا يستطيع له شفاء. وفي مساء الثاني من كانون الاول ١٩٢٧ عدت الى الدار متأخراً فوجدت الوجوم يسود الوجوه، علمت ان النهاية قريبة، فصليت في صمت وسألت الله أن يشفي مريضنا العزيز وان لا يهدم عشّنا الوادع.

وفي منتصف الليل قضي الأمر ولفظ ابي انفاسه الاخيرة. وفي صباح الجمعة قمت من فراشي وأنا كالمصاب بالدوار لا أعي ما حواليّ. كان أخي الكبير يدرس الحقوق في مصر، وأخواي صغيران، فأخذ عمّي بيدي ومزّق طرف قميصي اشارة الحزن والأسى على العادة السائدة منذ دهور. سرنا وراء النعش في الطريق الى المقبرة الواقعة في ظاهر المدينة، وسارت وراءنا جموع كثيرة تشيع الراحل الى مقرّه الأبدي. كان المطر يتساقط رذاذاً، وانا أمشي كما يمشي النائم في حلمه، وترنّ في أذني أصداء المزامير التي يرتلها المشيعون بصوت خافت ونبرة حزينة، وكأنها أصوات آتية من عالم بعيد. تلوت تلك المزامير بعد ذلك مراراً عديدة. هل عزفها داود على مزهره، ام رددها اللاويون في بيت المقدس الذي شيده سليمان؟ هي مزامير عذبة تتجاوب مع خلجات النفس وتتضارب مع دقات القلوب. منها الهادىء والصاخب، والمفرح والحزين، صلوات روحانية تسمو بالانسان الواهن وترفعه الى أعلى علّيين. أما تلك التي تتعلق بالموت فتشيد بقوة الباري ورحمته وتفتح أبواب الآخرة للمؤمنين، تضيء ظلمة القبر وتسكب في الروح بلسم الجنان وترفّ في الوجه رفيق نسائم الخلود.

عقد مجلس العزاء سبعة أيام وأقيمت الصلاة صباحاً ومساء. أوقدت الشموع في الغرفة التي خلت من ربّها، وجلس قبالتها شيخ يرتل فصول سفر «الزوهر» (السناء) بصوت شجيّ. ذلك سفر التصوف الذي كتب بلغة آرامية قديمة يذكر الصفات الربانية ويفسر الحياة والموت.

ان تلك التلاوة وحدها كافية لتثير الرهبة في النفوس وتجسّم الموت في سلطانه المخيف الهائل. يا الله! عرفت الموت في الأدب الغربي شبحاً حزيناً لطيفاً كرحلة هادئة الى ما وراء الستار، وعرفته في الواقع عملاقاً أسود رهيباً ينشر ظله على الأحياء. لقد خففت تلك المراسيم المؤسية بمرور الزمن، لكنها ظلت في ذهني مرهقة كالكابوس، حالكة كظلام الليل.

كنت أمضي الى المقبرة القديمة في فجر كل جمعة لأقرأ صلاة الموتى حتى ختام السنة. وكانت المقبرة آنذاك يفصلها عن أحياء السكنى أرض خلاء أقطعها وانا واجف؛ وضياء الصبح لم يكد ينشر أشعته على مدينة الاموات الهاجعة. ولكم ترددت الى تلك المقبرة على مرّ السنين حتى اتصلت بالبلدة وأحاطت بها الدور والدكاكين والمعامل. وبعد اعوام طويلة استولى عليها عبد الكريم قاسم لينشيء عليها برج بغداد، بعد أن قرّر الخبراء الروس ان

تلك البقعة تصلح ليقام عليها النصب الذي يطاول برج القاهرة الذي شيده جمال عبد الناصر. لم يمهل الزعيم الطائفة اليهودية سوى أسابيع قليلة لنقل عظام موتاها من هذه الارض التي ضمت رفات آلاف الالوف منذ مئات السنين. ولكن الدهر لم يمهله هو ايضاً لاقامة البرج الذي حلم به، فبقيت تلك الارض عفاء تنعى الاحياء والاموات.

اثرت وفاة أبي في نفسي تأثيراً عظيماً. وقد رثيته بعد اسبوع واحد بشعر منثور حزين على طريقة جبران وأمين الريحاني. تخيلت يتيماً صغيراً يجثو عند جثة أبيه، ودموعه جارية على خده، يسأله لم لا يشفق على ولده الصغير كما كان يفعل؟... وأخيراً ترفرف روح أبيه في الغرفة المظلمة فتدعوه اليها. ودفنوا الاثنين في قبر واحد.

بيد أني رثيت والدي بعد خمسين عاماً، وانا في لندن، بقصيدة مطلعها:(١٠)

خمسون عاماً قد مضت، والهفتي! — تلك الحياة تشتتت وتولّتِ
وتغيّرت للدهر كلّ معالم، — وسناء وجهك لا يبارح مقلتي
لم يمحه كرّ السنين ولا الجوى — ومدار عمري في الونى والبهجة...
حتى قلت:

علّمتني الإيمان فهو محبّة — وتعاطف وتجمّل في الشدّة
علمتني معنى التسامح، كُلّنا — بَشَرٌ وليس لأيّنا من عصمة
علمتني ان الحياة معارك — بالصدق تُغْلَبُ أصبحتْ او أمستِ
علمتني ان الحياة مسالك — قد مهّدت للسائر المتثبّت
علمتني أن التطرف آفة — والشرّ يفتك كالحسام المصلت
علمتني أن الكلام قليله — يغني عن اللغو الطويل المسكت
علمتني أن الضعيف بصبره — وأناته أقوى من المتعنّت
فيرى القويّ المعتدي يندكّ في — طغيانه كالجحفل المتفتّت
والظلم كالثلج المكدّس ذائب — في الشمس تفري غاشيات الظلمة
لم تغبط المثرين في أقسامهم، — إنّ الحظوظ تفننت وتجنّتِ
والمال غادٍ في الأنام ورائح، — لكنّ حرّ النفس سامي المنبت
وكرامة الرجل الشريف مجنّه — في الحادثات اذا النوائب أصمت
تلك السجايا قد عقدت لواءها — للوارثين اذا الفضائل أغنت...
مهلاً، أبي، فلنا لقاء قادم — في كنف ربّ مستفيض الرحمة!

وزارة الخارجية

تخرجت في مدرسة الأليانس في صيف سنة ١٩٢٨. وقد عاد اخي صالح من مصر ووظف في وزارة المالية. أما أنا فرغبت في العمل، فأخذني صهرنا التاجر الياهو چويله الى مدير البنك الانكليزي الذي يتعامل معه لتوظيفي لديه. دخلنا على المدير، فسألني عن دراستي ومعلوماتي فلم أحر جواباً. وكان شيئاً اذ انني نسيت في حضرته كل ما أعرفه من اللغة الانكليزية. فقال المدير: كيف أوظفه في البنك وهو لا يعرف الانكليزية؟

ثم قرأت اعلاناً في الصحف عن طلب ثلاثة موظفين لوزارة الخارجية التي استحدثت آنذاك، وكانت تابعة لرئاسة الوزراء، فتقدمت الى الامتحان الذي اشترك فيه اكثر من ثمانين شاباً. وتأخر اعلان النتائج، ثم تسلمت أمر التعيين موشحاً بتوقيع عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء ووزير الخارجية. وتسلمت وظيفتي كاتباً اول في وزارة الخارجية في ١٣ تشرين الاول ١٩٢٨. وقد فهمت بعدئذٍ ان لجنة الامتحان تلكأت في اختيار الموظفين. ولما سأل الوزير عن سبب التأخير قيل له ان الفائزين يهوديان ومسلم شيعيّ. فقال: وهل الوظائف المطلوبة لأوقاف المسلمين؟

ـ كلا، بل لوزارة الخارجية.

ـ اذن عينوا الفائزين حسب درجاتهم.

وهكذا عينت كاتباً اول، وعيّن يوسف الأزري كاتباً للاوراق وسليم زعرور كاتباً للآلة الطابعة.

كانت تشكيلات الوزارة محدودة: يتولى رئيس الوزراء شؤون الخارجية علاوة على منصبه. وكان سكرتير الوزارة كامل الكيلاني شقيق رشيد عالي ووزير العراق المفوض في أنقرة خلال ايام الحرب العالمية الثانية، وقد مضى بعد اخفاق حركة أخيه في ايار ١٩٤١ الى المانية وظل فيها الى نهاية الحرب. وكان مدير التشريفات حسين أفنان، وكان رجلاً عالماً فاضلاً جاء الى العراق في اعقاب الحرب العالمية الاولى وأصدر جريدة الشرق، ثم أصبح اول سكرتير لمجلس الوزراء عند تأليف الحكومة الوطنية. كان حسين أفنان سبط عباس عبد البهاء، وقد رشح لرئاسة البهائيين بعد وفاة جده سنة ١٩٢١، لكن الرئاسة آلت الى ابن خالته شوقي افندي الرّباني.

كان للعراق مفوضيتان في لندن وأنقرة، ثم أسست مفوضية ثالثة في طهران وقنصليات في ايران ومصر وبيروت. واتسعت تشكيلات ديوان الوزارة تدريجياً كما اتسع تمثيل العراق الخارجي. وفي سنة ١٩٣٠ عين الدكتور عبد الله الدملوجي اول وزير مستقل للخارجية.

شعرت، وانا أداوم في وظيفتي لأول مرة وعمري لا يتجاوز السابعة عشرة، كأنني لا أزال طالباً في مقاعد الدراسة. ولم تمر ايام قليلة على تعييني حتى استدعاني كامل الكيلاني وقال لي ان عبد المحسن السعدون يريد أن يراني. فأخذني قاسم فراش رئاسة الوزراء، وكان حاجباً قديماً في دائرة ولاية بغداد على العهد التركي، وأدخلني على الرئيس، وانا متهيّب، بعد أن أفهمني بضرورة اعتمار سيدارتي وتزرير سترتي ورفع يدي بالتحية عند الدخول بكل احترام.

لاطفني السعدون وسألني عن دراستي وعملي وتمنى لي النجاح، وخرجت من لدنه مغتبطاً. وقد رأيته بعد ذلك مراراً في

الوزارة ومجلس النواب، لكن لم تمض سنة واحدة حتى انتحر، فكنت في جملة الموظفين الذي وقفوا يؤدون مراسم التشريفات عند تشييع جنازته واقامة الفاتحة على روحه. لا أنسى أبداً ذلك الرجل الوقور الذي جمع الزعامة العشائرية الى الطلاقة المدنية. نشأ في بيئة قبيلته السعدونية ومضى صبياً الى استانبول، لتخرج في مدرسة السياسة الحميدية ودواوين تركية الفتاة، حتى اذا ما عاد الى وطنه العراق، وقد نال استقلاله، لعب دوراً رئيسياً في تطوره السياسي وبناء أركان دولته. كان رجلاً انسانياً بعيداً عن التعصب والتطرف. وفي الشهر الذي عينني في ديوان وزارة الخارجية أقام في داره حفلة اليوبيل لامام اللغة الاب أنستاس ماري الكرملي بعد ان دعا المتعنتون الى الغاء الاحتفال وضجوا بشجبه واستنكاره.

مضت الأيام وتمرّست بالاشغال الحكومية والمراسلات الرسمية. ولم يلبث كامل الكيلاني سكرتير الوزارة أن عهد اليّ بمعظم أعماله، ومنها الترجمة والاتصال بالوزارات والدوائر والنظر في معاملات الموظفين والاشراف على شؤون الاوراق والمحاسبة وهلم جراً. كان رجلاً ارستقراطياً طيباً يقدر حرصي على انجاز العمل واتقانه. وقد استدعاني يوماً وطلب مني اعداد لائحة ميزانية الوزارة في ضوء التوسعات المزمع اجراؤها في الديوان والممثليات السياسية والقنصلية في الخارج. وسألني أن اعتني بكتابة الاسباب الموجبة التي تقدم الى وزارة المالية. وكنت لا أزال غراً أنمق المكاتبات الرسمية بالعبارات الفصحى والكلمات الضخمة. وكتبت فيما كتبت من الاسباب الموجبة عبارة «بين الفينة والفينة». فقال لي الكيلاني: ما معنى بين الفينة والفينة؟ ألا تعلم ان الفينة (الطربوش) قد اندثرت مع العهد التركي البائد؟ فقلت: عفواً، بين الفينة والفينة تعني «بين الحين والحين». فضحك وقال لي: جانم، اكتب عربي!

كانت الفرنسية أنذاك لغة الدبلوماسية الدولية، ولم يكن في العربية أي كتاب يرجع اليه في الموضوع. ولذلك اهتممت بطلب الكتب المعتمدة في الدبلوماسية بالانكليزية والفرنسية، وفي مقدمتها كتاب السر ارنست ساتو Sir Ernest Satow الذي كان يعدّ أثبت المراجع في هذا الشأن. وقد درست هذه الكتب ووضعت مسودات باللغة الفرنسية للوثائق الدبلوماسية المألوفة، ككتب اعتماد السفراء والوزراء المفوضين واستدعائهم، والبراءات القنصلية (اكسكواتور)، ونماذج الخطب التي تلقى عند تقديم اوراق الاعتماد، وأصول المراسيم والتشريفات الخ. وألفت بعد ذلك لجنة لوضع لائحة الامتيازات القنصلية برئاسة نصرت الفارسي رئيس ديوان التدوين القانوني وعضوية مدير التجارة بوزارة المالية مصطفى سعدي صالح، وكنت ممثلاً لوزارة الخارجية فيها.

وتعاقب على وزارة الخارجية رؤساء الوزارة توفيق السويدي فعبد المحسن السعدون ثانية فناجي السويدي. ونقل كامل الكيلاني الى السلك القنصلي في شباط ١٩٣٠ فقمت حيناً بأعمال سكرتير الوزارة حتى تعيين احمد توفيق صالح ملاحظاً للوزارة. ثم استحدثت مديرية عامة للوزارة بدلاً من السكرتيرية وعين عبد العزيز المظفر مديراً عاماً. والمظفر من ألمع الموظفين وأذكاهم، ولعلّ ذكاءه الشديد قد جنى عليه فلم يحصل على منصب الوزارة. كان يحسن العديد من اللغات، ومنها الانكليزية والفرنسية والألمانية والتركية. وكان لولب نشاط لا يستطيع أن يجلس الى مكتبه اكثر من دقائق معدودة، فيتنقل بين غرف الدائرة ويعمل ويتكلم بلا انقطاع، طالباً من موظفيه أن يبدوا نشاط مماثلاً في عملهم. رأيته يطبع خطاباً بالالمانية موجهاً الى القنصل الالماني على الطابعة بنفسه دون مسوّدة، ثم يسجله في سجل الصادرة ويعطيه الى الفراش لايصاله الى مخاطبه. وقد استفدت منه، والحق يقال، فوائد كبيرة ومعلومات جمة في اللغات وأصول الدوائر. ومع انه نقل بعد اشهر قليلة الى مديرية الداخلية العامة فقد خصني بصداقته التي اتصلت اكثر من خمسين سنة، لا سيما بعد أن جئت الى لندن حيث استقرّ منذ سنة ١٩٥٦.

كان أهم حدث في سنة ١٩٣٠ عقد المعاهد العراقية البريطانية التي حققت دخول العراق الى عصبة الامم بعد سنتين. وقد قمنا، عبد العزيز المظفر وانا، بمقابلة النصين العربي والانكليزي فوجدنا اختلافاً يسيراً في بعض العبارات وأخبرنا نوري السعيد رئيس الوزراء ووزير الخارجية بالأمر. فكلفني بتدقيق النصين مع يوسف سلامة المترجم الاول لدار الاعتماد وتعديل التباين في النص العربي. جاءني يوسف سلامة الى الوزارة وقمنا بما يجب قبل عرض المعاهدة على مجلس الامة.

ثم عين الدكتور عبد الله الدملوجي اول وزير مستقل عن رئاسة الوزراء للشؤون الخارجية. وعلى أثر ذلك رفعت ملاحظاً للوزارة في اول كانون الثاني ١٩٣١. وقمت في تلك السنة بأعمال مدير الخارجية العام ومدير التشريفات. وأسندت المديرية العامة الى موفق الألوسي الرجل النبيل خرّيج السوربون، لكنه اوفد عضواً بالوفد العراقي الى شرق الاردن ومصر والمملكة العربية السعودية واليمن لعقد معاهدات صداقة وحسن جوار واسترداد المجرمين، فتوليت وكالة المديرية العامة. وعاد موفق الألوسي بعد عدة أسابيع وجاء الى ديوان الوزارة فوجدني جالساً في مكتبه. رحبت به وأخليت له الكرسي، لكنه رفض وأصرّ عليّ أن أبقى في مكاني، وقال: أنا اليوم ضيفك، وغداً صباحاً أستعيد هذا الكرسي منك.

نقل الألوسي بعد ذلك من وزارة الخارجية ليكون عميداً لكلية الحقوق وخلفه الدكتور حنّا خياط مدير الصحة العام ووزير الصحة سابقاً. وتولى وزارة الخارجية جعفر باشا العسكري مع وزارة الدفاع. واتسعت أعمال الوزارة باستحداث مفوضيات وقنصليات أجنبية جديدة في بغداد وتوسيع التمثيل العراقي في الخارج واستعداد الدولة للانتماء الى العصبة الامية بعد تصديق معاهدة سنة ١٩٣٠.

كنّا في هذه الحقبة نعمل عشر ساعات او اكثر يومياً. ففي الصيف يداوم جعفر باشا في وزارة الدفاع، فآخذ المراسلات والاوراق يحملها معي الفراش الى تلك الوزارة بعربة او سيارة الدكتور خياط وأدخل بها على الوزير لينظر فيها ويوقعها. أما في الشتاء فكنّا نعود الى الوزارة مساء فنلبث فيها الى ساعة متأخرة من الليل لانجاز أعمالنا. كان الوزير يجلس الى مكتبه وانا أجلس قبالته فأقدم اليه الاوراق شيئاً فشيئاً ليوقعها ويصدر أوامره بشأنها. وكان لطيفاً حسن الدعابة فيقول لي: هل قرأت هذه الرسالة جيداً؟ فأجيب: نعم، يا باشا. فيضحك ويقول: اذا ظهر فيها خطأ فانني أشنقك! ويوقع بدون قراءة.

وحدث مرة ان المدفئة التي في جانبي التهبت وهو مشغول بمطالعة المخابرات، فلم يكن مني الا أن قمت ودققت الجرس لادعو الفراش ليطفئها. فرفع رأسه وسألني: ما الخبر؟ فلما رأى المدفئة تلتهب وتوشك ان تحدث حريقاً، قفز من كرسيّه وأطفأ النار وقال: ما أبرد دمك، يا ولدي. تدعو الفراش بينما تستطيع اطفاء النار بلحظة واحدة؟

واستدعاني يوماً ما وقال: متى كان ترفيعك الاخير؟ قلت: قبل نحو من سنة. فقال: سيصدر بعد أيام قانون جديد يشترط مرور ثلاث سنوات لترفيع الموظف الى درجة اعلى، فبادر واصدر أمراً بترفيعك وجئني به لأوقعه قبل فوات الأوان.

ففعلت كما أمر شاكراً ووقع الأمر، لكن وزارة المالية اعترضت عليه. فكتب الى الوزارة بتوقيعه كتاباً مرقماً ٣١٠ ومؤرخاً في ١٣ كانون الثاني ١٩٣٢ يذكر أهمية وزارة الخارجية وعدم جواز معاملتها كسائر دوائر الحكومة لتزايد أشغالها وعدم بلوغها مستواها الطبيعي. ثم قال:

«لقد جاء في كتابكم المجاب عليه ان شاغل هذه الوظيفة لم يكمّل في درجته الحالية خدمة ثلاث سنوات وفقاً

لأحكام قانون الخدمة المدنية. فنودّ أن نلاحظ أننا اقترحنا تعديل درجته بكتابنا المرقم ٦٤٧٦ والمؤرخ في ١٩ كانون الاول ١٩٣١ أي قبل صدور القانون المذكور ووضع أحكامه موضع التنفيذ. واذا كانت هذه الوزارة قد أصرّت على ترفيعه فذلك لأن الواجبات الملقاة على عاتقه جسيمة لا تتناسب مع درجته الحالية ولأنه يقوم للوزارة بخدمات جليلة يستحق عليها كل تقدير وتشجيع. وهو ما زال يقوم بمهام وظيفته منذ تعيينه لها بكل نشاط وهمة فضلاً عن اضطلاعه مراراً بمهام وظائف هذه الوزارة المختلفة بالوكالة وقيامه بها خير قيام، منها قيامه بأعمال سكرتير وزارة الخارجية بالوكالة في كانون الثاني ١٩٣٠ ونهوضه بأعباء المديرية العامة للشؤون الخارجية في ثلاث فترات مختلفة بقيت الوزارة فيها بدون مدير عام، في المرة الاولى من تشرين الاول ١٩٣٠ الى شباط ١٩٣١، والثانية من آذار الى اوائل حزيران ١٩٣١، والثالثة من أول تموز الى تشرين الاول ١٩٣١. وقد قام عدا ذلك بوكالة مديرية التشريفات في هذه الوزارة مدة ثلاثة أشهر في الصيف الماضي أثناء غياب مدير التشريفات بالاجازة...»

وفي ايار ١٩٣٢ كتب جعفر العسكري الى ديوان مجلس الوزراء بمنحي وسام الرافدين من الدرجة الخامسة «تقديراً لخدماته ومكافأة الجهود التي يبذلها في أداء واجباته». وقد صدر قرار مجلس الوزراء بذلك، لكن الديوان الملكي امتنع عن اصدار الارادة الملكية بذلك.

وفي نفس ذلك الشهر قدم بغداد شاعر الهند الكبير رابندراناث طاغور بدعوة من الملك فيصل، فألفت لجنة لاستقباله في خانقين، اذ كان قادماً بالقطار من طهران، برئاسة شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي. وألفت لجنة رسمية برئاسة ممثل وزارة الخارجية لاستقباله في بغداد، وكان المقرر ان يقوم بتلك المهمة توفيق السعدون مدير التشريفات. ومن غرائب القدر ان توفيق بك احتسب بولده خالد في نفس يوم وصول الشاعر الهندي، فكلفت برئاسة اللجنة في محله، ورافقت طاغور أيام مكوثه في بغداد.

في تشرين الاول ١٩٣٢ أعلن قبول العراق عضواً في عصبة الامم، فأصبح اول دولة منتدب عليها قد أحرزت استقلالها وتبوأت مكانتها بين الدول العالمية. وعلى أثر ذلك أصبح المندوب السامي البريطاني السر فرنسيس همفريز سفيراً بريطانياً معتمداً لدى الحكومة العراقية، فقدم اوراق اعتماده الى الملك فيصل. واستقال نوري السعيد رئيس الوزراء فألفت وزارة موظفين برئاسة ناجي شوكت، وعهد بمنصب وزير الخارجية الى عبد القادر رشيد، وهو من الوزراء المثقفين الممتازين بأخلاقهم العالية وثقافتهم العصرية. وقد ترك بعد ذلك خدمة الحكومة ووظف في شركة النفط العراقية. ولما أصدرتُ مجلة غرفة تجارة بغداد بعد عدة سنوات سألته ان يشارك في الكتابة فيها، فكتب سلسلة فصول علمية عن النفط.

اتسعت أعمال الوزارة في هذه الفترة وانتقلت الى بناية جديدة واسعة. لكنني أصبت في شهر كانون الاول بالحمى التيفوئيدية. واشتد عليّ المرض حتى يئس من شفائي، فكان الدكتور سندرسن يباشرني كل يوم أو يومين، يساعده ابن عمي الدكتور شلومو (البير) بصري، وكان آنذاك طالباً بالكلية الطبية، وقد ظل يسهر على تمريضي والعناية بي. وفي ليلة ٢٢ من ذلك الشهر ارتفعت درجة حرارتي ارتفاعاً مخيفاً، فجيء بقوالب الثلج ووضعت على جبيني في ذلك الموسم البارد حتى الصباح. وكان ذلك أوج المرض الذي خفّ شيئاً فشيئاً منذ اليوم التالي حتى تماثلت للشفاء. ثم قضيت دور النقاهة ولم أعد الى وظيفتي في الوزارة الا بعد اكثر من شهرين ونصف.

انّ المرض نافذة تطلّ على الطفولة. في تلك الأيام التي قضيتها في الفراش وبعد ذلك في راحة لم أتعودها منذ سنوات شعرت وكأنني ولدت حديثاً. نظرت الى الماضي فوجدته شريطاً سينمائياً يعرض أمام ناظري في تسلسل لطيف. وتطلعت

الى المستقبل: ماذا تضمن لي الايام الآتية وقد وهبت لي حياة جديدة؟ لقد آمنت ان هناك قوة خفيّة توجهنا الى الآفاق البعيدة، تجذبنا كما يجذب النجم المضيء بصرنا بشعاعة الذي أتانا بعد رحلة دامت ملايين من سني النور. ما هذا الفكر الذي لولاه كنّا تائهين في بيداء الضلال؟ ما هذا الشعور الذي يثير في نفوسنا عواطف لا يدركها العقل ولا تلمسها الحواس؟ ان هذا الشعور يربطنا بماضٍ لا بداية له في الأزل ويفتح لنا أبواب غدٍ لا نهاية له، هو الصلة بين الخالق والمخلوق ومعرج التأمل والتجرّد والتسامي. واننا لنؤمن بأن حياتنا الأرضية ليست سوى مرحلة عابرة من مراحل البقاء وان الموت ليس خاتمة الوجود.

ارتديت ملابسي بعد عدة أسابيع وخرجت الى الشارع. ما أجمل هذا الصباح! الشمس تشرق كما لم تشرق منذ دهر طويل. الناس يسيرون باسمين، الاسواق مفتوحة للباعة والشارين، السيارات والعربات تسرع وتغيب... ذلك منظر اعتيادي مألوف، لكنه لعينيّ جديد دافق بالحياة، رائع في بساطته وصخبه وهدوئه. ألتقي بصديق يحيّيني، ولعله لم يعلم أنني كنت طريح الفراش، قعيد الدار لم أبرحها منذ زمن. هل أخبره بالأمر؟ كلا، فأنا أرى الامور تعود الى طبيعتها شيئاً فشيئاً. وغداً سوف أخرج الى الشارع فلا أجد في ذلك غرابة. وسوف أعود الى الدائرة وأباشر عملي فلا اشعر بفترة الانقطاع التي مضت. ان الشفاء من المرض معجزة، بيد أنها تصبح أمراً طبيعياً بعد ايام قليلة.

عدت الى الدوام في وزارة الخارجية في اول آذار. وقمت بالاشتراك مع موسى الشابندر الذي يعمل بمهمة خاصة في ديوان الوزارة (وقد أصبح فيما بعد سفيراً في واشنطن ووزيراً للخارجية) بترجمة معاهدات الدولة العثمانية السابقة مع ايران حول الحدود وطبعها باللغتين الفرنسية والعربية. وكنت في السنوات السابقة قد توليت الاشراف على طبع مجموعة المعاهدات والاتفاقيات التي ارتبط بها العراق منذ سنة ١٩٢١ باللغتين العربية والانكليزية.

وكانت مكتبة الوزارة تضم دائرة المعارف البريطانية ومجموعة طيبة من الكتب الفرنسية والانكليزية والعربية ذات العلاقة بالسياسة والدبلوماسية والقانونية والعلاقات الدولية. وقد أهدتنا الحكومة التركية مئات الكتب منها القديمة بالحروف العربية والجديدة بالحروف اللاتينية التي اعتمدتها حكومة الجمهورية سنة ١٩٢٨. وكان الوزراء والنواب كثيراً ما يستعيرون الكتب لمطالعتها ولا يعيدونها. وقد طالبت احدهم باعادة كتاب فوعد باعادته ولم يفعل. وقال لي الدكتور حنا خياط المدير العام: الأفضل أن لا تطالب أحداً بارجاع الكتب التي استعارها، فذلك مدعاة للغيظ والامتعاض.

وقد تعرفت اثناء عملي بالوزارة بأشخاص كثيرين استمرت صداقتي معهم أعواماً طويلة، منهم توفيق السعدون وبطرس فرج توما مدير السفر والجنسية وعباس مهدي وعبد القادر رشيد وحسين أفنان وعبد الحميد الباچه چي وأحمد حامد الصراف وعبد العزيز المظفر وموفق الألوسي وغيرهم. وكان اكثر السياسيين والموظفين الذين خدموا في عهد الدولة التركية السابقة في السلكين العسكري والمدني يراجعونني لتثبيت خدماتهم في سبيل التقاعد، فكنا نكتب الى مفوضيتنا في أنقرة فترسل الينا شهادات مصدقة نقلاً عن السجلات المحفوظة في استانبول.

ومن الذين كانوا يزورونني مفتي بغداد السيد يوسف العطا، وكان رجلاً مهيباً يعقد في ظهر كل جمعة مجلساً يعقبه تقديم الغداء في غرفه بجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وقد اتخذت هذه الغرف بعد وفاته مكتبة جمعت فيها أنفس الكتب والمخطوطات التي يملكها آل النقيب. وكان يصرّ عليّ أن أحضر مجلسه الذي يؤمه أشراف البلد وشخصياته البارزة ورجال السلك الخارجي الاجنبي، وانا بينهم شاب خجول قليل الخبرة في الصلات الاجتماعية. فاذا غبت في بعض أيام الجمع جاءني في الاسبوع التالي مؤنباً.

كان مدير التشريفات عبد الحميد الباچه چي جالساً في غرفتي يدخن في صباح أحد أيام رمضان. ودفع الباب فجأة فاذا بالمفتي يدخل علينا على عادته بدون استئذان بقامته الفارعة وعصاه التي لا تفارق يده. وقد أخذ الباچه چي على غرة من أمره فارتبك وفتح دُرْج المكتب وأخفى سيكارته فيه دون أن يطفئها. قمت استقبل المفتي وأرحب به، حتى اذا ما جلس عدت الى مكتبي ففتحت الدرج وأطفأت السيكارة خفية قبل أن تحدث حريقاً. ومن الطريف أن عبد الحميد الباچه چي نقل بعد مدة قصيرة مديراً لأوقاف بغداد!

في تشرين الثاني ١٩٣١ كنت في غرفتي المطلّة على مدخل وزارة الداخلية ومعي مدير التشريفات توفيق السعدون. وفيما نحن نتحدث اذا بنا نسمع دويّ الرصاص ونرى الهرج والمرج يسود ساحة السراي. هرع السعدون يستطلع الخبر وعاد يخبرني انه رأى زوج ابنة عمّه عبد الله الصانع مدير الداخلية العام مضرّجاً بدمائه ورأى قاتله الشيخ عبد الله السعدون واقفاً وفي يده المسدّس وكأنه تمثال القدر الذي لا يرحم.

كانت هذه فاجعة عائلية نسجت خيوطها تقاليد قبليّة موروثة من قديم الاجيال. ذلك أن عبد الله الصانع اقترن بعائدة ابنة عبد المحسن السعدون، لكن آل سعدون لم يروه كفءاً لمصاهرتهم، ومضى الشيخ عبد الله الفالح السعدون الى وزارة الداخلية ودخل على مديرها العام فأرداه قتيلاً.

كانت عائدة ابنة عم توفيق فتاة رمتها الاقدار بنبالها واحداً بعد واحد، فانتحر ابوها ثم انتحر اخوها، وقتل قرينها وهي عروس!

أوفد مجلس النواب قبيل دخول العراق عصبة الامم لجاناً نيابية لتفتيش أعمال الوزارات ودوائر الحكومة. وجاءنا الى وزارة الخارجية النائبان سليمان فتاح وابراهيم حيم[11] مقرر اللجنة المالية، فكنا عندي ساعات شرحت لها خلالها اعمال الوزارة والتمثيل الخارجي والصلات مع الحليفة البريطانية والدول المجاورة. وتضمن التقرير الذي قدماه الى المجلس تقديراً للوزارة وأعمالها.

كانت صلات العراق بايران بعد اعترافها بالمملكة العراقية سنة ١٩٢٩ حسنة على وجه العموم، لكن الحدود الوسطى بين لواء ديالى ومنطقة كرمنشاه كانت لأمد طويل مثار نقاش واحتجاج بين الدولتين الجارتين. كانت المنطقة الايرانية المشرفة على مندلي الشهيرة ببساتينها وتمورها الفاخرة عالية، فكانت السلطات الايرانية تستولي على المياه الجارية الى الجهة العراقية حتى أشرفت زراعة مندلي على التلف والبوار لحرمانها من مياه الريّ. وكانت احتجاجاتنا المتوالية الى الحكومة الايرانية بوساطة مفوضيتها في بغداد والمفوضية العراقية في طهران تذهب أدراج الرياح لأن أكبر القرى الواقعة على الحدود في الجانب الايراني كانت ملكاً للشاه رضا بهلوي استولى عليها بعد ارتقائه العرش سنة ١٩٢٥. وأخيراً قررت الحكومتان تأليف لجنة ارتباط لدرس الموضوع، وكانت الهيئة العراقية برئاسة المقدم عبد الحميد نصرت من ضباط هندسة الجيش اللامعين. وقد جاءني الى الوزارة لتلقي التعليمات، فأفهمته شكايات أهالي مندلي ونواحيها وأعطيته خلاصة المخابرات الجارية. اجتمعت اللجنة المشتركة واتخذت القرارات المناسبة لتوزيع المياه بصورة عادلة، لكن الجهات الايرانية لم تلتزم بها وبقيت المشكلة قائمة.

كنت عضواً في لجنة انضباط الوزارة المؤلفة برئاسة المدير العام الدكتور حنا خياط. ومن القضايا التي احيلت علينا خلال تلك السنوات قضية حمدي الجوخه دار الكاتب في مفوضية أنقرة الذي اتهمه القائم بأعمال المفوضية فؤاد خياط بمغازلة زوجته، وقضية ناصر رزوق الكاتب في قنصلية كرمنشاه الذي اتهمه نائب القنصل بالاخلال بواجباته. وقد برأنا

ناصر رزوق بعد أن قدم للجنة جرائد ايرانية تطعن بسلوك نائب القنصل نفسه. أما الجوخه دار ففقد ملفه بعد اجتماع او اجتماعين عقدتها لجنة الانضباط وأهمل شأنه.

وكان أحمد حامد الصراف مدير المطبوعات قد نقل الى وزارة الخارجية وعين سكرتيراً لقنصلية كرمنشاه بعد أن نقل كامل الكيلاني قنصلاً لها. لكن الصراف امتنع عن الالتحاق بوظيفته وظل يراجعني لتسوية قضيته. وطالت قضيته وقضية حمدي الجوخه دار شهوراً، فكتبت مذكرة الى الوزير أقترح منحها رواتب سنة واحدة وانهاء خدماتها. وقد وافق الوزير وقدم اقتراحاً الى مجلس الوزراء تمت المصادقة عليه. وكان ذلك موضع تقدير احمد حامد الصراف، الذي اعيد الى الخدمة في وزارة العدلية بعد ذلك، فارتبطنا بصداقة العمر الخالصة.

لكن لكل شيء نهاية. كنت شاباً مغروراً قليل التجارب، فعلمتني الحياة ان الاخلاص والعمل المرهق والحماسة الزائدة كثيراً ما تثير الضغائن وتؤدي الى نتيجة معكوسة.

انتشى العراق حكومته وشعبه بالانتماء الى عصبة الامم واحراز الاستقلال التام. واولئك السياسيون المعارضون الذين حاربوا معاهدة سنة ١٩٣٠ وعدوها صك عبودية واسترقاق آمنوا بفوائدها وصلاحها، فمضوا يتسابقون الى اعتلاء الكراسي وملء المناصب العالية وحضور الاجتماعات الدولية. اقيم تمثال للملك فيصل الاول صنعه النحّات الايطالي كانونيكا الذي اوصى به موسوليني دكتاتور ايطالية، ودعي الملك الى زيارة لندن زيارة رسمية، فارتدى بزّة المشير ليستقبله الملك جورج الخامس استقبال الندّ للندّ. وعزّزت قوات الجيش ورفع شأنه ليكون ترس الوطن المستقلّ وشرّع قانون التجنيد الاجباري. لكن هذا الجيش قام في صيف سنة ١٩٣٣ بحملته على الآثوريين في الشمال ودكّ قراهم وتقتيل نسائهم وأطفالهم، فضجّ العالم الحرّ للفظائع التي اقترفتها اول دولة رفع عنها انتداب العصبة الاممية، وعاد الملك من رحلته الاوروبية مسرعاً ليرأب الصدع، ثم مضى الى سويسرة ليقضي نحبه كمداً وليعود الى دار ملكه محمولاً على الاعواد.

في ٢٠ آذار ١٩٣٣ ألف رشيد عالي الكيلاني الوزارة الجديدة وتقلد نوري السعيد منصب وزير الخارجية. وقد استدعى مديري الشعب ورؤساء الاقسام فطلب منّا تنفيذ واجبات وظيفتنا بدقة وشعور بالمسؤولية، وقال: اريد عملاً وجدّاً، ولا أسمع عذراً ولا أقبل تهاوناً. لقد أصبح العراق دولة مستقلة، وهذه الوزارة وجهه الظاهر امام الامم، وأنتم مظهر هذا الوجه، فارفعوا من شأن البلد الذي تمثلون.

استحدثت في ديوان الوزارة شعب جديدة غربيّة وشرقية وقنصلية وخلقت وظائف جديدة أسندت الى شبان متخرجين من لندن وبيروت وينتمون الى العوائل الكبيرة في بغداد والموصل والبصرة. كان بعض هؤلاء يجيئونني في السنة الماضية ليستطلعوا اخبار الوزارة واحتمال تقلدهم لوظائفها، أما الآن فرأوا أنفسهم سادة الموقف والمسؤولين عن ادارة الشؤون الخارجية. ولو كنت ذا خبرة بالحياة لجاريتهم وتركتهم يفعلون ما يشاؤون وانكفأت الى التزام حدود وظيفتي الصغيرة، غير أنني عارضتهم ونبهتهم الى أمور أغفلوها فضاقوا بي ذرعاً ورأوني متدخلاً في أعمالهم.

كان المدير العام الدكتور حنا خياط عظيم الثقة بي كما كان شأنه في السنتين الماضيتين. لكنه أعيد الى دائرة الصحة وأسند منصبه بالوكالة الى الدكتور ناجي الاصيل الذي كان يقوم بمهمة خاصة في ديوان الوزارة. ولفهم نفسية الاصيل يجب ان نعلم انه كان في الاصل طبيباً عسكرياً ولم يمارس مهنته الا امداً قصيراً، ثم مثل الملك حسين عاهل الحجاز في لندن فأخفق في مهمته وهوى العرش الهاشمي في مكة. وجاء الى بغداد فالتزمه الملك علي بن الحسين ملك

الحجاز المخلوع الذي التجأ الى اخيه فيصل. وكان ناجي الاصيل طبيباً في الجيش العراقي، فمدرساً لعلم النفس وما وراء الطبيعة حتى نقلت خدماته الى وزارة الخارجية وكان قائماً بأعمال المفوضية العراقية في جدة أشهراً معدودة. وعين بعد ذلك قنصلاً في المحمرة (خرمشهر) فلم يتسلم وظيفته بل بقي في ديوان الوزارة حتى أسندت اليه وكالة المديرية العامة في ايار ١٩٣٢، وقد وصفه الكاتب اللبناني يوسف غانم فقال انه هادىء الطبع، عميق التأمل، في نظراته سكون قاتم كذلك السكون الذي يعقب العواصف، قليل الحركات والاشارات كأنّ به من تزمّته ورصانته قيوداً وأغلالاً تشدّ على أطرافه وأوصاله...

تزعم الأصيل زمرة الموظفين الدبلوماسيين الجدد الذين حاولوا الايقاع بي وتنحيتي عن طريقهم. وسافر نوري السعيد الذي كان يعرفني جيداً الى جنيف لحضور جلسات عصبة الامم، فتولى رئيس الوزراء رشيد عالي وكالة وزارة الخارجية. وعلى حين غرة اتهمت بتهم واهية لا اساس لها من الصحة كالاحتفاظ بأوراق رسمية خارجة عن مهام وظيفتي، ومنح اجازة يوم واحد لاحد الموظفين، وتمزيق شيفرة اعددتها انا ولم تستعمل، وما ماثل ذلك. وقد أحلت على لجنة الانضباط، ولما كنت احد أعضائها، ألفت لجنة خاصة للنظر في تلك التهم، وقد توكل عني المحامي احمد حامد الصراف ففنّد النقاط الواحدة بعد الاخرى.

قابلت رشيد عالي وأخبرته بأنه لم يكن أي سوء تصرّف او اساءة استعمال الوظيفة من جانبي، فقال انه انما يقوم بأعمال الوزارة بالوكالة وان نوري السعيد الوزير الاصيل سيعود من الخارج قريباً فينظر في القضية، وقد أمر بتجميدها الى ذلك الحين.

عاد نوري السعيد واستدعاني فقال لي انه يقدر خدماتي، لكن موظفي الوزارة اصبحوا مناوئين لي فلا يمكنني الانسجام والتعاون معهم. وسألني هل أوافق على نقل خدماتي الى مديرية البريد والبرق العامة لوظيفة مراقب التلفون العام؟ فأجبت بالموافقة، وكذلك تم انفصالي من وزارة الخارجية بعد خدمة خمس سنوات في ١٣ ايلول ١٩٣٣. ومن الغريب ان يوسف الازري الشيعي الذي دخل خدمة الوزارة معي اتهم بعد أمد قصير بالاتصال بالسفارة الايرانية وأنهيت خدماته.

مرّت عليّ أيام عصيبة في ذلك الصيف، فقلت: أهذا جزاء عملي الساعات الطوال واخلاصي للواجب؟ لقد طمست حيناً في ذهني أحلام المستقبل الذي كنت أطمح اليه وغشيت عيني سحابة من ظلام اليأس والخيبة. لكن لم يمض أمد حتى شعرت بالتحرر من الكابوس والانطلاق الى الامام. فكرت ان مجال تقدمي في الخدمة الخارجية كان محدوداً. كنت منذ حداثتي أميل الى الشعر والادب، وكانت اشغال وظيفتي الكثيرة تحول دون تمتعي وقتاً كافياً بالقراءة والكتابة. والآن قد انفسح لي مجال زيادة ثقافتي والاقبال على هوايتي الادبية. ان المستقبل لا يزال مضيئاً، وللشباب حماسته وتفاؤله وايمانه بالحياة. رأيت أناساً لم اكد أعرفهم يدسّون لي ويوقعون بي ويرومون ايذائي، فهل أكفر بالبشرية وأهزأ بالصداقة والاخوة الانسانية؟ كلا ثم كلا، فلم يزل لي أصدقاء يرعونني ويؤاسونني ويريدون لي الخير والفلاح. ولم يزل لي اخوان وأقارب يحتفون بي ويعينونني على السير في الطريق القويم.

ثم انني نشأت مؤمناً متسامحاً غير متعصب لدين او مذهب او جنس. وقد شدّ الايمان قوّتي لمواجهة ظروف الحياة خيرها وشرها، كنت معجباً بقصيدة رديارد كبلنغ Rudyard Kipling الشهيرة «اذا» فترجمتها الى العربية ونشرتها في جريدة العراق. تلك قصيدة الرجولة والثقة بالنفس التي تقول:

«اذا استطعت أن تثق بنفسك في حين يرتاب الناس فيك، وتصفح مع ذلك عن قليل ايمانهم.
اذا استطعت أن تأمل دون أن يتطرق الى قلبك القنوط، او، أمام الكذب، تربأ بنفسك أن تلجأ الى الكذب،...

اذا استطعت أن تحلم ـ ولا تسودك أحلامك، وأن تفكر من غير أن تتخذ التفكير غاية،

اذا... اذا... اذن فلك الارض وما عليها، وما هو خير، ستكون رجلاً، يا ابني!»

وكتبت آنذاك ايضاً شعراً منثوراً طويلا قلت فيه:

«يجب أن تؤمن!

ـ يا أيها القلب الذي عذبه الشك وألقاه العدم في مهاوي اليأس، يجب أن تؤمن!

انّ في سمائك غيوماً لا يبددها غير أنوار اليقين، وفي أعماقك فراغاً لا يملأه سوى فيض الرجاء، فيا أيها القلب الشقيّ المعذّب، يجب أن تؤمن...

يجب أن تؤمن!

لكي تستعيد الثقة في نفسك والثقة في الانسان

لكي تكترث بالحياة، وتعنى كذلك بالموت.

لكي تشعر بالسرور وتصبر على الألم.

لكي لا تسير على غير هدى الى غير غاية...»

صموئيل شعشوع

سافر التاجر العراقي صموئيل شعشوع في شبابه الى منشستر وأصاب ثروة باذخة. وقد عاد الى بغداد بعد الحرب العظمى الاولى وابتنى قصراً فخماً في جانب الكرخ مطلاً على نهر دجلة. وكان السيد طالب باشا النقيب الذي سمّي «النهاب الوهّاب» في ذلك الحين وزير الداخلية وطامحاً لعرش العراق، فطلب من شعشوع اعطاءه قصره الجديد للاقامة فيه، لكن اجيب بالرفض. عند ذلك دبّر السيد طالب عن طريق اعوانه اغتيال زوج غانية كان لشعشوع صلة بها واتهمه بقتله. قبض على شعشوع واوقف في «خان دلّة» المتخذ مركزاً للشرطة رهن المحاكمة. واستدعى المتهم محامياً شهيراً من لندن للدفاع عنه.

ولكن كيف كان سجن صاحبنا؟ لقد منح غرفة مؤثثة في داخل السجن واتفق مع الشرطة على جلب طبّاخ خاص يعدّ له أفخر الأطعمة، وصار يحيي حفلات «الشالغي» فيحضرها اصدقاؤه. وفي نيسان ١٩٢١ صرح السيد طالب علناً برغبته في حكم العراق اميراً او رئيس جمهورية ولو لم يشأ الانكليز ذلك، فقبضوا عليه ونفوه الى جزيرة سيلان (شري لانكا). وتيسّر بعد ذلك تبرئة شعشوع من التهمة الملفقة واطلاق سراحه، فغادر بغداد.

وجاء الى بغداد في سنة ١٩٣١ في زيارة وحلّ في أحد الفنادق. واستدعاني وزير الخارجية جعفر باشا العسكري وأمرني ان اكتب الى مجلس الوزراء باتخاذ قرار بتعيين صموئيل شعشوع قنصلاً فخرياً في الاسكندرية، ففعلت. وجاءنا القرار بعد اسبوع او عشرة أيام، وصدرت الارادة الملكية بالتعيين، وشرعت باصدار الامر وابلاغ الحكومة المصرية، لكن الوزير طلب مني الاحتفاظ بالارادة الى حين آخر. وقال لي عمي حسقيل، وكان صديق شعشوع، انه يريد أن يراني، فذهبت في المساء الى الفندق وحدثته بما كان من أمر التعيين. ظلت الارادة رهينة المحبس في مكتبي.

أمّا صاحبنا فمضى الى الاسكندرية وأغدق المال على الصحف فنشرت صورته وكتبت تحتها «سعادة صموئيل بك

شعشوع رئيس الجالية العراقية في الاسكندرية». وبقي في مصر الى نشوب الحرب العالمية الثانية وتقدم الجيش النازي في الصحراء الغربية، فجاء الى بغداد وجدّد الصلة بأصدقائه من رجال الدولة والوجاهة. وصار يقيم المآدب الباذخة ويحيي الحفلات الغنائية في قصره ويدعو اليها رجال الطبقة العالية وسيداتها يلتفون حوله ويتهافتون على ارضائه. قيل له: ان رومل قد بلغ الحدود المصرية، فكيف تلهو وتعبث؟ قال: اذا احتلت المانية القطر المصري فانا اكون اول الخاسرين لان املاكي كلها هناك. لكن الحياة لا تساوي مثقال ذرّة، فلنتمتع بها ما دمنا في صحة ورفاهة ولنترك المستقبل يعدّ ما يشاء لنفسه.

ولما انتهت الحرب مضى الى بيروت وتزوج، وهو الشيخ، بامرأة ثالثة شابّة قضى معها اعوامه الاخيرة في سرور وهناء.

في مديرية البريد والبرق العامة

زرت الدكتور فائق شاكر مدير البريد والبرق العام والمفتش العام الميجر دوغلاس وليام غمبلي Douglas William Gumbley وباشرت وظيفتي في دائرة التلفونات. بالحقيقة انها كانت وظيفة اسمية لا عمل فيها، لأن العمل الفني يقوم به دانيال شاناهان Daniel Shenahan مهندس المنطقة الوسطى للبريد والبرق وتقوم دائرته بالاعمال الادارية. كنت أداوم كل يوم، فلا أزور ولا أزار ومع ذلك «لم أعدّ أياماً لأقبض راتباً». كنت أزور بدالة التلفونات للتفتيش وأجلس أحياناً لتلقي النداءات وامرارها. لكنني كنت أصطحب كل يوم كتباً فأطالع وادرس واكتب وأنظم الشعر.

اهتممت قبل كل شيء بدراسة الاقتصاد، وكانت مؤلفات العالم الاقتصادي الفرنسي شارل جيد Sharl Jeed خير معين لي في هذا السبيل. كانت كتبه العمدة في تدريس علم الاقتصاد قبل الحرب العالمية الثانية، فأفدت منها كثيراً. وأعدت قراءة التوراة والانجيل والقرآن بامعان، وكنت أحفظ عدة فصول من مزامير داود، فحفظت الآن خطبة المسيح على الجبل وسورة الفاتحة وسورة يوسف وغيرهما من أيات الفرقان. وقد أحببت سورة يوسف حباً جماً لفنها القصصي الاصيل واسلوبها الجميل الذي لا يضاهى. وأعدت قراءة كتب الادب العربية والفرنسية والانكليزية. وكتبت المقالات والقصص وقرضت الشعر المنظوم والمنثور، وترجمت روائع الشعر الفرنسي والانكليزي، ونشرت ثمرات يراعتي في الصحف والمجلات. لكن تفصيل ذلك يأتي في فصل لاحق.

بعد مضي عدة أشهر على قيامي بوظيفة مراقب التلفون العام جاءني السيد يوسف شاؤل (١٢) معاون مدير البريد والبرق العام وسألني هل اوافق على القيام بمهمة خاصة في ديوان المديرية العامة، فوافقت، وانتقلت الى شعبة البريد الخارجي. وكان مؤتمر البريد الدولي قد عقد قبل امد قصير، فجيء لي بتقارير المؤتمر ومقرراته وطلب اليّ درسها ووضعها موضع التطبيق. فوضعت لائحة نظام صناديق التوفير والتعليمات البريدية الجديدة.

ونقل الدكتور فائق شاكر مدير البريد والبرق العام فخلفه خالد سليمان وزير المعارف الاسبق. فلما فتش دوائر المديرية ورآني في شعبة البريد الخارجي قال: الرجل المناسب في المحل المناسب!

لكن دوامي في المديرية العامة لم يطل كثيراً. فقد الف الوزارة الجديدة علي جودت الايوبي في ٢٧ آب ١٩٣٤، وأسندت وزارة الاقتصاد والمواصلات الى أرشد العمري مدير البريد والبرق العام وأمين العاصمة سابقاً. وقد استهل عمله الوزاري بالغاء عدة وظائف في المديريات العامة التابعة لوزارته. رفض خالد سليمان فصل موظفي دائرته وأخذ اجازة تولى اعماله خلالها معاونه سليم ترزي(١٣)، فوقع على اوامر الفصل. وهكذا الغيت وظيفتي وانفصلت عن الخدمة في ٢٣ ايلول ١٩٣٤، فأصبحت حراً من قيود الوظيفة.

والغيت في الوقت نفسه وظيفة معاون المدير العام يوسف شاؤل الذي خدم الدائرة خدمة صادقة اكثر من سبعة عشر عاماً ومثلها في بعض المؤتمرات الدولية. وقد انتهى عقد الميجر غمبلي المفتش العام في الوقت نفسه وعيّن مديراً للطيران المدني في فلسطين، وهي آنذاك تحت الانتداب البريطاني، فاختار يوسف شاؤل معاوناً له واصطحبه الى القدس

الشريف.

ومما يذكران ياسين الهاشمي الذي تولّى رئاسة الوزراء للمرة الثانية سنة ١٩٣٥ الغى وظائف بحجة الاقتصاد في النفقات، وكان اكثر المستغنى عن خدماتهم من الموظفين اليهود. وكان يذهب في المساء الى نادي الوزراء ليلعب البريدج مع وجهاء اليهود، فلما سُئل عن فصل الموظفين، قال: انني أرى الشبان اليهود الذين يتركون خدمة الحكومة سرعان ما يدخلون الى السوق ويربحون اضعاف رواتبهم، اما المسلمون فكأنهم السمك الذي يخرج من الماء.

الشعر والادب

ملت الى الادب وانا لا أزال على مقاعد الدراسة. وكان اول اثر نشر لي شعر منثور على طريقة جبران وأمين الريحاني ظهر في جريدة النهضة العراقية في ١٨ كانون الاول ١٩٢٨ وعنوانه «الحرية».

لا غرابة ان أكتب في الحرية وانا حدث، فالعراق الجديد كان يتطلع بشبابه وكهوله ونسائه الى الحرية والانعتاق والنهضة والعلم. واذكر انني حضرت آنذاك حفلاً اقيم لتكريم امير الشعراء احمد شوقي في بغداد، فسمعت شاعر العراق معروف الرصافي ينشد:

اذا احتفلت مصر بشوقي فما لها ... تقيم على الاحرار في العلم حاجرا؟
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها ... علياً وطه حاصباً متطايراً
فما بال هذا عدّ في مصر مارقاً ... وما بال هذا عدّ في مصر كافراً؟
اذا لم تكُ الافكار في مصر جرّة ... فليس لمصر أن تكرّم شاعرا

حتى يقول:

ألا ان هذا الشعر ليس بطائل ... اذا كان عمّا يبلغ العلم قاصراً
كما أن هذا العلم ليس بنافع ... اذا لم تكن فيه النفوس حرائرا
وتكريم ربّ الشعر ليس بمفخر ... لمن كان عن حرية الفكر جائرا...

أجل، كان العراق يتطلع الى حرية الفكر والنهضة العلمية وتحرير المرأة لتأخذ مكانها الى جانب الرجل في العلم والعمل. وقد نطق شعراؤه، وهم لسان الأمة، بهذه الافكار ورددوها. قال جميل صدقي الزهاوي:

ألا ان ليل الجهل أسود دامس ... وان نهار العلم أبيض شامس
تشقّ حياة ما لها من مدرّب ... وتشقى بلاد ليس فيها مدارس

وقال:

العلم ثروة أمّة ويسار ... والجهل حرمان لها وبوار...
إنّا بعصر قد أبان رقيّه ... والناس قد غاصوا البحار وطاروا

وقال الرصافي:

لقد غمطوا حق النساء فشدّدوا ... عليهنّ في حبس وطول ثواء...
أيسعد محياكم بغير نسائكم ... وهل سعدت أرض بغير سماء؟
الا يا شباب القوم انّي الى العلى ... لداع، فهل من يستجيب دعائي؟
أما آن للاوطان أن تنهضوا بها ... لادراك مجد وابتغاء علاء؟

وقال عبد المحسن الكاظمي:

حرية الامصار، أنت حبيبة ... في حبها يستعذب التعذيب

وقال محمد رضا الشبيبي:

يـــا شــبــابـــاً درســـوا فـــاجتهدوا لـــيـــنـــالـــوا غـــايـــة المجتهد
وعـــد الله بـــكـــم أوطـــانـــكـــم، ولـــقـــد أن نجـــاز الموعـــد
أنتمُ جـــيـــل جـــديـــد خـــلـــقـــوا لـــعـــصـــور مـــقـــبـــلات جـــدد
كـــوّنـــوا الـــوحـــدة لا تـــفـــسـخـــهـــا نـــزعـــات الـــرأي والمعـــتـــقـــد

وقال محمد حبيب العبيدي:

كـــيـــف تحيـــا امـــة جـــاهـــلـــة؟ ان بـــالـــعـــلـــم حـــيـــاة الأمـــم!

وقال عبد الحسين الأزري:

نـــال فـــيـــك الـــغـــرب، يـــا عـــلـــم، المرامـــا فـــعـــدى لم يـــرعَ لـــلشرق ذمـــامـــا...
يـــا بني الشرق، خـــذوا الـــعـــلـــم ولا تجـعـــلـــوا مـــنـــه الى الـــظـــلـــم دعـــامـــا
واتـــقـــوا عـــاديـــة الـــدهـــر بـــه، فـــهـــو الـــعـــروة لا تخشى انـــفـــصـــامـــا

وقال محمد مهدي البصير:

يـــا عـــلـــم، عـــش وأعـــش فـــعصرك راقي لـــتـــعـــيـــد شـــمـــس الشرق لـــلاشراق
أرســـلـــت نـــورك في الـــفـــضـــا متـــدفـــقـــاً فملأت نـــيـــه مـــطـــالـــع الآفـــاق

فلا عجب، وانا الفتى الصغير، قد ناجيت الحرية مطمح أمال الافراد والشعوب، فقلت:
هي وليدة الاستبداد وعدوته اللداء.
ولدت منذ القديم في البوادي وترعرعت وعاشت في الغابات والوديان.
كانت طفلة جميلة يداعب شعرها النسيم العليل في السحر، تلعب نهاراً مع أشعة النور التي ترسلها الى ابنتها الارض ذُكاء.
وفي ليالي السكينة والهدوء سبحت والبدر والنجوم في لُجج بحار من لجين...
تعرّف بها انسان القدم في الآجام...
يوم كان مرتدياً من توحشه حلّة من الشعر الكثيف.
خلبت لبّه محاسنها وجاها سبى منه الفؤاد،
فأحبها وعبدها من قبل أن يعبد البعل وزفس.
تراءت له في مشتجر الغاب حيث تنوعت الاصوات،
وتماثلت له على عيون الماء حيث خيّم السكون،
فضت مئات الاجيال وهو وساكنوا الغابات
سواها معبودة لا يعرفون...

وأخيراً بعد الاشارة الى الاستعباد الذي ساد في عصور المدنية واضطهاد الظلمة والطغاة ونشوب الثورة خادمة الحرية، ختمت قصيدتي النثرية قائلاً:

وانهار كيان الاستبداد والظلم والظلام
يوم أشرقت على الكون شمس الحرية!

وقد أصدر أنور شاؤل صحيفة الحاصد[١٤] في ١٤ شباط ١٩٢٩، وكان طالباً في كلية الحقوق. كان صديقاً لأبناء عمي، وقد رأيته مراراً، فأرسلت اليه شعراً نظمته لنشره في صحيفته. لكنه لم يجده جديراً بالنشر، فكتب اليّ رسالة يشجعني على المثابرة ويأمل لي مستقبلاً باهراً في عالم الأدب. لا ريب ان ذلك الشعر لم يكن يستحق النشر في مقاييس ذلك الزمن، ولو ان شعراء كثيرين من رواد الشعر الحر والنثر المشعور قد اشتهروا في العراق وسائر الاقطار العربية بقصائد اسخف منه وأشد ركاكة. لكن المذاهب الرمزية والسريالية وما وراء الواقعية لم تكن مألوفة في ذلك الزمن وقد ظننت ان شعري مغبون فظللت أحمل الكره، ان حقاً وان باطلاً، لمجلة الحاصد ولم أنشر شيئاً فيها الى احتجابها سنة ١٩٣٨.

كان خالي الياهو دنكور صاحب مطبعة دنكور الحديثة في مقدمة مستوردي الورق وآلات الطباعة وحروفها وادواتها. وقد تعرّفت عن طريقه على الكثيرين من رجال الصحافة والثقافة، منهم عبد اللطيف الفلاحي صاحب مطبعة الفلاح ورزوق غنام صاحب جريدة العراق[١٥] ورفائيل بطي وجبران ملكون صاحبي جريدة البلاد وعبد المسيح وزير مدير الترجمة في وزارة الدفاع وطه الهاشمي الذي كان خالي يلتزم طبع مؤلفاته وغيرهم. وجددت العلاقة بمدرسي السابق توفيق السمعاني الذي اصبح الآن صحفياً مرموقاً يصدر جريدة صدى العهد وبعد ذلك جريدة الزمان الشهيرة.

كان عبد اللطيف ضابطاً سابقاً في الجيش ورجلاً مثقفاً أصدر جريدة الفلاح وأسس مطبعة ورُشّح مديرا عاماً للمعارف. لكنه ابتلي بمرض شديد فاقتطفه الموت قبل الاوان وعمره لا يتجاوز الخامسة والاربعين. ولو طال به العمر لكان له شأن مرموق في السياسة والثقافة. كنّا نزوره فنستمع الى أحاديثه الطلية. وكنت أدخل الى مكتبته الحافلة بالمؤلفات العربية والفرنسية والتركية فأبتهج بالنظر في الكتب. كانت أمامي، وانا حدث يافع، مأدبة شهية متعددة الألوان، ولكن كيف يتسنّى لي تناول غذائها الدسم في تلك الآونة القصيرة؟

أما جريدة العراق فلم تكن في مقدمة الصحف الوطنية فحسب، بل كانت مدرسة للصحفيين والكتاب عمل فيها وتخرّج ألمع رجال الصحافة من رفائيل بطّي وتوفيق السمعاني وسلمان الشيخ داود الى محمد عبد الحسين وشكري الفضلي. كانت دار العراق سنين طوالاً، كما قلت في ترجمة صاحبها رزوق غنام في «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث»، ندوة أدبية ووطنية يجتمع فيها كل يوم رجال الشعر والا .ب ودعاة القومية والشباب العربي المتحمس فتدور المباحثات والمناقشات ويحتدم الجدال ساعات وساعات. وكان من عادة رزوق غنّام أن يسهر الى ما يقرب الفجر، ثم يضطجع في نوم عميق الى ساعة متأخرة من الظهيرة. ويلتئم مجلس «العراق» عصراً، فاذا نهض صاحب الجريدة وتناول فطوره المتأخر وحلق لحيته ولبس ملابسه، دخل غرفة التحرير حيث يجتمع اصدقاء الجريدة فيضفي على جوّ المجلس حماسة ونشاطاً...

واذا ذكرت جريدة العراق فلا بد من ذكر محررها النشيط منشي ابراهيم زعرور الذي سميته «الجندي المجهول في عالم الصحافة العراقية». كان يرابط في دار الجريدة ليل نهار، يعاون صاحبها وينوب عنه في غيابه، ويقوم بوظائف شتى من تحرير وتنسيق وكتابة الافتتاحيات الى الاشراف على الحسابات والاعلانات والتوزيع وتصحيح المسودات وتسقط الآراء والاخبار.

وكان مهدي مقلّد المحامي الشاعر المدير المسؤول لجريدة العراق، وقد عرفني به رزوق غنام، فظننت انه مهدي البصير وعجبت لانه يرمقني بعينين مبصرتين. ثم علمت انه شخص آخر غير شاعر الثورة العراقية.

وتعرفت الى جماعة من زوار مجلس جريدة العراق كالدكتور سامي شوكت مدير المعارف العام وحامي الفتوة، وتحسين العسكري الذي اجتمعت به بعد عدة أعوام في القاهرة وهو وزير العراق المفوض فيها، وهلم جراً.

وفي سنة ١٩٢٩ انفصل عن جريدة العراق محررها رفائيل بطي والمحاسب جبران ملكون فأصدرا جريدة البلاد التي أصبحت من خيرة الصحف اليومية. وقد عطلت لرفعها لواء المعارضة فاستعاض عنها صاحباها بجريدة صوت العراق والجهاد والاخبار. كان رفائيل بطي صحفياً ممتازاً بالفطرة جعل «البلاد» التي اصدرها سنين طوالاً بعد انفصاله عن صاحبه جبران ملكون من احسن الصحف وأبرزها، وقد قلّد دون أن يعلم جون تاديوس ديلين John Thaddeus Delane (١٨١٧ ــ ٧٩) رئيس تحرير جريدة «التايمس» اللندنية (١٨٤١ ــ ٧٧) الذي كان يسير على خطة الالتقاء بالوزراء وكبار الرجال المسؤولين وابناء الطبقة الاجتماعية العليا والتحدث اليهم واستطلاع آرائهم وأخبارهم ليعود الى دار صحيفته في ساعة متأخرة من الليل فيكتب حصيلة ما استفاده في يومه. وكذلك كان يفعل رفائيل بطي. ومن طريف ما يروى ان شريكه جبران كان يحرص على مالية الجريدة حرصاً شديداً، وذلك طبيعي لأنه قوام حياته. وكان يحاول أن يملأ حقول الجريدة بالاعلانات التي تدرّ ربحاً وفيراً، فكثيراً ما يجيء رفائيل ليلاً وفي جعبته أخبار مهمة فيرفع بعض الاعلانات ليضعها في محلها. وكان ذلك مثار اختلاف ومساجلة بين الشريكين.

وعرفت طه الهاشمي في وزارة الخارجية اذ كان كثيراً ما يأتي لزيارة صديقه المدير العام موفق الألوسي. ثم تولّى خالي طبع كتبه، فكان يأتي صباح اكثر الجمع الى محله التجاري فيجلس ويتحدث ساعة او ساعتين. ولم ينقطع عن الزيارة الا بعد ان تقلد وزارة الدفاع ورئاسة الوزراء.

وكان عبد المسيح وزير اقدر المترجمين وأفصحهم بالرغم من ذهوله. بدأت بترجمة كتاب عن لورنس الذي اشتهر في ثورة الحجاز وحرب الجزيرة العربية سنة ١٩١٦ ــ ١٨. وقد أرشدني عبد المسيح الى أمور دقيقة في فن الترجمة، غير انني لم انجز الترجمة. وقد نشرت الفصول التي نقلتها الى العربية متسلسلة في جريدة العراق سنة ١٩٣٤. وجدير بالذكر ان صاحب الجريدة قدم لها بتوطئة قال فيها ان المؤلفين الانكليز نسبوا كل الفضل في حركات الثورة الى لورنس وبخسوا حق الضباط العرب امثال جعفر العسكري ونوري السعيد.

فكرنا سنة ١٩٢٩ باصدار جريدة اسبوعية تكون شيئاً جديداً في عالم الصحافة العراقية وذلك بأن تختصّ بالاعلان وتوزع مجاناً. وفي ١٢ أيار ١٩٢٩ برز العدد الاول من جريدة الدليل لصاحبها الياهو دنكور ومديرها المسؤول المحامي سليم اسحق. كنت، وانا موظف بوزارة الخارجية اتولى التحرير، وكان أخي صالح الموظف بوزارة المالية يشرف على شؤون الادارة والاعلانات. وقد كتبنا على رأس عددها الاول انها «أروج جريدة في العراق»، فكتب سليم حسون في جريدته العالم العربي يقول: «ماذا نستطيع ان نتمنى لهذه الجريدة وقد أعلنت عن نفسها انها اروج الجرائد؟» فرددنا عليه بأنها جريدة مجانية، وكل شيء مجاني رائج في هذا البلد!

بدأت اكتب في «الدليل» مقالات اقتصادية وتجارية وأنشر قصصاً وشعراً مترجماً عن الانكليزية وألخص أخبار الاسبوع الداخلية والخارجية. ونشرت الجريدة صوراً للملك فيصل الاول ورضا شاه ايران بمناسبة تبادل الاعتراف السياسي وانشاء الصلات الدبلوماسية بين البلدين. وخصصت نصف صفحات الجريدة الثماني للاعلانات التجارية. لكن الحقيقة ان مثل هذا المشروع كان سابقاً لأوانه لأن التجار وسائر الاهلين لم يكونوا يقدرون الاعلان والدعاية حق قدرهما. ومن الجهة الأخرى كان التوزيع المجاني غير منتظم فسرعان ما أصبحت الجريدة مورداً للبقالين والعطارين وأمثالهم للفّ مبيعاتهم. وكنا ونحن موظفون نسهر ليالي الاسبوع للعمل، فثبطت همتنا بعد حين وأغلقنا «الدليل» بعد صدور خمسة أعداد لا غير.

واذكر ان ابن عمي يوسف جاء الى بغداد سنة ١٩٢٩ في زيارة مع زوجته (شقيقتي فكتوريا) ووالدته بعد غياب اكثر

من ربع قرن وجلب معه كتاباً باللغة الفرنسية عن اصول الديانة اليهودية يدّرس في المدارس الاسرائيلية في فرنسة. وكان الكتاب من تأليف الحاخام سلمون دبريه Rabbin Solomon Debré (وهو جدّ ميشيل دبريه الذي اصبح رئيساً لوزراء فرنسة في عهد الجنرال ديغول سنة ١٩٦٢). واطلع على الكتاب عزرا مناحيم دانيال رئيس لجنة المدارس فاستحسنه وسألني ترجمته لتدريسه في مدارس الطائفة. وقد فعلت وقدّمته الى عزرا دانيال، ولكن تخلف عن طبعه لسبب أجهله.

انصرفت بعد تركي وزارة الخارجية الى المطالعة والدراسة والكتابة. كتبت قصصاً (الرجل الذي انتظر، الرجل الذي لم ينتظر، العودة، نداء الحب، النقمة، الخ.)، ونظمت شعراً، وكتبت بحوثاً عن الشعراء الذين أحببتهم (ابو فراس الحمداني، وليّ الدين يكن، جبران خليل جبران، لامارتين، الفرد دي موسّيه، الفرد دي فنيي الخ)، وترجمت قصائد (لبيرون وكبلنغ وبليك وتنيسن وفنيي...) ونشرت آثار قلمي في جريدة العراق والبلاد والأهالي والاخاء الوطني وغيرها.

وابتدعت منظومات عربية على شكل «السّونيت» الغربية، وقد سميتها بعد ذلك «الإرنانة» وجمعها «أرانين»([١٦])، فأقرّني على هذه التسمية الصديق الدكتور مصطفى جواد. نشرت جريدة العراق في ٢ تموز ١٩٣٥ (بعددها ٣٩١٨) احدى هذه الارانين وقدّمت لها بالكلمة التالية بعنوان «الأدب الجديد»:

في الشعر الغربي مقاطيع منظومة تدعى Sonnet تتألف من أربعة عشر بيتاً ذا مصراع واحد وتقسم الى أربعة اقسام، يحتوي كل من القسمين الأولين على أربعة أبيات مشتبكة القافية، والقسمين الأخيرين على ثلاثة أبيات ذات قافية مزدوجة. وتتضمن المقطوعة نفسها معنى كاملاً، يمهّد له في الابيات الاولى ويتمم في الأبيات الأخيرة. وقد عنى أكابر ادباء الفرنجة بنظم امثال هذه المقاطيع، واختص فريق منهم بنظمها دون سواها من القصائد والمنظومات فبرز فيها تبريزاً فائقاً وسارت مقطوعاته سير الامثال لما جمعته في ذاتها من ايجاز في القول واحكام في المبنى واكتمال في المعنى.

«ولقد كان الشاعر المجدد الاستاذ مير بصري ــ على ما نعلم ــ اول من عني بإدخال هذا الضرب من الشعر الى اللغة العربية، فنظم من هذه المقاطيع عدداً وافراً في معانٍ مبتكرة وألفاظ عذبة...»

برز بعد الحرب العالمية الثانية شعراء شباب كنازك الملائكة وبلند الحيدري وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي فادعى كل منهم السبق الى تجديد الشعر العربي وابتكار الأساليب الطريفة وابتداع الشعر الحرّ وما ماثله من فنون النظم الجديدة. واحتدم الجدال بعد ذلك فيمن كان المجلّي، لكن الاديب القاضي محمود العبطة كتب في جريدة «البلد» في اول شباط ١٩٦٧ يقول انه حاول في كتابه عن السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق المطبوع سنة ١٩٦٥ دراسة الحركة الشعرية بلونها الجديد شكلاً ومضموناً حتى ميلاد الشعر الحر وريادة المرحوم السياب وأضرابه لهذه الحركة، ثم انطلاقها من وطننا الى الاوطان العربية.

ثم قال: «وقد فاتتني الاشارة الى عدد غير قليل من الشعراء العراقيين الذين اسهموا بجدارة بهذه الحركة بسبب اسراعي في انجاز الكتاب المذكور قبل انعقاد مؤتمر الادباء العرب في بغداد، لكي يعكس صورة تقريبية لعبقرية الشعر العراقي الحديث عند المؤتمرين المحترمين. وقد عثرت على كلمة في جريدة العراق (عدد ٣٩١٨ الصادر في تموز ١٩٣٥) بعنوان الادب الجديد جاء فيها ما يلي، أذكرها خدمة للحقيقة وللتاريخ». ونقل العبطة كلمة جريدة العراق وعلق عليها قائلاً:

«ذلك ما قالته جريدة العراق قبل اكثر من ٣١ سنة، نشر بعدها الاستاذ الشاعر مير بصري عدداً وافراً من الملاحم

القصصية ومقطوعات شعرية اسماها «الارانين»، وهي ترجمة لعبارة «السونيت» الواردة في كلمة جريدة العراق اعلاه. والاستاذ بصري بمواهبه العديدة واجادته التامة للغة الانكليزية والافرنسية ولعمله الدائم الدائب في حقل الشعر العراقي طيلة حقبة غير قصيرة من عمره الأدبي الزاهر، يعتبر بحق وجدارة من رواد الشعر الجديد في العراق. انها تحية وفاء للخدمة الصادقة للشعر العراقي».

وعلق محرر الصفحة الادبية زهير احمد القيسي على تلك الكلمة مشيراً الى جهود صاحبها المتواصلة في حقل متابعة جذور الشعر الجديد في العراق، لان ذلك قد يعني الكثيرين ممن يهمهم تسجيل تاريخ أدبنا العراقي بدقة وحصافة.

ومن الطريف ان جريدة الاهالي نشرت لي سنة ١٩٣٤ قصة «نداء الحب» وفيها ذكر لطبيب اكتشف مصلاً واقياً من مرض النوم، فحذف المحرر اسم المرض اعتقاداً منه انه لا يوجد مثل هذا الداء في المناطق الاستوائية!

وقد زرت جميل صدقي الزهاوي الشاعر الحكيم في داره مرّات قبل وفاته، وكنت قد رأيته قبل ذلك في المحافل العامة. تحدث عن شعره وشيخوخته ومرضه وتعبه في الاجابة على الرسائل الكثيرة التي ترده وسعيه في توجيه الشباب الى مناهج الادب الصحيح. وقال انه وردته رسالة من مجلة الهلال المصرية تسأل رأيه في تقدم الثقافة ونهضة الادب العربي والوسائل الناجحة لتحقيق ذلك. كان يتكلم عن نفسه وشعره طول الوقت، وكان يعتقد انه مغموط الحق لا ينال التقدير الذي يستحقه.

ويذكر في هذا الصدد ان الزهاوي نظم قصيدة فأبردها الى مجلة الهلال للنشر ثم بدا له تصحيح بعض أبياتها. فلم يكن منه الا أن اسرع الى مديرية البريد والبرق العامة وقابل مديرها الدكتور فائق شاكر وطلب منه استخراج رسالته قبل ارسالها الى مصر. فقال له المدير العام ان استخراج الرسالة من بين آلاف الرسائل امر عسير، والافضل ان يشفعها برسالة ثانية يصحح فيها ما يرى تصحيحه. قال الزهاوي: ولكنني لا أريد صاحب «الهلال» ان يعلم انني اعيد النظر في قصائدي بعد نظمها! ولم يكن بدّ للدكتور فائق ازاء الحاح الشاعر العبقري الا ان اوعز الى موظفيه بنبش الرسائل المهيأة لارسالها الى مصر واستخراج رسالة الشاعر واعادتها اليه، وان كلفهم ذلك مشقة عظيمة.

في سنة ١٩٣٢ تخرجت الدورة الاولى لكلية الطب الملكية وأوفد البارزون من خرّيجيها، كالدكتور كرجي ربيع والدكتور جاك عبودي شابي[١٧]، الى لندن للاختصاص. وعادوا بعد سنة واحدة ليحتلوا مراكز طبية في ادارة الصحة. وكان هؤلاء الاطباء اصدقاء لاولاد عمي فكنّا نجتمع بهم في كثير من الامسية. وقد اختص الدكتور شابي بالامراض العصبية وعين مديراً لدار الشفاء في المستشفى الملكي. وهي مقرّ المجانين والممسوسين. ذهبنا ذات يوم لزيارة الدار وتفقد نزلائها، وكان الدكتور يسير في المقدّمة وراء الحارس الطويل الضخم الذي تتدلّى شواربه الكثيفة على فكّيه وفي يده عصا غليظة يفتح بها الطريق، فكان مجرّد وجوده يثير الرعب والهلع في نفوس المجانين فينزوون ويبتعدون عن طريقه. وكانت هناك قاعات متصلة اولاها للذين في عقولهم مَسّ والمعتوهين واصحاب السويداء، وهم فئة حزينة منكفئة على نفسها بعيدة عن الأذى. ومنهم من يهذي بعبارات غير مفهومة او أقوال لا مناسبة لها. وفي القاعة الاخيرة المجانين الشرسون الذين يخشى اعتداؤهم على من حولهم، فكبّلوا بالحديد اتّقاءاً لشرّهم. وخرجنا من تلك الزيارة وفي صدورنا ألم على جزء من الانسانية كئيب لا علاج لدائه.

الدليل العراقي

قرر خالي الياهو عزرا دنكور اصدار دليل للعراق، فحصل على موافقة وزارة الداخلية على اصدار الدليل العراقي الرسمي(١٨) لسنة ١٩٣٦ باللغتين العربية والانكليزية. وقد عهد الى محمود فهمي درويش رئاسة تحرير القسم العربي، وقمت انا بمساعدته والاشراف على القسم الانكليزي، وتولّى صالح أخي شؤون الاعلان وجداول التجار واصحاب المصانع الخ. واتسع العمل وطال، فصدر الدليل في خريف سنة ١٩٣٦ بمجلدين ضخمين من القطع الكبير، مجلد عربي عدد صفحاته ١٢٢٠ وآخر انكليزي في ٩٥٠ صفحة.

لم يكن دليلاً في الحقيقة بل دائرة معارف صغيرة للعراق، تضمن تاريخه القديم والحديث وجغرافيته وقانونه الأساسي وشؤون وزاراته ودوائره وموظفيه وبحوث تتناول الاوقاف والجوامع والمساجد والتمثيل الخارجي والشرطة والصحة والسجون والنفوس والبلديات والمالية والكمارك والمكوس وميناء البصرة وميزانية الدولة والمحاكم والقضاء والجيش والاشغال والري والبريد والبرق والزراعة والمساحة والبيطرة والسكك الحديدية والمعارف والمدارس والآثار والتنقيبات الاثرية والالوية والمصايف والطوائف والنفط والمعادن والصناعة والصحف والمجلات والنوادي ومعجم الاعلام والأسر والاطباء والمحامين، يتلو ذلك فصول عن التجارة واحصاءاتها والغرف التجارية والمصارف ومواسم الشراء واسعار الحاصلات والعناوين التجارية المفصلة حسب الاصناف والمهن مع الاعلانات والفهارس والخرائط ومئات الصور.

كان عملاً ضخماً طالما سهرنا الليالي في تحقيقه وتحريره وانجازه. وقد حاز قبولاً طيباً في داخل العراق وخارجه، وكان خير دعاية للبلاد وتعريف بشؤونها واحوالها. وقد أطرته الصحف والمجلات في العراق وبريطانية والهند وغيرها. فقالت مجلة بريطانية العظمى والشرق: «ان الدليل اكثر كثيراً من كتاب معلومات تجارية، فهو بكل معنى الكلمة كتاب سنوي عن العراق... وهو بالتأكيد ضروري لكل الذين يهتمون بتلك البلاد». وكتب الينا الكردينال اوجنيو باشيلي Eugenio Pacelli سكرتير دولة الفاتيكان الذي أصبح بعد ذلك رئيس الكنيسة الكاثوليكية باسم البابا بيوس الثاني عشر يقول: «انه مرجع مفيد جداً، ولا بد انه تطلب قدراً كبيراً من البحث والدراسة».

وأصبحت دائرة الدليل مركزاً استعلامياً عن العراق فوردتنا الاسئلة الكثيرة عن أحواله وشؤونه. وكلفت شخصياً ان اكتب تراجم موجزة لرجالات العراق نشرت في دليل الشخصيات الدولية International Who's Who الصادر في لندن، كما وضعت بحثاً عن العملة العراقية لكتاب المصارف المركزية العالمية في سويسرة باللغة الفرنسية.

الدعاية النازية

اشتدّت الدعاية النازية في ذلك الحين برعاية الوزير الألماني المفوض الدكتور فريتز غروبّا الذي بذل المال وقدّم شتى الاغراءات للصحف والمدرسين القوميين والفلسطينيين والسوريين العاملين في العراق وغيرهم من الشباب والكهول. وكان نادي المثنّى الذي يرأسه الدكتور صائب شوكت مركزاً للدعاية. وكانت جريدة العالم العربي لصاحبها سليم حسون تنشر ترجمة كتاب هتلر «كفاحي» بصورة متسلسلة. وقد عزم خالي على نشر كتاب مضادّ للنازية، فجلب كتاباً باللغة الانكليزية وفكرنا في ترجمته. علم غروبّا بذلك فحاول اقناع خالي بترك الفكرة، ولما لم يستجب لطلبه، هدّده بالاساءة الى ابن اخيه نيازي دنكور الذي كان يعمل آنئذٍ بالتجارة في برلين. وكان ذلك نهاية المشروع الذي لم يقدر له رؤية النور.

ولا بدّ لي أن أقول ان سليم حسون بدّل خطته سنة ١٩٤١ بعد اندحار حركة رشيد عالي الكيلاني فأصبحت جريدته بعيدة عن التطرّف والتجنّي. ولما توفي سنة ١٩٤٧ الفت لجنة لتأبينه في احدى الكنائس ودعيت الى المشاركة فيها، لكنني اعتذرت.

وكان الدكتور سامي شوكت مدير المعارف العام في طليعة المنادين بالقومية، لكنه لم يكن معادياً لليهود، بل كان يأتي الى ندوة جريدة العراق فيصرّح ان العرب واليهود أبناء عمّ للأولين الاراضي والنفوس وللأخيرين المال والعقول، فاذا تعاونوا خدموا النهضة الاقتصادية والصناعية في الشرق الاوسط ونشّطوا الاعمال وسرّعوا التقدم في هذه الربوع.

ألقى الدكتور سامي في خريف سنة ١٩٣٣ خطاباً بعنوان «صناعة الموت» داعياً الى احراز القوة لدعم استقلال البلاد ومنادياً بنبذ الترف والتمسّك بشعار «اخشوشنوا فإنّ الترف يزيل النعم». فقال المدرّس رزق الله اوغسطين: «صناعة الموت يتقنها الطبيب الجاهل». (وسامي شوكت طبيب كما هو معلوم). وأنشأ سامي شوكت نظام الفتوّة واتخذ لقب «حامي الفتوّة» وأدخل التدريب العسكري في المدارس. والف سنة ١٩٣٩ كتاباً بعنوان «هذه أهدافنا» قال فيه: «هذه أهدافنا مَنْ آمن بها فهو منّا!» لكن شباب الفتوّة استأسدوا وتنمّروا في شهر ايار ١٩٤١ بحجة الدفاع عن الامن الداخلي فلم ير رشيد عالي الكيلاني بدأً من الغاء هذا النظام.

دعا سامي شوكت الى «الغرور القومي»، فرددت عليه ضمناً بحديث عنوانه «القومية بين الشعور والغرور» أذيع من دار الاذاعة العراقية في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٣، قلت فيه ان الشعور القومي يعمر القلوب بالعزم والايمان ويسدّد النفوس الى غاية سامية رفيعة. وهو الشعور بالفكرة العربية التي حملت الى العالم والانسانية في العصور الخالية رسالة الخير والمدنية والسعادة. وهو شعور يحدو بصاحبه الى الاعتداد بنفسه والاعتماد عليها دون ازدراء غيره او الحطّ من شأن سواه. ثم قلت: «والغرور من الكلمات التي لا تحمل الى الفكر معنى خليقاً بالاستحسان والاكبار ولو نعت بالقومية وذكر بالخير والاطراء... فحبذا الشعور ولا حبّذا الغرور!».

غرفة تجارة بغداد

دعاني قاسم باشا الخضيري رئيس غرفة تجارة بغداد والياهو العاني سكرتيرها الى إشغال وظيفة رئيس التحريرات فوافقت وباشرت العمل في ٢١ أيار ١٩٣٥. كانت ادارة الغرفة شبه منحلة وامورها مختلّة فحاولت جهدي لاصلاحها وتنظيم أعمالها. وكان محمد جعفر ابو التمن نائب الرئيس منذ سنة ١٩٢٩ قد استقال معترضاً على هذا الاختلال، فلما ألف ياسين الهاشمي وزارته الثانية في آذار ١٩٣٥ حمله أبو التمن على تعديل قانون غرف التجارة واجراء انتخاب جديد للجنة الادارة. وقد فاز بالرئاسة محمد جعفر ابو التمن واختير ابراهيم حييم معلم اسحق نائباً للرئيس ومحمد كامل الخضيري سكرتيراً. وعدّل نظام الغرفة فجعل عنوان منصبي معاون السكرتير، ثم عدّل عنواني الى مدير الغرفة في ١٩ كانون الاول ١٩٤٣.

أضفى انتخاب اللجنة الجديدة روحاً حية ونشاطاً ملموساً على جوّ الغرفة. وسرعان ما أقدمنا على اصدار نشرة اسبوعية وتقريراً شهرياً وتقارير سنوية وافية باللغتين العربية والانكليزية تناولت شؤون التجارة والاقتصاد واحصاءاتها.

اتخذت الوزارة الهاشمية اجراءات لتحديد التجارة مما لم يكن مألوفاً في ذلك العهد وحاولت حصر التجارة مع اليابان في يد احدى الشركات اللبنانية. وأنشأت بورصة التجارة لضبط المتاجرة بالمنتوجات المحلية الرئيسية كالحبوب والتمور والقطن والصوف والجلود. وكانت كل تلك القيود مدعاة تذمر التجار ومعارضتهم.

وفي ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦ اسقطت وزارة ياسين الهاشمي على اثر الانقلاب الذي قاده الفريق بكر صدقي، فتولى حكمت سليمان رئاسة الوزراء، وأسندت وزارة المالية الى رئيس الغرفة محمد جعفر أبي التمن الذي لم يتخلّ عن رئاسته بل جمّدها بصورة وقتية. وقد طلب اليَّ الحضور في الوزارة بين الحين والحين للاستشارة، وعهد اليَّ بوظيفة مراقب البورصة بالوكالة بعد استقالة المراقب وذلك علاوة على وظيفتي.

وحلّت سنة ١٩٣٧ فقرر العراق الاشتراك في معرض باريس الدولي الذي عرف رسمياً باسم «معرض الفنّ والصناعة». وقد اختير الدكتور عبد الاله حافظ مدير التجارة في وزارة المالية مندوباً عاماً في المعرض، ووقع الاختيار عليّ لمساعدته في مهمته وتمثيل غرفة التجارة. وانتدب انور خياط رئيس لجنة التمور تمثيل لجنته، كما انتدب المهندس المعماري احمد مختار ابراهيم مساعداً للمهندس الفرنسي المكلف باقامة الجناح العراقي. أعددنا المعروضات العراقية وقمنا بشحنها الى العاصمة الفرنسية، وكان فيها مفوضية يرأسها الوزير المفوض علي جودت الأيوبي، ثم سافر الدكتور عبد الاله وتبعته بعد أمد قصير.

باريس والمعرض

غادرت بغداد في ١٠ ايار ١٩٣٧ الى دمشق وبيروت، وركبت الباخرة «سفانكس» التي توقفت قليلاً في طريقها في حيفا والاسكندرية ثم مخرت عباب البحر المتوسط فبلغنا ميناء مارسيلية بعد ستة أيام. ولا أنسى مشهد بركان سترومبولي التي ترتفع فوهته كالنجم النيّر المضطرم الى يميننا بعد عبور بوغاز مسّينا بين حذاء الجزيرة الايطالية وصقلية. كان منظراً مهيباً يشير الى صغر الانسان وضعفه بين البحر الخضمّ الممتد الى الافق البعيد والنار الملتهبة التي ترفع لسانها الى السماء.

بلغنا مارسيلية فلم أمكث فيها سوى نهار واحد، ثم ركبت القطار ليلاً فكنت في باريس صباح التاسع عشر من شهر ايار. كان المطر ينهمر بشدة وتراءى الجو كئيباً والناس تتراكض في الشوارع وكأنها النمل الذي يسعى لا يلتفت يميناً ولا شمالاً. ولا ادري لماذا استولى على نفسي شعور الكآبة والقلق: هذه باريس العظيمة تعجّ بالملايين من نفوسها، وانا وحيد في الفندق لا أعرف احداً ولا يحفل بي أحد...

لكن سرعان ما ذهبت الى المفوضية العراقية فوجدت الدكتور عبد الاله حافظ الذي رحّب بي وعرّفني بالوزير المفوّض علي جودت الايوبي والسكرتير يوسف اسماعيل والكاتب المحلي فتح الله (فاني) عبود وسائر الموظفين الفرنسيين. اذ ذاك رأيت باريس بعظمتها وبهائها، فوجدتني، وقد قرأت عنها كثيراً ودرست تاريخها وألممت بأحداثها وشؤونها، وكأنني ألتقي بصديق قديم فارقته قبل عهد قريب. وقد سألني علي جودت بعد أيام: هل كنت في العاصمة الفرنسية من قبل؟ قلت: لا. فقال: اذن كيف تعرف معالمها وتتحدث عن أخبارها؟ وكان الجواب بديهياً.

كتبت عن باريس ومعرضها في كتابي «مباحث في الاقتصاد العراقي» (بغداد ١٩٤٨) فقلت ان باريس قد انفردت عن العواصم والحواضر بسحر وجاذبية غريبين: «ذلك ان للمدن كما للأشخاص أرواحاً، وقد امتازت مدينة النور بروح خاص بها هو مصدر السحر ومبعث الجاذبية، روح تشعر به ولكن لا تستطيع له وصفاً».

وقد زرت باريس بعد الحرب العالمية الثانية مراراً، فلم يذهب سحرها ولا وهنت جاذبيتها، لكن نفسي على ما يبدو قد تغيّرت خلال تلك السنوات الطويلة فغمرتها اللوعة، وقلت:

باريس، قد عاد المسافر حاملاً	قلباً شجيّاً وافر الاشواق
قد عاد يرجو نهلة من أمسه،	هيهات يزهر ذابل الأوراق!
أيؤوب ماء النهر نحو معينه	ويعاف مورد بحره الدفّاق؟
ذهب الشباب غرامه ومطامح	ملأت شغاف العاشق الخفاق...
تلك السنون تصرّمت، يا ويحها!	غذيتها بمدامع الآماق
وسمت رؤاي بميسم لا ينمحي	فنمت بذور الحزن في الاعماق
ومضيت لا ألوي على سمت الورى	كالبدر يخفى في ظلام محاق

افتتح المعرض في ٢٤ ايار باحتفال باذخ في «القصر الكبير» حضره رئيس الجمهورية وممثلو الدول. لكن الجناح العراقي لم يكن كاملاً فسعينا الى انجاز بنائه وتنظيم معروضاته وترتيب أروقته التي مثلت العراق بحضارته القديمة ونهضته الحديثة. وكان جناح النفط الذي بدىء بتصديره منذ وقت قريب من أفخم الأجنحة وأشدها اجتذاباً للزوّار. كنت أداوم صباحاً في المفوضية، ثم نمضي عصراً إلى المعرض لنباشر شؤونه. وزرت خلال هذه المدة معالم باريس وضواحيها وقضيت أياماً في بروكسيل عاصمة بلجيكة.

ثم احتفل في الشهر التالي بافتتاح الجناح العراقي بحضور عدد كبير من الضيوف الفرنسيين والعرب والاجانب والعراقيين المقيمين في فرنسة أو الذين أتوها زائرين. خطب وزير التجارة الفرنسي والدكتور عبد الاله حافظ وأعلن وزير العراق المفوض افتتاح الجناح. كانت الأصول تقضي بأن تكون الخطب بالفرنسية لغة الدبلوماسية ولغة البلد. ولم يكن ذلك صعباً على الدكتور عبد الاله الذي تلقى دراسته العالية في باريس. أما علي جودت فطلب اليّ قبل موعد الافتتاح أن أعد له خطابا باللغة الفرنسية. هيأت له كلمة مختصرة فأخذ يتمرن على قراءتها، لكنه سألني بعد أيام أن أوجزها. ومضت أيام أخرى وهو يطلب اليّ أن أختصر الخطاب كلما عاود النظر فيه.

وأخيراً حلّ اليوم الموعود ووقف الوزير المفوض على المنصة يلقي كلمته، فلم تزد على جملة مقتضبة مآلها أنه، باسم جلالة ملك العراق يتشرف باعلان افتتاح الجناح العراقي.

دأبنا خلال تلك المدة على بث الدعاية الطيبة للعراق وتعريفه للفرنسيين ومئات الآلاف من الزوّار الذين وفدوا على المعرض من الشرق والغرب. طبعنا نشرات باللغتين الفرنسية والانكليزية عن العراق وشؤونه وتجارته وتموره ونفطه وآثاره. وحصلت المعروضات العراقية على جوائز مختلفة ذهبية وفضية وبرونزية. وقررت الحكومة الفرنسية منحي وسام فرقة الشرف (لجيون دونور) برتبة فارس، لكن الاجراءات طالت ونشبت الحرب العالمية فحالت دون تقليدي الوسام.

زار باريس في صيف سنة ١٩٣٧ مئات من العراقيين وزراء وموظفين وتجار وشيوخ عشائر. وقد قمنا باستقبالهم واصطحابهم لزيارة معالم المدينة ومتاحفها. ومن الشخصيات التي وفدت بمناسبة المعرض توفيق السويدي وأرشد العمري وتحسين العسكري وعبد القادر رشيد وموفق الألوسي وداود سمره(١٩) وحسن رضا وأنطوان شماس وعبد اللطيف نوري ونجيب الراوي وعارف السويدي، وتحسين علي والشيخ عجيل الياور وداود الحيدري وحامد النقيب والدكتور فائق شاكر ورستم حيدر وصالح جبر وابراهيم الكبير وصبيح نجيب وحسام الدين جمعة وعبد الرزاق حلمي وجميل الوادي ومحمد سليم الراضي وزكي قدري وابراهيم الشابندر وحسقيل شمطوب(٢٠) ونوري فتاح ومكي الجميل وفؤاد خياط وسلمان الشيخ داود وغيرهم.

ومن اللطائف الجديرة بالذكر أن أحد الشيوخ ارتدى البدلة الافرنجية لأول مرة وكان لا يحسن شدّ ربطة عنقه. فكان في كل صباح يستدعي أحد خدم الفندق ليشدّ ربطته وينفحه بمائة فرنك. وسئل أحد الشيوخ كيف شاهد المعرض فقال: مذ غادرنا بغداد فكل الدنيا معارض!

وجاء إلى المفوضية أحد الطلبة الموفدين للدراسة، فسأله الشيخ عمّ يدرس فقال: انني أدرس اللغة الفرنسية سنة تحضيرية ثم أتخصّص في القانون. فاعترض عليه وقال: ان هذا تبذير لأموال الأمة، فإما أن تدرس اللغة أو تدرس القانون.

واستصحب أحدهم فتاة غربية أتى بها معه من بعض ملاهي بغداد، فقيل له: عجباً هل ينقل التمر الى البصرة؟

وسأل أحد ملاكي النخيل في البصرة قادماً جديداً عن الحرّ في ثغر العراق، فأجابه: ان هذا الصيف معتدل ولم يحصل حرّ شديد، والحمد لله. فقال الملاك: يا للأسف، ان تمورنا لن تنضج في الموسم وسوف تهبط أسعارها. فقال له الرجل: عجباً لك، تقضي الصيف مصطافاً وتريد ان يهلك القيظ أهل البصرة لتنضج تمورك ويزداد ربحك!

ومن المضحكات ان وزارة حكمت سليمان عيّنت بعض المنتمين الى اليسار والحزب الشيوعي موظفين في السلكين الخارجي والمدني، وكان منهم يوسف اسماعيل أخو عبد القادر اسماعيل الذي كان في بادىء أمره من انصار كامل الچادرچي ومن محرري جريدة الأهالي، ثم تطرّف في شيوعيته وغادر العراق ليعود اليه بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. عين يوسف اسماعيل، وهو خرّيج كلية الحقوق، سكرتيراً لمفوضية باريس ليكون عيناً على الوزير المفوض. كان يقول لي: ما لي ولباريس؟ ان جلسة واحدة في هذا الصيف في سرداب دارنا بباب الشيخ لتعدل باريس وكل ما فيها. وجئته يوماً فوجدت غرفته في المفوضية مغلقة بالمفتاح من الداخل. طرقت الباب ففتحه بعد لأي ورأيته يصبغ حذاءه. قال: اليس عجيباً ان لا تجد في باريس صباغ احذية؟ قلت: كيف ذلك؟ فالصباغون منتشرون في محطات المترو والطرقات. ثم ان كنت تقيم في فندق او نزل فحسبك ان تضع حذاءك خارج الباب ليلاً لتجده مصبوغاً وملمعاً في الصباح. قال: حسن، سأفعل ذلك واستريح من صبغ حذائي بيدي.

وعدت بعد اسبوع الى غرفته فوجدته يصبغ حذاءه ايضاً، قال: انتظر نفاد علبة الصبغ هذه لأعمل بنصيحتك!

جاء تحسين علي متصرف لواء البصرة والشيخ عجيل الياور شيخ عشيرة شمّر الى باريس بعد زيارة لندن وشهود تتويج الملك جورج السادس. وقد سألني تحسين بك أن اريهما معالم مدينة النور، فأعجبا خاصة بشارع الشانزليزه الذي لا مثيل له في العالم من حيث الجمال والفخامة والسعة والاشجار الظليلة التي تشرف على جنباته والمباني الباذخة القائمة على جانبيه.

وسألني كم عرض الشارع، فقلت: الأمر سهل. ففي باريس مؤسسة اسمها .S.V.P ، وهي رؤوس الحروف الفرنسية لكلمة «لطفاً». وهي تجيب على الأسئلة التي توجه اليها لقاء اشتراك زهيد، وتتولى عمل الدراسات ووضع التقارير عن كل امر سواء في فرنسة او في أنحاء العالم. وأدرت قرص التلفون على الحروف الثلاثة لأن المؤسسة قد اتفقت مع دائرة الهاتف على ان تكون حروف اسمها بديلاً عن الرّقم، فأجابني صوت فتاة رقيق: هنا «اس. ڤ. پ»، صباح الخير، تفضل.

ـ هنا المفوضية العراقية، ولنا سؤال.
ـ هل أنتم مشتركون في مؤسّستنا؟
ـ كلا، ولكن قد نفكر في الاشتراك.
ـ اذن سل ما بدا لك.
ـ كم عرض شارع الشانزليزه؟

وبعد هنيهة قضتها في المراجعة قالت الفتاة ان عرض الشارع في وسطه، وهو أرحب مكان فيه، يبلغ ٦٠٠ متر.

وكان هذا الجواب مدعاة ارتياح تحسين علي والشيخ عجيل وحسماً لاختلافهما في تقرير عرض الشارع.

واروي بعد ذلك قصتين تدلان على الاخلاق السياسية السائدة: فقد اقترن نجيب الراوي في صيف ١٩٣٧ بكريمة محمد فاضل باشا الداغستاني شقيقة زوجة حكمت سليمان رئيس الوزراء، ثم قام برحلة الى اوربة مع عروسه. وردت اخبار

سفر العروسين واستعدّ أركان المفوضية لاستقبالها عند قدومها الى باريس والاحتفاء بها نظراً الى كون السيدة شقيقة حرم رئيس الوزراء.

وطالت سفرة الراوي، فكانت الاخبار ترد بوصوله الى ايطالية ومغادرته الى المانية وقرب حلوله في العاصمة الفرنسية. وكان رجال المفوضية ينتظرون قدومه على أحرّ من الجمر ويتناقشون في الفندق الذي يحجزون له شقة لسكناه ويتذاكرون في منهاج زياراته ونزهاته في عاصمة النور...

وأخيراً وردت برقية تنبىء بأنه يصل الى محطة الشمال في الغداة قادماً من بروكسيل. لكن وردت البرقية مع الأسف بعد يوم او يومين من مقتل بكر صدقي واستقالة وزارة حكمت سليمان، فانشغل أركان المفوضية بأحداث العراق الطارئة وصرفوا النظر عن الراوي ومقدمه واستقباله وفندقه ومنهاج زياراته.

واستدعاني الوزير المفوض فكلفني أن أتولى استقبال نجيب الراوي وعروسه في المحطة. فحُجزت له غرفة في بعض الفنادق واستقللت سيارة أجرة في الوقت المعيّن ومضيت الى محطة القطار.

وصل القطار، وأطل الضيف من نافذة الصالون الخاص وأجال بصره فلم ير أحداً سواي وسيارة الأجرة. فبادرت اليه وصافحته مهنئاً بسلامة الوصول واعتذرت له باسم الوزير المفوض وأركان المفوضية. فابتسم وركب السيارة معي الى فندقه.

أما الحادثة الطريفة الثانية فتتعلق بالفريق عبد اللطيف نوري وزير الدفاع وزميل الفريق بكر صدقي في انقلاب سنة ١٩٣٦. فقد جاء الى باريس في شهر آب ١٩٣٧ وكان موضع حفاوة كبيرة من جانب المفوضية العراقية والحكومة الفرنسية. ولم تمضِ أيام قليلة حتى وردت برقية من بغداد تشعر باغتيال بكر صدقي في الموصل وتعرض منصب رئاسة أركان الجيش على عبد اللطيف نوري، فأجاب بالموافقة. لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فبعد أيام قليلة استقالت الوزارة وألف الحكومة الجديدة جميل المدفعي، فأحال عبد اللطيف نوري على التقاعد وجرّده من منصبه. وبين عشية وضحاها رأى صاحبنا نفسه في العاصمة الفرنسية مهملاً لا يعيره أحد التفاتاً ولا يرعى له حرمة، فأسرع بالسفر الى دمشق حيث أقام في عزلة كئيبة. وقد رأيته في بغداد بعد اكثر من أربع سنوات ينتظر في غرفة السكرتير لمواجهة وزير المالية. فقلت: سبحان الله الدائم القيّوم!

وزرت جامعة السوربون مراراً فرأيت الطلبة العراقيين ومنهم حقي الشبلي (وكان يدرس التمثيل) ومصطفى جواد[٢١] وغيرهما. أما الشيخ محمد مهدي البصير فكان يدرس في مونبلييه، وورد كتاب منه الى المفوضية بالفرنسية يقول: انكم تكتبون لي باللغة العربية وليس هنا احد يستطيع قراءتها عليّ، فأرجو ان توجهوا رسائلكم بالفرنسية.

وكان في باريس يونس بحري[٢٢] «السائح العراقي» الذي اشتهر خلال الحرب العالمية الثانية في اذاعة برلين النازية. جاء الى المفوضية يطلب الوساطة لمنحه وساماً عراقياً، فقوبل بالسخرية والتندّر. فقال ان سلطان المغرب منحه وساماً. وماذا كان يعمل في باريس؟ كان يرابط في مسجدها الجامع فيؤمّ المصلين عند الاقتضاء ويؤذن بصوته الرخيم. ثم يمضي ضحى الى الحمام الشرقي الملحق بالجامع فيأتزر بالمئزر ويقوم بوظيفة الحمّامي. واذا حل المساء يذهب الى المقهى المغربي المجاور فيشارك في جوقة الطرب فيضرب على «الدنبك» (الطبلة) أو الدفّ، ويقوم عدا ذلك بمراسلة الصحف العراقية والمغربية...

كان يقيم في باريس عدد غير قليل من العراقيين، منهم من نجح في أعماله فأثرى ومنهم من خاب فاله فعانى الضيق

والمذلّة. كانوا يجيئون لزيارتنا في المفوضية فعيّنا بعضهم أعضاء في لجان تحكيم المعرض.

أذكر بوجه خاص الرجل المهذّب اللطيف عزت اسماعيل الكرخي. ولد في جانب الكرخ من بغداد، كما يدل عليه لقبه، ودرس في استانبول حيث زامل الضباط والوزراء والموظفين العراقيين المخضرمين الذين ملأوا دوائر الحكومة والجيش. خدم ضابطاً في الجيش التركي خلال الحرب العظمى الاولى، ثم انضم الى الحكومة الفيصلية في الشام بعد الهدنة، حتى اذا ما انهارت هذه الحكومة مضى الى باريس ودرس الهندسة اللاسلكية ووظف في وزارة البريد والبرق الفرنسية. وقد حدثني انه سكن مدة طويلة في حي للعمال في ضواحي باريس. وحان موعد الانتخابات البلدية فجاءه وفد من سكان المنطقة وألحوا عليه بترشيح نفسه لتمثيل حيّهم. ألفت لجنة لتأييده والدعاية له فلم يبخل عليها بالارشاد والنفقة.

وفي عشية يوم الاقتراع استأجر بناءً على اقتراح اللجنة اكبر مقاهي الحي وظل أبناء المنطقة يشربون نخبه على حسابه الى ساعة متأخرة من الليل.

وخرج في الصباح مبكراً وهو واثق من الفوز، فلم يكد يسير خطوات حتى بادره أحد الرجال بالتحية وسأله:
أين ولدت، يا مسيو كركي؟
انني ولدت في بغداد، ولكن ما وجه السؤال؟
وتكرر هذا السؤال مثنى وثلاث ورباع، فلا يراه أحد الناخبين الا قال له: أين ولدت، يا مسيو كركي؟

ورفع عينه الى جدران الدور فرآها قد لصق عليها في كل جانب اعلانات كبيرة تقول: «سلوا مرشحكم المسيو كركي أين ولد؟»

ودخل إلى قاعة الانتخاب وقد غصت بأبناء المنطقة، فإذا بمنافسه يقف على المنصّة، ويخطب في الجمع قائلاً: «أيها الاخوان، يا أبناء المنطقة، يسعدني ويشرّفني أن يكون غريمي رجل كالمسيو كركي مهندس عالم لا ينكر أدبه وفضله. انه من مواليد بغداد، وكلكم تعرفون بغداد مدينة الف ليلة وليلة وهارون الرشيد والبرامكة وبلد القصص والسحر الباذخ. ولكن، أيها الاخوان، ألا تعتقدون معي أن رجلاً عاملاً متواضعا مثلي يمثلكم خير تمثيل في المجلس البلدي لأنه يعرف مصالحكم وحقوقكم ويدافع عنها أحسن دفاع؟...»

وصفق له الناخبون تصفيقاً شقّ عنان السماء ومنحوه أصواتهم. وكان ذلك آخر عهد الكرخي بالترشيح للانتخاب.

جدّد صاحبنا الصلة برفاقه القدماء في استانبول ودمشق ممّن بلغوا أرفع المراتب في الحكومة العراقية الناشئة، كعلي جودت الأيوبي وتوفيق السويدي، فبيّنوا له حاجة العراق إلى المهندسين من أرباب الاختصاص وحسّنوا له العودة الى وطنه وكالوا له الوعود باستخدامه في الوظائف المرموقة.

وعاد الى بغداد مع زوجته الفرنسية وابنته الشابة الحسناء التي أصبحت مطمح أنظار الشباب الراقي، وقتل أحدهم في سبيلها. ولكن لم يمنح الرجل وظيفة ما على ما أعلم، وحالفه البؤس وسوء الطالع. وضع كتاباً في المخابرات والمواصلات في زمني السلم والحرب. ثم نشبت الحرب العالمية وشيكاً فقبض عليه واعتقل في الفاو. وساءت صحته فتوفي بعد اطلاق سراحه، وعادت أرملته وابنته إلى باريس بخفّي حنين.

وأذكر أن سكرتير جمعية الأليانس الإسرائيلية العالمية التي أسست مئات المدارس في الشرق الأوسط وشمال أفريقية

والتي تخرّجت في مدرستها ببغداد استدعاني الى مقابلته وسألني عن إمكان هجرة بعض اليهود الألمان كالأطباء والتجار وأصحاب المهن الى العراق. قال: لدينا مشكلة خطيرة في انقاذ أكبر عدد ممكن من يهود ألمانية من براثين هتلر وايجاد مواطن يستطيعون الهجرة اليها. قلت: إن العراق قد استقبل عدداً من الأطباء والمهندسين لا يتجاوز أصابع اليد. والحكومة العراقية وسائر الحكومات العربية تمتنع عن قبولهم بسبب قضية فلسطين التي تركت في قلوب العرب شعوراً سيئاً عميقاً. لكن التجار العراقيين استوردوا كميات غير قليلة من البضائع التي سمحت الحكومة النازية بتصديرها لحساب يهودها المهاجرين بعملة تعرف بـ «هاڤارا مارك».وذلك أقصى ما يمكن عمله لمساعدة هؤلاء البائسين.

العودة إلى بغداد

في ٢٤ حزيران ١٩٣٧ استقال محمد جعفر ابو التمن وبعض زملائه من الوزراء بعد أن رأوا تعذّر إجراء أي اصلاح في البلاد وأساليب الحكم وشاهدوا تحكم رئيس اركان الجيش الفريق بكر صدقي وتدخله في السياسة بينما راح الضباط يعيثون في البلد فساداً لا يردعهم رادع. عاد ابو التمن الى ممارسة اعماله في رآسة غرفة التجارة، فكتب اليّ يستعجل رجوعي. لكن عبد الاله حافظ، وقد أصبح الآن قائماً بأعمال المفوضية نظراً الى ذهاب الوزير المفوض علي جودت الى بغداد بالاجازة، رأى ضرورة بقائي للاشراف على المعرض وكتب بذلك الى رئيس الغرفة.

وأخيراً غادرت باريس في مساء ١٨ تشرين الاول ١٩٣٧ راكباً القطار الى مارسيلية، ومن ثم بالباخرة الى الاسكندرية. وذهبت الى القاهرة والتقيت بشقيقتي فيكتوريا التي لم أرها منذ قدومها لزيارة بغداد مع زوجها ابن عمي يوسف قبل ثماني سنوات. وزرت معالم العاصمة المصرية كالأهرام والازهر ودار الكتب والمتحف ودار الآثار العربية وحديقة الحيوان، ونزلت في باطن الهرم الكبير وتفقدت قاعتيه الخاليتين الا من ناووس فارغ.

ان عظمة مصر الفرعونية تملأ النفس بالاعجاب والروعة. خلّف القوم آثاراً خالدة على مدى الدهر، وحنّطوا موتاهم فحفظوهم ليراهم الناس بعد آلاف السنين. أما مصر العربية فوجدتها كالصديق القديم الذي أعرفه من طيات الكتب والمجلات والصحف التي كانت تأتي الى العراق وسائر الاقطار العربية حاملة الثقافة والفنّ والموسيقى الشرقية والاغاني العذبة. كانت مصر آنذاك منار هدى للعالم العربي ومركز العلم والادب ودار الحرية والأنس. زرت مصر بعد ثورة ١٩٥٢ فشعرت بالضيق الذي يشعر به من يرى الفندق والطرقات مليئةً برجال الجيش وجواسيس الامن والمخابرات. ومهما يقل في عهد الملكين فؤاد وفاروق فان الناس الاعتياديين كانوا في دعة وراحة، والارزاق متيسرة، والسجون خالية او شبه خالية، والحياة رخصة ناعمة.

غادرت مصر بعد ذلك على الباخرة الى بيروت، ثم قصدت دمشق وحللت في بغداد في الثالث من تشرين الثاني. وباشرت عملي في غرفة التجارة فبدأت باعداد التقرير السنوي الجديد وتصريف الاعمال. واتصل بي الدكتور محمود عزمي وكيل عميد كلية الحقوق وكلفني بتدريس اللغة الفرنسية في الكلية فشكرته واعتذرت عن قبول المهمة. وقد اعتدى احد الطلاب الراسبين بعد ذلك على الدكتور عزمي وأصابه بجراح، فغادر العراق عائداً الى بلده مصر. وكان أخيراً مندوباً لمصر في هيئة الامم المتحدة وسقط ميتاً وهو يخطب في مجلس الامن في تشرين الثاني ١٩٥٤.

حلّت سنة ١٩٣٨ فطلب اليّ جعفر ابو التمن اصدار مجلة شهرية للغرفة. أخذنا الأهبة وصدر العدد الاول من مجلة غرفة تجارة بغداد في اول آذار ١٩٣٨، وكانت اول مجلة اقتصادية في العراق. وقد ثابرت على تحريرها ثماني سنوات، وكنت في بادىء الامر اكتب صفحاتها من الالف الى الياء تقريباً.(٣٣).

دعيت الى الخدمة العسكرية حسب قانون التجنيد الاجباري، لكنني أعفيت من الخدمة لضعف بصري عند اجراء الفحص الطبي. وتوليت تحرير الصفحة الاقتصادية في جريدة البلاد بدعوة من صاحبها رفائيل بطي، واستعانت بي المحاكم المدنية خبيراً في الشؤون التجارية.

وكنت لا أزال أشغل وظيفة مراقب البورصه بالوكالة. وجدت عند عودتي شؤون هذه المؤسسة عاطلة لانصراف التجار عن التعامل فيها حسب القانون وانعدام التعاون معها. ولم يبق من مهامها سوى تسلم برقية من لندن تتضمن الاسعار المتداولة للحبوب والقطن والصوف وغير ذلك من المنتجات العراقية واعلانها في مقرها. واقترحت إلغاء البورصة، فسألني إبراهيم كمال وزير المالية أن أوضح له الأمر، فقلت له إن البورصات العالمية، سواء كان بورصة المنتوجات أو الأسهم، أسسها التجار للحاجة الماسة اليها، ثم اعترفت بها الحكومة. اما في العراق فكانت البورصة سابقة لأوانها أسستها وزارة المالية ولم بشعر رجال التجارة بالحاجة اليها. وعلى أثر ذلك صدر قانون توقيف أعمال البورصة التجارية في أيار ١٩٣٨ وأحيلت أعمالها على الغرفة.

كان جون سمرسكيل السكرتير التجاري للسفارة البريطانية وموظفوه وسائر موظفي المفوضيات والقنصليات الأجنبية يراجعونني لاستطلاع أحوال التجارة المحلية وتطوراتها واحصاءاتها. وكان الانكليز يشكون من أن المستوردين اليهود المسيطرين على السوق فتحوا أسواقاً خارجية جديدة كاليابان ووسعوا معاملاتهم معها فتقلصت بذلك المبادلات التجارية مع بريطانية. وكان أكثر المستوردين والمصدرين من غير اليهود يوسّطون الشركات الانكليزية العاملة في العراق في جلب المواد والبضائع وتصديرها، في حين أن زملاءهم من اليهود يتصلون في الغالب بالمحلات الاجنبية مباشرة. فكنت أقول جواباً على تلك الشكوى أن التجارة مع بريطانية لا تزال تحتلّ المقام الأول في المبادلات التجارية بين العراق والعالم الخارجي. أما استيراد اليهود للأموال من الاقطار الأخرى فرجعه الى أنهم يتحرّون المصلحة التجارية العامة فلا يمكن أن يستوردوا بضاعة ما من أي قطر إذا كان قطر آخر يعرضها بسعر أرخص. أما اختلال ميزان التبادل التجاري فرجعه الى قلة المواد الصالحة للتصدير إزاء كثرة البضائع الاستهلاكية والصناعية التي يحتاج اليها العراق بسبب تحسّن مستوى المعيشة ونشوء الصناعة الآلية الخ.

مع ذلك رأت الحكومة العراقية أن تعالج الموضوع باصدار قوانين تقتضي تصدير منتوجات عراقية بنسبة معينة من البضائع المستوردة من بعض الأقطار فأتاحت بذلك منح إعانة غير مباشرة للصادرات. وقد طبق شرط التصدير النسبي في بادئ الأمر على اليابان، ثم وسّع ليشمل ألمانية وجيكوسلوفاكية وروسية وبولندة وسويسرة وايطالية. ولعلّ هذا النظام كان أول محاولة لتقييد حرية التجارة. وقد ألغي على أثر نشوب الحرب العالمية نظراً الى حاجة العراق الى الاموال المستوردة والخوف من شحتها.

وارتأت غرفة التجارة توثيق التعاون الاقتصادي بين البلاد العربية واقترحت عقد مؤتمرات دورية لهذا الغرض تجتمع بالمناوبة في احدى العواصم العربية وتنظر في الشؤون ذات العلاقة بتوسيع التبادل التجاري والاقتصادي. وقد تبنّت الحكومة العراقية هذا الاقتراح ورحبّت به الحكومات المصرية والسعودية والاردنية واليمنية والسورية واللبنانية. واستحسنته الغرف التجارية في تلك الاقطار، لكن نشوب الحرب أدّى الى تجميد المشروع، ولم يؤخذ به الا بعد انتهاء المعارك وتأسيس جامعة الدول العربية.

كان رزق الله اوغسطين من مدرّسي الرياضيات القديرين في المدارس الثانوية. كتب في جريدة الزمان مقالات يقترح فيها تقييد حرية التجارة أسوة بما فعلته المانية وايطالية وغيرهما أنذاك، كما اقترح ان يقوم المصرف الزراعي الصناعي الذي أسس حديثاً بمنح اصحاب المزارع والمصانع سلفات بلا فائدة. وقد رددت عليه بتوقيع «باحث اقتصادي» منتقداً آراءه ومبيّناً مضارها، وطالت المناقشة بيننا على صفحات الجريدة عدة أسابيع. وقال انه درس الاقتصاد عملياً لأنه اشترى في نهاية الحرب العظمى الاولى ماركات المانية وروبلات روسية فخسر بذلك كل مدّخراته، وهل

هناك طريقة أحسن لفهم النظريات الاقتصادية؟ ثم أعلن انه انتصر على «الباحث الاقتصادي» وعلى هذا أن يعترف باخفاقه. فرددت عليه متهكماً بأبيات منها:

قد خاب فألك بالنجاح ... وبلوغ أسباب الفلاح
وحسبت نفسك فزت في ... تأييد ذاك الاقتراح
هيهات لا تفرح فما ... طلعت نجوم في الصباح
نيل انتصار زائف ... كالسكر بالماء القراح

أثارته هذه الابيات لأنه، كما اعترف بعدئذ، كان لا يستطيع الكتابة الا بعد أن يشرب «العرق». ثم دعانا توفيق السمعاني صاحب جريدة الزمان الى التعارف، فاعتذر رزق الله عمّا كتبه في السابق لأنه ظن أن مناظره أحد زملائه المخاصمين له في وزارة المعارف. ثم رأت جريدة الزمان وجريدة الاخبار أن تقف على رأي محمد جعفر ابي التمن في حرية التجارة، فصرح قائلاً: «إن حرية التجارة كانت، ولم تزل، خير نظام ينتهجه العراق لاستكمال نهضته الاقتصادية وادراك ما يصبو اليه من الثراء والرخاء، لأن نظام حرية التجارة، على ما أعتقد، هو الذي يضمن لمثل هذه البلاد استمرار التقدم الاقتصادي والتجاري المنشود على أساس ثابت وطيد، كما هو الحال في بلاد الحكومات الدمقراطية العتيدة...»

ولم يكن من رزق الله الا أن هاجم رئيس غرفة التجارة بشدة، فدعانا ابو التمن الى شرب الشاي في داره، وكان الحاضرون من أصدقائه كامل الجادرجي ومحمد حديد ويوسف عز الدين ابراهيم وغيرهم. وجاء رزق الله اوغسطين فأطال شرح آرائه في ضرورة تقييد التجارة العراقية، وانتقل الكلام بعد ذلك الى الهزء والسخرية من هذا الرجل العنيد الذي اعترف اكثر الحاضرين بأنهم درسوا الرياضيات عليه. وكذلك كانت نهاية هذه المناظرة الاقتصادية التي شغلت الصحف في الشهرين الاخيرين من سنة ١٩٣٨.

مجلة غرفة تجارة بغداد

صدرت مجلة غرفة تجارة بغداد في أول آذار ١٩٣٨ ولم تلبث ان أخذت محلها بين المجلات الاختصاصية. كنت في بادىء الامر أحرر كل كلمة فيها على وجه التقريب، وقلت في الكلمة الافتتاحية «ان الغرفة شعرت بالحاجة الماسة الى اصدار مجلة تعالج بها شؤون البلاد الاقتصادية والتجارية والمالية بروح الغيرة والحياد وتحمل الى الاوساط التجارية العراقية ما يهمها الوقوف عليه من الابحاث والاخبار والاحصاءات...» ونسّقت أبواب المجلة التي بقيت ثابتة حتى بعد تركي الغرفة، وهي القوانين والانظمة والبيانات الرسمية، والانباء والشؤون التجارية والاقتصادية، والاحصاءات، وشؤون الغرف التجارية، وأسعار البضائع والمواد الخ.

ثم دعوت جماعة من الاصدقاء الى الكتابة فيها، منهم محمود فهمي درويش ملاحظ وقاية النبات وخليل الاورفه لي مفتش الزراعة العام وجعفر خياط وخليل فدو، وبعد ذلك يوسف رزق الله غنيمة والاب انستاس ماري (٢٤) الكرملي ويعقوب سركيس وجعفر حمندي وزير الشؤون الاجتماعية وعبد الكريم الأزري وداود الچلبي وصالح قحطان(٢٥) وروبين بطاط(٢٦) والدكتور مصطفى جواد وعباس العزاوي وشيت نعمان وهاشم جواد والدكتور عبد الاله حافظ وعبد العزيز المظفر وعبد المجيد محمود وعبد القادر رشيد والاختصاصي الزراعي عبد المجيد عبد النبي ويعقوب بلبول وديمتري بيلاييف الاختصاصي في الأسماك وغيرهم.

وأصبح للمجلة مكانة مرموقة فقرظتها مجلة المقتطف الشهيرة ونقلت مقالاتها مجلة غرفة القاهرة والصحف العراقية واللبنانية.

نشر يوسف غنيمة في المجلة مقالات متتابعة عن مالية العراق في عهد العباسيين. وجمع عباس العزاوي مؤرخ العراق مقالاته التي صدرت في المجلة في كتابين طبعهما بعد ذلك في تاريخ النقود العراقية وتاريخ الضرائب. وكتب الكرملي وسركيس ومصطفى جواد صفحات مفصلة من تاريخ العراق الاقتصادي المجهول. ومن طريف ما نشرته المجلة مساجلة لغوية اقتصادية نشبت بين الاستاذين الاب انستاس وتلميذه مصطفى جواد واشترك فيها رئيس التحرير وآخرون.

وكتب عبد القادر رشيد وزير الخارجية السابق الذي انصرف عن السياسة ليتولى ادارة شركة نفط الرافدين بحوثاً متسلسلة عن النفط. أما هاشم جواد خبير مكتب العمل الدولي والذي أصبح فيما بعد وزير الخارجية في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم فقد نشر خلال السنوات ١٩٤١ ــ ٤٥ عشرات البحوث الممتعة في مواضيع اقتصادية واجتماعية كمستوى المعيشة والسياسة الاقتصادية والاسعاف الاجتماعي ودراسات في اقتصاديات البلاد العربية والتصميم الاجتماعي وتشريع العمل وحماية الطفولة واتجاهات المجتمع الجديد والعدل الدمقراطي والضمان الاجتماعي في بريطانية العظمى والعراق والمجلس الاقتصادي والاجتماعي للامم المتحدة الخ، كما لخص تقرير بيفريج الذي كان الرائد في مشاريع ما بعد الحرب وانشاء الضمان الاجتماعي لطبقات الشعب...

وكتبت انا شخصياً بحوثاً ودراسات في اقتصاديات العراق وتجارته ومشاريعه العمرانية والاجتماعية وخطط ما بعد الحرب والشؤون الاقتصادية لعدد كبير من الاقطار العالمية. وأذيع معظم هذه البحوث من دار الاذاعة العراقية، وترجم بعضها الى اللغة الانكليزية فنشرت في جريدة «التايمس» البغدادية والصحف الاجنبية. وكانت دائرة الملحق التجاري في السفارة البريطانية تلخص مقالاتي وأحاديثي خلال الحرب العالمية وترسلها برقياً الى لندن بغية الاطلاع على الاحوال الاقتصادية السائدة في العراق.

نشوب الحرب العالمية

في ٣ ايلول ١٩٣٩ نشبت الحرب بين بريطانية وفرنسة وبين المانية الهتلرية وامتدّ لهيبها الى الساحة الاوروبية، ثم الى أقاصي البحار والقارات. لقد مرّ على الحرب العظمى الاولى ٢١ سنة، لكن تلك الاعوام التي تعاقبت بين الحربين شهدت حروباً محلية في مختلف أنحاء العالم وزعازع وفتناً كثيرة. لم يشعر العراق في بادىء الامر شعوراً كبيراً بالحرب لوفرة البضائع والمواد المخزونة لديه ولاستمرار انفتاح طريق الهند والشرق الأقصى، لكن الحكومة بادرت الى اتخاذ الاجراءات لتأمين حاجة الاستهلاك الداخلي وضبط الاسعار. وفي الوقت نفسه اضطربت الافكار واختلفت الآراء على الصعيد الرسمي والأهلي: فقد مات الملك غازي الاول في ربيع تلك السنة وخلفه ولده الصغير فيصل الثاني تحت وصاية خاله الامير عبد الاله الذي كان قليل الخبرة السياسية. وكان نوري السعيد والساسة القدماء يشعرون بالولاء لبريطانية في محنتها العصيبة ويعتزمون تنفيذ المعاهدة معها بروح التفاهم والتساهل. لكن الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين قد التجأ الى العراق والتفّ حوله عدد من السياسيين الانتهازيين، وفي طليعتهم رشيد عالي الكيلاني، وشدّ أزره عقداء الجيش الاربعة صلاح الدين الصباغ ورفاقه الذين سيطروا على الجيش وتدخلوا في سياسة الدولة وأصبحوا قوة لها نفوذها تسقط الوزارات وتخلّ بأمن البلد وتعارض بريطانية معارضة سافرة. وقوي ساعد الجماعة بانتصارات المانية الساحقة في الميدان الاوروبي فمالوا اليها وهددوا الوصيّ على العرش واضطروه أن يغادر عاصمته خوفاً منهم لكن ذلك يأتي خبره فيا بعد. (انظر ادناه: احداث عصيبة).

في تشرين الاول ١٩٣٩ استقال محمد جعفر ابو التّمن من رئاسة غرفة التجارة. وقد حاولنا ثنيه عن عزمه، لكنه ارتأى ان ظروف الحرب الطارئة تقتضي تعاون الغرفة مع الحكومة، ولما كان هو معارضاً سياسياً مزمناً فقد خشي أن تقف الحكومة موقفاً مشكوكاً فيه من المحافل التجارية، ولذلك قرّر ترك الرئاسة والبقاء عضواً في لجنة الادارة. وعلى اثر ذلك انتخب محمد كامل الخضيري سكرتير الغرفة رئيساً وخلفه في السكرتيرية عزرا العاني.

وقد دعتني اذاعة بغداد الى القاء احاديث اقتصادية لتوضيح الاوضاع التجارية والمالية، فتحدثت عن شؤون التجارة والصناعة والنقد والمصارف والقوّة الشرائية واقتصاديات الحرب وخطط الاعمار وغير ذلك من المواضيع. وجمعت طائفة من تلك الاحاديث في كتابي «مباحث في الاقتصاد العراقي» الذي طبع سنة ١٩٤٨.

تعرفت خلال هذه الفترة بعدد من رجالات العراق كمحمود صبحي الدفتري وزير العدلية والخارجية وعزرا مناحيم دانيال عضو مجلس الأعيان ويوسف غنيمة وزير المالية والأب أنستاس ماري الكرملي اللغوي الشهير والشيخ محمد رضا الشبيبي(٢٧) والشيخ علي الشرقي ومؤرخ العراق عباس العزاوي وأخيه علي غالب والشاعر محمود الملاح والدكتور مصطفى جواد والبحاثة المحقق يعقوب سركيس والمفتش الاداري عبد الله مظفر وجعفر الخليلي ومصطفى علي الأديب الذي أصبح فيما بعد وزيراً للعدل وغيرهم. ويمكنني القول أن صداقتنا توثقت ودامت إلى أن فارق اكثرهم الحياة. أما الذين بقوا أحياء بعد مغادرتنا بغداد فاستمرت المراسلة بيننا سنوات طويلة.

قدم بغداد في سنة ١٩٤٠ الشاعر الطبيب الفيلسوف التركي الدكتور رضا توفيق بدعوة من وزير العدلية محمود

صبحي الدفتري، نقضى في العاصمة العراقية بضعة أسابيع كان مجلسه خلالها حافلا يؤمه رجال السياسة والأدب والفضل. وكنّا نزوره في الفندق أحياناً كثيرة أنا وأحمد حامد الصرّاف ومصطفى جواد. كان يتكلم في مواضيع مختلفة فلسفية وعلمية واجتماعية بالعربية الفصحى والتركية والانكليزية، ويستمر في الكلام ساعات ولا يحب أن يقاطعه أحد. وكان على خلاف مع حكومة الجمهورية التركية الكمالية، فاختار المنفى وقضى أعواماً طويلة في لبنان وشرقيّ الأردن، ثم عاد الى تركية وقضى نحبه في وطنه.

وقد أفدت من الأب الكرملي ومصطفى جواد فوائد لغوية جزيلة ودعوتهما وغيرهما من العلماء والبحاثين الى الكتابة في مجلة الغرفة. وأصبح مكتبي في الغرفة مقر ندوة أدبية يتردد عليها الشعراء والأدباء. وكان من عادة الكرملي أن يقرأ مقالاتي فيضع خطاً أخضر تحت ما يستحسنه وخطاً أحمر تحت الكلمات والعبارات التي يشك في فصاحتها.

أحداث عصيبة

تغلب رشيد عالي الكيلاني وعقداؤه الأربعة على الحكومة الشرعية في نيسان ١٩٤١، فاضطروا الأمير الوصي عبد الاله على مغادرة العراق مع كبار أعوانه من رجال السياسة المخضرمين. وكانت ورطة رشيد عالي عظيمة لم يحسب لها حساباً، إذ أنه حسب أن في وسعه اخضاع الانكليز في وقت اشتداد محنتهم دون أن يثير الحرب عليهم. وأوفد وزيريه ناجي شوكت إلى تركية وناجي السويدي إلى المملكة العربية، فنصحه زعماء الاتراك والملك عبد العزيز آل سعود بالتروّي. أما ألمانية وحليفتها ايطالية التي كانت مسيطرة على سورية ولبنان منذ اندحار فرنسة فحاولتا مساعدته. لكن بريطانية أحرجته فحاصر قواتها الجوية ودخل في حرب غير متكافئة معها.

شددت بريطانية الخناق على حليفها العراق الخائن لعهدها، فأنزلت قواتها القادمة من الهند الى البصرة، وجاء جيش البادية من الأردن يسنده الانكليز إلى بغداد من ناحية الصحراء والرمادي. ولم يكن من رشيد عالي ووزرائه وقوّاده إلاّ أن لاذوا بالفرار قاصدين الحدود الايرانية ومعهم مفتي فلسطين المحرّض الأكبر، تاركين العراق بأهله وجيشه منحلّ الزمام، مختلّ الوضع. وفي اول حزيران ١٩٤١ عاد الامير عبد الاله الى بغداد بعد عقد الهدنة في اليوم السابق.

وقف الجيش البريطاني على مشارف العاصمة. وألفت لجنة للامن العام برئاسة أمين العاصمة أرشد العمري فأسرعت باعلان زوال منع التجوّل والغاء حالة الطوارىء. وهبّ العوام يسندهم الشرطة وأفراد الجيش المخذول فهجموا على دور اليهود وشرعوا بالقتل والنهب(٢٨).

كان الحاج طاهر محمد سليم من أشراف بغداد عائداً الى داره المطلة على شارع غازي (الذي سمي بعدئذٍ شارع الكفاح) فرأى شباب اليهود يُنْزَلون من السيارات العامة ويذبحون، فتجري دماؤهم البريئة على قارعة الطريق. أسرع في سيره ودخل مركز الشرطة وقال لرجاله: الا ترون المذبحة أمامكم، فأين شهامتكم المسلكية وغيرتكم العربية؟ لكنهم سخروا منه وقالوا له: اذهب الى دارك، أيها الحاج، فلا شأن لك في الأمر. وخرج يجرّ أذيال الخيبة، وحاول عبثاً ردع الرعاع، ولم يجد بداً من المضيّ الى داره كئيباً. ولم تمرّ أسابيع قليلة حتى قضى نحبه كسير الخاطر. كان رجلاً انسانياً عمل في الجمعيات الخيرية وأسند مشاريع البرّ والاحسان. وكان أمثاله كثيرين ممن حموا جيرانهم اليهود ودافعوا عنهم دفاعاً شديداً. لكن العامة ــ كما قال الامام عليّ بن ابي طالب ــ أتباع كل ناعق، وقد تسلطوا على شوارع بغداد وطرقاتها فأعملوا فيها يد القتل والسلب.

كنّا ساكنين في محلة البتاويين شماليّ بغداد. وكان معاون شرطتها ناجي الياهو چچك(٢٩) من ضباط الشرطة الحقوقيين الحازمين، فاستطاع ان يحافظ تلك المحلة وأغلب سكانها من اليهود، فلم يقع فيها حادث ما. ومن الغريب انه سهر على الأمن في منطقته ليلاً ونهاراً، فلما عادَ بعد أيام الى بيته في احياء بغداد القديمة وجده قد نهب وشرّدت أسرته! وقد ترك ناجي چچك مسلك الشرطة بعد سنوات قليلة ومارس المحاماة، ثم أصبح سكرتيراً للطائفة الموسوية (الاسرائيلية).

سمعنا في الليل لعلعة الرصاص وأصوات الاستغاثة الآتية من بعيد، لكننا لم نعلم بحدوث الاضطرابات والمذابح. وأصبحنا في اليوم التالي فذهبت الى غرفة التجارة وذهب صالح اخي الى وزارة المالية. رأيت في الطريق الرعاع يجرون حاملين المتاع المنهوب. وحملق في وجهي أحد العوام وانا أمر بزقاق ضيق، فحدّقت في وجهه بكل هدوء. وقد خطر ببالي بعدئذ انني لو ارتعبت امامه لعلم أنني يهودي فجرحني او قتلني.

وصلت الى الغرفة وجلست في مكتبي فجاءني الموظفون والفراشون المسلمون وقالوا لي: لماذا أتيت اليوم، ألم تعلم ان الامن مضطرب والقتل والنهب قائم على قدم وساق؟ واصطحبني شرطي فعدت الى الدار. أما صالح أخي وسائر الموظفين في دوائر الحكومة فأوصلوا الى دورهم مساءاً بسيارات الشرطة المسلحة.

كان في امكان الجيش البريطاني أن يرسل قوة صغيرة لتسير في شوارع بغداد فيهرب العوام دون استعمال السلاح ضدهم ويعود الأمن الى نصابه. لكن السفير السر كنهان كورنواليس لم يراقحام الجيش في داخل العاصمة، كما ان أرشد العمري وجنته لم يملكوا السلطة لايقاف القتل والنهب. وانتظر الوصيّ يومين حتى ألف الوزارة الجديدة برئاسة جميل المدفعي الذي بادر الى انزال بعض فرق الجيش العراقي واستدعاء شرطة القوة السيارة من خارج بغداد للضرب على أيدي المعتدين وتفريقهم بقوة السلاح وتأمين الأمن.

قتل من اليهود في هذه الحادثة المفجعة اكثر من مائتين ونهبت الدور والحوانيت التجارية. لم أصدق أن مثل هذه المذبحة تقع في بغداد في القرن العشرين، اذ ان اليهود عاشوا في هذه البلاد في دعة وطمأنينة قروناً طويلة في تفاهم وتعاون مع المسلمين والمسيحيين. ولا أنسى ان الشيخ جلال الحنفي وقف بعد يومين او ثلاثة على منبر الاذاعة لتحدث الى الشعب بحديث كريم، مردداً كلمة «الرحمة، الرحمة» وسائقاً كل الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والنصائح الاخلاقية التي تدعو الى الاخوّة والرفق ومراعاة الجار وحفظ ذمامه(٣٠).

أسرع اليهود الى دوائر السفر للحصول على الجوازات ومغادرة العراق، فصدرت لهم آلاف الجوازات في ايام معدودة. لكن أين يذهبون والحرب قائمة في ميادين الشرق والغرب؟ لم يكن أمامهم سوى ايران والهند، فسافر اليها بعض الأشخاص وبقي الآخرون ينتظرون ما يجدّ من الامور. وفي ٢٢ حزيران هجمت المانية على روسية السوفييتية ناقضة المعاهدة التي عقدت بينهما قبل سنتين. وجاءت الى العراق جموع الجيوش البريطانية وانتعشت الاعمال وكثرت الأشغال ونشطت الحركة التجارية. وأعدم ثلاثة من الذين ثبت اعتداؤهم على اليهود وعلقت جثثهم في الباب الشرقي. وكذلك نسي الناس احداث الشهر الماضي واندفعوا يعملون ويتاجرون ويضاربون، وكأن لم يحدث أمر عظيم!

الحرب والتموين

بدأ العراق يشعر بالحرب بصورة محسوسة في النصف الثاني من سنة ١٩٤١ حين اقتربت المعارك في الشمال الافريقي وشحت البضائع وارتفعت الاسعار واشتدّ تضخم النقد، فزاد الغني غنى وزاد الفقير فقراً. ونزلت الى الاسواق جموع التجار وغير التجار يشترون ويبيعون ويضاربون.

أنشأت الحكومة مديرية عامة للتموين واكثرت من اصدار البيانات لوضع اليد على الاموال وتسعيرها. وحثني الكثير من التجار الاصدقاء على التحرر من عقال الوظيفة والعمل في التجارة حيث الفرص مؤاتية والارباح وفيرة والثروة متدفقة كالسيل العارم، لكنني أثرت البقاء في عملي ادافع عن مصالح البلاد الاقتصادية وعن حقوق التجار وأصحاب الاعمال.

ألفت لجنة استشارية للتموين برئاسة وزير المالية فعهد اليّ بسكرتيريّتها. وتقلد محمد صالح جبر مهام وزارة المالية في تشرين الاول ١٩٤٢ فاستدعاني لأكون مستشاراً له في شؤون التجارة والتموين. كنت اداوم في غرفة التجارة صباحاً وأذهب ضحى كل يوم الى ديوان وزارة المالية فأداوم في غرفة الوزير او غرفة المستشار البريطاني ليونل مينارد سوان وأبدي رأيي في المشاكل الطارئة. واستمررت على ذلك سنتين او اكثر، وقد تعاقب على وزارة المالية صالح جبر وجلال بابان والدكتور عبد الاله حافظ. واذا انتهى الدوام كان الوزير او المستشار يتسابقان الى ايصالي بسيارتها الى دارنا. وألفت لجنة من المستشار المستر سوان ومدير التحويل الخارجي كلود ايفان لومب ومنّي، فكنّا نجتمع مساءاً يوماً او يومين في الاسبوع في دار المستشار نفسه، فنتداول في شؤون التجارة والتموين ونضع مسودة القرارات والبيانات والانظمة وأتولى تقديمها الى الوزير في اليوم الثاني لاصدارها.

قال لي رئيس الغرفة محمد كامل الخضيري ذات يوم: ان المستر سوان يشكو من أنك تناقش كثيراً وتعارض في القضايا التي نعرض على اللجنة. فقلت انني أعلم ان انكلترة تخوض غمار حرب ضروس وتحرص على مصالحها. وهي في الوقت نفسه تهيء للعراق ما يحتاج اليه من العملة الخارجية، وتنفق الاموال الطائلة في ربوعه، وتجلب له المواد الضرورية بقوافل البواخر التي تحرسها أساطيلها. وانا أقدر المصالح البريطانية حقّ قدرها، لكنني أناقش وأجادل في الامور التي تتعلق بمصالح العراق ولا تمسّ المصالح الحربية. فقال لي الخضيري: حسناً تفعل ولا تهتم بما يقوله المستشار وغيره.

وأصرّح حقاً ان الانكليز وكبار موظفيهم في العراق يقدرون من يناقشهم ويعترض عليهم ويحترمونه اكثر من اولئك العراقيين الذين يخضعون لمشيئتهم وينفذون اوامرهم بلا جدال. واستطيع القول انني لقيت منهم كل مودة ورعاية، وقد التزموني ولم يتخلوا عني طالما كانوا أصحاب النفوذ في القطر حتى بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. ولما جئت الى انكلترة بعد مغادرتنا العراق منحوني مع أسرتي حق اللجوء، ثم لم يبخلوا علينا بالجنسية البريطانية.

جعلت دائرة التموين بعد ذلك وزارة مستقلة. ولما تولاها أرشد العمري بالوكالة اضافةً الى وزارة الخارجية في

حزيران ١٩٤٤، طلب اليّ أن أكون معاون مدير التموين العام، قائلاً ان المدير العام انكليزي فأتولى أنا شؤون الادارة والتنظيم. لكنني رفضت هذه الوظيفة معتذراً بأنني أعتقد ان الكثير من موظفي الدائرة مرتشون او متحيّزون للاقارب والاصدقاء، وليس في وسعي ان أجاريهم او اسيطر عليهم.



صاحب المذكرات في شبابه

الحياة الادبية

لم أترك الشعر والادب بالرغم من مشاغلي الكثيرة. وقد نشرت لي مجلة «دمشق» الصادرة في العاصمة السورية قصائد عديدة كما نشرت لي شعراً ونثراً مجلة «الادب والفن» اللندنية فضلاً عن الصحف والمجلات العراقية وغيرها.

انتخبت عضواً في «نادي القلم» سنة ١٩٤٢، وكان رئيسه الشيخ محمد رضا الشبيبي. يجتمع النادي كل اسبوعين او شهر واحد في داراحد أعضائه، فيلقي بعض الاعضاء محاضرة مناسبة تختتم بالمناقشة وتناول الطعام او الشاي. وألقيت في احدى الجلسات قصيدتي «نهاية الابطال»(٣١) وكان حاضراً من الضيوف الاديب البريطاني المعروف الكابتن اليك وو Alec Waugh الذي كان يزور بغداد أنئذٍ، فلخصتها له بالانكليزية. والقيت في اجتماع آخر بحثاً عن الرمزية في الادب الافرنجي والعربي الخ.

القيت من دار الاذاعة العراقية خلال السنوات ١٩٣٩ ـ ٤٩ اكثر من مائة حديث تناولت الشؤون الاقتصادية العراقية والعالمية ـ كما أسلفت القول ـ كما تناولت الشؤون الاجتماعية (الاقتصاد وزيادة النفوس، المثل الأعلى في حياتنا اليومية، نهضة المرأة، الموجات الهمجية، القومية بين الشعور والغرور، نحو المستقبل، الخ). والادبية (طاغور شاعر الهند، الآنسة ميّ، العيون وبعض ما قيل فيها، شاعران مغامران، وليّ الدين يكن، پيير لوتي، لورد بيرون، ألفرد دي موسيه، التجديد والتقليد في الأدب، الشعر: تطوره ومراميه، الرمزية، البعث الادبي في العراق، اناتول فرانس، نظرات في آداب الأمم، شعراء الخاصة، الرثاء في الشعر العربي والغربي، بودلير شاعر اليأس والشر، مصادر الادب العالمية، البحاثة يعقوب سركيس، الخ). والوطنية والتاريخية (طلعت حرب باشا والنهضة الاقتصادية المصرية، فيصل الاول الملك الهاشمي العظيم، يوم النهضة العربية، مستقبل المستعمرات، اتفاقية بريتن وودز، الخ). والعلمية (نيوتن في ذكرى ميلاده الثلثمائة، كوبرنيكوس وتقدم علم الفلك) والقصص (نداء الأرض، الحكيم الصيني، الوثائق المفقودة) وهلم جرا. ودعتني ايضاً اذاعة لندن والهند واذاعة الشرق الادنى التي كانت تذيع من قبرص الى تسجيل احاديث والقائها فيها.

وأسس تحسين علي وزير المواصلات والاشغال والدكتور ابراهيم عاكف الألوسي وزير المعارف جمعية مكافحة السلّ سنة ١٩٤٤ فاختاراني عضواً فخرياً فيها. وطفقنا نخرج صباح كل جمعة فنمرّ على التجار ونجمع التبرعات حتى حصلت الجمعية على عشرات الآلاف من الدنانير. وتبرع عدد من المحسنين، كعزرا مناحيم دانيل والحاج ياسين الخضيري، بمبالغ كبيرة لانشاء اجنحة خاصة في المستشفى باسمهم. وأذكر اننا ذهبنا لزيارة التاجر اليوناني نقولا باوليدس، وكان قد قدم العراق قبل الحرب من تركية يتاجر بالحبوب. وكلمه تحسين علي والألوسي بالتركية عن الشؤون الحربية العامة، فقال ان بلاده اليونان تعرّضت لمعارك دامية ودمار واسع فتبرع لها بمبالغ جسيمة. ولما شربنا القهوة اشر لي تحسين علي فقمنا، لكن الرجل قال: انكم شرفتموني لسبب ما فما هو؟ لا بدّ أن أعرفه. قال تحسين بك بعد تردد: اننا جئنا لنسألك التبرع لجمعية مكافحة السلّ، ولكن ما دمت تتبرع لبلادك فليس من الانصاف ان نكلفك تكليفاً آخر. فقال باوليدس: اني جئت الى هذه البلاد وعملت فيها وربحت، فحقها علي يفوق حق بلادي الاصيلة. وكتب لنا صكاً بمبلغ كبير.

وكانت «الصالونات»(٣٢) او الدواوين الاجتماعية والادبية كثيرة تعقد مرة في الاسبوع عادة، فكنت أتردّد على عدد منها «كصالون الجمعة» لمحمود صبحي الدفتري ومجالس عزرا مناحيم دانيل والاب انستاس ماري الكرملي (في دير الكرمليين) وعبّاس العزّاوي ومحمود السنوي وتحسين علي ويوسف يعقوب مسكوني وسامي الاورفه لي والشيخ محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وعبد العزيز المظفر (في محله التجاري) وأنور شاؤل (في دار الطباعة والتجارة) وجعفر الخليلي وابراهيم الواعظ ومكي الاورفه لي وغيرهم. وكنا نزور محمد علي هبة الدين الشهرستاني في الكاظمية وصادق كمّونة في النجف والسيد ابراهيم سيف الدين الكيلاني نقيب الاشراف في الحضرة القادرية...

كان «صالون» محمود صبحي الدفتري في مقدمة الدواوين الاجتماعية، عقد بانتظام منذ اكثر من مائة سنة على عهد أبي جدّ صاحبه ابراهيم الدفتري رئيس بلدية بغداد. وكان يؤمه رجال السياسة والادب والاشراف والشباب الناهض صباح الجمعة في دار آل الدفتري القديمة وبعد ذلك في دارهم المطلة على دجلة في جانب الكوخ. كان الضيوف يحتسون القهوة والشاي ويتكلمون في مختلف المواضيع عدا السياسة والدين، وهما موضوعان يحظرهما صاحب الديوان لوجود رجال الحكومة والمعارضة وأرباب الاديان والمذاهب المختلفة. فاذا تطرّق بعض الحاضرين الى ذينك الموضوعين، أسرع محمود صبحي بك فتلا شيئاً من الشعر التركي او الفارسي القديم وأخذ يفسره او نادى الخادم وأمره بجلب أحد هرره الى المجلس ليقص قصته ونوادره. وكان له عشرات القطط وعدد من الكلاب المتآلفة، ولها خادم خاص يطعمها ويعنى بها. وقد نظمت في القطط البهيّة أبياتاً كان يرددها صاحب المجلس معجباً بها:

قـــطـــط لاحـــت (أمـــر عـــجـــب!)	ولـــهـــا رأس ولـــهـــا ذنـــب
ولـــهـــا فـــهـــم ولـــهـــا أدب،	ولها حـــســـب ولها نـــســـب
تـــغـــدو وتـــروح عـــلـــى مـــهـــل	لـــيـــســـت تـــدري مـــاذا الأرب
وتـــداعـــب ضـــيـــفـــاً فـــي غـــنـــج	فـــيـــحـــار أجـــدّ أم لـــعـــب؟ الـــخ

ولما جرى انزال جيش الحلفاء في شمالي افريقية قال محمود صبحي بك أنه رأى في زوايا حجر البيت القديم معركة قامت بين زنبور وعنكبوت، فكان الزنبور يصول ويجول ويصوّت، اما العنكبوت فكانت هادئة تحوك شبكتها حتى اوقعت خصمها في حبائلها وقضت عليه. قال الدفتري: هكذا الانكليز يعملون بصمت حتى يوقعون الألمان في حبائلهم. فاقترح عليّ جميل المدفعي أن أنظم هذا المعنى، فجئت في صباح الجمعة التالية وقرأت على الحاضرين هذه الابيات(٣٣)

وســـديـــد رأي فـــي الـــرجـــال ســـألـــتـــه	عـــمّا وراء الـــحـــرب مـــن أســـرار
والانـــكـــلـــيـــز الـــثـــابـــتـــيـــن وصـــبـــرهـــم	والـــمـــحـــور الـــمـــتـــهـــوّر الـــمـــهـــذار
والـــحـــرب آنـــئـــذ تـــفـــاقـــم شـــرهـــا	فـــي عـــنـــفـــوان ضـــرامـــهـــا الـــفـــوّار
فـــأجـــابـــنـــي الـــعـــيـــن الـــكـــريـــم مـــمـــثـــلاً	بـــالـــعـــنـــكـــبـــوت وخـــصـــمـــهـــا الـــزنـــبـــار:
لـــمـــا دعـــا الـــزنـــبـــور داعٍ لـــلـــوغـــى	صـــال الـــجـــســـور وجـــال فـــي الـــمـــضـــمـــار
مـــلأ الـــفـــضـــا بـــطـــنـــيـــنـــه مـــســـتـــبـــســـلاً	مـــا بـــيـــن كـــــرّ تـــارةً وفـــــرار

والعنكبوت قد انزوت في صمتها … – إن الصموت أمارة الجبّار –
قذفت بخيط ناعم من جوفها … يتلوه خيط إثر خيط جار
حاكت حبائلها لخصم هائج … قد كلّ في الاقبال والادبار
حتى اذا رام النكوص رأى اذن … شركاً يكبله بقيد إسار
وقضى ضحيّة طيشه وغروره … والنصر حظّ الحازم الصبّار
مرّت على هذا الحديث حوادث … محبوكة الاسباب والاخطار
وامتدّت الحرب الضروس وخيّمت … ظلماتها جُهْماً على الأمصار
واستنفد الألمان غاية جهدهم … في الصول والجولان والتزآر
حتى أتى اليوم الذي علقوا به … بحبائل الأحرار والأنصار
وبشائر النصر المبين تبيّنت، … أنعم بها بشرى مدى الأعصار

أما مجلس العين عزرا دانيال فكان يعقد مساء الخميس من كل اسبوع ويحضره الوزراء والاعيان وكبار الموظفين وغيرهم. وكان النائب ابراهيم ناحوم ملازماً لصاحبه لا يفارقه لحظة ويصاحبه في غدواته وروحاته. وكان زينة المجلس اللواء محمد سعيد التكريتي رئيس ما يسميه بجمعية «المغفلين» التي يقول انه أسسها قبل الحرب العظمى الاولى حينما كان طالباً في المدرسة العسكرية في استانبول وانتمى اليها زملاؤه الطلاب الذين أصبحوا بعد ذلك ضباطاً عظاماً ووزراء ورؤساء. وقال ان الملك غازي نفسه سمع بها فطلب الانتماء اليها! وكان التكريتي موضع دعابة يضحك لها الجميع.

وكانت دار جريدة العراق خلال سنوات الحرب معسكراً من معسكرات الحلفاء وندوة أدبية يرأسها صاحب الجريدة رزوق غنام وفي غيابه، المحرر منشي زعرور. ومن الذين يحضرونها في اكثر الايام أنور شاؤل ومهدي مقلد وعلي الخطيب ونعمان ماهر الكنعاني وجميل أحمد الكاظمي وكمال عثمان وغيرهم من الشعراء والادباء والمحامين. وقد قلت في ترجمة منشي زعرور الجندي المجهول في عالم الصحافة العراقية (في كتابي أعلام اليهود في العراق الحديث ص ٨٤ – ٨٧): «وحلّت سنة ١٩٣٩ والحرب العالمية الهائلة، فأصبحت جريدة العراق معسكراً من معسكرات الحلفاء تطلع كل يوم مؤيدة لقضاياهم، مشيدة بانتصاراتهم، مستهينة باندحاراتهم، داعية الى مبادئهم الحرة، مؤمنة بأن مصلحة البلاد مؤائمة لمصالحهم. وقد جندت أقلام الموالين من الشعراء والكتاب تستعين بهم لشجب النازية والدفاع عن الحرية وشدّ أزر الانكليز وحلفائهم في جهادهم الاكبر. كان منشي زعرور يتدفق حماسة ملتهبة معدية يقترح المواضيع ويضع الخطط ويحثّ الشعراء على النظم والتغنّي بعظمة تشرشل وروزفلت ومجد ستالينغراد وثبات لندن ووقائع البرّ والجوّ والبحر...» (ص ٨٦ من اعلام اليهود).

واصلت الكتابة في الصحف والمجلات. وأصدر صديقنا عزت مراد الشيخ جريدة «الاحوال» اليومية سنة ١٩٤٠ فنشرت فيها المقالات والبحوث والقصائد.

وسنحت لي الفرصة أنذاك لزيارة الالوية كالحلة وبعقوبا وخانقين والكوت. وكان المحامي عباس العزاوي وأخوه علي غالب كثيراً ما يذهبان للمرافعة في تلك الأنحاء فيدعوانني الى مرافقتهما لقضاء نهار لطيف وتفقد البلد. وفي سنة ١٩٤٣ انتخب عباس العزاوي عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق، فأقامت له نقابة المحامين

حفلة تكريم خطب فيها ابراهيم الواعظ ان حقاً وان باطلاً، لجلة الحاصد ولم ألقيت خطاباً أشرت فيه بخدمات المحتفى به لتاريخ العراق. ومن الطريف انني حينما اعتليت المنبر للكلام شهدت في الحفل سيدة واحدة فقط بين جمع الرجال، فاستهللت كلامي قائلاً: سيدتي، سادتي. وكان ذلك مثار الضحك والتصفيق.

وفي صباح اليوم الثاني دقّ جرس التلفون في مكتبي بغرفة التجارة وقيل لي: ساسون مراد «خطيب الطائفة الاسرائيلية الشيخ» يكلمك، قال: «اسمعني، يا مير، ولا تكلمني، فأنا أصمّ ولا أستطيع السماع. قرأت خطابك في الصحف فتمنّيت لو كنت انا الذي ألقاه. لا فُضّ فوك!».

تصوّف ومحفل

في سنة ١٩٤٢ ـ ٤٣ دأبنا، صالح قحطان وانا، على الذهاب ضحى ايام السبت الى مدرسة الاليانس حيث كان فريق من الشيوخ يجتمعون لقراءة سفر «الزوهر» (السناء) تبركاً به. وقد حاولنا أن نتناقش واياهم عن معاني الجمل والكلمات فلم يرضوا، لأن فهم المعنى في رأيهم لا يجوز.

الصوت راتب يعلو ويخفت، شجيّ كأنه قادم من أعماق النفس البشرية او هو صدى من وراء الأفق المنظور.

عمّ يتحدّث؟ اننا لا نفهم المعنى لأنه كتب باللغة الآرامية القديمة، وهو مصدر القبّالة أي التصوّف اليهودي. اننا لا نفهم، لكننا نشعر أنه يتحدث عن الحياة والموت، عن الخالق والخليقة، عن العالم العلوي الذي يقطنه الملائكة والصدّيقون، اولئك الذين يردّدون تسابيحهم المرتفعة الى العرش الالهي. انه يتحدث عن العالم السفليّ الذي تتعذّب فيه النفوس الشرّيرة لتصفّى كما يصفّى الذهب الإبريز في النار، عن الخوالج التي تعْتلج في قرارة النفس، عن الآمال التي تحلم بالبقاء والخلود، عن الآلام التي لولاها لم يكن فرح ولا بهجة في الدنيا، عن الأرواح الهائمة التي تريد مستقرّاً في حمى الرحمة الالهية الشاملة. يا للظلام الذي يلفّ الافلاك القاصية، يا للأنوار الساطعة التي لا تستطيع رؤيتها العين البشرية، يا لذكريات الأزل التي تمتدّ الى أبد الآباد.

ان الذين يرتلون هذه الآيات الخفية يسكرون بخمرة روحية معتقة، حتى اذا ما فرغوا من تلاوتهم يعودون الى بيوتهم بإيمان جديد ومتعة نفسية فريدة.

في سنة ١٩٤٤ أقام البهائيون احتفالاً كبيراً في محفلهم في ذكرى مرور مائة عام على ظهور علي محمد المعروف بـ «الباب» في شيراز في ٢٣ ايار ١٨٤٤، وكان ظهوره بمناسبة انقضاء الف سنة هجرية على اختفاء الامام الثاني عشر محمد المهدي في الغار بسامراء، وهو المعروف بالمهدي المنتظر وصاحب الزمان الذي يظهر لاقامة العدل وقمع الظلم وإحقاق الحقّ. وقد انتشرت دعوة الباب في ايران وانعكست أشعتها في النجف وبغداد، فبادرت الحكومة الايرانية الى اعدام الباب في تبريز سنة ١٨٥٠ وأدأ لحركته في المهد. أعلن المجتهدون تكفير النحلة البابية فاعتقل رؤساؤها وعذّبوا وقتّلوا، وهاج العوام ففتكوا بالبابيين رجالهم ونسائهم وأطفالهم. وقدّر عدد القتلى باكثر من عشرين الفاً.

وفي سنة ١٨٦٣ أعلن الميرزا حسين علي نوري الذي عرف ببهاء الله انه المظهر الذي بشر به الباب، وأسس الدعوة البهائية فكثر مريدوها وانتشرت في مختلف البقاع.

دعيت الى الكلام في الحفل البهائي، فتحدثت عن الحرب التي تنشر الموت والدمار وعن السلام الذي حلم به الانبياء والفلاسفة منذ القديم. تحدثت عن المدينة الفاضلة و«يوتوبيا» توماس مور، وعن فكتور هوغو الذي تمنّى أن يعيش في القرن العشرين ليشهد عصر الحرية والسلام. ولكن هيهات، جاء القرن العشرون بأفظع الحروب الدموية، ولا يزال طيف السلام المرتقب بعيداً.

وفي سنوات السبعين تنكرت حكومة العراق البعثية للبهائيين، فاستولت على محفلهم وجعلته مركزاً للأمن يسجن ويعذّب فيه الابرياء. ثم قبضت على معتنقي مذهبهم فزجتهم في السجون رجالاً ونساء. ولما جئت الى لندن في أواخر سنة ١٩٧٤ اتصلت بي لجنة العفو الدولية (أمنستي) وسألتني عن الاحوال في العراق والمعتقلين من البنائين الاحرار (فري ميسنس) السابقين وغيرهم. ولما ذكرت اعتقال البهائيين قالوا لي ان المجلس البهائي الاعلى في حيفا طلب من اللجنة عدم الدفاع عنهم لأنهم يرتضون الاعتقال والتعذيب عن طيبة خاطر في سبيل ايمانهم الذي لا يتزعزع.

مؤتمر التجارة الدولي والرحلة الاميركية

دُعيت غرفة تجارة بغداد الى الاشتراك في مؤتمر التجارة الدولي المقرر عقده في بلدة راي Rye من أعمال ولاية نيويورك في الولايات المتحدة الاميركية، فقررت تلبية الدعوة واختارت وفداً يرأسه نوري فتاح واعضاؤه حافظ القاضي وخضوري مراد شكر وعبد الهادي الجلبي واسكندر استيفان، وكلهم من أعضاء اللجنة الادارية. وعهد اليّ بسكرتيرية الوفد. وضمّ مصطفى القاضي أخو حافظ المقيم في نيويورك مشاوراً للوفد.

أقام لنا قبل سفرنا الوزير المفوض الاميركي لوي هندرسن حفلة شاي وأطلعنا على أحوال بلاده في ظروف الحرب التي تمرّ بها. ثم حضرنا حفلة عشاء في دار وزير المالية صالح جبر الذي أفهم أعضاء الوفد ان السكرتير هو المتحدث بلسان الوفد ورجا مراعاة ذلك.

غادرنا بغداد بالطائرة الى القاهرة في ١٧ تشرين الاول ١٩٤٤. ولما كان السفر الى اميركة بالوسائل الأهلية متعذراً بسبب الحرب فقد تعهدت القوة الجوية الاميركية بنقلنا، فبقينا في مصر ننتظر اجراء الترتيبات اللازمة لذلك. ونعمنا خلال تلك المدة بصحبة تحسين العسكري الوزير المفوض وخالد الجوربه چي سكرتير المفوضية.

في اثناء وجودنا في مصر دعانا الجوربه چي الى زيارة معسكر الجيش البريطاني في ظاهر القاهرة. كان المعسكر مقاماً على مرتفع يشرف على أهرام الجيزة، وشاهدنا الأهرام وكأنها قريبة تفصلها عنّا أرض خلاء.

فرغنا من الزيارة وتناول الغداء واستعددنا لركوب السيارة للرجوع، لكن خضوري شكر قال: يظهر أن الأهرام قريبة، فلم لا نسير اليها مشياً على الأقدام؟ سخر القوم منه وقالوا: انك تراها قريبة، ولكنها بعيدة في الحقيقة والارض التي بيننا رملية تسيخ فيها الاقدام ولا تستطيع حتى السيارات اقتحامها. حاولوا عبثاً صرفه على فكرته، لكنه أقنعني بمرافقته، بينما ذهب الآخرون من طريق السيارات المعبّد الى المدينة.

بدأنا السير بيسر وسهولة ونحن نتكلم ونقدّر ان في وسعنا الوصول خلال ساعة او دون ذلك. لكن العقبات لم تلبث أن واجهتنا، فاذا بنا نغوص في الرمال ولا نستطيع التقدم الا بصعوبة كبيرة. معالم الطريق غير واضحة، والرجوع غير ممكن، ولا دليل لنا سوى الأهرام الشامخة في جانب الأفق والوصول اليها عسير.

كانت تلك تجربة شاقة، ونحن نتقدم خطوة بعد خطوة، وقد اخذ منّا التعب كل مأخذ وأحاطت بنا الصحراء بجرّها وعزلتها. سرنا أربع ساعات في التيه حتى رأينا خالد الجوربه چي يأتي الينا بسيارة جيب من جانب الهرم قطعت بعض الطريق الرملي، فأنقذنا من الورطة التي زججنا بنفسنا فيها. وكان بعد ذلك عشاء وسهرة لطيفة في بعض الملاهي الراقية أزالت عنّا العناء وأعادت المرح والصفاء.

وأقامت لنا غرفة تجارة القاهرة والجمعية الزراعية الملكية حفلات شاي جرت خلالها الأحاديث عن الحرب والشؤون العامة ومستقبل التجارة والاقتصاد في البلاد العربية. وكانت الدعوة قائمة في مصر حول وحدة وادي النيل وضمّ السودان الشقيق. فسألت فؤاد أباظة باشا رئيس الجمعية الزراعية هل يحتاج السوداني الى تأشيرة للقدوم الى

مصر فأجاب بالايجاب. قلت: انكم تريدون انضمام السودان اليكم وتقيمون في الوقت نفسه سدّاً في وجه أبنائه، فكيف يصحّ ذلك؟ قال: لو فتحنا الباب على مصراعيه لمجيء أهل السودان لأغرقوا سوق العمل وزاحموا عامة المصريين على أرزاقهم وأربكوا الاقتصاد المحلي. وحسبنا مشكلة أبناء الصعيد الذين يأتون الى القاهرة والمدن الكبرى بالألوف فيستولون على الأعمال اليدوية والأشغال التي لا تتطلب خبرة أو مهارة.

وقد شعر أبناء السودان بأنانية المصريين فطلبوا الاستقلال سنة ٥٦/١٩٥٥ وامتنعوا عن الانضمام الى مصر.

وبعد ستة أيام نقلنا بطائرة عسكرية الى الدار البيضاء عن طريق بنغازي والجزائر، وكانت كلها تحت اشراف الحلفاء بعد تحريرها من الألمان والايطاليين والحكم الفرنسي الموالي لهما. مكثنا في الدار البيضاء بضعة أيام، فوجدنا المدينة سادرة ومواد الطعام والبضائع الاستهلاكية قليلة نادرة الوجود. أنزلنا في فندق للضباط الأمريكيين ونبّه علينا أن نتناول طعامنا في مطعم الفندق في ساعات مقررة صباحاً وظهراً ومساءاً. وتلكأنا في النهوض في اليوم الأول ففاتنا وقت تناول الفطور في المطعم، فقلنا لا بأس، فسنجد الفطور في البلدة. وخرجنا الى الشارع فوجدنا السوق خالية الا من اعلان عن احتمال تيسر لحم الخيل. ولم نعثر على ضالّتنا فعدنا أدراجنا، ووجدنا أنفسنا أمام مطعم الفندق قبل عدة دقائق من موعد افتتاحه للغداء، فلم يكد يفتح أبوابه حتى هرعنا لئلا تفوتنا وجبة الظهر.

والدار البيضاء في الحقيقة مدينتان، احداهما فرنسية عصرية تشبه الى حدّ كبير المدن الاقليمية في فرنسة، والأخرى «القصبة» بلدة قذرة متأخرة يسكنها أهل المغرب. وقد سعدنا بلقاء شخص كان في بغداد قبل عدة سنين وحلّ فيها ضيفاً على عبد الهادي الجلبي، فعرفه فوراً ورحب به وبنا، وكان دليلنا طيلة مكثنا في تلك الربوع. اصطحبنا لزيارة باشا الدار البيضاء، أي محافظها المعيّن من قبل السلطان. ثم زرنا معه الحديقة الملكية، وهي حديقة عظيمة ملتفة الأشجار، وزرنا الأسواق والبلدة القديمة. واقترح علينا أن نذهب الى الرباط عاصمة المملكة التي تبعد نحو ساعة بالسيارة، لكننا لم نرد ترك الدار البيضاء اذ نبّهنا الضابط الأميركي اننا يجب أن نكون دائماً على أهبة السفر حالما تتيسر الطائرة التي تنقلنا الى أميركة.

وتعرفنا الى بعض الشباب الوطني الذين سرّوا بقدوم عرب من العراق البعيد وبذلوا جهدهم للترحيب بنا. وقد جمعوا بطاقات التموين التي في أيديهم واشتروا ما تيسر لاقامة حفلة شاي اكراماً لنا، ولكن، مع الأسف، دعينا الى السفر قبل وقت قليل من الساعة المعيّنة للحفلة، فاعتذرنا شاكرين ومضينا الى المطار مسرعين.

واستغربنا في أول يوم وصولنا أن ننهض صباحاً فنرى زميلنا حافظ القاضي وقد نزل من غرفته مرتدياً القيافة العربية والعقال المقصب ومتقلداً في حزامه خنجراً قبضته مطعمة بالذهب والأحجار النفيسة، وقد جلب كل ذلك في حقيبته دون علمنا. وسار أمامنا مختالا في الطريق، فلحق به العوام والأولاد، وسمعوه يقول بصوت واضح: أنا من بغداد مجاور لسيدي القطب الروحاني الشيخ عبد القادر الكيلاني. وما ان سمع الناس اسم الشيخ، وأكثرهم من أتباع الطريقة القادرية، حتى حفوا بحافظ وأخذ بعضهم يقبل يده ويتبركون به.

وكان في السوق تاجر مغربي وقور جالساً على باب دكانه الذي يحتوي على البضائع الجلدية الفاخرة التي اشتهرت بها مراكش منذ القديم، فدعانا الى الجلوس وأكرم مثوانا. وسألنا عن رحلتنا، فقال له نوري فتاح مازحاً أننا ذاهبون الى الولايات المتحدة لبناء مسجد. وأخذ الرجل يتوسل الينا أن نقبل منه تبرعاً للمسجد العتيد ليشارك في هذه المكرمة الجليلة، ولم نستطع اقناعه بأن ما قاله صاحبنا انما كان على سبيل المزاح.

بعد قضاء بضعة أيام في الدار البيضاء هيئت لنا مقاعد في طائرة عسكرية قديمة الصنع غير مكيّفة الهواء ذات مقاعد جانبية، فأقلعت بنا محلقة فوق المحيط الأطلسي. كان الليل بارداً فأعطينا بطانيات التففنا بها اتقاءاً للقرّ. وقال لنا قائد الطائرة ونحن في الجوّ: آسف أن أخبركم بأننا لن نذهب الى واشنطن أو نيويورك بل سنهبط في ميامي. فضحكنا وقلنا: لم الأسف؟ كنّا قد رأينا في بغداد قبل أشهر فيلماً سينمائياً «القمر فوق ميامي»، شاهدنا فيه جنّة الله على الأرض بمباهجها ورياضها وشواطئها البحرية وجوّها الرائق، فسررنا بالفرصة المتاحة لنا لدخول القارة الأميركية من بابها.

هبطنا في الطريق في جزر الأزور وبرمودا، ثم وصلنا الى ميامي بعد طيران نحو ٢٤ ساعة، فوجدنا الطبيعة ضاحكة، وشواطىء السباحة عامرة، والحياة سائرة في نظامها المعهود وكأن الحرب الماحقة لم تكن تدمر الأرض والبحر والجو بدباباتها ومدافعها وصواريخها وأساطيلها وطياراتها. قضينا في هذه البلدة عدة أيام هنيئة، وكنّا ضيوفاً على مقرّ الجيش المحلي ونادي الروتاري وبعض الهيئات الأخرى. وذهبنا في نزهة بالباخرة على النهر، فرأينا مضارب الهنود الحمر وشاهدنا أحدهم يصارع التمساح على الضفّة. ثم استقللنا الطائرة الى واشنطن العاصمة، فوجدنا في استقبالنا الوزير المفوض علي جودت الأيوبي ومشاور المفوضية سيف الله خندان والسكرتير عبد المنعم الكيلاني وممثلي ادارة التجارة الأميركية. ولم نطل المكوث في العاصمة، بل ركبنا القطار الى نيويورك وذهبنا الى بلدة راي (Rye) المجاورة لحضور المؤتمر.

افتتح المؤتمر في نادي ويستشستر في ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٤. وسبقت جلسة الافتتاح مأدبة رسمية لاعضاء الوفود برئاسة اليوت وادزورث رئيس القسم الأميركي لغرفة التجارة الدولية الذي تلا على الحاضرين نص الرسالة التي وجهها فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة، وكان قد جدد انتخابه قبل ثلاثة أيام فقط للرئاسة للمرة الرابعة بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجمهورية الأميركية. وقد عدّ الرئيس هذا المؤتمر خطوة طيبة الى الأمام لتحسين العلاقات التجارية في المستقبل، لا بين رجال التجارة من مختلف البلاد فحسب، وانما بين الأمم نفسها أيضاً. وقال ان زعماء التجارة الذين عملوا كثيراً لتحقيق النصر للقوات الحليفة قد اتجهوا بأفكارهم الى مشاكل اعادة بناء التجارة الدولية على أسس قويمة بعد الحرب. وقال ان التجارة العالمية يجب أن تتوسع على أساس عدم التفريق والتحرر من الحواجز والقيود الثقيلة. ولا يمكن تحقيق هذا التوسع الضروري الا بتعاون الأمم ورعاياها معاً لتفهم كل أمة مشاكل سائر الأمم ولاتخاذ الاجراءات الفعالة والمفيدة بالتقابل لحلّ تلك المشاكل. وأعرب عن أمله في استبدال الاقتصاد العالمي الذي شوّهته الحرب بالنظام الجديد الأفضل الضروري لصيانة رخاء العالم وسلامته.

ألفت اللجان فكان نصيبي أن أشارك في لجنة سياسة الأمم التجارية. وقد عقدت الجلسة الختامية في ١٨ تشرين الثاني فصدقت التقارير التي وضعتها اللجان في مواضيع التشبث الفردي والمواد الخام والأغذية وتشجيع استثمار الأموال وانشاء الصناعات في المناطق الجديدة والعلاقات النقدية الدولية والنقل والمواصلات والسياسة التجارية وهلم جراً. ووافق المؤتمر على المبادىء الأساسية التي ترمي الى توجيه السياسة التجارية نحو رفع مستوى معيشة الشعوب وتأمين العمل والرخاء للأفراد، وتوسيع المبادلات التجارية لتحقيق التحرر من العوز والخوف وتدعيم السلام والطمأنينة الدولية، وتأمين حرية التجارة وحرية البحار، ومحاربة الكتل التجارية التي تستهدف السيطرة على الاسواق وقتل المنافسة والتحكم في الاقتصاد الوطني والدولي.

وأقيمت عدة حفلات لوفود الدول الـ ٥٢ التي اشتركت في المؤتمر خطب فيها كبار رجال اميركة وانكلترة

وغيرهم. وقال الدكتور روبرت غانون رئيس جامعة فوردهام في خطابه «ان السلام المقبل سوف يتوقف على الاقتصاد اكثر من توقفه على السياسة».

ولما ارفضّ المؤتمر عمدت الى كتابة تقرير مفصل عنه مع ترجمة التقارير والبحوث التي أجراها الوفد العراقي. وكلفنا احدى الفتيات اللبنانيات المقيمات في نيويورك بطبعه على الآلة الكاتبة، وقدمناه الى الحكومة العراقية وغرفة تجارة بغداد عن طريق المفوضية العراقية. وطبع التقرير في كتيّب صدر ملحقاً بمجلة الغرفة(٣٤).

وقد أدليت بتصريح لوكالة مكتب الانباء الحربي الاميركي قلت فيه ان الناس تتطلع الى عهد السلام المقبل واعداد الخطط لبناء عالم جديد، لئلا يكون العهد الذ يعقب هذه الحرب فترة قصيرة بين صراعين داميين كما كان العهد الذي تلا الحرب العظمى الماضية، ولكيا تفتتح صفحة جديدة في تاريخ البشرية، صفحة نقية لائقة بالرقي الفكري والمادّي الذي بلغه الانسان في القرن العشرين وبالمثل العليا التي أدرك قيمتها وفائدتها.

تلك كانت الافكار التي خطرت ببالي في ذلك الوقت العصيب الذي امتحنت فيه الانسانية، بينما كنّا نحن في نيويورك بمنجاة عن الصراع والتقتيل والتدمير وشحة المواد الغذائية والاستهلاكية. ولكن، وا أسفاه، ان السنوات التي عقبت نهاية تلك الحرب الضروس لم تحقق تلك الاحلام البديعة التي تراءت لأعيننا. أجل، مرت أعوام طويلة ولم تنشب حرب عالمية ثالثة. ولكن الحروب المحلية والثورات والصراعات الدامية التي ثارت في مختلف البقاع، والاسلحة الفتاكة والقوة النووية التي أطلقت من عقالها، والخيرات الوفيرة التي توافرت للأمم الراقية والتي قابلها القحط والجفاف والفقر في آسية وافريقية واميركة الجنوبية، كل تلك العوامل جعلت أحلام السلام والرخاء أوهاماً. وقد حقق الانسان تقدماً علمياً ومادياً لا مثيل له، وغزا الفضاء الخارجي ونزل على سطح القمر، ومنح الاستقلال لأكثر من مائة دولة احتلت مقاعدها في هيئة الامم المتحدة. تلك خطوات ايجابية لا سبيل الى نكرانها. بيد أن تقدم العلم صحبه، مع الاسف، انحطاط في الاخلاق وتفكك في روابط الأسرة والمجتمع وتكالب على الارباح المادية واستهانة بالمبادىء الفكرية السامية. فأين يكون مستقبل البشرية التي تهفو الى الأمن والرفاهية والسعادة؟

ولكن لنعد الى حديثنا. دعيت الى التكلم عن تجارة العراق وشؤونه الاقتصادية من دار الاذاعة الاميركية وفي هيئات مختلفة أهمها جمعية التجارة والصناعة في نيويورك التي أقامت لنا حفلة تكريم في ٣١ كانون الثاني ١٩٤٥. وفي عصر اليوم نفسه عقد اجتماع في قاعة الجمعية حضره عدد كبير من التجار ورجال الاعمال وممثلي الشركات والمصارف ومراسلي الصحافة ووكالة الانباء. وألقيت خطاباً تحدثت فيه عن شؤون العراق الاقتصادية وصلاته التجارية بالولايات المتحدة ختمته قائلاً: «ومهما كانت بلادي صغيرة فانها راغبة في المساهمة بنصيبها الأوفى لتوسيع التجارة الدولية الحرة بعد الحرب لتحقق من طريقها زيادة حسن التفاهم بين الأمم ورفع مستوى المعيشة لجميع الشعوب والافراد».

وعقب الخطاب فترة للسؤال والجواب دامت اكثر من ساعة وجهت اليّ في أثنائها أسئلة كثيرة تناولت شتى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية. وانتهز المستر كينغ نائب رئيس خطوط ملاحة «استميان» الفرصة فأعلن عزم شركته على انشاء مصلحة شهرية لتسيير البواخر السريعة بين الولايات المتحدة والعراق. وعلقت الصحف الاميركية، اليومية منها والاقتصادية، على مباحثات الاجتماع ولخصت خطابي وتصريحاتي. ونقل الخطاب برقياً فنشرته الصحف العراقية وكذلك الجرائد الشرقية والغربية بلغات مختلفة.

زرنا بعد ذلك المدن الاميركية المختلفة، ودعانا الدكتور فيليب حتّي الى زيارة جامعة پرنستن حيث كان يدرّس

تاريخ العرب. ومن الطريف أن نذكر اننا مررنا بالسيارة في أحد شوارع المدينة، وكان معنا الدكتور نبيه امين فارس، فقال مازحاً: «التزموا الهدوء، ففي العمارة التي ترونها هنا يسكن أعظم علماء العالم البرت انشتاين، فلا تتكلموا وتعكروا عليه أفكاره السامية!» وأرانا الدكتور حتي في مخازن الجامعة مجموعة من آلاف الكتب والمخطوطات العربية العائدة الى المستشرق الكبير البروفسور ابراهام يهودا، وهو عراقي الأصل. وقال ان الجامعة اشترتها، ولكن لم يتسنّ تصنيفها وفهرستها بعد.

واجتمعنا في واشنطن العاصمة التي زرناها مراراً بشعبة التجارة الخارجية في سكرتيرية الدولة، اذ دعتنا الى المباحثة في شؤون توثيق الصلات التجارية بين العراق والولايات المتحدة. ودعتنا عدة شركات كبرى، كشركة جنرال موتورز وفورد وآر سي اي، الى زيارة معاملها.

الادب العربي في المهجر

انتهزت فرصة وجودي في نيويورك فاتصلت بالشعراء والادباء اللبنانيين الذين رفعوا لواء الشعر العربي في المهجر الاميركي، وفي مقدمتهم ايليا ابو ماضي (١٨٨٩ ــ ١٩٥٧) ونسيب عريضة (١٨٨٧ ــ ١٩٤٦) وندوة حداد (١٨٨٠ ــ ١٩٥٠) وأخوه عبد المسيح حداد (١٨٩٠ ــ ١٩٦٣) وحبيب كاتبة. وقد دعوناهم الى موافاتنا في فندق «والدورف استوريا» الذي كنّا نقيم فيه، وزرنا مكاتبهم.

كان ابو ماضي يصدر جريدة «السمير»، وله مكتب ومطبعة صغيرة في بروكلين. حادثته فلم أجد فيه ذلك الشاعر الكبير الذي سحر جيلاً كاملاً بقصائده وموشحاته العذبة، كالطين، والمساء، والدمعة الخرساء، والطلاسم، وأخواتها. أهدى لي «خمائله» التي صدرت آنذاك، فقلت له: «أين الشاعر الذي نعرفه في الوطن العربي؟» قال، وقد ردّد حسرة جاش بها صدره: «لقد ذهب به الشباب والفراغ والدعة، وجاءت تبعات الحياة والاسرة بهمومها فأخرست اللسان وروّعت الجنان». وقال: «انني أنوء اليوم بأعباء الحياة، فجريدتي لا قراء لها في هذه البيئة وإن أسففت بها الى أدنى دركات الاسفاف، وشعري لا يعود عليّ بطائل. وقد لحّنت قصائدي وغنّيت في مصر، وطبعت دواويني في العراق، فطالبت بحقوق التأليف، قيل لي: لا قيمة لجهود الفكر في البلاد العربية غير الشهرة، وهل تطعم الشهرة الجائع وتبلّ عطش الظامىء وتكسو العاري بالحلل الزاهية؟ وماذا تفيدني الشهرة وقد عدوت الخمسين من عمري وأنا أكافح في هذا البلد المادّي لأعيل زوجة واولاداً، ولا مورد لي الا هذا القلم العربي الغريب؟...»

عرضت عليه ملحمتي الشعرية «نهاية الأبطال» فقرأها وقال: «ان في الأساطير العربية مادة لا تنضب، فما لك توغلت بعيداً في الجغرافية والتاريخ لتختار موضوعك؟» قلت: «ولكنك، يا استاذ، قد مضيت الى عالم جديد، وتركت أهلك ووطنك فلم تترك روحك العربية الأصيلة. فهل من بأس أن أمضي بشعري كما مضيت بجسمك؟»

ووجدت نسيب عريضة مثال الرجل البسيط المنزوي الخجول، فلا تكاد تبصره وتحدثه حتى تذكر شاعر «الارواح الحائرة» الذي يقول في قصيدته «على الطريق» من ديوانه «الارواح الحائرة»:

لماذا وقفتِ بخوف وحيرة،
أيا نفسُ، عند الطريق العَسيرة؟
ألا امشي، فانّ الحياة، قصيرة،
ألا امشي.

وشاعر اليأس الذي يقول في قصيدته «النهاية»:
كفّنوه
وادفنوه،
أسكنوه

هوّة اللحد العميق.
واذهبوا لا تندبوه، فَهْوَ شعبٌ
ميّت ليس يفيق...

وشاعر الخيال الذي يقول في قصيدته «مناجاة»:

لاحــت قــصــور الخيــال	تــعــلــو مــتــون الــغــمــام
يــا اخــت روحــي، تــعــالي	أطلــتِ فيــهــا المقــام

وشاعر الألم الذي يقول في قصيدته «يا نفس»:

يا نفس، مالك والأنين،
تتألّمين وتؤلمين؟

وشاعر حمص «ذات الحجار السود» و«أبي فراس»... كان صوته خافتاً وعيناه حالمتين. وبعد أن تنقل في أعمال تجارية وصحفية مختلفة لم تدرّ عليه غير رزق شحيح، استقرّ به المقام في مكتب الأنباء الحربي ليسدّ رمقه. كان ديوانه «الأرواح الحائرة» ــ وهو خلاصة حياته المعذبة ــ في طريق الطبع، فوعدني أن يهديني نسخة منه عند صدوره... وعدت الى بغداد فلم يمض أمد طويل حتى علمت (١٩٤٦) بوفاة الشاعر وديوانه بين يدي الصحاف لم يخرج بعد الى عالم النور.

كان مقرّ جريدة «السائح» التي يصدرها عبد المسيح حدّاد في الجادّة الخامسة ندوة يجتمع فيها الأدباء والمتأدبون ملتفّين حول نسيب عريضة، بينما كان أبو ماضي يقبع وحيداً في مقر صحيفته «السمير» في بروكلين على الجانب الآخر من النهر الشرقي. وعبد المسيح ناثر لطيف الأسلوب، لكنه كان أكثر من ذلك، صديقاً وناشراً ومستشاراً لكبار شعراء المهجر يؤثرهم على نفس، ويعنى بشؤونهم ويحلّ مشاكلهم ويلمّ شعثهم، مستهيناً في سبيل ارضائهم وخدمتهم بكل الأتعاب والصعاب. كان كالقمر يستمدّ نوره من شموسهم، بيد أنّ هذا القول لا يفيه حقه على ما أرى، فأكثر تلك الشموس لم تكن لتتألّق في سماء الأدب لولاه.

عدت الى نيويورك بعد سبعة عشر عاماً، وقد قضى اولئك الأدباء والشعراء نحبهم الا عبد المسيح. ولم أدر، وقد أناف على السبعين، هل كان يواصل اصدار «سائحه». أما مكتبه في الجادة الخامسة فأصبح محلاّ لتجارة أقربائه من آل حداد.

وقد قضينا، والحق يقال، سويعات ممتعة مع المؤرخ الأستاذ الدكتور فيليب حتّي. كان صوته جهورياً يدوّي في قاعات الدرس وعلى منابر الخطابة. وأذكر انه دعانا ذات يوم لحضور احتفال أقيم في نيويورك في ذكرى استقلال لبنان حضره عدد وفير من أبناء الجالية اللبنانية والعربية. وقف الدكتور حتّي يخطب في الحفل مشيداً بلبنان الذي وجد ضالّته من الحرية، فكان بعض الحاضرين يقاطعونه صارخين: فلتحي فرنسة! لكنه رفع صوته وصاح بهم: بل فليحي لبنان الذي نال استقلاله عن فرنسة! وكان أكثر اولئك المعترضين قد هاجروا الى اميركة هم أو آباؤهم في زمن كان فيه بلدهم يرهن آماله في الحرية والرخاء في فرنسة الأم الحنون.

كانت زيارتي للولايات المتحدة فرصة ممتعة أتاحت لي مشاهدة العالم الجديد والتعرّف على حياته الصاخبة السريعة ولقاء أشخاص غير قليلين أميركيين ومهاجرين وأجانب. وكانت حالة الحرب قد استدعت ذهاب أكثر الشباب الى ميادين القتال في البرّ والبحر والجوّ، في أوربة وأفريقية والشرق الأقصى. وجنّدت طائفة كبيرة من النساء، لكن أكثرية بنات الجنس اللطيف بقيت تخدم في المعامل والوظائف والمرافق العامة في انتظار عودة أولادهن وأزواجهن واخوتهن. وشرعت الحكومة بوضع الخطط لعالم ما بعد الحرب، لايجاد الأشغال لملايين الشباب الذي يعود الى الوطن ولانعاش الاقتصاد في الداخل وفي الأقطار التي دمرتها الحرب.

وكان من المشاهد الفريدة التي علقت في ذهني حضور انتخابات الرئاسة الأميركية في تشرين الثاني ١٩٤٤، تلك الانتخابات التي أعادت روزفلت الى سدّة الحكم للمرة الرابعة. حضرنا في اليوم المعهود في ساحة التايمس في نيويورك نتدافع بالمناكب مع ربع مليون انسان يؤيد كل منهم مرشحه ويدعو له ويوزع النشرات الناطقة باسمه. وجرفنا التيار بين الذين يصرخون: نريد روزفلت واولئك الذين يريدون خصمه توماس ديوي (Dewey). ووجدنا أنفسنا في مدخل حدائق ساحة ماديسن حيث يعقد اجتماع انتخابي ــ ولا أذكر هل كان للحزب الدمقراطي أو الجمهوري ــ يحضره آلاف المدعوين. ولما أخبرنا المسؤولين عن الاستقبال بأننا جئنا من بلد يبعد آلاف الأميال، من عاصمة هارون الرشيد وألف ليلة وليلة، رحبوا بنا وأجلسونا في المقاعد الأمامية.

والتقيت في نيويورك بأبناء عمتي الذين هاجروا اليها قبل الحرب العظمى الأولى. وكانت هجرة العراقيين، ولا سيما اليهود منهم، تتجه في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الى الهند والشرق الأقصى وأحيانا الى استانبول والولايات التركية. لكن فريقاً من الشباب ركبوا متون البحار وجاؤوا الى ابواب القارة الأميركية بعد رحلة طويلة شاقة. لم تكن آنذاك جوازات سفر يحملها المسافرون، بل ينزلون من الباخرة في جزيرة إليس في الخليج الأعلى حيث يقابلهم موظفو الهجرة والكمارك والصحة. فاذا قبلوا سمح لهم بمغادرة الجزيرة الى البرّ، أما الآخرون الذين لم يسعفهم الحظ فيعودون أدراجهم أو يمكثون في الجزيرة ويوكلون المحامين للدفاع عن لياقتهم العرقية أو الصحية. وبقيت هذه الطريقة معمولاً بها الى قبيل الحرب الأولى أو بعيدها حيث أنشىء نظام جوازات السفر وسمات الدخول.

كان العراقيون الذين هاجروا الى أميركة في العهد التركي يسألوننا عن بغداد التي تركوها تغطّ في نومها وعن العراق المستقل وحكومته والتقدم الذي حصل خلال تلك السنوات. وذهبنا الى مطعم في واشنطن العاصمة فرحّب بنا صاحبه لما علم أننا أتينا من العراق. قال انه غادر بغداد سنة ١٩٠٠، وسأل عن «طيرة» المغنية المصرية ملكة الملاهي في ذلك العهد...

وقد احتفى بنا العراقيون في نيويورك وسائر المدن التي حللنا بها، وكان معظمهم من اليهود الذين وفدوا على البلاد الأميركية قبيل الحرب العالمية الثانية ونجحوا نجاحاً باهراً في التجارة وشراء الأملاك والأراضي. وكان في مقدمتهم خضوري زلخة الصيرفي المعروف صاحب شركة النيل في نيويورك والبيوت الصيرفية المبثوثة في بغداد وبيروت ومصر وجنيف وقد اتسعت بعد الحرب فامتدت الى لندن وباريس. كان عراقياً صميماً كريم النفس يحنّ الى البلد الذي ولد فيه ونشأ ثم اضطرّ على مغادرته سنة ١٩٢٥ ليقيم في بيروت وبعد ذلك في نيويورك.

وأذكر تاجراً عراقياً آخر لقيناه في القاهرة سنة ١٩٤٤ وهو يحاول السفر الى الولايات المتحدة. لم يجد آنذاك وسيلة تنقله الى محط آماله، فراجع السلطات الأميركية في مصر التي طلبت منه أن يأتي بكتاب من المفوضية

العراقية تؤيد فوائد سفره لتنشيط الاقتصاد العراقي. ولم يوافق الوزير المفوض تحسين العسكري بطبيعة الحال على منحه مثل هذا الكتاب. وسألني هذا التاجر أن أكلم تحسين بك في أمره، فقلت له: لماذا لا تمنح هذا الرجل الكتاب الذي يسهل سفره وهو من التجار المعروفين؟ قال: ان الرجل يخدم نفسه وينشط تجارته لا تجارة العراق واقتصادياته. فضحكت وقلت، وكنّا على العشاء في دار تحسين بك: أقصّ عليك قصة، وأرجو أن لا تغضب نهي لا تعدو الفكاهة. واذا راقت لديك فأرجو أن تجيب الرجل الى سؤله. قال: هات قصتك لنسمعها.

قلت: حين تولى مدحت باشا المصلح الشهير ولاية بغداد أمر بتأليف مجالس ادارية في الألوية والأقضية. وقد شكل مجلس ادارة قضاء بعقوبا برئاسة القائمقام وعضوية مأمور التحريرات وبعض الموظفين الآخرين. وتم التحري عن بعض وجوه البلدة للاشتراك في أعمال المجلس من الأهلين. ووقع الاختيار على أحمد وهو من الملاكين المعروفين، وكان وجيهاً في قومه وله أراضٍ وبساتين، لكنه أمّي لا يقرأ ولا يكتب. فاستدعي الى ديوان القائمقامية وقال له مأمور التحريرات: لقد اختارك القائمقام عضواً بمجلس الادارة وعليك حضور الجلسات. قال الرجل: انني لا أعرف أصول الدوائر ومعاملاتها ولا أفهم التركية.

ـ لا عليك. اذا حضرت الجلسة فاحنِ رأسك باحترام علامة الموافقة اذا تكلم القائمقام. واذا خاطبك وقلما يفعل ذلك، قل: أيوه أفندم، نعم أفندم. وعندما تنتهي الجلسة أحرر المحضر لتوقعه مع سائر الأعضاء.

ـ ولكنني لا أكتب ولا أحسن التوقيع.

ـ اليس لديك ختم؟ أرسل ابنك الى بغداد، وليذهب الى سوق السراي، وهناك «الحكاكون» الذين يصنعون أختام النحاس. وليعمل لك ختما يكتب عليه «عبده (مدوّر) وفي الوسط أحمد».

ـ نعم سأفهم ولدي ليصنع لي الختم المطلوب.

ذهب نجل الوجيه الى بغداد وجاء الى الحكاك في سوق السراي وقال له: اصنع لوالدي عضو مجلس القضاء ختما وانقش عليه «عبده (مدوّر) وفي الوسط أحمد». ولما رآه الحكاك فتى ساذجاً نقش على الختم «عبده مدوّر وفي الوسط أحمد».

وتسلم أحمد ختمه وذهب الى مجلس القضاء. وردّد عبارة «أيوه أفندم» وحنى رأسه مراراً، فلما جاء أوان التوقيع على المحضر، أخرج ختمه الملفوف في منديله الأحمر وأعطاه الى مأمور التحريرات، فبصم به الورقة. ولما رأى المأمور كلمات الختم المبصوم أمامه ضحك وأعطى الورقة الى القائمقام والموظفين، فقرأوا ما فيها واستغرقوا في الضحك.

بهت أحمد المسكين وقال: أليس الختم صحيحاً، وما الذي يضحككم؟

قال المأمور: انني قلت لك ان تحضر ختما باسمك: عبده (مدوّر) في وسطها أحمد.

ـ وماذا نقش في الختم؟

ـ نقش في الختم «عبده مدور في الوسط أحمد».

ـ أليس ذلك هو المطلوب؟

ولم يفهم الوجيه أن الحكاك الخبيث نقش الكلمات «مدوّر» وفي «الوسط»، وهي انما وصف لطريقة كتابة الاسم «عبده أحمد».

ضحك الوزير المفوض والحاضرون لهذه القصة وقال لي: هل الحادثة تأريخية؟

قلت: لا أعلم، ولكنها تمثّل عقلية الموظفين في ذلك الزمن. والعهدة على كل حال على راويها سميّك تحسين بك علي.

قال لي: هكذا جعلتني «عبده مدوّر» وتريدني أن أوقع على الكتاب الى المفوضية الأميركية؟

قلت: حاشا لله أن أفكر في ذلك.

قال: لا بأس، اذا جئت غداً الى المفوضية حرّر الكتاب فأوقعه. وكذلك فعل، فتيسّر لصاحبنا أن يسافر الى الولايات المتحدة.

قبل مغادرتنا نيويورك أقام نوري فتاح مأدبة عشاء في احدى قاعات فندق والدورف استوريا حضرها علي جودت الوزير المفوض وأركان المفوضية في واشنطن وأفراد الجالية العراقية وغيرهم، فكانت ليلة جميلة حفلت بالرقص والموسيقى وذكريات البلد البعيد فيما وراء البحار.

الشاعرة برتي زلخة

تعرّفت في نيويورك على الشاعرة العراقية الناشئة برتي زلخة، وهي ابنة الصيرفي الكبير حضوري زلخة. أهدتني مجموعة شعرها المنثور باللغة الفرنسية «الفباء الزينة»، وفيها صفحات مما كتبته في الخامسة عشرة، فذكرتنا بالآنسة ميّ (ماري زيادة) التي نشرت وهي في ميعة الصبا «أزهار الحلم» باسم «ايزيس كوبيا» المستعار.

كتبت عنها بعد عودتي مقالاً نشرته مجلة الاعتدال النجفية (لصاحبها محمد علي البلاغي) في عدد مايس ١٩٤٦. قلت ان برتي زلخة ولدت في بغداد ودرست في بيروت والقاهرة، ثم اذا بها في نيويورك تكمل دراستها العالية في جامعة كولمبية. فتاة هادئة حساسة لم تكد تتجاوز العشرين من عمرها تمتاز بنفس شاعرة بالفطرة حتى انها يعز عليها أحياناً أن تجد الكلمات التي تفصح عما يخالجها من شعور وما يتدفق في ذهنها من أفكار، فلا عجب أن لجأت الى الشعر المرسل الذي يتهادى مع خلجات النفس وخفقات القلب، واصطنعت الطريقة الرمزية الفياضة بالكلمات ذات الصدى المبهم الرنان.

قلت ان في شعرها محاولة للفرار من عالمنا المتمدن الصاخب، وقد غلبت عليه نغمة شجية مفعمة بالأسى والشعور بالوحدة. وهذه الوحدة التي سمتها الشاعرة «الوحدة العامرة» كثيرا ما استولت على نفوس الشعراء والنبيّين فأقامت حولها سداً منيعاً لا تخترقه ضوضاء العالم والحياة. وختمت كلمتي مخاطباً الشاعرة:

«أما أنت، ايتها الشاعرة الفتاة، فان ديوانك ليزخر بهذه الوحدة الروحية.. هذه الوحدة التي تدعينها تارة

بالخرساء وطوراً بالعامرة والتي تهمّ أبداً بالانطواء على نفسها لتشعر بذاتها وتستجلي كنهها. وان معانيها لمبثوثة في أعماق الكلمات وبين ثنايا السطور. فهلا تحررت من أسرها وانطلقت الى فضاء الفكر الرحيب؟»

لا أظن أن شاعرتنا عنيت بعد ذلك بالأدب، بل علمتُ أنها تزوجت وابتليت بمرض شديد قضى على حياتها ولم تتجاوز الأربعين أو نحو ذلك.

طريق العودة

عاد عبد الهادي الچلبي واسكندر اسطيفان الى بغداد ومضى حافظ القاضي الى لوس انجيليس للاطلاع على صناعة السينما. أما نوري فتاح وخضورى شكر وأنا فقررنا العودة بعد أن قضينا خمسة أشهر في الولايات المتحدة. ركبنا الطائرة في ٢ نيسان ١٩٤٥ ومررنا بالأرض الجديدة التي تغطيها الثلوج وجزر الأزور التي تشرق عليها الشمس وحللنا في الدار البيضاء بعد طيران ساعات طويلة.

بعد أيام قليلة في هذا الثغر المغربي المشرف على المحيط الأطلنطي طرنا الى القاهرة عن طريق طرابلس. ولم نكد نمضي أياماً فيها حتى قرأنا في الصحف نعي الرئيس فرانكلين روزفلت الذي قاد بلاده في فترتين عصيبتين: في فترة الأزمة الاقتصادية العنيفة وبعد ذلك في زمن الحرب، لكن لم يقدر له شهود استسلام ألمانية النازية واليابان. لقد أعلن الرئيس توماس وودرو ولسن في نهاية الحرب الأولى نقاطه الأربع عشرة التي ترمي الى عقد مواثيق صلح علنية وحرية الملاحة البحرية ورفع الحواجز الاقتصادية وتخفيض السلاح ومنح الحرية للشعوب المغلوبة على أمرها واعطائها حق تقرير المصير وانشاء جمعية أممية لأجل تفاهم الدول وتعاونها في سبيل السلام. غير أن الشعب الأميركي خذل رئيسه واختار العزلة ولم يساهم في عصبة الأمم التي أنشئت وفق المبادىء الولسنية، فغلب المرض والكآبة على الرئيس ولسن وقضى نحبه بعد سنوات قلائل.

أما فرانكلين ديلانو روزفلت فقد اجتمع مع ونستن تشرشل رئيس الوزارة البريطانية ووضعا ما سمّي بـ «ميثاق الأطلنطي» في ١٤ آب ١٩٤١. ضمن هذا الميثاق حق الشعوب في الموافقة على التغييرات الاقليمية والمشاركة بصورة عادلة في التجارة الدولية ورفع مستويات العمل والضمان الاجتماعي وأعلن التحرر من الخوف والعوز.

ان مبادىء ولسن وروزفلت وتشرشل لم تتحقق بكاملها، لكنها كانت أعلاماً في طريق الانسانية ومسيرتها الطويلة نحو الحرية والرفاهية والسلام، وقد سجلها التأريخ في صفحاته بأحرف من نور.

ثم غادرنا القطر المصري بالقطار الى تل أبيب. كانت فلسطين آنذاك تخوض غمار حرب داخلية بين بريطانية الدولة المنتدبة والعرب واليهود، لكننا لم نشعر بالقلق أو الضيق. زرت القدس الشريف ووقفت ازاء حائط المبكى الذي يمثل العواطف الدينية النابعة منذ آلاف السنين. هو البقية الباقية من هيكل سليمان حيث رفع لواء التوحيد الالهي في عالم تسوده عبادة الأصنام. في هذا الهيكل، وفي هذه المدينة المقدسة، حلم الأنبياء بالعدل الشامل والسلام. هنا، منذ ٢٧٠٠ سنة، قبل سقراط وأفلاطون وأرسطو، وقف النبيّ اشعياء يدعو الملوك والشعوب الى التمسّك بالأخلاق الرفيعة والتزام العدل والحق ونبذ الظلم والطغيان. رفع عقيرته بالشكوى من الجور والفساد، حلم بعهد هانىء بعيد فقال: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الربّ يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري اليه كلّ الأمم. وتسير شعوب كثيرة، ويقولون: هلمّ نصعد الى جبل الربّ، الى بيت إله يعقوب، فيعلّمنا من طرقه ونسلك في سبله... فيقضي بين الأمم وينصف شعوباً كثيرين. فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع أمّة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد...» (إشعياء ٢: ٢ ــ ٤)

اني أتخيل هذا النبيّ الشيخ واقفاً في قمة الجبل، شعره الكث يتطاير في مهبّ الريح، وثوبه الطويل الفضفاض يخفي جسمه النحيل. بحّ صوته الذي يدعو الى الخير والسلام، ولكن هيهات، لا سامع ولا مجيب.

إيه، يا أورشليم، يا منبع التوحيد ومصدر الحكمة والفضيلة. لقد كنت واحة مزهرة في صحراء الدنيا القاحلة، ونجماً نيّراً في ظلام العصور. عزف فيك داود على مزهره صلوات النفس في حزنها وسرورها، وسبّح الله تسابيح ردّدتها من بعده الدهور وكانت عزاء للقلوب المعذبة وبلسماً للآلام والجروح. نطق فيك سليمان بآيات الحكمة، وذاق الألم والفرح وجرّب المجد واليأس، فخرج من تجاربه يقول: باطل الأباطيل، الكلّ باطل! وتمتع في شبابه بالحبّ، قبلته فتاة أحلامه بقبل أطيب من الخمر وهمست في أذنه أناشيد الغرام. قالت: «صوت حبيبي، هوذا آتٍ طافراً على الجبال، قافزاً على التلال. حبيبي شبيه بالظبي... هوذا واقف وراء حائطنا يتطلع من الكوى... أجاب حبيبي وقال لي: قومي، يا حبيبتي، يا جميلتي، وتعالي. لأن الشتاء قد مضى والمطر مرّ وزال. ظهرت الزهور في الأرض... وصوت اليمامة ارتفع في أرضنا...» وقالت: «ضعني كالخاتم على قلبك، كالخاتم على ساعدك، لأن الحبّ شديد كالموت، والغيرة قاسية كالهاوية. لهيبها لهيب النار لظى الرب. المياه الكثيرة لا تستطيع ان تطفىء الحب والسيول لا تغمرها. ان أعطى الانسان كل ثروة بيته بدل الحب يحتقر احتقاراً.»

ايه، يا أورشليم، أيتها المدينة الخالدة. جاء ملكك ملكي صادق ملك شاليم الى ابراهيم خليل الله وقدم له خبزاً وخمراً، وكان كاهناً لله العليّ. وباركه، وقال: مبارك ابراهيم من الله العليّ مالك السمٰوات والأرض. ومرت العصور والأجيال، ومضى عهد داود وسليمان وملوك يهودا. ووطأتك سنابك الخيل من أشور ودمرتك جيوش نبوخذ نصّر. ثم بنيت حيطانك وعمرت أركانك حتى جاء الرومان فأحرقوا بيت مقدسك بالنار وحرثوا عرصاتك بمحاريث الدمار. وقبل ذلك المسيح في ربوعك أياماً أصبحت فيما بعد عصوراً نورانية على مدى الأجيال. ثم جاء الخليفة العادل عمر الفاروق فدخل خاشعاً الى مثوى جلالك. وعقب ذلك تأريخ طويل ليس له نهاية.

كانت زيارة القدس لي رياضة روحية لا يطويها النسيان. ان أورشليم الفكرية أعظم وأقدس من أورشليم المدينة الحقيقية، فهي تمثل التوحيد السامي الذي تنبثق عنه المثل الأخلاقية العليا والرسالة الانسانية في الاخوّة والمسالمة والتعاون في سبيل الخير ومكافحة العدوان والظلم والشرّ وطلب المعرفة والعلم. تلك اورشليم السماوية التي يتطلع اليها البشر والتي تجعل من الأرض الدنيا جنة وارفة الظلال.

ان بلاد الرافدين لها شأنها في نشوء الديانة اليهودية والتوحيد: فمن ربوعها انطلق ابراهيم جدّ الانبياء الى البلاد المقدسة. وفي نينوى وقف يونس يدعو أهل المدينة الى الصلاح ونبذ الشرور. وفي ألقوش نزل الوحي على ناحوم ينذر نينوى مدينة الدمار بالخراب والخلاء. ان الله يذلّ الجبابرة ويحطم تماثيل آلهتهم ويرسل المبشر فوق هام الجبال منادياً بالسلام. ووقف النبيّ حزقيال عند نهر الخابور فرأى مركبة نورانية وسط سحابة عظيمة تسوقها الريح العاصفة الآتية من الشمال وسمع صوت الله منذراً ومبشراً. وفي حكم كورش ملك الفرس دوّن عزرا الكاتب أسفار التوراة ورقد بعد ذلك في القرية القائمة في ملتقى دجلة والفرات والتي تحمل اسمه حتى اليوم. ولكل من هؤلاء النبيّين مزار في الموصل والقوش والكفل والعزير يؤمه أبناء الملل المختلفة للعبادة والتهجّد.

وفي بابل بعد ذلك وضع الأحبار التلمود منار الشريعة الموسوية ومنهج طقوسها وعباداتها. ونحن الذين عشنا في العراق في مختلف أدواره القديمة والحديثة، في عهد الكلدان والبابليين والفرس والعباسيين، وبعد ذلك في عهد الأتراك والانكليز والعرب، حملنا في قلوبنا وعلى ألسنتنا تلك الرسالة السماوية التي ابتدع آياتها أجدادنا قبل آلاف السنين.

ان أورشليم الأرضية بلد يقدسه أبناء الأديان السماوية الثلاثة. لكنه كان دائماً محط آمال اليهود في مختلف أمصارهم، حنوا اليه، وذكروه في صلواتهم، ومجّدوه في شعرهم ونثرهم، وحج اليه من استطاع منهم سبيلا اليه. وكان الراب يهودا هاليوي الطليطلي المعروف باسم أبي الحسن اللاوي أبلغ الشعراء في شوقه الى بيت المقدس، فسارت قصائده مسير الأمثال في المشرقين. وقيل انه ذهب الى هناك من الأندلس في رحلة بحرية وبرية شاقة انتهت أمام حائط المبكى. وبينما كان يصلي، ودموعه تبلّل لحيته البيضاء، اذ طعنه فارس مرّ به برمحه ففاضت روحه الى بارئها. لكن هذه الرواية لم تثبت صحتها، بل قيل انه توفي بمصر في طريقه الى فلسطين.

وقد طرق مسمعي وأنا في بغداد، وبعد ذلك في رحلتي الى أميركة، خبر تقتيل اليهود في أوربة الهتلرية. غير أنني لم أعلم الا بعد نهاية الحرب بابادة ستة ملايين من رجالهم ونسائهم وأطفالهم في أفران الغاز والمعتقلات الفظيعة. كانت تلك من أعظم الجرائم التي اقترفت في حقّ الانسانية. ولئن أخذ الزعيم النازي محله الشرّير مع الطغاة، من أتيلا الهوني الذي وطأ ساحات أوربة بسنابك خيله وأحرق فيها الحرث والنسل، الى جنكيز خان الذي أقام الأهرامات من الجماجم البشرية في البلدان التي افتتحها وهولاكو الذي غمر مياه دجلة بالدم والحبر، لقد فاقهم هتلر جميعاً بالوسائل الجهنمية الهائلة التي وضعها العلم الحديث في يده الدامية. قتل في الحروب ملايين الجنود والأهلين الأبرياء، لكن لم يسبق لشخص أو لدولة أن صمّم مثل هذه الابادة الجماعية ونفذها بغير رحمة ولا تأنيب ضمير كما فعل الزعيم الألماني النازي وزبانيته.

لبنان وسورية

غادرنا الأرض المقدسة في ٢٤ نيسان بسيارة خاصة عن طريق الناقورة وصور وصيدا فوصلنا بيروت مساء. وقد وجدنا مظاهرة شيوعية تنطلق في المدينة ليلا على ضوء المشاعل. وزرت في صباح اليوم الثاني مع نوري فتاح رئيس الوزراء اللبناني عبد الحميد كرامة مفتي طرابلس الذي نزع عمامته وارتدى الملابس الافرنجية وولج ميدان السياسة الوطنية في خدمة بلاده.

ثم مضينا الى الشام، فدعانا رئيس وزراء سورية جميل مردم الى حفلة غداء شائقة في بساتين الغوطة. وزرت مع نوري فتاح رئيس الجمهورية شكري القوّتلي، فسألنا عن الأحوال في الولايات المتحدة. ثم قال لنا ان الملك عبد العزيز آل سعود أعلمه أنه، حين قابل الرئيس روزفلت، أكّد له انه لن يبت في قضية فلسطين قبل مشاورة العاهل السعودي.

ويممنا وجهنا بعد ذلك شطر البادية فوصلنا بغداد في صباح السبت ٢٨ نيسان ١٩٤٥. وقد كان في وسعي ان أردد أبيات الشاعر الفرنسي القديم جواشيم دو بلاي (Joachim du Bellay) الذي قال:

«ما أسعد الرجل الذي، مثل أوذيس، قام برحلة جميلة،
أو ذلك الذي فاز بجزّة الذهب،
ثم عاد مليئاً بالحكمة والدراية،
ليعيش بين أهله بقيّة عمره!»

وبعد أيام قليلة، في ٨ أيار، أعلن نهاية الحرب في أوربّة.

الحرب تضع أوزارها

وضعت الحرب أوزارها سنة ١٩٤٥ لتحفز الشباب العراقي عامة واعتنقوا المبادىء المختلفة من قومية وشيوعية وغيرهما. وصدرت الصحف وقامت المظاهرات تطالب بالحرية وتأليف الأحزاب واصلاح الأوضاع السياسية والاجتماعية. وألفت الحكومة لجنة رسمية برئاسة يوسف غنيمة للتخطيط لما بعد الحرب، لكن لم تعمل شيئاً يذكر في هذا السبيل. وأجيزت الأحزاب في السنة التالية، غير أن الحزبين اليساريين المتطرفين حلاّ بعد أمد قصير.

أما شباب اليهود فمضى أكثرهم للعمل في التجارة والاستخدام في المصارف والشركات أو الدراسة في الخارج حسب الامكانات المتيسّرة. وانتسب بعضهم الى الحزب الوطني الدمقراطي المعتدل في حين انتمى آخرون الى الحزب الشيوعي السرّي والى الحركة الصهيونية الخفيّة.

ولقي الشيوعيون عنتاً كبيراً فألقي الكثير منهم في المعتقلات والسجون وحكم على رؤسائهم بالموت. واذكر على سبيل المثال مسرور صالح قطان، وكان اسمه الأصلي ساسون. برز في الحركة الشيوعية، ثم هرب فيمن هرب الى ايران. ولما قمعت الحكومة الايرانية الحركة الشيوعية في بلادها مضى الى تفليس فاعتقلته السلطات السوفيتية لشكها في أمره. بقي في المعتقل عدة سنوات، فلما نشبت ثورة تموز ١٩٥٨ سافر كامل الجادرجي الى موسكو فزكّاه. وجيء به الى العاصمة الروسية واستخدم في الاذاعة العربية حتى أصبح رئيساً للقسم. واقترن بفتاة روسية وأنجب بنتاً، وكان وزير الدولة عزيز شريف يلتقي به كلما ذهب الى موسكو ويحمل لي أخباره عند عودته الى بغداد.

وفي نحو سنة ١٩٧٤ اختلف مع السلطة فاستأذن في الذهاب الى اسرائيل، وجاءها وحيداً لأن السلطات احتجزت زوجته وابنته. لقيته في الطريق سنة ١٩٧٧ في زيارة لتل أبيب، فوقفنا نتحدث ونستعيد الذكريات القديمة. وقلت ان الشيوعية مبدأ هدّام وفيه كبت للحريّات واضطهاد للشعب، فامتعض وقال لي: نلتقي بعد ثلاثين سنة وتهاجم المبدأ الذي آمنت به؟ وقال انه يرغب في العودة الى روسية وقد كتب يطلب الاذن بالرجوع. وعلمت بعد بضع سنوات انه توفي في الشقة التي يقيم بها في تل أبيب وحيداً ولم يشعر أحد بوفاته الا بعد أيام.

استفاد الشيوعيون من اشتراك روسية السوفيتية مع الحلفاء في الحرب العالمية فجاهروا بآرائهم وبرزوا في ميدان السياسة وأيدوا انكلترة وأميركة في دفاعها عن الحريات العامة بعد أن كانوا يقفون موقفاً مريباً منها. ولما وضعت الحرب أوزارها أخذ نوري السعيد رئيس الوزراء وسائر رجال الدولة يشددون النكير على الشيوعيين ويعتبرونهم مخرّبين ومقوّضين لأركان الحكم. وأفسح نوري السعيد المجال بعد سنة ١٩٥٤ لمعتنقي المبدأ الشيوعي للتوبة والتنصل من حركتهم، فيوقف ملاحقتهم ويطلق سراحهم من السجون.

كان صديقي عبد الرزاق الشيخلي سكرتير وزارة العدلية الأسبق ونائب بغداد في مجلس الأمة يزورني في أحيان كثيرة، فقال لي ذات مرة ان الشاعر الشاب بدر شاكر السّياب سجين بتهمة الشيوعية. وقد التمست أمه من الشيخلي أن يكلم

رئيس الوزراء في الافراج عنه. قال الشيخلي: ذهبت الى نوري السعيد وكلمته بشأن السياب، فتحدث مع مدير التحقيقات الجنائية العام، ثم قال لي: ان صاحبك شيوعي، فاذا أعلن توبته في الصحف وارتد عن مبدئه أمرت باخلاء سبيله. ونشر السياب توبته في الصحف ـ شأن الكثيرين من أصحابه ـ فخرج من السجن. قال الشيخلي: جاءني السياب بعد ذلك فقال: لماذا أخرجتني من السجن؟ كنت في الأقلّ آكل وأشرب وأبيت على حساب الدولة، أما الآن فلا عمل لي وأنا أموت جوعاً. وأخذه الشيخلي الى ناظم الزهاوي مدير الأموال المستوردة العام وطلب منه أن يجد له وظيفة في دائرته تقوم بأوده، ففعل.

سألني الشيخلي هل أريد أن يرسل لي السياب لأتعرف عليه، فقلت نعم. وصار الشاعر يأتيني بين الحين والحين فنتكلم في مواضيع الشعر والأدب. ولما قامت ثورة ١٤ تموز انقطع عن زيارتي وأصبح رائد الشعر الحديث وإمام أدباء الشباب.

بغداد بعد الحرب

عدت الى الحياة الراتبة في بغداد، وقد فتح السلم آفاقاً جديدة من الأمل والتطلع الى المستقبل. دعاني حسن رضا رئيس جمعية التفيض الى القاء محاضرة عن الولايات المتحدة في مدرسته فاستمع اليها الطلاب بشوق. وكانت اميركة في ذلك العهد مطمح الانظار يتشوق الناس الى معرفة شؤونها وحضارتها الآلية والدور الذي هيئت لتلعبه في مسرح السياسة والاقتصاد العالمي بعد ان نبذت العزلة التي ارتضتها لنفسها خلال فترة ما بين الحربين وبعد أن قرّبتها المواصلات الجوية وأصبحت مقرّ هيئة الأمم المتحدة. وتكلمت عن الجمهورية الاميركية ايضاً في جمعية خريجي مدرسة الاليانس، وكان الكثير من الطالبات والطلاب السابقين يسألون عن الاحوال المعاشية وشؤون الدراسة والعمل في تلك البلاد حالمين بأن تسنح لهم فرصة الهجرة اليها. ودعاني يحيى قاسم صاحب جريدة «الشعب» الى تحرير الصفحة الاقتصادية في صحيفته، فأصبحت هذه الجريدة، الى جانب جريدة «الزمان» و «الاخبار» و «البلاد» و «العالم العربي» منبراً لكتاباتي الاقتصادية والادبية. وكان صبيح الغافقي مراسل جريدة الزمان النشيط والصحفي الممتاز يأتيني مرتين او ثلاث مرات كل اسبوع فأملي عليه مقالاتي وبحوثي التي تصدر بشكل افتتاحيات في تلك الجريدة. وأخذت ايضاً بنشر شعر وقصص وبحوث ادبية في مجلة الاديب البيروتية والكاتب والكتاب المصريتين وغيرها.

وقد أسس انور شاؤل شركة التجارة والطباعة(٣٥) فدعاني الى المساهمة فيها. واصبح مكتبه في الشركة مجلساً ادبياً يؤمه صباح الجمعة الادباء والشعراء فيبحثون في المواضيع الفكرية ويقرأون الشعر وينقدونه.

وفي تلك السنة انشأ نعيم دنكور واحمد صفوت العوا شركة تجارة الشرق المحدودة فأقنعاني بتولي ادارتها. استقلت من وظيفتي في غرفة التجارة، بعد خدمة امتدت عشر سنوات، في آخر كانون الاول ١٩٤٥ واضطلعت بادارة الشركة. وقد سرّني ان أرى الاديب القصصي النابه يعقوب بلبول، الذي اخترته معاوناً لي قبل سبع سنوات، يتولى ادارة الغرفة التجارية خلفاً لي وينتهج نفس الخطة التي سرت عليها في اصدار المجلة.

لأول مرة مارست التجارة عملياً وصرّفت شؤون الاستيراد والتصدير والبيع والشراء. كنت الى ذلك الحين أزاول الوظائف العامة، أما الآن فقد اقتحمت ميداناً جديداً للنشاط. لكنني لم اقتصر عليه، بل انتخبت عضواً بالمجلس الجسماني الاسرائيلي فاهتممت بشؤون الطائفة ومدارسها ومستشفياتها. وصدر بعد الحرب قانون الادارة المحلية ينص على انشاء مجالس عامة في الالوية لتتولى الاشراف على الشؤون المحلية من مدارس ومعاهد ورعاية اجتماعية. وألفت المجالس في اوائل سنة ١٩٤٦ فانتخبت عضواً في المجلس العام للواء بغداد وكان برئاسة المتصرف وعضوية مدير المعارف ومدير الصحة وغيرهما من كبار الموظفين بالاضافة الى اعضاء منتخبين من الأهلين. عملت في المجلس سنتين وكنت مقرراً للجنته المالية، واشتركت في وضع الأسس لسير اعماله واشرافه على الدوائر التابعة له في العاصمة. وقد زرنا بعض المدارس والمستشفيات والمعاهد لتفتيشها وتذاكرنا في رفع مستوى خدماتها. وأذكر اننا تفقدنا ذات يوم دار العجزة، فوجدنا غرفة المدير أنيقة حسنة الاثاث، اما قاعات الشيوخ العاجزين الذين تضمهم الدار فزرية وحالتهم رثة وطعامهم رديء...

توفي خضوري شكر[٣٦] في ايلول ١٩٤٦ فأقمنا له حفلة تأبين حافلة تقديراً لخدماته في مجلس النواب ولجنة المدارس وغرفة التجارة. وقد وقع عليّ الاختيار لأخلفه عضواً في مجلس ادارة لواء بغداد، وهو مجلس آخر يرأسه المتصرف لمعاونته في الشؤون الادارية.

كانت هذه الفترة حافلة بمجالس التأبين: فبعد أشهر من وفاة خضوري شكر توفي العلامة اللغوي الاب انستاس ماري الكرملي، فأقيمت له حفلة تأبين كبرى في كنيسة الآباء الكرمليين اشتركت في تنظيمها وخطبت فيها مشيداً بخدمات الفقيد للّغة العربية. وفاتني ان اذكر ان المحسن الكبير السر اليعازر خضوري[٣٧] صاحب الايادي البيض في تأسيس المدارس والمعاهد الصحية توفي في شنغهاي في شباط ١٩٤٤، وكانت تحت الاحتلال الياباني. وقد أقيمت له حفلة تأبين خاشعة في المدرسة التي انشأها باسم زوجته، فخطبت فيها ذاكراً خدماته للعلم في العراق وايران والاقطار الأخرى.

وتوفي يوسف عمانوئيل الثاني بطريرك الكلدان، وكان رجلاً مهيباً عاش ٩٥ عاماً وتولى منصبه ٤٧ عاماً، فأقيم له حفل تأبيني برعاية الحكومة في قاعة الملك فيصل الثاني في ايلول ١٩٤٧ خطب فيه رجال الدولة والشعر والادب. وقد كلفتني لجنة التأبين بالقاء كلمة في الحفل، فاعتذرت لعدم معرفتي بالفقيد. وزارني في اليوم الثاني ابراهيم حييم معلم نسيم نائب بغداد فقلت له: كلفت بالاشتراك في تأبين البطريرك الراحل فاعتذرت. قال: سأروي لك حادثة شخصية ولا أشك انك تغيّر رأيك.

قال: في ايام الحرب العظمى الاولى الحالكة قررت القيادة التركية نفيي انا وفريق من وجهاء بغداد من مختلف الطوائف والمذاهب الى بلاد الأناضول وأشخصتنا الى الموصل في طريقنا الى المنفى السحيق. ولما وصلنا الى الموصل اتصلنا بالبطريرك وسألناه أن يشفع فينا لأننا لم نقترف جرماً، فذهب الى القائد الالماني فون درغولتز باشا وكلمه في أمرنا. أبدى المشير استعداده للعفو عن المسيحيين دون غيرهم، فقال له الحبر: انني كرجل دين أب للجميع ولا أخصّ ملتمسي بفريق دون فريق، فأعدمهم جميعاً او فأنفهم جميعاً. ولم يكن من القائد الا أن أجاب سؤله وأمر باعادة المنفيين المسلمين واليهود والمسيحيين جميعهم الى بغداد.

ولما سمعت هذه القصة اتصلت فوراً بلجنة التأبين وأبديت استعدادي للاشتراك في تأبين الحبر الجليل. ووقفت في اليوم المقرر فرويت القصة ذاتها وقلت: «وان في هذه المأثرة لعبرة لنا ودرساً، فهي تعلمنا أن الانسانية فوق الطوائف والاديان وان الخير لا يعرف حدوداً ولا قيوداً». ثم قلت: «لقد علم الفقيد حقاً ان الدين لله والوطن للجميع، وان وظيفة رجل الدين المحبة والوئام، فدعا الى التقارب والتآلف والتوادّ، شعوراً منه بأن الوطن لا ينهض ولا يرقى معارج الفلاح حتى تكون ملله وجماعاته على اختلاف منازعها ومشاربها يداً واحدة وقلباً واحداً في التفاني في سبيل المجموع والعمل لخير الجميع...» وختمت كلمتي قائلاً: أفاء الله على الحبر الوقور ظلال شيخوخة صالحة هنيئة حتى اذا ما دعاه اليه انطبق عليه كلام صاحب المزامير الذي قال مبتهلاً الى الربّ القيّوم (المزمور ٢١): «وهبته منية قلبه ولم تمنعه ملتمس شفتيه. أنعمت عليه بأطيب البركات وكللت هامته بتاج من ابريز. سألك الحياة فحبوته عمراً مديداً أبد الدهر. عظم مجده بعونك، فأسبغت عليه جلالاً وبهاء، وجعلت به البركات الأبدية، فيبتهج سروراً برضاك».

كان لهذه الكلمة أجل الوقع لدى المسيحيين خاصة، اكليروسهم وعامّتهم. وحدث انني بعد أمد كان لي قضية في دائرة جوازات السفر فراجعت المدير وكلمته بشأنها. ولما خرجت من غرفته رأيت موظفاً لا أعرفه ينتظرني وقال لي: ألا تأتي الى غرفتي لحظة؟ وسألني عما أريده من المدير فأخبرته بالأمر، فقال: هذه القضية تتعلق بوظيفتي وانا أقضيها لك

الآن فوراً، فلا حاجة لازعاج المدير بها. ثم قال: لعلك تستغرب أنني أقدم لك هذه الخدمة البسيطة وانت لا تعرفني. انا مسيحي، وقد سمعتك تؤبن بطريركنا الراحل فتركت في نفسي أبلغ الأثر!

وكان الاب انستاس الكرملي قد حضر قبل وفاته اجتماع مجمع فؤاد الاول للغة العربية الذي كان عضواً فيه، حسب عادته كل سنة. فكتب اليّ من القاهرة يقول ان زميله محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق قد سأله ترشيح اعضاء مراسلين من العراق لضمّهم الى المجمع، فرشحني الاب انا والدكتور مصطفى جواد وكوركيس عوّاد البحاثة المعروف. قال كرد علي: وهل مير بصري يهودي؟ قال: نعم، فهل من ضير في اختياره عضواً في مجمعكم؟ قال كرد علي: كلا، لا ضير في ذلك. وكان في مجمعنا اعضاء من اليهود كالاستاذ المجري الشهير انياس غولدزيهر. وبشرني الكرملي في رسالته سلفاً بعضويتي في مجمع دمشق.

غير أن الاختيارات الجديدة تمت في سنة ١٩٤٧، وكان موضوع التقسيم وتأسيس دولة يهودية في فلسطين من مواضيع الساعة، فصرف النظر عني واختير ثلاثة اعضاء عراقيين هم أحمد حامد الصرّاف ومصطفى جواد وكوركيس عوّاد.

وحلّ مجلس النواب وبدأت الانتخابات للمجلس الجديد، فأبدى صالح جبر مساعي عظيمة لفوز مؤيديه بالنيابة (وقد تم ذلك فعلاً اذ نالت جماعته فوزاً ساحقاً فألف الوزارة في ٢٩ آذار ١٩٤٧). وقد حثني على ترشيح نفسي للنيابة عن بغداد، واشتركت فعلاً في الدعاية الانتخابية له. وجاءني صفوت باشا العوا (والد أحمد) وقال لي: سمعت أنك ترشح نفسك للنيابة. وانت تعلم ان ولدي ونعيم دنكور موجودان كلاهما في الخارج ويعتمدان عليك في ادارة الشركة، فاذا فزت بالنيابة لم يتيسر لك الوقت الكافي للاهتمام بشؤون الشركة. وعلى ذلك اعتذرت لصالح جبر عن ترشيح نفسي فساءه ذلك كثيراً.

لكنني وجدت مشاغل أخرى بالاضافة الى عملي التجاري. فقد انتخبت نائباً لرئيس المجلس الجسماني، وألحّ عليّ عبد الله القصاب مدير جمعية التمور العام أن أتولى شؤون التجارة والدعاية في الجمعية، فقبلت ذلك بصفة وقتية ودوام ساعات قلائل اسبوعياً. وذهبت معه الى البصرة لتفقد بساتين التمور ومكابسها ووسائل تصديرها. لكن هذه المهامّ سوف يأتي تفصيلها فيما بعد.

كانت صلتي خلال هذه المدة وثيقة بأحمد حامد الصراف والدكتور مصطفى جواد، وقد عملنا منهجاً لزيارة المتاحف والآثار والمساجد والمراقد القديمة، وكان دليلنا مصطفى جواد الحجة في تاريخ بغداد القديم ومعالمها. زرنا مسجد حبيب العجمي في جانب الكرخ على شاطىء نهر دجلة: وهذا المسجد تزوره في ليالي الجمعة الفتيات اللواتي لم يجدن عريساً والنساء اللواتي لم ينجبن اولاداً وسواهن من اللواتي لهن رغبات لم تستجب، فيتبركن بزيارة صاحب المرقد ويتلو القيّم لهن الادعية ويوقدن الشموع ويضعنها على خشبة تترك لتطفو على مياه النهر. وهكذا ترى في تلك الناحية عشرات الشموع الموقدة تندفع مع التيار حاملة اماني النفوس المعذبة.

وفي جانب الكرخ ايضاً زرنا مقبرة الشيخ معروف الكرخي والى جانبه قبّة السيدة زبيدة. ويرجح مصطفى جواد انها ليست زبيدة الشهيرة زوجة الخليفة هارون الرشيد، بل هي لزمرّد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي ووالدة الناصر لدين الله الذي جدّد مجد الدولة العباسية في اواخر أيامها. توفيت هذه السيدة سنة ١٢٠٣م فدفنها ابنها في تلك الناحية. وعلى مقربة منها مزار يوشع الكاهن الاكبر الذي يزوره اليهود والمسلمون ويبجّلونه على حدّ سواء، وقبر بهلول الذي يزوره العوام، ولعله بهلول المجنون ابن عمرو[٣٨] المتوفى في نحو سنة ٨٠٦م، وكان من عقلاء المجانين استقدمه هارون الرشيد من الكوفة لسماع نوادره وأخباره.

ومن الغرائب ان في الحجرة التي يرقد فيها بهلول قبراً آخر كتب عليه بالعربية والانكليزية اسم غورو ننك مؤسس مذهب السيخ المعروف في الهند والمتوفى سنة ١٥٣٣م. أدخل ننك او ناناك التوحيد في دين البراهمة الهندكية، وكان متصلاً بالمسلمين ومطلعاً على دياناتهم. وتقول الاسطورة أنه زار بغداد وتوفي بها، لكن ذلك لم يثبت تاريخياً. فكيف ثبّت موقع مدفنه في مقبرة لأهل السنّة والمتصوّفة من المسلمين؟

في آذار ١٩١٧ احتلّ الانكليز بغداد، وكان جيشهم مؤلفاً من فرق بريطانية وهندية، وهذه الاخيرة تضم جنوداً من المسلمين الشيعة والسنّة والسيخ. وقد بادر البغداديون الى الاتصال بجيش الاحتلال والافادة من النقود التي بعثرها في البلاد، فأخذوا الجنود من أهل السنّة الى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني والامام الاعظم ابي حنيفة. ووجهوا الشيعة الى الكاظمين والنجف وكربلاء. وماذا عن السيخ؟ فكّر احد الخبثاء بايجاد مرقد لزعيمهم غورو ننك في قلب مقبرة معروف الكرخي، فرمم قبراً مندرساً في حجرة بهلول، ووضع عليه شاهداً باسم ننك، ودعا السيخ الى زيارته وايقاد الشموع تبركاً به. ولما جاء السيخ الى العراق في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية عادوا الى زيارة المرقد ومنح الصلات الى حارسه.

ان تزوير المقابر والمقامات الأثرية كثير الوقوع في العراق وسائر الاقطار. وفي بغداد، حيث اندثرت البنايات المشيّدة بالآجرّ في العهد العباسي، طمست المعالم القديمة ولم يبق منها سوى آثار ضئيلة كالقصر العباسي والمدرسة المستنصرية على ضفة دجلة. وقد قام معلمنا القديم الشيخ محمد صالح السهروردي حين أصبح مفتشاً عاماً للاوقاف بوضع شواهد على القبور في المساجد تحمل أسماء أشخاص تاريخيين لم يثبت أنهم ماتوا في بغداد او دفنوا فيها، كالحسين بن روح نائب الامام الغائب وغيره. والعجيب ان احسن من شخّص معالم بغداد القديمة وثبّت خططها لم يكن بغدادياً بل كان مستشرقاً انكليزياً هو غاي لتسترانج (Guy Lestrange) ١٨٥٤ ـ ١٩٣٣) الذي جلس في مكتبه في كمبريدج ودرس الكتب التي تتحدث عن بغداد وكشف عن محلاتها واحيائها القديمة ووضع سنة ١٩٠٠ كتابه «بغداد خلال الخلافة العباسية»، وألف بعد ذلك كتاباً آخر بعنوان «أقطار الخلافة الشرقية». وقد اعتمد الدكتور مصطفى جواد على كتب لسترانج في تحديد معالم المدينة القديمة وتحقيق المواقع المندرسة على مرّ العصور.

ونسبت مراقد كثيرة خارج بغداد الى أولياء عرفوا في التاريخ وجهلت مدافنهم فأصبحت مراكز لزيارة العوام وتعبّدهم. فمدينة الموصل مثلاً تعتزّ بمراقد أربعة انبياء، وهم يونس صاحب نينوى ودانيال وجرجيس وشيت بن آدم أبي البشر. واذا استثنينا يونس فلا دليل على دفن الثلاثة الآخرين في الحدباء. فدانيال عاش في سوسن الايرانية، والقديس جرجس حامي انكلترة استشهد على ما قيل في اللدّ من أعمال فلسطين. أما النبي شيت فلتعمير مرقده والجامع الذي يحتضنه قصة رواها لي الشاعر محمود الملاح الموصلي، قال:

ولي الامراء الجليليون حكومة الموصل في القرن الثامن عشر، وكان أعظم ولاتهم شأناً حسين باشا بن اسماعيل باشا الجليلي (١٦٩٥ ـ ١٧٥٨)، وقد أصبح والياً سنة ١٧٣٣ ثم نقلته الدولة العثمانية والياً حلب (١٧٥٧). أراد الجليليون اجتذاب قلوب الموصليين المعروفين بشدة الورع، فبيّت حسين باشا أو أحد خلفائه أمراً ورتّب مسرحية نظم فصولها بدقة سلفاً. وجلس ذات صباح على عادته المرسومة في ديوان الولاية يحفّ به الموظفون ووجهاء البلد، فجاءه أحد المشايخ المسنين ذوي الحرمة والتقوى وسلّم وجلس في صدر المجلس، وقال: يا أفندينا، أدام الله عزّك. رأيت حلماً في الليلة الماضية ولا بدّ لي أن أرويه لك.

قال الوالي: تفضل، أيها الشيخ.

ـ رأيت في المنام نبيّ الله شيت بن آدم عليهما السلام فقال لي: انا شيت، وقد دفن رفاقي في بلدكم، لكنكم تحملون وزري علمتم ام لم تعلموا: فقبري متهدم لا تعرفونه ولا تتعهدونه برعايتكم. قلت: يا نبيّ الله، أين يقع قبرك؟ فأخبرني بمحله وسألني أن أنبّه أهل الموصل. وها أنذا قد فعلت.

قال الوالي: وهل تعلم محل القبر فتدلّنا عليه؟

قال: نعم، يا أفندينا.

ونهض الوالي من فوره يتبعه كبار القوم، وقد انضمّ اليهم أهل الموصل كباراً وصغاراً، وسار في أثر الشيخ الذي دلّه على أرض خراب في ظاهر البلد. وجيء بالحفارين فضربوا بمعاولهم على بقعة عيّنها لهم الشيخ فلم يلبثوا أن وجدوا عظاماً مهترئة. قال الوالي: حسبكم. ثم أمر بأن يبنى ضريح للنبيّ في ذلك المكان ويشيد حوله جامع ليكون مصلّى ومزاراً يليق بابن جدّ البشر!

زرنا مع احمد حامد الصراف النجف وكربلاء والشامية. وتبرع عزرا مناحيم دانيال بدار الاسرة القديمة في المحلّة اليهودية القديمة لتكون مستوصفاً طبياً للمدارس وابناء الطائفة، فجهزها باللوازم والاثاث والأدوية وعيّن لها ممّرضة مختصة ومستخدمين. وجرى الاحتفال بافتتاح المستوصف بحضور توفيق وهبي وزير الشؤون الاجتماعية الذي تتبع مديرية الصحة العامة وزارته، فألقى خطاباً يثني فيه على المحسن، وتكلمت بعده بما يناسب المقام.

واصلت كتابة المقالات والبحوث وأحاديث الاذاعة في مختلف المواضيع الاقتصادية والادبية والتاريخية. نشرت هذه المقالات والقصائد الصحف والمجلات العراقية والمصرية واللبنانية، كمجلة الكاتب المصري والكتاب والرسالة المصرية والاديب والآداب والورود اللبنانية والهاتف والاعتدال النجفيّتين الخ. وأصدر المحامي سلمان الشيخ داود جريدته الاسبوعية «بريد الجمعة» فدعاني الى الكتابة فيها بصورة متواصلة. ويمكنني أن أقول انني ظللت اكثر من ربع قرن المعلق الاقتصادي الاول في العراق، فكان مراسلو الصحف يأتوني يومياً للسؤال عن رأيي في شؤون التجارة والاقتصاد والمال، ومنهم صبيح الغافقي وابراهيم علي وحنّا يتوما وجاك شاؤل محرر الاوقات العراقية الانكليزية[٣٩] ومراد العماري[٤٠] ومحمد عباس وعبد المنعم الجادر صاحب جريدة كل شيء وغيرهم. وقد انقطعت عن البحث في الشؤون الاقتصادية على أثر التأميم سنة ١٩٦٤ اذ أن الدستور الموقت الجديد أعلن العراق دولة اشتراكية ولا يجوز الخروج عن هذا المبدأ في الكتابة والبحث!

وعلى أثر انتهاء الحرب العالمية واتجاه الأفكار الى التخطيط للمستقبل قال جميل المدفعي، من رؤساء الوزارة السابقين، ان ظروف العراق تتطلب وزارة قوية ائتلافية تضمّ العناصر الطيبة من الأحزاب وغيرها وتحظى بمؤازرة الشعب ومساندة المقام الأعلى حتى تتمكن من الاستمرار في تحمّل أعباء الحكم وتسعى لتأمين الاستقرار المطلوب.

وفتحت جريدة السجلّ القومية، لصاحبها محمد طه الفيّاض، باب المناقشة لتأليف وزارة قوية تضطلع بالمهام الخطيرة التي تنتظرها البلاد. وكان من جملة الاقتراحات التي نشرتها تأليف وزارة تجمع الكفاءات المتيّسرة بروح الحياد والاخلاص على ان تكون برئاسة الأمير زيد وأن يعهد بوزارة المالية الى مير بصري.

سنة أحداث حاسمة

أهلّت سنة ١٩٤٨ فاذا بالمظاهرات والاضطرابات تعمّ بغداد على أثر عقد معاهدة بورتسموث لتحلّ محلّ المعاهدة العراقية البريطانية لسنة ١٩٣٠. واضطر صالح جبر رئيس الوزراء على الاستقالة عند عودته من لندن، فألف السيد محمد الصدر وزارة ضمت كبار الشخصيات السياسية في ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨ وحلّ مجلس النواب.

وقد أخبرني الصديق الشاعر بلند الحيدري، بعد عدة سنوات، أنه كان حاضراً في دار خاله داود باشا الحيدري بعد «الوثبة» التي أطاحت بوزارة صالح جبر، فجاءه السيد الصدر يتذاكر معه بشأن تأليف الوزارة الجديدة. واقترح داود باشا أن يسند وزارة المالية اليّ والحّ عليه في ذلك. لكن الصدر اعتذر بأن الظروف بعد صدور قرار التقسيم واحتمال انشاء دولة يهودية في فلسطين لم تكن ملائمة لاختيار وزير يهودي مهما كانت صفاته. وقد اسندت وزارة المالية الى صادق البصام وتولّى الحيدري وزارة الدولة ثم نقل وزيراً للشؤون الاجتماعية.

ومرّت بضعة أشهر تآخى خلالها القوم مع اليهود الذين اشتركوا في المظاهرات وأقاموا مجالس التعزية لشهدائها، فأكبر الناس اخلاصهم وشعورهم الوطني. لكن شباب اليهود استعدوا لكي لا يؤخذوا على غرّة كما حدث قبل سبع سنوات، فتدربوا على السلاح وأخذوا مواقعهم في الزوايا الحساسة داخل الأحياء اليهودية للدفاع عنها في حالة الطوارىء. وأعلن تأسيس دولة اسرائيل في ١٥ أيار فلم يحدث أي اضطراب، واتخذت الحكومة الاجراءات الكفيلة بالمحافظة على الأمن. وقام أحمد حامد الصرّاف مدير الدعاية العام بالقاء خطاب من دار الاذاعة، بالنيابة عن الصدر رئيس الوزراء، أهاب فيه بالأهلين الى التزام الهدوء وقرّر أن لا علاقة لليهود العراقيين المخلصين لوطنهم برجال الصهيونية ودولة اسرائيل.

كان نشاطي خلال هذه الفترة موزعاً بين عمل الشركة التجارية، والاشراف على شؤون جمعية التمور، والقاء الأحاديث الاقتصادية والأدبية من دار الاذاعة، ونشر النثر والشعر في الصحف والمجلات، والاشتراك في أعمال المجلس الجسماني الاسرائيلي. وأصدرت كتابي «مباحث في الاقتصاد العراقي»، وكنت عضواً في لجان رسمية مختلفة منها لجنة تزويد الموظفين والمستخدمين بالمواد العينية برئاسة ابراهيم الكبير مدير المالية العام، ولجنة توحيد العملة المتداولة في بلاد دول الجامعة العربية برئاسة علي ممتاز الدفتري وزير المالية السابق.

كانت لجنة توحيد النقود العربية ذات أهمية خاصة. فقد اقترح حمدي الباجه چي وزير الخارجية توحيد العملة في اجتماع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، فكلف بتقديم تقرير عن الموضوع للنظر فيه. وأحيل الأمر على وزارة المالية فألفت لجنتنا لوضع التقرير المطلوب. وقد رأينا أن الموضوع متشعب ويحتاج الى دراسات طويلة يسبقها توحيد الأنظمة النقدية في الأقطار المنتمية الى الجامعة. فالعراق والأردن ومصر كانوا تابعين للكتلة الاسترلينية، وسورية ولبنان لكتلة الفرنك الفرنسي. أما المملكة العربية السعودية واليمن فلم يكن لها نقد خاص بها... ولذلك كان الاقتراح سابقاً لأوانه.

«مباحث في الاقتصاد العراقي»

أصدرت في سنة ١٩٤٨ كتابي «مباحث في الاقتصاد العراقي» باعانة من وزارة المعارف، وكان وزيرها الشيخ محمد رضا الشبيبي، الذي ارتأى شراء ٥٠٠ نسخة من الكتاب لتوزيعها على المكتبات والمدارس.

ضم الكتاب ٦٠ مقالة في الاقتصاد والتجارة والزراعة والصناعة والمال والنقد والعمران، وألحق به معجم للاصطلاحات والنظريات الاقتصادية باللغات العربية والانكليزية والفرنسية. وصدّر بمقدمة كتبها يوسف غنيمة وزير المالية قال فيها (ص ٥):

«واطلاع واسع على العلوم والفنون، ومعرفة لغات شرقية وغربية معرفة مستفيضة، واضطلاع بأعمال اقتصادية ومالية، جاء معها ادارة غرفة تجارة بغداد ومجلتها الغرّاء سنوات عديدة، وأسندت ذلك كله خبرة بعيدة المدى اقتبسها من رحلات في أطراف المسكونة لحضور مؤتمرات تجارية ومعارض دولية واقليمية. التأمت كل هذه العوامل لتكون خمرة عند كاتب هذه المباحث النفيسة وتقدم له مادة دسمة تساعده على أن يعالج هذه المواضيع معالجة تجعله بين كتّاب المال والاقتصاد البارزين في العراق في العصر الحاضر.

«يكفي المرء أن يقرأ اسم المؤلف ليقدر التأليف حقّ قدره. فانّ اسم مير بصري وحده يمثل النباهة والذكاء والاجتهاد والعمل المتواصل ويظهر الدقة في التأليف والتعمّق في المواضيع، فانه غوّاص طويل النفس يغوص في قعر البحار ويقيم فيها لينتزع منها الدرر المكنونة واللآلىء الفريدة...»

قوبل الكتاب باهتمام كبير، فكتبت عنه الصحف والمجلات العراقية والعربية وقرظته مجلة الجمعية الآسيوية الملكية في لندن ومجلة الكتاب المصرية، ومجلة الأديب البيروتية وغيرها. وكتب جعفر الخليلي في جريدته «الهاتف» يقول: «قيل في المثل الدارج أنه من المستحيل أن يحمل المرء رمانتين بكف واحدة. ولكن مير بصري عمل هذا المستحيل وحمل ثلاث رمانات وأكثر في كف واحدة، وكان من القلائل الذين خرجوا على تلك القاعدة. فهو فضلا عن احاطته بالفنون الأدبية من شعر ونثر وقصة فانه رجل اقتصادي له في علم الاقتصاد النظري والعملي آراء ذات قيمة. وقد كتب في مختلف الأزمات الاقتصادية ومختلف أنواعها بحوثاً دلت على بعد النظر وسعة الخبرة كما لو كان يكتب للأدب...»

وكتب اليّ محمد الأسمر شاعر الأزهر:

«تلاحقت أفضالك، وتواصلت آياتك، فأغرقتنا الأولى وسحرتنا الثانية، فمن للغريق المسحور؟ حتى الاقتصاد الذي لا أفهم فيه شيئاً حبّبه الى نفسي كتابك، فرعاك الله للدولتين، دولة الأرقام ودولة الكلام.

تخطّ الرقم فهو قضاء قاضٍ ... وتجلو اللفظ فهو من اللئالي
رعاك الله من قمر مطلّ ... على دنيا الحقيقة والخيال...»

وكتب اليّ محمد جعفر الشبيبي سكرتير غرفة تجارة بغداد ورئيسها فيا بعد:

«ولا بدّ لي من الاشارة الى ناحية فيكم أغفلها معالي السيد يوسف غنيمة في مقدمته لكتابكم، ألا وهي سموّ أخلاقكم وحسن معاملتكم مما لمسته خلال السنوات الطويلة التي تعاونّا خلالها في تحقيق التقدم الذي وصلت اليه غرفة تجارة بغداد التي لا تزال تحمل أثر أعمالكم وخدمتكم فيها...»

الزواج

خطبت مارسيل ابنة التاجر المعروف في العراق وايران هارون نسيم مصري وتم زواجنا في ١٤ تشرين الأول ١٩٤٨. كانت لي رفيقة العمر وشريكة الهناء والضرّ، هيأت للأسرة حياة رضيّة هنيئة. وقد خاطبتها بعد أكثر من ربع قرن قائلا:

مـرّت الأعـوام مـرّاً، يـا حـبـيـبـة، وكـبـرنـا كـلّ يـوم، كـلّ عـام.
بـعـدت في الأفـق أضـواء قـريـبـة، ولـكـم جـدّت وجـوه لـلأنـام
ومضى في دوريـتـه الـعـالَمُ يحمل الـبـأسـاء حـيـنـاً والهنـاء
أنـت حـوّائي وإنّـي آدم لم يـغـيّرنـا صـبـاح ومـسـاء
ومـعـاً سرنـا نـغـنّي في الـطـريـق، لا نهاب الـوعـر والـوادي الـسّحـيـق،
نحـو مـرمـى فـي شِعـاب الجبل
ونجوم الـلـيـل تـرنـو في الـسماء فـتـحـيّينـا بـسـلـك مـن ضـيـاء
وترينـا لمحـة مـن أمـل

أنعم الله علينا بأربع بنات: نور (٢١ أيار ١٩٥١) وعائدة (٦ حزيران ١٩٥٣) ومنى (١٩ نيسان ١٩٥٦) وميّ فرح (٢٦ أيلول ١٩٥٩). وقد دعاهنّ الأخ الشاعر أنور شاؤل «الفراشات الأربع» وقال:[٤]

بـروحـي فـراشـاتٍ تـلاصـفـن أربـعـا
مـن الـفـجـر والأنـداء قـد كُنّ أروعـا
فـ«نـورا» مـن الـنـور المشعّ اقـتـبـاسُها
ومنها شـذا الـطـهـر المصـفّى تـضـوّعـا
و «عـائـدة» عـادت مـن الـغـيـبِ نهلـةً
تـروّي لـنـا قـلـبـاً وعـيـنـاً ومـسـمـعـا
و «مُـنـى» وافـت تحـفّ بهـا المـنـى،
أكـالـبـدر؟ أم كـانـت مـن الـبـدر أسـطـعـا
و «مـيّ» ومـا أبهى وأسنى جمـالَهـا
أرى الـسّحـر كـلّ الـسـحـر فيها تجمّعـا
فـراشـاتِ هـذا الحقـلِ بـالله قـبّلي
فـراشـاتِ حـسـنٍ في سـمـائـكِ أربـعـا

في خدمة الطائفة الاسرائيلية (الموسوية)

خدمت الطائفة الاسرائيلية سنوات طويلة في فترتين متباعدتين كانت كلتاهما عصيبة مرهقة.

صدر قانون الطائفة الاسرائيلية سنة ١٩٣١ ونصّ على اجراء تشكيلات متعددة لادارة شؤونها ومدارسها وأوقافها. في رأس الهرم رئيس الطائفة يعاونه رئيس الحاخامين والمجلس العمومي والمجلس الجسماني والمجلس الروحاني.

يتألف المجلس الجسماني من رئيس وثمانية أعضاء ويتولى ادارة الأوقاف والأملاك والمدارس والمؤسسات الخيرية والدينية والمقابر والمجازر الخ. ويؤلف المجلس لجاناً تعاونه في تصريف أعماله، وهي لجان المدارس والمستشفيات والأملاك، يضاف الى ذلك الجمعيات الخيرية التي يشرف عليها المجلس كجمعية مؤاساة العميان وجمعية اسعاف المرضعات وجمعية الخياطة الخيرية، فضلا عن المحكمة الدينية ومحكمة التميز الشرعي. وكان للطائفة أكثر من عشرين مدرسة للذكور والاناث ومستشفى مير الياس ومستشفى للعيون وعدة مستوصفات مدرسية وأهلية ونحو ٤٥ كنيساً. وهكذا نرى أن مؤسسات الطائفة جسيمة متعددة الأعمال والأغراض.

انتخبت عضواً بالمجلس الجسماني سنة ١٩٤٥ وأصبحت بعد سنتين نائباً للرئيس. وجدت ادارة الطائفة مختلة والموظفين لا يتقيدون بالدوام واللجان يعمل كل منها مستقلاً عن المجلس ولا يعترف بسلطته. وكان رئيس المجلس الياهو حييم توفيق رجلاً طيباً له محل صيرفة وكان في شبابه يقيم في الهند وسنغافورة، ثم عاد الى بغداد. فقمنا بتنظيم الدائرة وتعيين سكرتير ومحاسب جديدين ووضعنا أنظمة جديدة للّجان واخترنا أعضاء عاملين ليقوموا بواجباتهم بارشادنا.

جرت تلك الاصلاحات وعمّرت مباني الطائفة وشيّد مقرّ جديد لها. ثم لم نلبث أن جابهنا محنة شديدة بعد قيام دولة اسرائيل ونشوب الحرب مع الدول العربية ومنها العراق. استقالت وزارة الصدر وألف الوزراة الجديدة مزاحم الأمين الباچه چي في ٢٦ حزيران ١٩٤٨، وكان رجلا متقلّب الأطوار أبعد عن الميدان السياسي منذ سنوات الحرب العالمية، فجاء مندفعاً للتعويض عن أيام العزلة والحرمان. بدأت الحكومة الجديدة باقصاء الموظفين اليهود عن وظائفهم وتقييد أعمالهم التجارية. أعلنت الأحكام العرفية «لصيانة الجبهة الداخلية»، لكن هذا العذر اتخذ حجة لتوجيه التهم الباطلة الى المواطنين اليهود وزجهم في السجون واقلاق حياتهم وترويع نسائهم وأطفالهم. وحوكم التاجر المعروف شفيق عدس بتهمة تصدير الأسلحة الى اسرائيل عن طريق ايطالية فأعدم في الساحة العامة بالبصرة، أما شركاؤه من المسلمين فكانوا ينعمون في قصورهم آمنين، ولو صحّ الأمر لكان حرياً بهم ان يحاكموا معه. وسيق النائب روبين بطاط الى المحكمة بتهمة التصديق على وقف للجمعية الصهيونية حين كان نائب رئيس محاكم البصرة قبل ربع قرن، مع انه لم يخالف القانون لأن الصهيونية كانت مشروعة في العراق آنذاك، فحكم عليه بالسجن، لكن الأمير الوصيّ عفا عنه فوراً وأطلق سراحه.

اعدام شفيق عدس

أثارت محاكمة التاجر شفيق عدس واعدامه في البصرة في ٢٣ أيلول ١٩٤٨ مشاعر القلق والخوف في ابناء الطائفة اليهودية وسط هياج الجماهير وصراخ حزب الاستقلال وصحافته في طلب هدر دمه (٤٢).

كان الاخوان ابراهيم وشفيق عدس من يهود سورية، قدما الى بغداد بعد الحرب العظمى الأولى وعملا في التجارة فأصابا فيها نجاحاً مرموقاً. وهيىء لهما الحصول على وكالة فورد للسيارات وسواها من الوكالات المعروفة فأسّسا محلها في بغداد والبصرة، فكان ابراهيم يدير محل بغداد ويدير شفيق محل البصرة. ولما انتهت الحرب العالمية الثانية عرضت سلطات الجيش البريطاني والأميركي انقاض الحملة العسكرية في جنوب العراق وايران للبيع، وكانت تتضمن سيارات وآلات ومهمات عديدة اخرى في حالة صالحة أو تالفة. وألف شفيق عدس شركة مع ناجي الخضيري وعدد آخر من رجال الأعمال المسلمين واليهود (منهم حيّاوي جدّاع) فاشتروا تلك الأنقاض وفرزوها وباعوها في داخل العراق وخارجه.

ولما ذهب الجيش العراقي مع سائر الجيوش العربية الى فلسطين على أثر اعلان دولة اسرائيل اتهم شفيق دون غيره من الشركاء بتصدير لوازم حربية من تلك الأنقاض وبيعها بعد ذلك الى اسرائيل. وقد نبّهه أصدقاؤه الكثيرون ان يهرب الى ايران بعبور شط العرب فلم يهتم بذلك معتقداً أن له من الشهرة والنفوذ ما يكفل براءته ولا يستطيع أحد أن يمسّه بسوء. وهكذا ذهب ضحيّة تهاونه الذي أدّى به الى شرّ المصير. وكان حياوي جدّاع في بغداد، فلما نبّه الى الخطر واحتمال القبض عليه بنفس التهمة، بادر في ليلة ليلاء الى الفرار الى ايران ومضى الى سويسرة حيث أقام حتى أدركته الوفاة بعد أعوام طويلة.

وأذكر انني كنت نائماً في فراشي فاذا بجرس التلفون يدق بعد منتصف الليل، فقمت وأنا نصف واع وسمعت معاون مدير الأمن يخاطبني معتذراً لاقلاقي في تلك الساعة ويسألني عن باخرة ايطالية ذكرت الأنباء أنها نقلت أسلحة وعتاداً الى اسرائيل في تلك الآونة وهل لها وكيل في العراق. فقلت له: انني تركتت خدمة غرفة التجارة منذ سنوات، وحتى لو كنت لا أزال أعمل في الغرفة لما استطعت ان أجيب على سؤاله في هذا الوقت من الليل وأنا في داري. قال لي: ومن هو سكرتير الغرفة الآن؟ قلت انه جعفر الشبيبي. وفي صباح اليوم الثاني زرت جعفر الشبيبي في غرفة التجارة فرأيته يسبّ ويلعن سلطات الأمن التي أيقظته من نومه وسألته سؤالا بارداً لا يستطيع الجواب عنه. قال الشبيبي: وقد كلمت مدير التحقيقات الجنائية وأنّبته تأنيباً شديداً على ما فعله المعاون.

قابل العين عزرا دانيال الوصيّ على العرش وكلمه بشأن شفيق عدس وروبين بطاط، فوعد الأمير بإعفاء الأخير من السجن (وقد فعل). أما في قضية عدس فقال انه يعمل جهده ولكن لا يستطيع أن يعطي وعداً.

وأذاعت الوثائق الرسمية البريطانية التي نشرت بعد ثلاثين سنة أسراراً خطيرة تتعلق بمساعي الحكومتين البريطانية والأميركية لتخفيف الحكم الصادر على عدس. فقد أوعزت الحكومتان الى ممثليها في بغداد بمراجعة رئيس الوزراء مزاحم

الباچه چي والأمير عبد الاله والالحاح عليها بوجوب عدم تنفيذ حكم الاعدام. وكتب السر هنري ماك السفير البريطاني الى وزارة الخارجية في لندن في ٢٠ أيلول أنه كلم رئيس الوزراء وقال له ان النظام البريطاني لا يسمح بشنق رجل بريء، فأجاب الباچه چي متملصاً ان الأمر بيد الوصيّ على العرش، ومع انه يعارض الاعدام فإنه يظنّ ان مصلحة الأمن تقتضي تنفيذه. وتكلم السفير مع الوصيّ، وقال في رسالته ان سفارة الولايات المتحدة تسلمت توجيهات من سكرتيرية الدولة بتقديم احتجاج على الاعدام نظراً لاحتال تأثيره على الرأي العام الأميركي والعالمي تأثيراً يضرّ بقضية فلسطين. لم يكن في استطاعة الوصي تخفيف الحكم خوفاً من الخطر على الأمن الداخلي من جانب الجيش والشعب وتعرّض مركز الأمير نفسه للتزعزع.

وذكر السفير في رسالة تالية انه نوّه بشكوكه في عدالة الحكم لرئيس الوزراء لأن المحكمة العسكرية رفضت سماع شهود الدفاع ولم يكن هناك استئناف قضائي. وفي الوقت نفسه كلم السفير الأميركي جورج وادزورث الأمير الوصيّ طويلا في الموضوع فاعترف هذا بوضوح أنه لا يستطيع عمل شيء سوى تصديق العقوبة.

وكتب السفير البريطاني الى لندن بعد ذلك بأن الاعدام نفّذ علناً في البصرة وعرضت الجثة لبضع ساعات على الجمهور. قال السفير: «لقد كان عملا مخزياً، ولكن أجد من الصعوبة توجيه اللوم للوصيّ والحكومة اللذين لم يكونا في وضع قوي للوقوف ضد الجيش وبشكل أفضل مما يمكن لوزارة الخارجية الأميركية أن تقفه أمام يهود ولاية نيويورك.»

وعلى أثر ذلك أقيل صادق البصام وزير الدفاع في ٢٧ أيلول وحصر تنفيذ الأحكام العرفية في بغداد فقط. لكن استمرّ اعتقال اليهود والكيد لهم.

ومن الغرائب ان عدداً غير قليل من اليهود حكم عليهم المجلس العرفي العسكري بالسجن بتهمة سلوكهم مسلكاً «يشمّ منه رائحة الصهيونية»، وذلك حكم لم ينزل الله به من سلطان. وذنبهم أنهم تلقوا رسائل من أقارب لهم في فلسطين قبل قيام دولة اسرائيل، ولم يكن فيها غير عبارات الشوق والسلام، فاحتفظ بها الرقيب عدة شهور، ثم قدمت الى المحكمة العرفية واتخذت حجة عليهم.

منع السفر على اليهود ففرّ الشباب والشابات الذين حرموا مجال العمل عن طريق خانقين والبصرة والأردن. وقبض على الكثيرين منهم فأودعوا في غيابات السجون.

كانت مهمتنا عسيرة في الدفاع عن أبناء طائفتنا، فكنّا نعقد الاجتماعات المتواصلة للمذاكرة وتقديم المذكرات والعرائض والاحتجاجات ومراجعة المسؤولين لرفع الظلم اللاحق بجماعتنا واطلاق سراح المساجين والتخفيف من ويلات العوائل المنكوبة. وكان في مقدمة الساعين والمراجعين الحاخام الأكبر ساسون خضوري[٤٣] رئيس الطائفة وعزرا مناحيم دانيال[٤٤] عضو مجلس الأعيان وحسقيل شمطوب[٤٥] نائب رئيس غرفة تجارة بغداد وابراهيم حييم معلم نسيم وابراهيم حييم معلم اسحق وساسون عابد وإبراهيم الكبير وغيرهم. وكنت قد تركت ادارة شركة تجارة الشرق وعينت مديرا دائماً في جمعية التمور التابعة لوزارة الاقتصاد. ومع انني كنت موظفاً رسمياً في الدولة فانني لم اقصّر في واجبي، وقد اشتركت في الاجتماعات وحررت المذكرات وراجعت المسؤولين لمعالجة الأمور والحدّ من الطغيان.

لقد تفاقم الأمر، ولم ندر أن الخطّة المقررة كانت ترمي الى اقلاق أبناء الطائفة اليهودية وتوهين أعصابهم تمهيداً لحثهم على مغادرة البلاد التي عاشوا فيها آلاف السنين للنجاة من البطالة والاعتداءات الرسمية. ومن الحق أن أقول إن الشعب العراقي بصورة عامة حافظ على صلاته الطيبة مع اليهود ولم يرض عن الظلم اللاحق بهم عدا جماعة قليلة من المغرضين والمتعصبين وأصحاب المصالح الشخصية.



ان سياسة اخراج اليهود من العراق وافقت هوى لدى السلطات البريطانية التي كانت منزعجة من استئثار التجار اليهود بنصيب كبير من التجارة العراقية ومنافستهم للبيوت التجارية الانكليزية العاملة في العراق. وقد جاء في تقرير لجنة بيل (Lord Peel) التي كانت أول من اقترح تقسيم فلسطين سنة ١٩٣٧ ان انشاء دولة يهودية في تلك الربوع من شأنه أن يقضي على الطوائف اليهودية المزدهرة في البلاد العربية، ولا سيا العراق ومصر.

في كانون الاول ١٩٤٩ قدّم الحاخام ساسون خضوري استقالته من رئاسة الطائفة. ألحمنا عليه بالبقاء، لكنه أصرّ على اعتزال منصبه بعد أن قام الشباب اليهودي بالتظاهر ضدّه. ويظهر ان السلطات الحكومية ايضاً نصحته بالانسحاب لتنفيذ الخطة التي تعلم أنه يعارضها، وهي حثّ اليهود على ترك العراق والهجرة الى اسرائيل. وقد أقنعت حسقيل داود شمطوب بقبول رئاسة المجلس الجسماني ورئاسة الطائفة بالنيابة فوافق مشترطاً أن استمر في نيابة الرئاسة. وجرى الانتخاب الجديد مقرّاً الاختيار الذي رغبنا فيه، واشترك في المجلس الجديد فريق من خيرة وجهاء الطائفة ومثقفيها كابراهيم الكبير ومنشي شاؤل شعشوع ويعقوب شلومو والمحامي عبد الله شينه الخ.

وألفت وزارة توفيق السويدي في ٥ شباط ١٩٥٠ وأسندت وزارة الداخلية الى صالح جبر، فبادرت الحكومة الى اصدار قانون اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود الراغبين في ترك العراق في آذار ١٩٥٠. وقد ارتفعت بعض الاصوات من النواب المتطرفين في المجلس تطالب بطرد اليهود العراقيين جميعاً، لكن صالح جبر قال في الردّ على هؤلاء: «يجب أن نعلم ان العراق يضمّ عدداً كبيراً من اليهود. وكان هؤلاء في الآونة الأخيرة من المواطنين الذين لا غبار على سلوكهم بكل صراحة وتأكيد. انما الحوادث السياسية التي حصلت، وكان سببها فلسطين، مع الأسف هي التي دفعت قسماً غير قليل من اليهود لأن يركبوا هذا المركب الخشن ويظهروا بغير المظهر الذي تحتمه حقوق المواطنين فيكونوا مواطنين عراقيين مخلصين للبلاد لا تربطهم مع أعداء البلاد روابط سياسية ولا يتأثروا بمؤثرات دينية او غيرها. وقد وجدنا قسماً غير قليل منهم كان سلوكهم سلوكاً غير مرضي يخالف الواجبات الوطنية ويخالف المصلحة العامة ويسيء اليها ويضرّها.

«ولا أريد أن أتكلم كثيراً في موضوع الكل يعرفه معرفة تامة، لكن ينبغي أن نفرّق هؤلاء من العدد الكبير الآخر الذين ليس لنا عليهم سبيل...»

ثم قال: «انّ العراقيين متساوون بنظر القانون ما لم تظهر مخالفات وحوادث تقنع المسؤولين بأن المصلحة العامة تتطلب عملاً بالنسبة لمن يخالف القانون ويسير خلاف المصلحة العامة. ولا يجوز أن نعتبر جميع اليهود ـــ كما طالب أحد الخطباء ـــ اعداء البلاد او أن يجب على الحكومة أن تخرجهم وتسفّر النساء معهم وتعمل ما تعمل.

«ليس من الانصاف أن نقول ذلك او أن نعمل بسبيل ذلك. وليس من المصلحة أن نندفع هذا الاندفاع، انما نعمل قدر الضرورة اللازمة فنتخلّص من الأقسام التي نعتقد أن بقاءها مضرّ بالبلاد. وهذا ما استهدفناه وسنعمل في سبيل تحقيقه...»

أنشئت دائرة خاصة في مديرية الجنسية والسفر لتنفيذ القانون وقبول طلبات التخلي عن الجنسية العراقية. وأسست الطائفة دائرة ارتباط للتعاون مع السلطات الحكومية في هذا السبيل. وتم الاتفاق على تسفير اليهود المسقطة عنهم الجنسية عن طريق شركة عراقية للسفر يديرها عبد الرحمن رؤوف ويساهم فيها فريق من رجال الدولة.

ولم يحصل في بادىء الامر اقبال كبير على طلب نزع الجنسية العراقية، ومرت أسابيع وأشهر وعدد الراغبين لا يتجاوز بضعة آلاف. ثم رميت قنابل على مباني بعض الشركات والمحلات العامة اليهودية فاندفع الناس الى تسجيل انفسهم. وقد

رأيت ان بعض التلاعب حصل في دوائر السفر مما كان له أثره في حركة التسفير.

وحلّ الصيف فسافر حسقيل شمطوب الى لبنان وباريس للاستجمام وتسلمت وكالة الرئاسة فاقترحت على وزير الداخلية فصل شؤون التسفير عن الطائفة، وأصدر أمراً بتأليف لجنة لهذا الموضوع برئاسة ساسون عابد وعضوية ابراهيم الكبير وموشي شوحيط. واستأجرت داراً للجنة قريباً من دائرة السفر، فارتحت وأرحت.

ولما عاد حسقيل شمطوب من لبنان لامني على فصل التسفير عن رئاسة الطائفة، فاستقلت من المجلس الجسماني واستقال معي اكثر الاعضاء.

وليت الأمر انتهى عند هذا الحدّ. فلما انتهى التسفير وحلّ موعد تسليم الدار المتخذة مقراً للجنة الى صاحبتها ادّعت هذه حصول أضرار فيها وراجعت الطائفة. رفض حسقيل شمطوب الاعتراف بوقوع الايجار من جانب الطائفة، وكان في الامكان حسم القضية بدفع تعويض لا يزيد على خمسين ديناراً. لكنه لم يفعل، واضطرت الامرأة على رفع الشكوى الى المحاكم. وكل حسقيل شمطوب باشارة مشاوره القانوني روبين بطاط محامين للدفع بأتعاب بلغت ٤٠٠ دينار وأدخلني شخصاً ثالثاً في القضية لأن العقد كان بتوقيعي باعتباري وكيل الرئيس. حصل هذا الأمر في أشدّ الظروف حراجة، حيث اكتشفت دائرة الأمن بعد سفر اليهود أسلحة مطمورة تحت الأرض في بعض المعابد وقبضت على أشخاص اتهمتهم بالتجسس والتآمر، فأعدم اثنان منهم (٤٦) وسجن الآخرون. وقد خشينا أن يعثر على سلاح مدفون في ارض الدار المبحوث فيها، فلم نجد بداً من تسوية الامر مع صاحبة الملك غلقاً للدعوى، فاضطررنا ان ندفع لها تعويضاً قدره ٣٥٠ ديناراً اشتركنا في أدائه ساسون عابد وموشي شوحيط وانا من جيبنا الخاص. اما ابراهيم الكبير فرفض أن يدفع شيئاً محتجاً بأننا خدمنا باخلاص وبصورة فخرية، فكيف ندفع التعويض من جيوبنا اضافةً الى ذلك؟ وكان توفيق السويدي وعزرا دانيال قد كلما حسقيل شمطوب في ضرورة حسم الموضوع فلم يهتم بطلبهما.

آن موعد انتهاء السنة المحددة لاسقاط الجنسية وتولّت الحكم وزارة جديدة برئاسة نوري السعيد، فأصدرت في اوائل آذار ١٩٥١ قانوناً جديداً يقضي بتجميد أموال اليهود المسقطة عنهم الجنسية العراقية وتأسيس أمانة عامة للتجميد تضع يدها على أموالهم المنقولة وغير المنقولة.

هاجر الآلاف من يهود العراق الى اسرائيل في سنة ١٩٥٠/ ١٩٥١ ولم تكن الدولة الجديدة مستعدة لاسكانهم واطعامهم، اذ كانت الازمة الاقتصادية مستفحلة فيها والمواد الغذائية قليلة الوجود. وقد انتهز الفرصة رجال لا ضمير لهم توسطوا في تحويل اموال هؤلاء اللاجئين فاغتصبوها واستأثروا بها وحرموا أصحابها من القليل الذي ادّخروه لينتفعوا به في وطنهم الجديد. وختمت فصول هذه المأساة بأن قضى هؤلاء أعواماً طويلة في المعابر والمخيّمات في أسوأ الاحوال المعاشية والسكنية حتى أمكن استيعابهم وتوطينهم.

لكن القافلة تسير. قطعت صلتي التي دامت خمس سنوات بالطائفة، ولم أكن أدري انها سوف تتجدّد في ظروف حرجة اخرى بعد أعوام طويلة.

جمعية التمور العامة

تركت العمل في شركة تجارة الشرق المحدودة بعد أربع سنوات ونصف حين ثبت لي أنني لا أصلح للتجارة العملية والمساومة والبيع والشراء، والتحقت موظفاً دائماً في جمعية التمور العامة مديراً للدعاية والتجارة في ٢١ آب ١٩٤٩ بعد أن كنت أعمل بصفة وقتية منذ كانون الاول ١٩٤٧.

لا بدّ لي أن أقول كلمة في هذه الجمعية: تؤلف التمور أهم مورد زراعي للعراق الاوسط والجنوبي حيث تمتد غابات النخيل التي يقدر عددها بأكثر من ثلاثين مليوناً من أنحاء ذيالى وبغداد والحلة وكربلاء الى الشامية والناصرية والبصرة وضفاف شط العرب حيث تتصل بنخيل الجنوب الايراني. كانت التمور منذ القديم في مقدمة ثروة البلاد الاقتصادية وصادراتها الى العالم الخارجي، وقد نقلت الفسائل منها في اوائل القرن العشرين الى كاليفورنية في الولايات المتحدة وفلسطين وانحاء اخرى نمت فيها وأينعت لتزاحم امهاتها في بلاد الرافدين.

التفتت الحكومة الى أهمية هذا المورد فأنشأت لجنة التمور سنة ١٩٣٥ وعهدت بادارتها الى أنور خياط مدير الزراعة العام السابق. ثم اسست جمعية التمور سنة ١٩٣٩ لتحل محل اللجنة ومنحتها صلاحيات واسعة لتنمية زراعة التمور وتحسين كبسها وتشجيع تصديرها وتعيين الاسعار ومراقبة الاتجار وتنظيم الشحن وغير ذلك. وعيّن اول مدير عام لها هيو ايفور لويد الحاكم المدني الانكليزي واصبح انور خياط معاوناً له. ومنح امتياز تصدير تمور البصرة المحسنة الى شركة اندور وير البريطانية. ثم اختير بعد نهاية الحرب العالمية عبد الله القصاب وزير الداخلية السابق مديراً عاماً للجمعية، فألح عليّ بمعاونته في ادارة شؤونها.

قمت قبل كل شيء بمطالعة كل ما وقع في يدي من كتب ومطبوعات وملفات عن التمور التي تبلغ اصنافها المنتجة في العراق اكثر من ١٢٠ صنفاً، لكن أهمها الزهدي في المنطقة الوسطى والساير والخضراوي والحلاوي في منطقة شط العرب. وزرت بساتين النخيل والمكابس في مختلف الانحاء ولا سيا مكابس التمور المحسنة في منطقة البصرة، ودرست شؤون التصدير والاسواق الخارجية والبلاد المنتجة العالمية كالمغرب وتونس وغيرهما. ثم وضعت نشرات مصورة بالعربية والانكليزية والفرنسية. وترجمت هذه النشرات الى لغات اخرى كالالمانية والاسبانية ووزعت في الداخل والخارج. وتضمنت هذه النشرات فيا تضمنته تحليل قيمة التمور الغذائية ووصفات مأكل وانواع من الكعك تحتوي على التمر الخ. وكان خير مساعد لي في تلك الدراسة والتتبع الرجل الفاضل سلمان جويدة معاون المدير العام في البصرة الذي كان يعرف كل صغيرة وكبيرة عن الموضوع، وقد خلفني فيا بعد في مديرية التجارة والدعاية حين اعتزلت العمل في الجمعية. وكلفنا السفارة العراقية في لندن أن تجد لنا رساماً ماهراً يصمم لنا اعلاناً كبيراً مصوراً، فتفضلت السيدة فخر النساء زوجة السفير الأمير زيد، وهي رسامة معروفة أقامت معارض في لندن وباريس، بوضع الرسم المطلوب تبرعاً منها.

عيّنا وكلاء للجمعية في وينة عاصمة النمسة وسنغافورة وغيرهما. وأنشأنا شركتين عامتين ساهمت فيهما الجمعية احداهما لتجارة تمور البصرة والاخرى تمور المنطقة الوسطى، وشركة ثالثة لصناعة التمور اشترت معملاً عصرياً للدبس في الكاظمية ووسعته وجددت آلاته. وشيّدنا عمارة جديدة لتكون مقر الجمعية في جانب الكرخ واستقدمنا خبيراً اميركياً

للتمور من كاليفورنية، فقيل لي: نحن أصحاب التمور فكيف نستعين بالخبرة الاميركية وهم اقتبسوا نخيلهم منّا؟ قصصت عليهم قصة الملاك البصري المعروف الحاج عامر الكامل الذي سافر الى اميركة وزار بساتين النخيل في كاليفورنية وأريزونا. كان يطوف في احد البساتين فرأى نخلة سامقة وقال لصاحب البستان الاميركي: هذه نخلة تمر خضراوي ممتاز، فقال الرجل: كيف عرفت انها من نوع الخضراوي؟

– هذا أمر بديهي، فنحن ولدنا في البصرة وترعرعنا مع النخيل فكيف لا نعرف أصنافها؟

وذهب الاميركي الى دائرته وأتى بملف ضخم يحمل رقم تلك النخلة بذاتها وقال: جلب الفسيل من البصرة سنة... وزرع هنا، ثم عدد أمراض النخلة طول عمرها وما عولجت به وما حملته من التمر سنة بعد سنة وسائر الامور المتعلقة بها تفصيلاً.

قلت: هذا الفرق بين الخبرة المحلية والخبرة العلمية الموثقة. وقد قام خبيرنا بانشاء مكبس حديث الطراز ودرّب العراقيين على العمل، ثم عاد الى بلاده. وأنشأنا في المديرية العامة شعبة فنية عهدنا بادارتها الى استاذ عراقي يحمل شهادة الدكتوراه في الكيمياء من جامعات سويسرة. وقد مرّت على هذه المنشآت والشركات عشرات السنين، ولا أعدو الحقيقة اذا قلت انها قد أثمرت ثمرها اليانع ولا تزال قائمة بنجاح حتى الآن.

اشتركنا ايضاً في مؤتمرات ومعارض دولية للتمور، وأرسلنا بعثات تجارية الى أوربّة والشرق الأقصى. ودأبت على اقامة مؤتمرات صحفية مرة او مرتين كل اسبوع يحضرها مراسلو الصحف لاستطلاع أنباء التمور وصادراتها. وانتدبنا مفتشي الجمعية لزيارة مناطق النخيل واحصائها في كل انحاء العراق. وقد أوفدت مصر أحد موظفيها لدراسة شؤون النخيل والتمور والافادة منها في تحسين المنتوج المصري وتسويقه، فاصطحبته الى مختلف المناطق وهيّأت له الاطلاع على الموضوع الذي انتدب من أجله. وزار بغداد مدير مؤسسة هيئة الامم للزراعة والطعام فاحتفينا به ونظمنا الاتصال بمؤسسته لقبول التمور ضمن الأغذية العالمية التي تشجعها في مكافحة المجاعة والعوز. وفاوضنا الملحق التجاري بالمفوضية السوفيتية في بغداد لعقد صفقة مقايضة بالتمور على ان ترسل روسية باخرة محملة بالورق والاخشاب وغير ذلك من البضائع وتتسلم اثمانها تمراً. لكن الحكومة عارضت اتمام هذه الصفقة.

وقد مثّلت الجمعية في مجلس ادارة المصرف الصناعي والمجلس الاستشاري الزراعي ومؤتمر غرف الزراعة ومجالس ادارة شركات التمور. ونقل عبد الله القصاب المدير العام أميناً للعاصمة في ايلول ١٩٥١ وعين خلفاً له مظفر أحمد السرّاج متصرف بغداد السابق. وقد كلفني بوضع قانون ونظام جديدين للجمعية يوافقان التطورات التي حصلت في ادارتها ووضعتها وتوليت الدفاع عن اللائحة القانونية في ديوان التدوين القانوني بوزارة العدلية ولجان مجلس النواب ومجلس الاعيان. وصدر القانون الجديد في تموز ١٩٥٢، فعيّنت وفقاً لأحكامه وكيل معاون المدير العام للمنطقة الوسطى ورئيس لجنة تمور المنطقة علاوة على وظيفتي الاصلية.

وكانت شركة اندرو وير قد احتكرت تصدير تمور البصرة الى الاسواق العالمية بأسعار ثابتة، وقاربت مدة الاتفاقية على نهايتها في سنة ١٩٥٠. فاستدعانا وزير الاقتصاد الجديد عبد الرزاق الظاهر انا وعبد الله القصاب وسألنا عن خطتنا في تسويق التمور. قلت: لا بدّ من تجديد الاحتكار بأفضل الشروط لثلاث سنوات اخرى. وقد أسسنا شركة وطنية لتمور البصرة نأمل أن يشتدّ ساعدها وتستطيع ان تنهض بأعمال الاحتكار في ختام تلك المدة.

لكن الوزير ارتأى عدم تجديد الاحتكار للشركة البريطانية بالرغم من فقدان الاستعدادات لتسويق هذا المنتوج المهم. ولما خرجنا من لدنه قال لي القصاب: سوف أستشير نوري السعيد لنبتّ في الأمر في ضوء ما يشير به. فقلت: لكن نوري خارج الحكم. قال: انه الموجّه لسياسة الدولة سواء كان في الحكم او خارجه.

أيّد نوري السعيد وجهة نظرنا، فاجتمع مجلس جمعية التمور وقرر تخويلنا مفاوضة شركة اندور وير لتجديد الصفقة. ولم نعبأ باعتراض الوزير، فلم يكن منه الا ان عرض اقتراحاً على مجلس الوزراء بفصل المدير العام عبد الله القصاب، لكن المجلس رفض اقتراحه. وكان تجديد الاحتكار للشركة الانكليزية الاخير من نوعه، فلما انتهى سنة ١٩٥٣ تسلمت الشركة الوطنية التي أنشأناها اعمال تصريف التمور وتصديرها.

استقالت الوزارة بعد أمد غير طويل، فكتب عبد الرزاق الظاهر مقالاً في جريدة الزمان في ٥ ايلول ١٩٥٠ بعنوان «تمورنا المضاعة» شارحاً وجهة نظره في خطأ سياسة الاحتكار ومتهماً الجمعية بأنها لا تسيطر على أسواق التمور بل تكتفي بالدعاية الفارغة... وأشار اليّ من طرف خفيّ فقال: «وأقترح على الحكومة أن تبحث عن هذا الموظف الكفء لتثبيه على نشاطه ولتستعين بخدماته في مديرية الدعاية العامة، بل لتجعله مديراً عاماً للدعاية ليزيّن للناس أعمال الحكومة وليريها بمظهر الحكومة الفعالة النشيطة التي لا تنام الليل كلّه طرفة عين، تسهر على المصالح العامة وتهيمن على شؤون الدولة على الوجه الأكمل تماماً، كما استطاع ذلك الموظف أن يظهر جمعية التمور بهذا المظهر البرّاق والنشاط الكامل الذي يبدو للعيان من مطالعة نشرات جمعية التمور».

لا شك ان مقال الظاهر كان تجنياً على الجمعية التي وضعت الأسس لتصريف هذا المورد المهم في الاسواق العالمية وبثّ الدعاية له في الخارج، وتجنياً على الموظف الذي عمل في الجمعية سنوات قليلة فوضع لها قانوناً وأنظمة جديدة وسعى لتأسيس الشركات التجارية والصناعية وهلم جرا. وقد كان عبد الرزاق الظاهر كاتباً ألمعياً وسياسياً وطنياً معارضاً، فلما قامت ثورة ١٩٥٨ لم يعرف له جهاده المتواصل فانصرف الى المحاماة. ولقيته في لندن التي جاء يقيم فيها بعد تعدّد الثورات والانقلابات في العراق، فأعرب لي عن خيبة أمله في تقدم العراق بعد زوال العهد الملكي.

بعد أكثر من ثلاث سنوات فرغت من تنظيم الجمعية وتنشيط أعمالها. واشتدت المظاهرات في اواخر سنة ١٩٥٢ واستقالت وزارة مصطفى العمري، فتسلم الجيش زمام الامور وأصبح رئيس الأركان العسكرية العميد نور الدين محمود رئيساً للوزراء. واستهلت الوزارة الجديدة اعمالها بانهاء خدمات الموظفين اليهود الذين لم يزالوا في الخدمة، وكان عددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة بل دون ذلك، فتركت العمل في جمعية التمور في ١٣ كانون الاول ١٩٥٢. وكان محمد كامل الخضيري رئيس غرفة تجارة بغداد السابق قد انضم الى شركة خضوري وعزرا مير لاوي، فدعاني الى العمل في الشركة وتسلمت وظيفتي الجديدة في اول كانون الثاني ١٩٥٣.

شعور الوحشة

خلت بغداد من اكثر يهودها فانتابني، بالرغم من مشاغلي الكثيرة، شعور من الوحشة عبّرت عنه بما نظمته في تلك الآونة من شعر وما كتبته من نثر. والغريب انني شعرت بذلك بلا داعٍ، وقد يكون احساساً خفياً بما سيحدث وما تأتي به الايام. نظمت قصيدة بعنوان «أوبة المغترب» نشرتها مجلة دمشق السورية في عددها لشهر شباط ١٩٤١ وقدمت لها بالكلمة الآتية:(٤٧)

وعندما يرجع الشاعر البدوي بعد فراق طويل الى المنازل العافية، تراه يسرّح البصر في آثارها الدارسة ويهزّه الشوق الى عهودها الهانئة، فيندب الرسوم ويبكي على الأطلال. أما الشاعر الحضري فقد عاد الى الديار ومغانيها عامرة ورياضها زاهرة، لكن الأحبّة الذين عهدهم فيها قد تفرّقوا وبانوا، فرفع عقيرته بالندب والشكوى وأفصح عن لوعة لم تأتلف وبسمة الربوع الآهلة».

ومطلع القصيدة:

طف بالربوع العامرات وسلّمِ ... واعطف على داراتها واستعلم
وسل الديار عن الأحبّة: أين هم ... والدهر بين مؤخّر ومقدّم؟
واجهر بشوقك مبدياً مكنونه، ... ليس السكوت كمنطق المتكلم!
حتى أقول:
هذي الرياض كما عهدت نضيرة، ... أما الصحاب فشملهم لم يلأم
عبث الزمان بهم ففرّق جمعهم ... ودعا النوى فأجاب من لم يعزم
ومضى الجميع، فسدورهم ضحّاكة ... لكن ذكراهم بها في مأتم
وكذا الزمان متى انقضت لحظاته ... لا رجعة في سيره المتحتم
رام المحال من ارتجى عوداً له ... كمحاولٍ يرقى السماء بسلّم...

ان هذه القصيدة التي نظمت سنة ١٩٤٠ لتعبّر عمّا شعرت به في سنة ١٩٥١ حين نقلت الطيارات جماعات اليهود الذين أقاموا في هذه الديار آلاف السنين الى مصير جديد على شواطىء البحر المتوسط. والشعر الذي نظمته ونشرته في هذه الأيام يفيض باللوعة والشعور بالغربة الروحية، فقلت:

ذبل الورد فلا تسقِ الحديقة ... وقضى الحقّ فدع عنك الحقيقة!
واطلب العزلة واقنع بانفراد، ... عبثاً تهفو الى روح شقيقة...
وقلت:
عهد الصبا الزاكي، عليك سلام، ... أين الإهاب الغضّ والأحلام؟
أودى الشباب وصوّحت آماله ... وطوت صحائف مجده الأعوام...

وقلت:

ذهـبـت أودع حـب الـفـؤاد، وقـد أزمـعـت في المـسـاء الـرحـيـل
وكـان الـخـريـف نـذيـر الـبـعـاد، وشـمـسـي عـراهـا شحـوب الأصيـل...
وداعـاً وداعـاً، ربـيـع الـحـيـاة، وداعـاً أقـول، وهـل مـن لقـاء؟
وان الـفـراق لـفـيـض صـلاة وبـعـض رجـاء وبـعـض فـنـاء

وقلت:

سطـل الـفـجـر هـازئـاً بـالـوعـود وخـبا الـفـكـر في ديـاجـي الـوجـود

وقلت:

هـي نـفـسـي بـذلـتـهـا والـسـمـاح كـلّ مـا يـمـلـك الـكـريـم مـبـاح
بـيـن لـيـل وبـكـرة جـدّ أمـر، أمـسـاء تـلا الـدجـى أم صـبـاح؟
قـد سـقـتني الخطوب كـأسـاً دهـاقـاً نـتـقـعـهـا الـسـمّ وهـو مـاء قـراح
نكـأن الـبـلاد غير بـلادي وكـأن الـحـيـاة عـبء يـزاح
وكـأن الـرفـاق غـيـر رفـاق وكـرام الـورى لـئـام شـحـاح...

قرأت هذه القصيدة على عباس الفراوي نتألم أشدّ الألم وأخذ بيدي وقال: ما هذا التشاؤم؟ البلاد بلادك والرفاق رفاقك والحياة جميلة وارفة الظلال!

وقلت:

يـا رفـاق الـعـمـر، إن يـدنُ حمـامـي نـادفـنـوني في حمى الأرض الـرحـيـبـة
جـنـبَ أبـائي الأُلى نـامـوا دهـوراً في ثـرى بـغـداد ــ ذي الأمّ الحبـيـبـة
ودعـوني في ظـلال الـنـخـل أغـفـو تـغـمـر الأجـفـان أحلام الـشـبـيـبـة
ولـقـد أذكـر عـمـراً قـد تـنـقـضى ولـقـد أنسى لـيـاليّ الـكـئـيـبـة...

لكن الحياة تسير ولا تقف. بقي لنا كثير من الاصدقاء اليهود وغير اليهود فحفوا بنا وواسونا وغمرونا بالمودّة والألفة. قال لي صالح جبر: حين وضعنا قانون اسقاط الجنسية لم نكن نتوقع سوى سفر بضعة آلاف من اليهود، فكيف هاجر اكثرهم؟ ودعاني احمد حامد الصراف والدكتور مصطفى جواد الى زيارة النجف وكربلاء والفرات الاوسط فاحتفى بنا الادباء والعلماء. ورافقنا في الطريق الشاعر خطيب المنابر الحسينية الشيخ محمد علي اليعقوبي فروى لنا من الشعر والنوادر ما آنسنا وسرّى عنا. وزارنا يوسف غنيمة وهو يسافر الى لندن للاستشفاء، فقضى نحبه فيها وجيء بجثمانه ليوارى التراب في مسقط رأسه فبكيناه ورثيناه. واذكر من أصدقائنا الذين ما فتئوا يغمروننا بلطفهم ورعايتهم ابراهيم الواعظ ويعقوب سركيس وعباس العزاوي وجعفر الخليلي والدكتور حنا خياط ومهدي مقلّد المحامي ورزوق غنام وتوفيق السمعاني ورفائيل بطي وصبيح الغافقي ومحمود صبحي الدفتري والشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي الشرقي ويوسف يعقوب مسكوني وتحسين علي واللواء محمد سعيد التكريتي وعبد العزيز المظفر وصالح قحطان وروبين بطاط وعزرا مناحيم دانيال وأنور شاؤل والشاعر الضابط كمال عثمان، ومحمود الملاح وفريد سمرة وابراهيم الكبير ويوسف الكبير وابراهيم حييم معلم نسيم ومنشي شعشوع ونعمان ماهر الكنعاني وجواد جعفر وصالح جبر والسيد عبد المهدي ومحمود فهمي درويش وعادل عوني صاحب جريدة الحوادث ومحمد طيب آل حويز وعبد الستار قدوري وحافظ القاضي والدكتور محمد الهاشمي وصبري الطعيمة وكوركيس عوّاد وميخائيل عواد والدكتور صفاء خلوصي ومصطفى علي وناجي جواد الساعاتي وعبد

الجيد لطفي والشيخ جلال الحنفي وجاك شاؤل والمئات غيرهم. وبقي مجلس عزرا دانيال(٤٨) ينعقد كل اسبوع فيحضره الوزراء والكبراء، حتى اذا ما توفي في آذار ١٩٥٢ خرج لتشييعه مندوب الامير الوصيّ والوزراء والاعيان والآلاف من أبناء الشعب. والحقيقة ان عامة الشعب أعلنوا أسفهم لسفر اليهود ولم يزوّروا عن الباقين منهم ولم يقطعوا صلاتهم بأصحابهم وشركائهم في الاعمال.

حصلت في تلك الآونة أزمة اقتصادية أخذت بخناق الحكومة والأهلين حتى اضطر وزير المالية في بعض الأشهر الى الاستقراض من المصرف الشرقي لدفع رواتب الموظفين. ولكن لم تمض سنة او سنتان حتى عقدت اتفاقية جديدة للنفط وتدفقت الموارد المالية على العراق، فأنشيء مجلس الاعمار وخصص ٧٠ بالمائة من عوائد النفط للمشاريع الكبرى، وأرصد منها للميزانية الاعتيادية ٣٠ بالمائة فقط. وانتعش الاقتصاد العراقي انتعاشاً محسوساً خلال سنوات قليلة، وانجز مشروع سدّ الثرثار الذي يقي بغداد من الفيضان وعشرات المشاريع الاخرى التي غيّرت وجه البلاد وزادت من ثروتها العامة ورفعت مستوى المعيشة.

قدم العراق بعد سنة ١٩٥٠ بضعة آلاف من لاجئي فلسطين فأسكنوا في دور اليهود القديمة. وتدفق على العاصمة اهالي القرى والمدن فانبثّوا في الاسواق وملأوا الفراغ الذي خلفه التجار والباعة اليهود الراحلون.

أما الطائفة الاسرائيلية فأبدل اسمها الى «الطائفة الموسوية» وتقلصت تشكيلاتها. أعيد الحاخام ساسون خضوري رئيساً للطائفة بعد استقالة حسقيل شمطوب وجعلت رئاسته تشمل العراق بأسره بعد أن كانت تقتصر على منطقة بغداد. حلّت المحاكم الشرعية لسفر الحاخامين وعهد بالاحوال الشخصية لليهود الى المحاكم المدنية على أن تستعين برئاسة الطائفة في الامور التي تمسّ الشرع. أغلقت أكثر الكنائس لزوال الحاجة اليها واكتفي بستة او سبعة معابد، كما اكتفت الطائفة بمدرستين: مدرسة مناحيم دانيال الابتدائية ومدرسة فرنك عيني التي شيّد لها المحسن الذي تحمل اسمه بناية على أحدث طرز، وصارت تضمّ روضة أطفال وصفوفاً كاملة ابتدائية ومتوسطة واعدادية وتنفّذ منهاج وزارة المعارف فضلاً عن الدراسات التي تضمن لطلابها وطالباتها الحصول على الشهادات العلمية الفرنسية والانكليزية. كانت هذه المدرسة من ألمع معاهد العلم يدرس فيها في عهدها الزاهر اكثر من ألف طالب من الجنسين، ولم تقتصر على اليهود بل انتمى اليها طلاب وطالبات من أبناء الأديان الأخرى.

واستملكت وزارة الصحة مستشفى مير الياس وجعلته معهداً صحياً رسمياً واستولت على النوادي الاجتماعية. واستعيض عن المجلس الجسماني بلجنة ادارية لليهود العراقيين تتولى ادارة شؤون الطائفة واوقافها وسائر معاهدها الدينية والمدنية. واستمر المحسن الكبير عزرا مناحيم دانيال في تنفيذ مشاريعه الخيرية وارصاد اوقافه الخاصة واوقاف ابيه واخيه للطائفة، فجعل من دار الأسرة القديمة مستوصفاً افتتحه توفيق وهبي وزير الشؤون الاجتماعية وألقيت فيه خطاباً. وأنشأ ملعباً رياضياً لطلاب المدارس في محلة السعدون على أحدث طرز ظلّ مركزاً للتدريب والمباريات الى حرب سنة ١٩٦٧ حين استولى عليه الجيش واتخذه ملعباً عسكرياً.

عادت الحياة الطبيعية الى مجراها وأخذ التجار اليهود وشركاتهم التجارية يمارسون أعمالهم واشترك الكثيرون منهم في النوادي الحديثة كنادي السعدون ونادي المنصور. وعادت اشراقة الأمل في شعري، فقلت، وقد ولدت لنا ابنتي نور، من موشّح:

بسم الدهر لنا بعد القطوب / وأشاع النور فانزاح الظلام

فانبذ الأشجان واهزأ بالخطوب: / كلّ ما في الكون أمن وسلام...

طلعة هلّت فأحيت في النفوس / أملاً يزهو جميلاً مؤنقا

روّضت في طهرها الدهر الشّموس / فجرى طوع الرجايا مشفقا

قل وداعاً لاكتئاب وعبوس / واقتبل وجه الزمان المشرقا

طلعة غرّاء للطفل الحبيب / جمعت عذب الأماني في ابتسام

كلّما مرّ على الثغر الرطيب / بسم الأملاك بِشْراً والأنام...

وقلت:

انظر الى صنع الزمان / قد جاد لأياً بالأمان

ضمن الهناءة والرضا / والنفس تأنس بالضمان

قد صبّ بلسمه شفاءاً / في الحشاشة والجنان

ومحا الإساءة والقِلى / والكرب في فيض الحنان

مسح الدموع وصاغها / للنّحر عقداً من جُمان

وأحال أنات الهوى / لحناً كرنّات المثاني

إن لم يحقق مأملاً، / هل غضّ من عذب الأماني؟...

وقلت:

أشرق النور في الظلام الملبّد / فاذا الأفق شعلة تتوقّد

واذا الكون هاتف بلسان / واحد يملأ الدّنى: الله أوحد!...

وقلت وقلت وقلت....

وقد انتخبت زميلاً في الجمعية الآسيوية الملكية في لندن سنة ١٩٥٠.

شركة شفروليت المتحدة

أسس التاجران النشيطان خضوري وعزرا مير لاوي شركتها في البصرة بعد نهاية الحرب العالمية الاولى وأخذا وكالة شركة جنرال موتورز الاميركية في العراق وايران واستوردا السيارات وادواتها. ولما اتسعت أشغالهما انتقلا الى بغداد سنة ١٩٢٧ وحصلا على وكالات اخرى للاطارات والدهون والثلاجات والمبردات والبطاريات. وأنشأ فروعاً في البصرة وكركوك والموصل والكوت وعيّنا وكلاء في سائر أنحاء العراق. وفي اواخر سنة ١٩٥٢ أسسا شركة محدودة باسم «شركة شفروليت المتحدة» اشترك فيها ناجي الخضيري ومحمد كامل الخضيري وتوفيق السويدي. وكان للشركة اكثر من مائتي موظف ومعمل لتصليح السيارات.

دعيت الى العمل في الشركة بصفة مدير ومعاون للمديرين المفوضين ساسون عابد ومحمد كامل الخضيري، فالتحقت بوظيفتي في اول كانون الثاني ١٩٥٣ وبقيت فيها اكثر من ١٣ سنة الى حين تقلص اعمال الشركة وضمورها بعد تأميم التجارة والصناعة في عهد رئيس الجمهورية عبد السلام محمد عارف. وكان عملي غير محدد، فكنت أشرف على أعمال الشعب المختلفة وأتولى شؤون العلاقات العامة، اذ كان يزورنا كل يوم رجال الدولة وكبار التجار والموظفين والشيوخ لشراء السيارات او تصليحها او لمجرّد احتساء القهوة. وأخذ الادباء والصحفيون يترددون علينا. وقد دأبت على بيع السيارات بأفضل الشروط وأيسر الاسعار لرجال العلم والادب، وفي طليعتهم محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي ومحمد مهدي الجواهري والدكتور مصطفى جواد واحمد حامد الصرّاف... وكان محمد كامل الخضيري يداعبني فيقول: انك تراعي هؤلاء مراعاة خاصة، ثم يضحك ويقول: افعل ما بدا لك.

استمررت على الكتابة والنظم ونشرت البحوث الاقتصادية والمقالات الأدبية والقصائد والقصص في جريدة الزمان والاخبار والبلاد والحوادث ومجلة الاديب البيروتية الخ.

في صيف سنة ١٩٥٤ جاء الى بغداد جوق سركس عرض ألعابه وراء السدّ المعروف بسدّ ناظم باشا في حيّ السعدون. شاهدنا الاسود والنمور والألعاب المدهشة. ولكن لم تمض أيام قليلة حتى حدث فيضان عظيم لنهر دجلة هدّد بغداد بالغرق. وقد اسرع أصحاب السركس بالهروب، وباتت العاصمة ذات ليلة مشرفة على الخطر. كنّا نقيم في حيّ السعدون على مبعدة مائتين او ثلثمائة متر من السدّ، فجاء سكان الاكواخ المعروفة بـ «الصرائف» الى دارنا والدور المجاورة، وقالوا: أنتم تسكنون في القصور ونحن معرضون للغرق! فدعوناهم الى النزول في حدائقنا وقدّمنا لهم الماء والطعام.

اجتمع الوزراء في تلك الليلة وتذاكروا في اخلاء جانب الرصافة. فاعترض وزير الداخلية وقال: ذلك لا يمكن تنفيذه لأن في بغداد جسرين او ثلاثة فقط، وسيحدث اذا طلبنا من الناس العبور الى جانب الكرخ هرج ومرج وازدحام شديد تزهق فيه النفوس. وأخذ التبعة على عاتقه وأمر بجلب مكائن الشركات التي تنفذ المشاريع العمرانية وسهر مع المهندسين لتقوية السدّ ومنع مياه الفيضان من التدفق من الثغرات. ولم يصبح الصباح حتى انحسر الماء ونجت بغداد.

وكان ذلك آخر فيضان هدّد مدينة الرشيد، لأن مشروع الثرثار في أعالي دجلة أنجز في السنة التالية فوق المدينة من خطر الغرق وعمّرت الأراضي الخالية وراء السدّ الذي استنفد فائدته.

في اواخر تموز من تلك السنة قمت بسفرة الى مصر واوربّة. التقيت في القاهرة بشقيقتي واقاربي وجددت العهد بمعالمها وآثارها. ثم قصدت روما وزرت كنيسة القديس بطرس والفاتيكان وسائر الكنائس والمعاهد، و «الكاتاكومب» وهي مدينة السراديب تحت الأرض التي عاش فيها المسيحيون المضطهدون وصلوا فيها ودفنوا موتاهم في القرنين المسيحيين الأولين قبل أن تعتنق الامبراطورية الرومانية الدين المسيحي. وزرت وزير العراق المفوض عبد الملك الخضيري والسكرتيرين خليل الداغستاني وعبد الكريم محمود الطائي. وكانت جنيف محط رحالي بعد ذلك، وصلتها في عيد المرافع وهو العيد الذي يحتفل به السويسريون فتخرج المواكب على شاطىء البحيرة وتنثر الورود وتطلق الألعاب النارية في المساء. ولقيت في مكتب العمل الدولي الصديق القديم هاشم جواد، وهو من ألمع الشباب المثقف وقد أصبح فيما بعد مندوباً في هيئة الأمم المتحدة ووزيراً للخارجية.

ذهبت من سويسرة الى لندن وحضرت مؤتمر المستشرقين الدولي الذي افتتح في كلية الثالوث بجامعة كمبريدج في ٢١ آب ١٩٥٤ وحضره مئات العلماء والادباء من البلاد العربية ومختلف أقطار العالم. أنزلنا في الحجر المخصصة لطلاب الجامعة، وكانت قديمة الطراز لم تتغير منذ القرون الوسطى، كانت حجرتي مضاءة بالكهرباء ولكن ليس فيها ماء جار. وجاءت الخادمة فجلبت لي ابريقاً فيه ماء مع طشت وموقد وقالت: اذا نهضت صباحاً فسخّن الماء للاغتسال. ونهضنا في الصباح فسرنا في صفّ طويل نقصد الحمامات الكائنة في الطرف البعيد من الحديقة ذات البساط السندسي البديع.

سألت عن الموظف المسؤول عن اسكان اعضاء المؤتمر وقلت له: ان الحجرة التي خصصتها لي لا ماء فيها ولا مرافق.

قال: هذه حجر طلابنا. فهل جامعتكم في بغداد خير منها؟

لم يكن لنا جامعة آنذاك في بغداد بل مجرّد كليات متفرقة لا يرتبط بعضها ببعض. ولكنني قلت: ان جامعة بغداد لا يمكنها أن تفتخر بماضي كمبريدج العظيمة، بيد أن غرف طلابها حديثة الطراز وفيها كل وسائل الراحة.

فضحك وقال: سأنقلك الى غرف احد الاساتذة الغائبين، ولا شك عندي انك ستحافظ على نظامها. ولكن ارجو أن لا تخبر أحداً من رفاقك بالأمر.

وتبعته فمضى بي الى بناية في الجانب الثاني من مساكن الطلاب وادخلني الى شقة فيها غرفتان احداهما للنوم والثانية للجلوس، وفيها مكتبة عامرة، ويتصل بهما حمام كامل المعدّات مع شؤبوبه ومائه الجاري الحار والبارد. وسرعان ما نقلت حقيبتي الى مسكني الجديد ومضيت لحضور اجتماع المؤتمر.

وكان جاري في حجرتي الاولى الدكتور سليم حسن عالم الآثار الشهير ومدير المتحف المصري، وقد عقدنا صداقة طيبة مذ تلاقينا في اليوم الاول، فافتقدني. وقال لي حين رآني: أين أنت؟ قلت له: لا أستطيع أن أخبرك، ولكن اذا وعدتني بأن تحفظ السرّ، آخذك الى مقرّي الجديد وأسمح لك بالتمتع بالحمام وسائر المرافق. واتفقنا على ذلك.

كان الدكتور سليم حسن نعم الصديق لي طيلة ايام المؤتمر. وقد التقينا ثانية سنة ١٩٥٧ في مؤتمر المستشرقين المعقود في ميونخ عاصمة بافارية. ولما توفي سنة ١٩٦١ كتبت كلمة عنه في جريدة «الأيام» قلت منها:

«في مؤتمر المستشرقين الذي عقد قبل ثماني سنين بجامعة كمبريدج الفيت جاري في الغرفة التي خصصت لي في احدى الكليات القديمة على نهر «الكام» الصغير الرقراق شيخاً مصرياً يفيض فتوّة ونشاطاً ويتدفق كلاماً باللهجة المصرية اللطيفة كالسيل العارم الذي يغمر الوديان والآكام. ولم نلبث أن تعارفنا وتصاحبنا وكأننا ابنا جيل واحد وبلد واحد، فقضينا اسبوعاً حافلاً لا نكاد نفترق من الصباح الى المساء.

«كان هذا الشيخ الشاب الدكتور سليم حسن عالم الآثار المصري وصاحب المؤلفات الممتعة في تاريخ مصر القديمة وديانتها وآدابها وعادياتها. كانت سنّه آنذاك تقارب السبعين، لكنه لم يفقد حماسته للحياة والعمل، وكانت حماسة ملتهبة متهللة معدية يعبّر عنها بحركة دائمة لا تستقر وكلام متدفق زاخر بالذكريات والامنيات والمطامح...

«كنت أستمع الى سليم حسن فأذكر شاعرنا جميل صدقي الزهاوي الذي لم أجتمع به الا مرتين في أواخر حياته، فكان لا يتحدث الا عن نفسه وشعره ومريديه وخصومه. أما صديقنا العالم المصريّ فكان مثله في الشعور بالذات وتمجيدها، لكنه كان طرازاً آخر في حديثه وملحه واندفاعاته، وخصوصاً في حماسته المشرقة التي أظهرته بمظهر الشاب المنطلق، لا يكاد يتلفت الى الماضي الا ليرسم للمستقبل الخطط والآمال...»

وتعرفت في المؤتمر على عدد من العلماء المستعربين والأدباء العرب، ومنهم الدكتور عبد اللطيف الطيباوي مؤرخ سورية وغيره. وكان من العراقيين الدكتور صفاء خلوصي ومحسن مهدي. وأقيمت لنا حفلات منها حفلة وزارة الخارجية البريطانية وأخرى أقامها رئيس بلدية كمبريدج.

كان الجوّ في أول أيام المؤتمر عابساً ماطراً ثم راق وصفا، فخرجنا بنزهات في القوارب على نهر الكام الذي يشق طريقه المتلوي البطيء بين المروج المعشبة وصروح العلم التي رفعت قبابها الى السماء. حننت الى العراق وصفاء سمائه وطيبة هوائه فقلت:

قد صفا الجوّ وراقا — فتمثّلت العراقا
وذكرت الأهل فيه — وصحابي والرفاقا
غمر الشوق فؤاداً — سئم اليوم الفراقا
وتمنّى نهلة من — دجلةٍ طابت مذاقا...
أين لي حسن ليالٍ — ضربت ثمّ رواقا
زهت الأنجم فيها — وجرى الماء دفاقا
وبدا البدر مضيئاً، — هل درى العمر محاقا؟...

عدت الى لندن، وكانت لا تزال تحمل ندوباً من آثار الحرب التي انتهت قبل تسعة أعوام. كانت الخرائب كثيرة في وسط المدينة ولا سيما في البلدة القديمة، أو «الطرف الشرقي» كما تدعى، تلك الأحياء التي أمطرها الألمان بوابل من قذائفهم الثقيلة. وظهر في كل مكان عمران جديد وعمارات مرتفعة على الطريقة الأميركية، لكن سنين طوالا سوف تمضي قبل أن يرمم جميع الدمار.

وفي لندن من الآثار والصروح والمتاحف والمعارض والكنائس ما لا تكفي الاسابيع بل الأشهر لزيارته والتمتع بمشاهدته. وفيها من الحدائق العظيمة في كل جانب والمياه المتدفقة والمتنزهات الجميلة ما يخلب اللب ويريح الذهن وينعش النفس. وفي قبو كاتدرائية القديس بولس الشامخة نقشت هذه الأبيات من شعر الشاعر الرسّام المتصوّف وليم بليك (١٧٥٧ ــ ١٨٢٧) :

«أن ترى عالماً في ذرّة الرمل
وسماءاً في زهرة برّيّة،
وتحمل اللانهاية في قبضة يدك
والخلود في ساعة واحدة...»

باريس

من لندن الى باريس عاصمة النور. جددت العهد بها بعد غياب سبعة عشر عاماً وكأنها دهر طويل ضربت الحرب خلاله بكلكلها على العالم وبسطت ظلالها الرهيبة الكمداء على فرنسة بلد الحضارة والجمال. ولئن حملت لندن من آثار الحرب ندوباً ماديّة انّ باريس التي لم تقصفها القنابل حملت من الاحتلال الألماني ندوباً روحية عميقة، وعانت صراعاً وخيماً بين أكثرية تتمسك بالحرية والكرامة وأقلية صغيرة رأت من مصلحتها أن تماشي المحتلّ الشرس وتسالمه.

كانت فرنسة منذ عصر النهضة الحديثة حاملة مشعل الثقافة والأدب. فماذا حدث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية؟ هل أنجبت كاتباً كأناتول فرانس أو شاعراً كبول ڤاليري؟ وأين مفكروها وفلاسفتها العظام الذين طالما فاخر بهم العالم خلال القرون الماضية؟ لا مشاحة أن القيم الأدبية والفنية قد اختلفت كثيراً، فأصبحت الأجيال الطالعة لا تستطيب الآثار الكلاسيكية والابتداعية بعد ما أصابها من رجّات نفسية خلال الحربين الماحقتين اللتين فتكتا بزهرة الشباب. طغت على الشعر والنثر عناصر الحياة اليومية الصاخبة، فظهر أدب وفن جديدان يمتازان، ولا ريب، بالأصالة والصراحة وقوة التعبير، لكنها يستهينان في الغالب بمقوّمات كثيرة من قواعد اللغة والهندسة وأوزان الشعر وقوافيه. وفي مقال كتبته بعد الرحلة الأوربية ونشرته جريدة الشعب البغدادية شبّهت الأدب الجديد بالخبز والحساء اللذين يقدمان في المطاعم الشعبية إشباعاً للبطون، بخلاف الأدب القديم الذي يحكي الأطعمة المجوّدة المتأنّق في صنعها تلذيذاً لذوق الخاصة.

برزت المذاهب الانطباعية والرمزية في الأدب والفن، ثم عقبتها المذاهب الاغطاطية والسريالية (فوق الواقعية) والتكعيبيّة والوجودية والاستقبالية التي يعز فهمها الا عن طريق الحدس والتخيّل. ولما انتهت الحرب قويت الحركة الوجودية ونشطت، وهي التي تمجّد الوجود وتتشبّث به. وأوجدت مسخاً لها عرفته مقاهي باريس وأنديتها: فقد ارتدى الفتيان والفتيات أغرب اللباس واصطنعوا الشذوذ وأطلقوا اللحى والشعور، وتسكعوا في الطرقات والحانات مستهينين بالآداب الاجتماعية ومتخذين من الوجودية حجة وذريعة شأنهم شأن طوائف من الصوفية في العهود القديمة. وكان كل شاب ينتعل خفّين غير متجانسين، وكل فتاة تلبس السراويل وتشدّ في وسطها زنّاراً، وحتى العجوز المتصابية والشيخ الذي لم يغتسل بالماء أشهراً، كانوا جميعاً يدعون أنفسهم «الوجوديين» ويرون في الوجودية عذراً للبطالة والشذوذ والإغراب. وكانت لهم مقاهٍ خاصة تجمع شملهم ومطاعم يتناولون فيها حساء البصل قبل طلوع الفجر.

سألت في باريس عن «الوجوديين» ومعاقلهم في «بولڤار سان جرمان»، فأخذني صديقي الى بعض المقاهي التي تعجّ بالوافدين والوافدات وقال: «هنا كان يلتئم شملهم، ولكن لم يبق لهم اليوم وجود». وجاءت فتاة فجلست الى المائدة المجاورة وطلبت شراباً. فبادرها الصديق بالتحية وقال: أين الوجوديون، يا آنسة؟

ــ لم أكن أنا منهم.

ــ ولكن أين هم؟

ــ لقد فرقهم الدهر ومضى كلّ منهم الى سبيله.

وتناولت نهلة من قدحها ثم قالت: جاء الأميركيون فغزوا معاقل الوجوديين ونثروا فيها دولاراتهم حتى لم يبق فيها أحد من روادها الملقين الأولين.

قال صاحبي: ومطاعم حساء البصل؟

قالت: لا تزال مفتوحة في الساعات الأخيرة من الليل، بل قل الساعات الاولى من الصباح، يؤمها كل أحد الا الوجوديون المضيّعون.

وكانت الموسيقى تصدح والرقص يدور في القاعة، لكن لم يكن ثمة شيء غير مألوف.

تلك باريس ما بعد الحرب، لكن قوس النصر وبرج إيفل ومتحف اللوفر وقصر التويلري وكنيسة المادلين والانفاليد والسوربون وحديقة الحيوان والپانتئون وكاتدرائية نوتردام وغابة بولونية وسائر المعالم والمتاحف والمعاهد لم تزل قائمة كما كانت منذ عهدها العهيد. ومقبرة الأب لاشيز القائمة في شارع الراحة وسط المدينة لا تزال مكتظة بقبور العظماء واوساط الناس، والاطفال يلعبون فوق حشائش ممراتها الخضراء، والعجائز يحكن انسجتهن ويثرثرن فوق مقاعدها الخشبية. وفي الجانب الآخر مقهى يرتاده الناس لاحتساء القهوة والمرطبات، وقد كتب على واجهته: خير لك أن تكون هنا من ان تكون في الجهة المقابلة!

وفي وسط باريس، تحت الجسور الباذخة، يجري نهر السين اللطيف تنحدر فيه السفن وزوارق السياحة التي يتمتع فيها الركاب بمناظر الساحلين وقصورهما وجنائنها وعماراتها وأضويتها المتوقدة في الليل وملاعبها المكتظة بالغادين والرائحين. ثم ينحدر بك الزورق الى الضواحي حيث الهدوء الشامل والهواء المشبع بشذا الورود والأزهار. ولقد ترى على الضفّة نفراً من الرجال والنساء يجلسون ساعات طويلة بلا حركة يصطادون السمك ويحدّقون في الفضاء. فاذا ما عضت السنّارة سمكة مسكينة أسرع الرجل الى جذب الخيط والقاء صيده في السلة الى جانبه، وعاد الى نصب أحبولته في الماء.

بعد نحو اسبوعين في العاصمة الفرنسية أقلّتني الطائرة الى امستردام، فزرت معالمها وتنزهت في قنواتها التي تشق البلدة طولاً وعرضاً. ذهبت الى الهاغ عاصمة هولندة حيث قصر السلام مقرّ محكمة العدل الدولية التي أسست بعد الحرب العظمى الاولى ملحقة بعصبة الأمم لحلّ المشاكل سلماً بين الدول. جاء اليها محمد مصدق رئيس وزراء ايران سنة ١٩٥٣ محمولاً على فراشه، وهو مريض، فدافع ببلاغة نادرة عن حق بلاده في تأميم النفط.

ان الهولنديين شعب مدبّر عامل استخلص من البحر أراضي كثيرة، أقام لها الأسداد وزرعها بالزهور والنبات وشيّد عليها المباني. استرعى نظري كثرة الدراجات التي يستعملها الأهالي في تنقلاتهم رجالاً ونساء، كما لاحظت من قبل كثرة الدراجات النارية التي تنطلق في شوارع روما. أطللت من شرفة الفندق في امستردام على الميدان في قلب المدينة، وعلى حين غرّة تدفقت الدراجات الهوائية، عشرات فمئات فآلاف، انطلقت من جوانب الطرق كأن يد السحر قد أخرجتها بعصاها العابثة، أقلّت الشيب والشبان والعجائز والفتيات، شقت طريقها بين السيارات والترامات ومرقت كالشهب تتساقط في الآفاق.

مرت دقائق وفتر سيل الدراجات ثم انقطع وعاد الهدوء يغشى الساحة الواسعة. لم يكن ذلك الازدحام والصخب سوى انتهاء الدوام في المكاتب والمعامل وانطلاق الموظفين والعمال عائدين الى دورهم على وسيلة نقلهم المفضلة.

ولكن لكل شيء نهاية. حلقت بنا الطائرة فوق نيس وروما وأثينة وبيروت، فوصلنا بغداد في ٢ تشرين الاول ١٩٥٤ بعد رحلة جميلة حافلة دامت تسعة أسابيع.

بين الاقتصاد والادب

كانت سنوات الخمسين حافلة بالانتاج الادبي والاقتصادي. وكانت الصحف والمجلات تتسابق الى استطلاع آرائي الاقتصادية والاجتماعية والادبية ونشر بحوثي ومقالاتي وقصائدي وقصصي. استمرت الصحف القديمة، الزمان والاخبار والبلاد والشعب والهاتف والحوادث والعراق تايمس (باللغة الانكليزية) على اعطاء كتاباتي محلا بارزاً على صفحاتها، وانضمت اليها جرائد جديدة صدرت منها جريدة الحارس لصاحبها صبيح الغافقي وجريدة الرائد لصاحبها خليل علي مصطفى الخليل مدير الشرطة السابق الخ.

وقد دعتني جريدة البلاد، ثم جريدة الاخبار (وعند اغلاقها الجريدتان اللتان صدرتا في محلها وهما الطريق وصدى الاخبار) الى كتابة حقل اسبوعي بعنوان «أماني الاسبوع»، فحبّرت خلال المدة من ايلول ١٩٥٣ الى ايار ١٩٥٤ مقالات وشذرات تناولت آرائي في حقل الاجتماع والأخلاق (الانسان، الحب، الكمال، سحر الأيام الخالية الخ). وبحوثاً في الشعر والادب (طاغور، الزهاوي، ميّ، ابو فراس الحمداني، ألفرد دي لنسي، نسيب عويضة، بودلير، اناتول فرانس، فكتور هوغو، الكرملي، جبران خليل جبران، غاندي) وترجمات عن الفرنسية والانكليزية.

ومن طريف ما أذكر أنني نشرت قصيدة في جريدة الحارس في تموز ١٩٥٤، قبيل سفري الى اوربّة، مطلعها:

قـبـل أن تـأتي بـأعـوام طـويـلـة زار طـيـف مـنـك أحـلامـي الجـمـيـلـة
وتـراءى كـمـلاك طـاهـر رائـعـاً في هـالـة الـنـور الـظـلـيـلـة...

وهي قصيدة وجدانية نظمتها من وحي مناجاة في التلهف الى روح شقيق بين الشاعر الفارسي عبد الرحمن جامي الذي عاش في القرن الخامس عشر والشاعرة الفرنسية مارسلين ديبورد فالمور ـ Marceline Desbordes Valmore التي عاشت بعده بنحو اربعمائة سنة. وعلى الأثر كتب كاتب في احدى الصحف الاسبوعية المغمورة يقول ان قصيدة مير بصري انما هي تمجيد لدولة اسرائيل وحللها حسبما راق لخياله.

أخذت الجريدة الى سعيد قزّاز وزير الداخلية، وكانت مديرية الدعاية العامة تابعة له، فلما قرأها قال: عجيب!... واحتفظ بالجريدة. لم يقل لي سعيد قزّاز شيئاً بعد ذلك، لكن أحد الأصدقاء من رجال الصحافة زارني بعد أيام وقال: ما أشدّ تقدير وزير الداخلية لك!... قلت: كيف ذلك؟ قال: نشرت جريدة... كلمة عنك، فاستدعى الوزير مدير الدعاية العام وصاحب الجريدة وكاتب الكلمة، فأنّب الصحفي والكاتب وقال لها: لقد غادر العراق آلاف اليهود، ولو شاء مير بصري أن يذهب الى اسرائيل اوأي بلد عالمي آخر للقي من الاكرام والاحترام قدر ما يلقاه هنا او اكثر منه، لكنه آثر البقاء في وطنه اعتزازاً به. وحذّر الرجلين من التعرّض للناس وتفسير ما يكتبونه خلاف رأيهم، وقال لمدير الدعاية العام: اذا عاد صاحب الجريدة الى مثل هذا فقدم لي تقريراً لأغلق صحيفته.

وحين أذكر سعيد قزّاز لا بدّ لي أن أقول انه كان رجلاً عصامياً تمثّلت فيه صفات الانسانية الكريمة. كان كرديّ الأرومة ولم يعرف التعصّب والضغينة، تدّرج في المناصب الادارية من مدير ناحية وقائممقام قضاء الى متصرف لواء حتى أسندت اليه وزارة الداخلية. عرف بالجرأة الى حدّ التهوّر، فكان يذهب بنفسه على رأس ثلة من الشرطة لتعقيب الجناة

والخارجين على القانون في الجبال الوعرة يقبض عليهم ويسلّمهم الى يد العدالة. وكان صائب الرأي: تعرّضت بغداد للغرق في صيف سنة ١٩٥٤ بسبب الفيضان العظيم فارتأى المسؤولون اخلاء جانب الرصافة الذي غمرت أطرافه المياه. لكنه عارض رأيهم وقال: كيف تنقلون مئات الآلاف من الناس الى جانب الكرخ، فتكتظ الطرق والجسور ويختلط الحابل بالنابل؟ واستدعى العمال وأوعز الى الشركات ودوائر الاشغال بجلب سياراتها وآلاتها وجرّاراتها الضخمة وأشرف على إحكام السدّ وانقاذ البلد.

ولما جرى العدوان على مصر في خريف ١٩٥٦ وهاجت الأفكار وخرج العوامّ يطالبون بإسناد مصر في حربها اتخذ الاجراءات الكفيلة بصيانة الأمن. وجاءنا مطمئناً أن لا خوف ولا اعتداء.

كان رجلاً ادارياً لا سياسياً، حازماً شديد الصلابة. ناوأ الشيوعية وشنّ على معتنقيها حرباً شعواء حسب القانون لأنه كان يؤمن بالعدالة الاجتماعية والحرية الفردية ويعتقد أن المبدأ الشيوعي لا يحقق ذلك.

اعتقل في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وحوكم أمام محكمة الشعب التي تسلط عليها نفوذ الشيوعيين، فوقف مرفوع الرأس يناقش ويبرّر مسلكه. وختم دفاعه قائلاً انه يرى الموت قاب قوسين او ادنى منه ولا ترهبه المشنقة، بل يصعد عليها فيرى تحت قدميه الكثيرين ممن لا يستحقون الحياة!

وكان هذا الكلام سبباً في الحكم عليه بالاعدام، فارتقى سلّم المشنقة في ٢٠ ايلول ١٩٥٩ بلا خوف ولا جزع.

في سنة ١٩٥٣ وضع فخري الطبقچلي وزير العدلية لائحة قانونية ترمي الى نزع الجنسية العراقية عن اليهود العراقيين الباقين في العراق والذين لهم أقارب في اسرائيل، فاتصل ساسون عابد بأرشد العمري واتصلت بصالح جبر فاستنكرا الأمر. وجاءا الى الشركة بعد يوم او يومين فقالا انهما أنّبا الوزير فاعتذر ومزّق اللائحة. وأذكر ان صالح جبر زارنا في الشركة فقال لساسون عابد: ان مير وديعتنا لديكم، وسوف تتغير الحال ونسترجعه منكم لخدمة الدولة. لكن لم تمض أيام قليلة حتى سقط على الارض وهو يخطب في مجلس الاعيان في نوبة قلبية قضت عليه، وكان ذلك في ٦ حزيران ١٩٥٧.
وكان يزورني ايضاً عوني الخالدي السكرتير العام لحلف بغداد فيقول متفائلاً ان السلام سيعود قريباً الى الشرق الاوسط فتأخذ المحل اللائق بك في وزارة الخارجية العراقية...

نظمت في تلك السنة ايضاً (١٩٥٧) ملحمة «فتاة من بغداد: قصة الحب والوفاء»، وقد نشرت مقاطع منها في مجلة الاديب البيروتية والصحف العراقية. هي قصة رحالة ايطالي جاء الى بغداد وأحب فتاة من أهلها فتزوجها واصطحبها في سفره. لكنها مرضت وماتت في الطريق، فحنط جثمانها ونقله الى روما حيث دفنها في احدى كنائسها. وظل يزور قبرها حتى أدركه الحمام فأرقد الى جانبها.

وقمت برحلة جديدة الى اوربّة في الصيف. وعند عودتي دعانا توفيق وهبي وزير المعارف والشؤون الاجتماعية سابقاً الى تأليف جمعية أدبية باسم «جمعية التأليف والترجمة والنشر». اشترك في الجمعية فريق من الادباء والشعراء في مقدمتهم الدكتور مصطفى جواد وابراهيم الواعظ وكوركيس عوّاد والدكتور معمّر خالد الشابندر ومكي جميل وفؤاد عباس والشاعرتان اميرة نور الدين ولميعة عباس عمارة وغيرهم. وقد اخترنا توفيق وهبي رئيساً. وأصدرت الجمعية مجلة شهرية باسم «الكتاب»، لكن لم يصدر عددان منها حتى نشبت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فمضى توفيق وهبي للاقامة في لندن وأغلقت الجمعية ومجلتها.

«رجال وظلال»

أصدرت في سنة ١٩٥٥ مجموعة قصص وصور قلمية كتبت خلال السنوات ١٩٢٩ ـ ٠٥٥ كتب مقدمات للكتاب ثلاثة من اصدقائي: رفائيل بطي صاحب جريدة البلاد ووزير الدولة، مؤرخ العراق عباس العزاوي، البحاثة المحقق الدكتور مصطفى جواد، وطبع طبعاً أنيقاً في مطبعة شركة التجارة والطباعة التي يديرها الصديق أنور شاؤل.

قدمني رفائيل بطي قائلاً: «مير بصري أديب موهوب وكاتب مثقف وباحث غزير المادة. لم يحل اشتغاله في وظائف وأعمال قوامها المادة والمال دون فطرته المطبوعة على المعاني وروحه الحسّاس الذي يأبى الا التحليق في أجواء من الفكر والخيال، مع عقل واع ورقة في الشعور وذوق صقله إدمان النظر في الآداب العربية والافرنجية...»

وقال العزاوي: «وأخص بالذكر... مير بصري المعروف في اوساطنا العربية بنشاطه الأدبي ونجاحه في موضوع القصة. وبين قصصه ما يهدف الى ملامسة المجتمع. وفي هذه جميعها لم يفلت الاتجاه الأدبي من يده، فقد جمع الحسنيين وفاق في الاثنتين...»

وقال الدكتور مصطفى جواد: «طلب اليّ صديقي... أن أقدم هذه الثمرة الأدبية المباركة من ثمرات أدبه الى قراء اللغة العربية... فألفيت طلبه تجلّة لي لا تحلّة لأدبه الغنيّ عن التقديم».

قوبل صدور «رجال وظلال» باهتمام عظيم في المحافل الأدبية. كتب اليّ مصطفى عليّ، وهو حاكم بداءة بعقوبا، يهنئني «بما نلت من توفيق في الفكرة والاسلوب واللغة».

كتبت الصحف العراقية على اختلافها عن الكتاب. ومن الذين تناولوه بالنقد والتقريظ جعفر الخليلي وعبد المجيد لطفي وكمال عثمان وجلال الحنفي ويوسف يعقوب مسكوني من بغداد، ومحمد علي البلاغي من النجف، ورشاد دارغوث من بيروت... ووردتني رسائل تقدير من الدكتور داود الجلبي من الموصل، والدكتور بشر فارس ومحمد الأسمر من مصر، وميخائيل نعيمة من لبنان، وصبيح ممتاز مدير العدلية العام من بغداد، وهاشم جواد من جنيف، والياس فرحات من البرازيل...

وكتب مجيد صابر في مجلة الأديب البيروتية (تشرين الاول ١٩٥٥) يقول:

«قيل عن الشاعر الانكليزي المعاصر همبرت وولف الذي تولى سكرتيرية وزارة التموين البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية أنه كتب أنظمة التموين شعراً منثوراً حلو الجرس والإيقاع. ويمكن القول ان مير بصري الشاعر الأديب العراقي المعروف وصاحب المكانة المرموقة في عالم الاقتصاد يكتب مقالاته الاقتصادية شعراً منثوراً وحتى منظوماً، وشواهد ذلك كثيرة في كتابه «مباحث في الاقتصاد العراقي» ومجلة غرفة تجارة بغداد التي تولّى تحريرها ثماني سنوات وسائر تآليفه».

ثم أشار الى صدور «رجال وظلال» وذكر لمحة عن حياتي وأدبي. وقال ان معظم القصص تتناول المشاكل الحيوية والمعاشية او مجرّد فكرة يعمل فيها المؤلف قلمه. وبعد أن حلل بعض قصص الكتاب قال:

«قال بوفون: الأسلوب هو الرجل. وهذا القول ينطبق على قصصيّنا في شعره ونثره وكتاباته الأدبية والاقتصادية. وها هي ذي قصصه تمتاز بأسلوب رائع يكاد يكون علامة للكاتب. فلنستمع اليه يصف خوالج أديب فاشل مقدم على الانتحار (قصة الرجل الذي لم ينتظر) او مشاعر الفلاح العائد الى الأرض (نداء الأرض) الخ...، فاننا نكاد نلمس المشاهد التي يرسمها لمس اليد...»

وقال ان مير بصري يستخدم قصصه لبثّ آرائه، ومن ابتكاراته الفنية أنه لا ينهي قصته أحياناً بل يكتفي بعرض النهاية المحتملة ويترك القارىء مهمة تصوّر الخاتمة إن سلباً وإن إيجاباً.

وكتب حازم نبهان في مجلة الآداب البيروتية (شباط ١٩٥٦) يقول: «ان من يقرأ قصص مير بصري التى انتظمها كتابه «رجال وظلال» يحكم لأول وهلة ان هذا الأديب العراقي الموهوب قد تتلمذ على الكلاسيكيين الفرنسيين...» وقال ان مير بصري خرج في قصصه عن حدود الاقليمية، فالى جانب القصص العراقية قصص يصحّ أن تقع في مكان ما او زمان ما.

وقال عبد المجيد لطفي في جريدة البلاد (١٣ كانون الاول ١٩٥٥) بعنوان «وعظ وخيال في رجال وظلال»:

«للاستاذ مير بصري فضل على الثقافة الاقتصادية والأدبية في هذه البلاد لا ينكره منصف. فهو حين يتخلص من لغة الأرقام والاحصائيات والاستنتاجات الاقتصادية والمالية يعود بلهفة صادقة الى حقله المحبّب اليه ــ حقل الأدب والفكر بمداه الواسع، وقد مدّ الاستاذ مير ثقافته الأدبية بمعين لا ينضب من المطالعات والدراسات في اللغتين الفرنسية والانكليزية. فهو على اتصال دائم بتطوّرات الأدب في لغتين من أكثر اللغات الأوروبية ازدهاراً. وهو الى جانب ذلك شاعر رقيق يتأنق باختيار العبارة وينسق الأبيات بأنغام رخيمة، فكأنك حين تقرأ شعره تمسك بباقة منوّرة أرجة من الأزهار وأنت محتار بين العبق اللطيف وبين الجمال الأنيق...»

وقد انتقد عبد المجيد لطفي، وهو من القصصيين المبدعين، عدداً من قصص الكتاب وقال: «فبين «رجال وظلال» ظلال شاحبة ورجال هزيلون لبعد العهد بهم. ملامحهم منطمسة وحياتهم مضطربة يدورون في حلقة مبهمة كحيوانات غريبة مربوطة الى سلسلة طويلة...» وقال ان قصة «شاب من شبان العصر» دعوة أخلاقية لمثالية نفتقدها في حياتنا، وهي لشدّة تألق جوهرها تبدو خيالية غير محتملة: «فلم ينشأ عندنا بعد شعور بالمسؤولية الأخلاقية والوطنية الى الدرجة التي وضعت في تلك القصة... غير أن قصة «ياسر» تطلّ بكبرياء الأبوّة والتضحية لتعطي صورة صحيحة لمرحلة تطورنا الاجتماعي والبذل الحميد في سبيل الثقافة... فهذه القصة وحدها بانسانيتها الرائعة تمثل حقاً النضج القصصي وتقدّم لجيل الغد نموذجاً من القلق الذي مرّ به جيلنا المعاصر وما كابدنا من تضحيات في هذه المرحلة من الناحية الروحية...» وختم كلامه قائلاً: «وبعد فان من المفيد ان يقرأ كل عراقي هذا الكتاب ليرى مواضع القوة والضعف والقبح والجمال والظلم والعدالة والفقر والثراء الطائل في مجتمعنا، فالكتاب حافل بكل هذا بلا ريب...».

وتحدث الدكتور عبد الاله أحمد في كتابه «الادب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية» (الجزء الاول، بغداد ١٩٧٧، ص ٣٦٣ ملاحظة رقم ١١٦) عني كقصصي، فقال ان «رجال وظلال» لا تقتصر على القصة، «الا أن تشعب اهتمامات الكاتب، وطغيان الذهنية على قصصه التي تباعد بينه وبين الواقعية... ورغم ذلك فانّ ما كتبه جدير بالذكر في تاريخ الأدب القصصي في العراق باعتباره لوناً لا يسير في اتجاه واضح المعالم من اتجاهات الأدب القصصي المعروفة في العراق... وهو لون من القصص يكشف في الوقت ذاته عن ثقافة محافظة، وعناية باللغة، تدلّ على تمكّن كبير لا تقليد فيه ندر من امتلكه من أدباء العراق».

وتكلم الدكتور صفاء خلوصي عن القصة العراقية الحديثة في مؤتمر المستشرقين الدولي المنعقد في جامعة مونيخ في أيلول ١٩٥٧ فأشار الى كتاب «رجال وظلال» ولخص طائفة من قصصه.

زار بغداد الشاعر اللبناني المبدع أمين نخلة فاحتفى به رجال الأدب. ودعوته الى العشاء في نادي المنصور مع فريق من الأدباء والشعراء، فكانت ليلة ممتعة تنوعت فيها الأحاديث عن الأدب والفنّ والصلات الجميلة بين لبنان والعراق. وقال أمين نخلة انه سيّد علوي صحيح النسب، لكن أحد أجداده قبل نحو من مائتي سنة قد لجّ في خلاف عائلي فاعتنق النصرانية وانشطرت الأسرة شطرين مسلماً ومسيحياً. وما زالت تعرف بآل نخلة الهاشم، كما أن أهل ضيعته في الجبل، وهم مسلمون، يعترفون لأفرادها بالسيادة ويقبلون يده هو نفسه كلما زارهم.

وقد قيل أن أحمد شوقي أمير الشعراء زار لبنان في العشرينات فحيّا أمين نخلة واعتدّه أمير الشعر بعده. وكان أبو أمين رشيد نخلة من رجالات لبنان المرموقين شاعراً زجالاً وصديقاً لمعروف الرصافي، فلما قضى نحبه رثاه شاعر العراق بقصيدة مطلعها:

حُقّ لـــلـــدمـــع أن يـــكـــون نـــشـــيـــدا   في رثـــائي أبـــا أمين رشـــيـــدا

وأصدر عباس العزاوي كتابه «تاريخ علم الفلك في العراق» نشره المجمع العلمي العراقي. وقد كلفني أن أكتب فصلا عن علم الفلك الحديث في العالم الغربي نشره ملحقاً بالكتاب.

وكنت أكتب في مطلع كل سنة بحثاً عن اقتصاديات العراق وشؤونه المالية والتجارية أنشره في جريدة الأخبار أو الزمان. وفي احدى السنين رأيت مقالي مدرجاً بحذافيره في تقرير اللجنة المالية لمجلس النواب دون الاشارة الى كاتبه، فكلمت مقرر اللجنة الصديق ابراهيم الحمداني، فاعتذر وقال: أليس من الاعتراف بفضلك أن ننقل بحثك في تقرير المجلس؟!

وطبع الشيخ علي الشرقي ديوان شعره بعنوان «عواطف وعواصف»، فأهداه اليّ كاتباً بخطه: «اذا جاز أن تحمل الفاكهة الى بستانها فاني أحمل اليكم هذا الأثر، مع اخلاص الشاعر». وتلك، ولا ريب، عاطفة نبيلة من شاعر كبير وصديق وفيّ جليل. ثم أهداني كتابه «الأحلام» الذي صدر سنة ١٩٦٣ وكتب اليّ «هذه ذكراي عندك وكم لك عندي من الذكريات الطيبات.» وقد توفي الشاعر الذي كان رئيس مجلس التمييز الشرعي الجعفري ووزير الدولة في العهد الملكي في السنة التالية.

رحلة أوربية جديدة

قمت برحلة الى أوربة في صيف سنة ١٩٥٧، فتركت بغداد في أول آب وحللت في جنيف، وكانت لي نزهات جميلة على البحيرة وفي الضواحي الزاهرة والجبال التي تكلل هامها الثلوج.

تقترن مدينة جنيف بالفيلسوف الفرنسي جان جاك روسّو الذي ولد فيها في مطلع القرن الثامن عشر، وفي بحيرتها جزيرة صغيرة جداً تحمل اسمه. ملأت شهرة روسو عصره الى جانب فولتير، وكانت آراؤهما وكتاباتها ذات تأثير كبير في الثورة الفرنسية الكبرى التي نشبت بعد أحد عشر عاماً من وفاتها. كان روسّو هائماً بالطبيعة يؤثر جمالها الفطريّ على الحسن المصطنع الذي تبدعه يد الفنّ. وقد ورث ذلك الهيام، ولا ريب، عن المدينة التي رأى فيها نور الحياة بمياهها وحدائقها وغاباتها والجبال التي تشرف عليها من أفق السماء. ودعا الى تربية النشء تربية طبيعية بعيدة عن جوّ الحضارة الملء بالكبت والتناقض.

ثم مررت بزوريخ، وقرأت في مطارها في واجهة أحد المخازن للبضائع الجميلة بيت الشاعر الانكليزي كيتس: «الشيء الجميل بهجة الى أبد الدهر». ونزلت في وينّة عاصمة النمسة فوجدتها ثوباً فضفاضاً على جسم نحل وتضاءل. ذلك انها كانت قبل الحرب العظمى الأولى عاصمة النمسة والمجر، تلك الدولة العظمى التي جلس على عرشها الامبراطور الملك فرنسيس يوسف الأول ٦٨ عاماً. ولما انتهت الحرب انفصلت المجر والمقاطعات الملحقة التي نالت استقلالها وأصبحت النمسة جمهورية صغيرة تحيط بعاصمتها الكبرى وينة.

لم تزل وينة، بعد حربين عالميتين فظيعتين، تحمل آثار القياصرة من آل هابسبورغ وخاصة سليلهم فرنسيس يوسف الذي حظي بمحبّة شعبه بالرغم من سوء الحظ الذي حالفه طول حياته: فقد قتل أخوه مكسيمليان في المكسيك حيث نصّب عاهلا بغير ارادة شعبها، وانتحر ولده الوحيد رودلف في حادث حبّ تعس، واغتيلت زوجته، وصرع ابن أخيه وولي عهده فرنسيس فرديناند في سراييفو برصاصة كانت نذيراً بحرب ١٩١٤. حتى اذا ما توفي الامبراطور الهرم بعد سنتين وحيداً منعزلاً عن عصره، خلفه حفيد أخيه كارل الأول الذي شهد بعد حين وجيز انحلال الامبراطورية.

باهت العاصمة بآثار أسرة هابسبورغ المخلوعة ولا سيا قصر شونبرون الذي أصبح متحفاً وطنياً وحدائق عامة يؤمها الجمهور ويزورها السوّاح من كل أطراف العالم. أما المتاحف الأخرى ودار الأوبرا والمكتبات ومعارض الصور والحدائق والكنائس والمباني الأثرية فتقوم دليلاً ساطعاً على عظمة أدبية وفنية وموسيقية نادرة المثال.

زرت المفوضية العراقية والتقيت ببعض الأصدقاء الذين كانوا يزورون العاصمة النمسوية، وفي مقدمتهم عبد الله القصاب مدير جمعية التمور العام السابق وخاله العالم الفقيه السيد أحمد الراوي، وهو غير أحمد الراوي مدير الشرطة العام خلال أيام الحرب الثانية ووزير الشؤون الاجتماعية بعدها. ثم عدت الى جنيف بالطائرة، وسافرت منها بعد أيام بالقطار الى ألمانية عن طريق لوزان ونوشاتيل وفريبورغ ومانهايم وميتز وبون، فوصلت الى مدينة كولونية في المساء.

كانت هذه البلدة الجميلة القائمة على ضفاف نهر الراين لا تزال تشكو آثار الدمار الماحق الذي حلّ بها خلال الحرب الهتلرية. زرت جامعتها فلقيت المستشرق الكبير الأستاذ ورنر كاسكيل (Werner Caskel)، وكان صديقاً

بالمراسلة لمؤرخ العراق عبّاس العزاوي. كان كاسكيل، كزملائه من قدماء علماء المشرقيات، مختصاً بالشعر العربي القديم ولا سيا في العهد الجاهلي، ولم يبد اهتماما بالنهضة الأدبية الحديثة كما فعل زميله بروكلمان. وكان لكاسكيل طالب واحد يدرّسه في معهد الدراسات الشرقية، وقال لي: ان الجيل الجديد لا يهتم بالدراسات العربية والفارسية ويراها بعيدة عن العصر الجديد. وليس من ريب ان عهد الاستشراق الذي دام أكثر من قرنين وبرز في استقراء تأريخ الأمم الاسلامية وفنونها وآدابها قد انتهى، اذ كان يعنى بدراسة لغاتها كأثر قديم متحجر. لكن فضله لا ينكر في احياء أيامها الغابرة ونشر مخطوطاتها الدائرة واستقصاء آثارها التي عفّى عليها الزمن. أما الطبقة الجديدة فتدرس اللغات الشرقية ولهجاتها وتتتبّع تواريخها وآدابها الحديثة وتزور بلدانها للأغراض الثقافية والتجارية والسياسية والاعلامية.

زرت بون عاصمة ألمانية الاتحادية وقابلت محيي الدين المميّز مشاور السفارة العراقية، وكان السفير علي حيدر سليمان غائباً. وقمت برحلة نهرية ممتعة على الراين، والألمان في هذه المنطقة أناس مرحون يشربون النبيذ ويحبون الأنس والغناء بخلاف البروسيين الصارمين الذين يلتزمون بالنظام الشديد ويبرعون في الفنون العسكرية منذ عهد الملك فريدريك الثاني. وقد ألحقت بروسية بألمانية الشرقية، فسحقت تحت أقدام الشيوعية والحكم السوفييتي القاسي.

بعد أيام قليلة استقللت القطار في الضحى فوصلت مونيخ عاصمة بافارية مساءً. وقد مررنا في طريقنا بمعتقل داخاو المرذول الذي شهد في عهد النازية مقتل مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال بالغاز والوسائل الفظيعة الأخرى. وقبل أن يصل قطارنا الى تلك الجهة رأيت قسّا يرتل المزامير مصلياً على أرواح أولئك الأبرياء الذين فتكت بهم الوحوش البشرية الضارية. ولقد قيل: ان من قتل نفسا واحدة كأنه أباد البشر جميعاً، فكيف بمن عذّب واغتال الجموع الغفيرة العزلاء وتخذ النساء والأطفال أداة لتجاربه الشنيعة!

حضرت في ميونيخ مؤتمر المستشرقين الدولي الذي افتتح في جامعتها في ٢٨ آب. ولقيت في المؤتمر أصدقاء ورجال علم وأدب، منهم الدكتور صفاء خلوصي والدكتور سليم حسن والبحاثة اللبناني يوسف أسعد داغر والناقد المصري الدكتور عبد القادر القطّ... دام المؤتمر ثمانية أيام ألقيت خلالها بحوث ذات قيمة في مختلف المواضيع العربية والاسلامية والهندية والصينية. وقمنا بنزهات في البحيرات والجبال المجاورة، وزرنا قصر لويس الثاني ملك بافارية القائم في موقع بديع في منعطف الجبل مطلا على الوادي خارج البلد.

ارتقى لويس او لودويغ الثاني عرش بافارية سنة ١٨٦٤ وعمره لا يتجاوز التاسعة عشرة، ولم تلبث مملكته أن أصبحت جزءاً من الامبراطورية الألمانية التي أعلنها بسمارك سنة ١٨٧١. ظهرت على الملك بعد ذلك علائم العته، ولم يتورّع عن ابداء العنف لمن يخالفه في اسرافه وتصرفاته المتهورة. شيد القصور الباذخة لعشيقته الفنّانة حتى اضطر وزراؤه الى كفّ يده عن المملكة وتعيين عمه وصياً على العرش (١٨٨٦). ولم تمض أيام معدودة حتى غرق الملك في البحيرة مع طبيبه.

وأهل بافارية مشهورون بشرب البيرة ويقيمون المباريات ويمنحون الجوائز لمن يحتسي أكبر قدر منها. وقد شهدنا بأعيننا مباراة في بعض الحانات، فرأينا رجالا ضخام الجثة يفرغون في أحشائهم البرميل تلو البرميل من هذا المشروب دون أن يظهر عليهم أثر من السكر أو العياء.

على أثر انتهاء المؤتمر ركبت الطيارة الى أمستردام، وزرت لاهاي العاصمة حيث قصر السلام مقرّ محكمة العدل الدولية. وفي هذا القصر من التحف والأواني والسجّاد الثمين شيء لا يوصف، وهي مهداة من الدول الشرقية والغربية أعضاء المحكمة. أما حديقة الحيوان في أمستردام فهي من أعظم وأوسع مثيلاتها في أنحاء العالم، وقد ضمّت صنوف الحيوانات والطيور والزواحف والأسماك وحاولت خلق البيئة الطبيعية الصالحة لكل منها. وفي ضواحي البلدة سوق

للزهور التي اشتهرت بها هولندة تقام صباح كل يوم في احدى القرى لبيع الورود على اختلاف انواعها بالمزايدة، ثم تنقل فوراً بالطيارة أو الباخرة أو القطار الى أنحاء أوربة وسائر الأقطار، وتؤلف مورداً مهماً لصادرات البلاد.

ثم استكهلم عاصمة السويد، وهي كثيرة الخلجان والقنوات حتى لتشبه أحياؤها المطلّة على البحر أمستردام في قنواتها التي تخترق البلدة عرضاً وطولاً.

لا تزال السويد دولة ملكية، لكن ملكها دمقراطي يختلط بالشعب ولا يرتضي الأبهة والفخفخة. والقصر الملكي الضخم المطلّ على البحر يحتوي على أكثر من مائة غرفة وفي داخله كنيسة وحدائق ومرافق واسعة. قيل للملك: هل تحتاج أنت وأسرتك الى كل هذه الغرف؟ قال: لا. واتفق الوزراء معه على ان يخصصوا له حجراً كافية ويسمح للناس بزيارة سائر أنحاء القصر لقاء جُعْل ضئيل يرصد ايراده لنفقات الترميم.

جئنا الى باب القصر في الصباح أنا ورفيق لي ودفعنا الرسم، فقيل لنا: انتظروا حتى يأتي عدد آخر من الزوار فيرافقكم الدليل ليريكم أجنحته. قلت: انني مسافر بعد ساعتين ولا وقت لي للانتظار. قالوا: اذن سيروا في أرجاء القصر وادخلوا غرفه الواحدة بعد الأخرى عدا تلك التي تجدونها مغلقة، فحذار أن تفتحوا أبوابها فانها مخصصة للملك وأسرته. وهكذا تابعنا سيرنا متنقلين في الأبهاء المزينة بالصور الفنية والأثاث والتماثيل والسجاد الفاخر. ولما مررنا بالغرف المغلقة قال لي صديقي مازحاً: ما رأيك في فتح الباب والدخول؟ قلت: كلا، فلعل الأميرة انجريد أو الأمير كارل أو سواهما جالسون في مباذلهم، فنكون قد ارتكبنا خطأً فظيعاً!

كان ملك السويد آنذاك غستاف السادس أدولف، سليل الجنرال برنادوت الفرنسي الذي اختير ولياً للعهد سنة ١٨١٠ وأصبح ملكاً بعد ثماني سنوات باسم كارل الرابع عشر. وقد زار الملك غستاف بغداد سنة ١٩٣٤، وهو ولي العهد، فزار معالم المدينة، وصحبه توفيق السعدون مدير التشريفات بوزارة الخارجية الى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني. استقبله النقيب السيد محمود وأخذ بيده وأدخله الى المرقد وقال له: ان نزيل القبر جدّي الغوث الشيخ عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن... (وعدّ تسلسل نسبه الى النبيّ العربيّ صلعم). واستوقفه السعدون الذي كان يتولّى الترجمة، لكن النقيب أشار اليه بسبّابته وواصل كلامه: وأنا حفيده محمود بن عبد الرحمن بن علي بن... (واستمر يذكر نسبه الى القطب الكيلاني). فلما انتهى من ذلك، والأمير يصغي بكل أدب وانتباه، قال السعدون بالفرنسية: ان السيد النقيب يذكر نسبه ونسب جدّه دفين الحضرة المباركة الى نبيّ العرب الأكرم.

قال الأمير: انه، ولا ريب، نسب عظيم. وأنا لا أستطيع المفاخرة بنسب مثله، فان جدي الجنرال برنادوت ينتمي الى أسرة فرنسية متواضعة.

كانت عادتي كلما زرت احدى المدن أن أبادر الى شراء خريطة تدلّني على الشوارع والأماكن المهمة، فأسير ساعات مسترشداً بها وأجلس كلما تعبت في بعض المقاهي أو المطاعم للاستراحة وتناول شيء من المرطبات أو الطعام قبل العودة الى الفندق. وليس من ريب ان الانسان لا يتعرّف على المدينة الا اذا تمشى على قدميه في أحيائها ونظر الى دكاكينها ودورها ومرافقها وميادينها.

وأهل السويد مفطورون على الطيبة والجدّ يحبون العمل. كانوا في القرون الماضية مشهورين بشدة المراس والحرب، لكنهم استطاعوا أن يحافظوا على الحياد فلم يحاربوا منذ سنة ١٨١٥. وكانت بلاد النرويج المجاورة مرتبطة بهم تحت تاج ملك السويد، فلما رغب أهلها في الانفصال وانشاء مملكة خاصة بهم وافقت السويد على حلّ الاتحاد سنة ١٩٠٥ دون أن

يترك ذلك أثراً في صداقة البلدين وحسن جوارهما.

لكن السويديين يكثرون من شرب المسكرات لطبيعة بلادهم الباردة، وقد أدى بهم هذا الادمان الى مشاكل اجتماعية كثيرة. وعمدت الحكومة الى تخويل أصحاب المشارب وعمالها الكفّ عن تقديم المشروبات الروحية الى الزبائن اذا رأوا منهم ميلاً الى السكر.

أقلّتني الطائرة بعد ذلك الى لندن ثم الى باريس مجدداً العهد بالعاصمتين العظيمتين. كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين العراق وفرنسة إثر حرب السويس في اواخر السنة السالفة، فكان يقوم بملاحظة المصالح العراقية موظف من السفارة السويسرية يساعده بعض العراقيّين. وسرّني أن أرى الكاتب المحلي النشيط فتح الله عبود الذي عرفته قبل عشرين سنة لا يزال يعمل في السفارة ويتولى رعاية الطلاب والزوار القادمين من بلاد الرافدين. وكانت الحكومة الفرنسية منشغلة بالثورة الجزائرية التي اندلعت قبل نحو من سنة والتي استمرت حتى عاد الى الحكم الجنرال شارل ديغول، فاستطاع أن ينهيها بمنح الجزائر استقلالها بعد ١٣٠ سنة من الاستعمار الفرنسي.

وقد وصلت عائداً الى بغداد في السابع من تشرين الاول ١٩٥٧ بعد رحلة ممتعة تركت في نفسي أطيب الذكريات.

وفي اوائل سنة ١٩٥٨ استدعاني توفيق السويدي نائب رئيس الوزراء وقال لي: «ان المقبرة اليهودية في بغداد القديمة (وهي المقبرة التي استولى عليها عبد الكريم قاسم بعد ثلاث سنوات) قد امتدّ حواليها العمران ولا سياج لها، فكثر التجاوز عليها وأصبحت في حالة يرثى لها من التهدّم والقذارة. وهناك جماعة مستعدون أن يتفقوا مع الطائفة لاستئجار بضعة أمتار حول المقبرة بالاجارة الطويلة حيث لا توجد قبور فيحيطونها بسياج ويبنون محلات ودكاكين، وبذلك يصونون التربة ويفيدون الطائفة ولجنتها الادارية.

فاتحت الحاخام ساسون خضوري والمسؤولين فرحبوا بالمشروع. لكن الحاخام داود حاخام يعقوب عارض معارضة شديدة وقال ان المقبرة مكان مقدّس ولا يجوز التصرف في أي شبر منه لغير أغراض الدفن.

وقد أجبت توفيق السويدي بذلك فأبدى أسفه. وأقول: لو هيىء اخراج هذا المشروع الى حيّز الوجود لما تمكنت حكومة الثورة من وضع اليد على المقبرة دون تعويض.

ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

نهضنا في فجر ١٤ تموز على صوت صخب وضجيج وسمعنا في الاذاعة بيان الثورة الأول يعلن انهاء الحكم الملكي ومقتل الملك وتأسيس الجمهورية. وخرج العوامّ والرعاع الى الشارع يصرخون ويهزجون، أما العقلاء فاعتكفوا في دورهم واجمين ينتظرون ما يكون.

كان يقيم في جوارنا الآباء اليسوعيون الذين يديرون جامعة الحكمة الأميركية، أناس طيبون يتوددون الى أهل الشارع ويصادقونهم ويقدمون الحلوى الى الأطفال. فجاءنا الأب غاي وقال: سمعنا ان الثورة قد نشبت فما الخبر؟ قلت: سمعنا في الاذاعة قيام الجمهورية، وقد أعلنت ببيان وقعه الزعيم عبد الكريم قاسم متخذاً صفة القائد العام للقوات المسلحة.

قال: ومن هو عبد الكريم قاسم؟

قلت: لم نسمع باسمه قبل هذه الساعة! فابتسم الرجل وقال: يا لكم من مساكين!

الثورة، الثورة! كان المنتظر أن تحدث اضطرابات ومظاهرات ومناوشات كما حدث سنة ١٩٤٨ و١٩٥٢ و١٩٥٦. لكننا لم نكن نظن ان يقلب نظام الحكم بين عشية وضحاها وان تقتل الأسرة الهاشمية المالكة في لحظة حاسمة بلا جدال ولا مقاومة. وكانت الظروف التي هيئت لذلك محض صدفة بوجود الملك والأمير عبد الاله ونوري السعيد ثلاثتهم في بغداد، وكان في الامكان القضاء على الحركة بيسر لو فكر المسؤولون في عاقبة الأمور واتخذوا الحيطة أو لو قاوم الأمير عبد الاله وأمر الحرس الملكي باطلاق النار على المهاجمين الذين أحاطوا بقصر الرحاب وتفريق شملهم. وما أسهل أن يندفع العوامّ وراء كل صارخ أو ناعب، ولو خاب في مسعاه لانثنوا يمزّقون شمله ويقطعونه إرباً إرباً.

الثورة، الثورة! ألم يقل أمين الريحاني (٤٩):

الثورة، ويومها القطوب العصيب، وليلها المنير العجيب، ونجمها الآفل يحدج بعينه الرقيب...

(بل) هي الثورة ويومها العبوس الرهيب.

ألوية كالشقيق تموج، تثير البعيد، تثير القريب،

وطبول تردّد صدى نشيد عجيب،

وأبواق تنادي كلّ سميع مجيب،

وشرر عيون القوم يرمي باللهيب،

ونار تسأل هل من مزيد، وسيف يجيب، وهول يشيب.

ويل يومئذٍ للظالمين، ويل لهم من كل مريد مهين، طَلّاب للحق عنيد مُدين. ويل للمستعزّين وللمستأمنين.

هي ساعة للظالمين.

كلا ثم كلا. لقد أخطأ الريحاني، فهذه الثورة لم تفتح صفحة جديدة رائعة في تأريخ بلاد الرافدين، بل أطلقت من عقالها كل القوى الناقمة المهدّمة المتنمّرة المتطلعة الى كراسي الحكم، الظامئة الى الارهاب وسفك الدماء، الواضعة لمصالحها الشخصية والحزبية فوق مصالح الوطن وأهليه.

ولم تمض أيام على الثورة حتى احترقت خزّانات النفط في حي السعدون، وكانت على مسافة نحو من مائتي وخمسين متراً عن دارنا. سمعنا فرقعة رهيبة في ساعات العصر ورأينا نيران اللهيب تتصاعد الى عنان السماء. وأسرعنا، وأسرع الجيران، فأخذنا بعض الحقائب حاملين ما خف وزنه وغلا ثمنه من المتاع وقفلنا الباب ومضينا الى دار الأخ صالح في العلوية. وجاء أفراد الجيش فنزلوا في الشارع ليحرسوا المساكن التي غادرها أصحابها، بينما حاول رجال الاطفاء اخماد النار بلا جدوى.

واذكر ليلة ليلاء قضيناها في مجال تلك الأحداث: فقد عدنا الى دارنا بعد أيام والحريق لم يخمد بعد، ونمنا على السطح على عادة أهل بغداد في حرّ الصيف اللافح. ولم تمرّ ساعات من الليل حتى هبت الريح وتطايرت ألسنة النار فوق رؤوسنا واحمرّت السماء باللهيب. فأسرعنا بالنزول، وجاء أفراد الجيش فساعدونا على اغلاق الباب وحملونا بسيارة عسكرية الى دار أخي. واستطيع القضاء على الحريق نهائياً بعد أسبوعين. وقد أوقف بعض الناس متهمين بايقاد النار تدميراً للثورة، لكن أطلق سراحهم بعد أيام ولم يعرف مرتكب الجريمة.

ورويت نوادر ضحك لها أبناء البلد: فقد غيّرت أسماء الشوارع والميادين وأطلق على شارع غازي اسماً جديداً هو شارع الكفاح. وكان أحد الصبيان المساعدين لسائق الباص يصيح: شارع غازي، فصفعه راكب على رأسه وقال له: لم يبق شارع غازي فقل شارع الكفاح. وتململ الصبيّ من أثر الصفعة فقال: عمّي، ليس هذا شارع الكفاح بل هو شارع الكفاخ (والكفاخ بلغة العراقيين تعني الصفع).

وسألت عجوز راكبة في الباص السائق عن المستشفى الملكي فقال لها: خالة، لم يبق مستشفى ملكي بل هو المستشفى الجمهوري. فقالت عجوز أخرى: أرجو ان تنزلني في المقبرة الجمهورية! (تريد المقبرة الملكية المجاورة للمستشفى).

كانت سفينة الدولة تسير في هدوء حيناً واضطراب حيناً أخر. أما الآن فانتهبها القراصنة وسيّروها وسط الزعازع والأعاصير. وقد تغيّرت أنماط الحياة وتتابعت الأحداث: برز العقيد عبد السلام محمد عارف الذي أصبح وزيراً للداخلية ونائباً لقائد القوات المسلحة العام، فأثار الفتن بخطبه الصارخة الداعية الى الفوضى، وحاول ربط العراق بعجلة جمال عبد الناصر والجمهورية العربية المتحدة. زار عبد الناصر في الشام، لكن الرئيس المصري لم يجرؤ على القدوم الى بغداد لمعرفته بشدّة مراس العراقيين وهياجهم. ولم تمض عدة أسابيع من عمر الثورة حتى تخلص عبد الكريم قاسم من نائبه المتهوّر وزجّه في غيابة السجن.

وارتفع صوت العقيد فاضل عباس المهداوي من منبر محكمة الشعب يصول ويجول ويحقر رجال العهد الملكي «البائد» ويخيفهم، ويرشق بسهام لسانه الثرثار الانكليز والأميركيين ورجال الاستعمار وحاكم مصر وسواهم ممن علوا أو هانوا في العراق وأنحاء العالم.

وخرج الشيوعيون من مخابئهم ومنافيهم فحركوا الجماهير وقادوا المظاهرات وارتكبوا المذابح في الموصل وكركوك. واضطروا عبد الكريم قاسم الى اعدام العقيد عبد الوهاب الشواف وزملائه الذين حاولوا الانتقاض على الثورة. وأعدم معهم فريق من رجال العهد الملكي في طليعتهم سعيد قزّاز الرجل النبيل المقدام الذي وقف في محكمة المهداوي جريئاً رافع

الرأس، وقال، حين حكم عليه بالاعدام، انه حين يصعد الى المشنقة سيكون تحت قدميه الكثيرون الذين لا يستحقون الحياة!

كان ذنب سعيد قزاز انه، وهو متصرف ووزير داخلية، لم يتهاون في تأمين الأمن واخلاء الشوارع من الشيوعيين الهدامين والرعاع الهائجين ومحترفي السياسة الذي يرومون التصيّد في الماء العكر. خدم المملكة أكثر من ثلث قرن بحزم واخلاص متدرجاً من مدير ناحية الى متصرف ومدير عام ووزير. لم يؤثل مالا خلال تلك المدة الطويلة، فلما اعتقل عند قيام الثورة جاءتنا زوجته تريد اعادة السيارة التي ابتاعها من شركتنا قبل ذلك بالتقسيط، قائلة انها لا تستطيع أداء مؤجل الثمن. فقلنا لها: بل احتفظي بالسيارة ولا تهتمي بالأقساط فانها قد شطبت. وكان ذلك أقلّ ما يسعنا عمله لوزير عامل نزيه خدم وطنه بلا جعجعة فارغة.

انصرف الفلاحون عن الزراعة بعد أن زال نفوذ الشيوخ والملاكين. وقد وزّعت عليهم الأراضي التي استولت عليها الدولة، وصدر الأمر الى المصرف الزراعي بمنح كل منهم سلفة عشرة دنانير للاستعانة بها في زراعتهم، فاستعملها أكثرهم في الزواج وشراء البنادق، واندفعوا الى المدن القريبة يتظاهرون ويتخاصمون. وصار العراق يستورد القمح والأرزّ وسائر الحبوب والفواكه والخضر من الخارج بعد أن كانت مزارعه توفّر له معظم حاجته من الطعام. وزّعت البذور على الفلاحين فأكلوها بدلاً من غرسها في التربة الخصبة. وفي السنة الثانية جلبت الحكومة بذورا مطعمة بمادة كيماوية لا تصلح للأكل، ونبّهت الفلاحين الى ضررها اذا استعملوها في غير ما هيّئت له، فلم يأبهوا للأمر وتناولوها وأطعموا مواشيهم، فمرضوا ومات منهم من مات ونفقت خرافهم وأبقارهم. وحرم العراقيون تناول اللحوم أشهرا.

أما اختلال العمل في المصانع واضطراب العمال واضرابهم ومطالبتهم بحقوق خيالية فوق ما منحتهم حكومة الثورة من مزايا ومكافآت فحدّث عن البحر ولا حرج. واختل العمل في معمل تصليح السيارات التابع لشركتنا، فزرت علي غالب غريب مدير العمل والضمان الاجتماعي العام لأحدثه في الأمر. دخلت الى غرفته وجلست فرأيت فريقاً من العمال يناقشونه ويصرخون في وجهه وهو واجم لا يدري ما يفعل. ولما فرغ من أمرهم قمت أسلم عليه وأهمّ بالخروج، فقال: لا بدّ أنك جئتني في شأن، فلم لا تتكلم. قلت: كنت أريد محادثتك في أمر عمالنا فرأيت الجواب بعيني، فما جدوى الكلام؟

أنشئت علاقات سياسية وتجارية مع روسية السوفيتية والدول الشرقية الدائرة في فلكها والصين. وتدفق الخبراء الروس ليحلوا محل الانكليز والأميركيين، فلم ينجحوا في مهمتهم لعدم معرفتهم بالذهنية العراقية وقلة من يعرف لغتهم، فجلسوا في الدوائر صمّاً بكما لا يفقهون شيئاً. وطلبوا ترجمة التقارير التي قدمها الخبراء الانكليز في العهد الملكي الى اللغة الروسية ليطلعوا عليها ويضعوا مناهج العمل. وقد رحب بهم بعض العراقيين في بادىء الأمر. حدثني صديق لي من مهندسي الريّ أنه دعا فريقاً من الخبراء السوفييت الذين استقدموا الى دائرته فأولم لهم وليمة عشاء في داره. عجب الروس لما رأوا من مظاهر الترف ووفرة الطعام فقالوا لصاحب الدعوة: هل تعطيكم الحكومة هذه الدار الفخمة؟

ــ هذه الدار ملكي وقد اشتريتها بمالي، والحكومة لا تدفع لنا سوى راتبنا المقرر.

ــ والسيارة التي أمام الدار والرياش الفاخرة في داخلها والسجاد والثلاجة ومكيفات الهواء...؟

ــ كلها ملكي الخاص.

فقال الروس: اذن لماذا قمتم بالثورة؟

سمحت السفارة الروسية في بادىء الأمر لخبرائها بالاتصال بالناس وقبول الدعوات الاجتماعية، ثم لم يمض شهر أو شهران حتى منعتهم من الاختلاط بالعراقيين الا في حدود عملهم الرسمي. وكانت السفارة تقبض رواتب هؤلاء الخبراء

من الحكومة العراقية وتمنح كلاً منهم مبلغاً محدوداً لنفقات الجيب، وقد هيأت لهم مساكن يأوون اليها ويتناولون طعامهم فيها وأندية يجتمعون فيها للتسلية. استأجرت دوراً في مناطق معيّنة من البلد وخصصت غرفة أو غرفتين لكل رجل ذي عائلة وحشرت العزاب في غرف مشتركة. وكان الرجل منهم وزوجته أو الرجلان يسيران معاً في الشارع واجمين ينظرون في الأرض ولا يلتفتون الى أحد. وكثيراً ما كان اثنان منهم يشتركان في شراء قنينة كوكا كولا أو بعض المرطبات فيشرب كل منهم نصفها. وكانت المرأة الروسية تأتي الى البقال فتعامله على شراء باذنجانة أو برتقالة واحدة فيعطيها اياها بلا ثمن لئلا يضيع وقته سدى. وكان هذا السلوك يثير احتقار العراقيين وسخريتهم لما تعوّدوه من السخاء والكرامة الاجتماعية.

لكن العلاقات الاقتصادية والسياسية مع اميركة وبريطانية والدول الغربية لم تنقطع، وكانت هذه الدول تحظى بالنصيب الأكبر من تجارة العراق. وقد استمرت شركتنا على استيراد السيارات الأميركية والاطارات والثلاجات والمبرّدات والدهون والادوات الاحتياطية وما ماثلها. واستوردت الحكومة سيارات روسية للدوائر الرسمية والجيش والصحة فلم تنجح لأنها كانت مصممة للبلاد الباردة. وكان القنصل الروسي كثيراً ما يزورني لشراء سيارات أميركية لسفارته. وطلب مني اعطاءه نشرات شركة جنرال موتورز الفنية ليدرس الخبراء تصاميم آلاتها الملائمة للطقس الحار، فأجبته معتذراً بعدم وجود مثل هذه النشرات لدينا.

ثم انحسر المدّ الشيوعي شيئاً فشيئاً بعد سنة من الثورة، وأخذ القوميون والمعارضون للشيوعية ينتقمون لأحداث الموصل وكركوك ويقتلون جناتها والسلطات الادارية والشرطة ساكتة لا تبدي حراكاً. واضطر أكثر الشيوعيين والسائرين في ركابهم الى الهرب والمجيء الى بغداد والمناطق الجنوبية أو مغادرة العراق. وقد زارنا في تلك الأثناء مدير شرطة الموصل فقلت له: ان الناس في بلدك تقتل في رائعة النهار وليس من يسأل أو يحقق. قال: أجل، لا يسعنا عمل شيء لأن الناس يمتنعون عن الإخبار أو الشهادة!

واعتدي في خريف سنة ١٩٥٩ على حياة الزعيم عبد الكريم قاسم، لكنه نجا من الموت بأعجوبة. أطلق عليه الرصاص جماعة من شباب حزب البعث، فهرب منهم من استطاع الهرب وقبض على الباقين فأودعوا السجن. أصبح الزعيم عماد استقرار البلد لعدم وجود من يضمن الأمن غيره، فجزع الناس للاعتداء عليه، ودعوا له بالسلامة، واطمأنوا حين نال الشفاء. لكنه، لطيبة قلبه، عفا بعد أعوام قليلة عن الذين أرادوا له الموت، عفا عن شباب البعث وعن عبد السلام عارف، فكادوا له في الخفاء وتمكنوا أخيراً من اسقاطه وقتله. لا ندري ماذا كان يحدث لو لم يطلق سراحهم لأن أحداث التأريخ متشابكة لا تجري على سنن ولا قاعدة.

بعد سنتين من الثورة استقرّ نظام عبد الكريم قاسم شيئاً ما. وقد أخذ بسياسة تأليف القلوب، فشيّد مدناً خارج بغداد للعمال والفلاحين نقل اليها سكان الأكواخ المعروفة بـ «الصرائف» ويسّر لهم فيها المساكن الصحية والشوارع المبلّطة والماء والكهرباء وسائر المرافق. اعترف بالطوائف الصغيرة كالصابئة واليزيدية، وألغى قانون اسقاط الجنسية عن اليهود الذين يغادرون العراق فأعاد بذلك اليهم حقوقهم الممنوعة. ومنح الأكراد حكماً ذاتياً ضمن الادارة العامة، فعاد زعيمهم الملا مصطفى البارزاني وأعوانه بعد أن قضوا ثلاثة عشر عاماً أو أكثر في المنفى بالاتحاد السوفييتي. لكن الملا مصطفى لم يلبث بعد ذلك ان انتقض على الحكومة واعتصم بجبال كردستان ليباشر حركاته العسكرية.

واصلت الكتابة ونشر الشعر والنثر في الصحف والمجلات. وتولى محمود فهمي درويش اصدار «الدليل العراقي» لسنة ١٩٦٠ مع الدكتورين مصطفى جواد وأحمد سوسة على غرار الدليل السابق الذي أصدرناه قبل ٢٣ سنة، فقال لي: اننا

تعاوناً في اصدار الدليل سنة ١٩٣٧ ولا أريد أن يخلو الدليل الجديد من أثر لك. فكتبت بحثاً عن «تجارة العراق في مائة عام» ظهر في هذا الدليل الضخم الذي جاء شبه دائرة معارف للعراق الجمهوري وحكومته وتأريخه وأدبه واقتصادياته وشؤونه الاجتماعية والسكانية. وكان الجهد الذي بذله محمود فهمي في سبيل اخراج الدليل قد أنهكه، فأصيب بالشلل والعمى وبات طريح الفراش سنة أو بعض سنة، ولم يبق منه سوى فكره الوقاد ولسانه الذلق، حتى قضى نحبه.

دعيت أنئذ الى حضور مؤتمر المستشرقين الدولي الجديد المقرر عقده في «لنينغراد» في صيف سنة ١٩٦٠. وجاءني قنصل الاتحاد السوفييتي وحثني على حضور المؤتمر وقال لي انها فرصة فريدة لمشاهدة روسية ومعالمها. لكنني بعد التفكير قررت عدم السفر. لقد رأيت العلماء السوفييت الذين حضروا المؤتمرين في كمبريدج وميونيخ يحيط بهم ويتعقب أثرهم نفر من الشبان قيل انهم حرّاس، وهم في الحقيقة عيون على اولئك المستشرقين الشيوخ الذين انصرفوا الى العلم والدرس. ثم انني استقرأت أحوال الشيوعية فوجدتها مبدأ يقيد حرية الفكر ويشلّ الحافز على العمل ويجعل من الناس آلات صمّاء تتحرك كالدمى في أيدي الفئة الحاكمة. ألم يستول لنين على الثورة الروسية المعتدلة سنة ١٩١٧ فيفضّ المجلس المنتخب بارادة الشعب ويسرق الحكم بارهاب أعوانه من العمال وبحّارة الأسطول فيتسلّط على الشعب ولا تسلّط القيصر المخلوع؟ ان ستالين قد أنقذ بلاده وساعد على انقاذ العالم الحرّ من براثن النازية، وتلك مفخرة تسجل له على صفحات التأريخ بأحرف من نور، بيد أنها لا تبرّر فتكه بأعوانه من أساطين الشيوعية الواحد بعد الآخر ليخلو له الجوّ، ولا تبرّر قتله ملايين الفلاحين وأبناء الشعب الذي يحكم باسمه لتوطيد أركان النظام الشيوعي، ولا تبرّر فرضه السيطرة على الدول الأوربية الشرقية من جيكوسلوفاكية وألمانية الشرقية الى دول الشمال المتاخمة لروسية، ولا تبرّر خنقه الحريات ومنعه السفر والتنقل وزجّه الأحرار في السجون ومعتقلات سيبرية الرهيبة.

زعم أن الشيوعية جاءت لتحرير الشعوب وترفيه الطبقة العاملة وخلق مجتمع انسانيّ يسوده العدل والوئام. فهل حققت الشيوعية منذ نصف قرن شيئاً من ذلك، ام انها على العكس خلقت حيثما سادت سجناً كبيراً يعيش الناس فيه كالأنعام بل كانوا أضلّ سبيلاً. وهذه روسية «جنّة» الشيوعية تنفق مواردها على السلاح واثارة الفتن في أنحاء العالم قد أشاعت في بلادها الفقر واستوردت القمح والحبوب لأعاشة أهليها من الولايات المتحدة واسترالية وكندة وسائر الأقطار الرأسمالية الحرّة.

يظهر لي ان العنصر الروسي لم يتبدّل في تعصبه وخنوعه، غيّرت الشيوعية نظام حكمه وحياته لكنها عجزت عن القضاء على صفاته الأصيلة. زار الروائي الفرنسيّ اسكندر دوماس الكبير روسية في أواسط القرن التاسع عشر، فقال في الكتاب الذي وضعه عن رحلته انه خرج ذات صباح من موسكو الى ظاهر للنزهة. كان الجوّ قارساً والجليد يغطّي أديم الأرض ببساطه الأبيض الناصع، فسار متمهلاً ملتفاً بمعطفه الثقيل ووشاحه الذي يغطّي رقبته ووجهه. وفجأة هرّته كلاب ضارية خرجت من بعض المزارع القريبة وكادت تفتك به. حاول أن يأخذ حجراً ليرميها به ويبعدها عنه فلم يجد شيئاً في الأرض المكسوة بالثلوج. وبعد لأي برز أحد الفلاحين وأنقذه مبعداً عنه تلك الوحوش الهائجة. وبادر في الغداة فعاد الى باريس قائلا: ان بلداً كلابه طليقة وحجارته مربوطة لا يحسن الاقامة فيه!

تعرّفت في ذلك الوقت الى أصدقاء أوفياء دامت صداقتهم على مرّ السنين، منهم محمد نجم الدين الكيلاني، نجل السيد ابراهيم سيف الدين نقيب الأشراف، الذي قضى شطراً من عمره في الباكستان حيث نال مكانة مرموقة في بلد يقلّد أكثر أهليه القطب الروحاني الشيخ عبد القادر الكيلاني، وينتظم خاصته في سلك الطريقة القادرية. وكان السيد محمد نجم الدين رجلا مثقفاً مفكراً مطلعاً على الآداب العربية والأوربية، فكانت صحبته متعة أدبية وروحية جميلة.

وعرفت الدكتور محمود حسين الأمين الأستاذ في التأريخ القديم ومدير فرع مؤسسة فرنكلين في بغداد، تلك المؤسسة الأميركية التي ساعدت على نشر الأدب الأميركي وترجمة آثاره الى العربية، وكان لها فروع في مصر وغيرها. وقد كلفني الدكتور الأمين بترجمة بعض قصص هنري جيمس الأديب الأميركي الكبير وكتابة بحث عن أدب القصة والرواية في الولايات المتحدة. وكان المقرر اصدار كتاب يتناول طائفة من قصص هنري جيمس والأدب الأميركي، لكن قطع العلاقات مع الولايات المتحدة بعد حرب سنة ١٩٦٧ وغلق مؤسسة فرانكلين وضع حداً لنشاطها الأدبي.

حدثني محمود الأمين انه كان يدرس في جامعة ألمانية حين نشبت الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ فاضطر على البقاء فيها ولم يستطع العودة الى العراق. كان صوت يونس بحري يلعلع من اذاعة برلين حاملا على اليهود والحلفاء والعرب السائرين في ركابهم. وفي أحد الأيام انقطع يونس عن الاذاعة لسبب طارىء، ففتشوا عن محمود الأمين وجاؤوا به بالتهديد الى الاذاعة وأرغموه على القاء ما كتب له بينما كان أحد الزبانية واقفاً قبالته شاهرا مسدسه. ومن حسن حظ صاحبنا ان تلك الحال لم تدم سوى أيام معدودة، ثم عاد يونس بحري الى عمله وهرب الأمين الى بعض القرى البعيدة ليختفي ويخلص من القصف الجوي الذي أخذ يدكّ برلين والمدن الألمانية دكاً.

ولما انتهت الحرب وجده الجيش الأميركي المحتل قابعاً في احدى القرى النمسوية فعيّنه آمر معسكر اعتقال الأسرى مساعداً له اذ وجده يعرف اللغة الانكليزية. قال محمود الأمين ان الطعام كان متوافراً للجنود الأميركيين بكثرة زائدة، فكانوا في كل مساء يرمون كميات كبيرة من الفضلات التي تكفي لاطعام مئات الناس بينما كان أهل القرية المجاورة يتضوّرون جوعاً. وقد أقنع الآمر بالسماح لأهل القرية بالمجيء الى المعسكر وأخذ الأطعمة التي يستغني عنها الجيش ليسدّوا رمقهم.

رحلة الى الغرب

قررت القيام برحلة الى الغرب، فغادرت بغداد في صباح ٨ تموز ١٩٦١ جواً الى جنيف عن طريق بيروت واستانبول، ثم زرت لندن ومضيت الى نيويورك حيث التقيت بأخي الصغير الدكتور ألبرت الذي درس الطب في بغداد ولندن ودبلن ثم مضى لممارسة مهنته والاقامة في الولايات المتحدة. وفي نيويورك التقيت بمديري شركة جنرال موتورز التي كانت شركتنا تمثلها في العراق وتستورد منها سيارات «شفروليت» و «بيوك» وغيرها.

كانت الزيارة الجديدة للولايات المتحدة مبعث ارتياح كبير لي، اذ التقيت بأصدقاء عرفتهم في رحلتي السابقة قبل ١٧ سنة واستطعت المقارنة بين تلك البلاد في حالة السلم وبينها يوم كانت تخوض حرباً عواناً في الشرق والغرب. ان الانتعاش الذي تشهده لا مثيل له في سائر أنحاء العالم، وقد أقدمت بعد نهاية الحرب على إمداد الدول المنتصرة والمغلوبة على السواء بالمساعدات المالية والأدبية التي تهيىء لها معالجة أدواء الحرب والنهوض على أقدامها. لم يسبق في التأريخ ان أمة منتصرة تساعد أعداءها المخذولين على استرداد أنفاسهم واحياء صناعتهم ودعم اقتصادهم ورفع مستوى معيشتهم كما فعلت الولايات المتحدة في شدّ أزر ألمانية واليابان. وقد أثبتت، بالرغم من كل ما قيل عن نزعتها الاستعمارية الجديدة ودوافع الأنانية التي حملتها على انعاش الاقتصاد العالمي ونصر الشعوب المستضعفة في نيل استقلالها، أثبتت أنها معقل الحرية ومعقد الآمال ومعدن الفضل والمعونة الخالصة التي لا ترجو جزاءً ولا شكوراً.

ذهبنا من نيويورك الى مونتريال في كندة، فشاهدنا تقدم هذا القطر الذي يعدّ جزءاً من رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث)، لكنه صار يتجه نحو جارته الجنوبية شيئاً فشيئاً. كانت مشكلة كندة دائماً البرد الشديد الذي يحول دون استيطان القسم الأعظم من أنحائها الشاسعة. لكن وسائل التدفئة العصرية وآلاء العلم ونعم الثروة قد هوّنت تلك المشكلة ان لم تزلها، فزاد عدد السكان وأقبل المهاجرون على القدوم للتنعم بجوّ الحرية والمشاركة في استثمار الموارد العظيمة وتنمية الاقتصاد والرخاء الاجتماعي.

ومونتريال في مقاطعة كيبيك الفرنسية في كندة البريطانية: ذلك ان الفرنسيين قد استعمروا كندة منذ بداية القرن السابع عشر واستوطنوا أصقاعها الجنوبية، لكن الانكليز احتلوها سنة ١٧٥٩. بقي الجنوب فرنسياً بلغته وروحه ومذهبه الكاثوليكي وظل أهلوه متأخرين في أعمالهم وثروتهم ونفوذهم. وحينما كنت في مونتريال سنة ١٩٦١ لم يكن الفرنسيون الكنديون قد طالبوا بأخذ زمام الأمور في مقاطعتهم والانفصال عن كندة البريطانية، لكنهم اصطنعوا تلك الحركة في السنين التالية مما حمل الكثير من مواطنيهم الانكليز على مغادرة تلك المنطقة ونقل أعمالهم الى المقاطعات الأخرى ذات الأغلبية البريطانية.

عدت الى نيويورك، ثم غادرتها بعد اقامة سبعة أسابيع في الولايات المتحدة وكندة قاصداً لندن. وقد عدت الى بغداد في ٩ تشرين الأول بالطيارة عن طريق امستردام وويئة وبودابست وصوفية وأثينة وبيروت.

كتبت على أثر عودتي صفحات عن الرحلة بعنوان «من وحي السفر»، نشرتها جريدة الزمان متسلسلة في أواخر ١٩٦١ وأوائل السنة التالية، تناولت فيها الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية والأدب العربي في المهجر

الأميركي وشؤون كندة وانكلترة في طريقها الى أوربة.

وفي السنة التالية كتبت حقلا أسبوعياً في جريدة «الأيام» لصاحبها عبد القادر البرّاك بعنوان «من البرج العاجي»، وقد استمرّ هذا الحقل نحواً من سنة الى ثورة رمضان وجمع مواضيع مختلفة من أدب وتراجم وشعر ونتف اجتماعية واقتصادية. وأقمنا حفلة تخرّج في مدرسة فرنك عيني حضرها وزير التربية محيي الدين عبد الحميد ألقيت فيها كلمة تناولت فيها شؤون التربية والتعليم.

وفي أثناء ذلك فجعت بوفاة والدتي في ١٣ تشرين الأول ١٩٦٣، وكانت امرأة صالحة كثيرة الاحسان. وقد رثيتها بعد أعوام طويلة بقصيدة قلت منها:

أمّاه، جفّ الدمع في ذكراك ... ليت البكاء يردّ حزن الباكي
قد كنت نوراً في ظلام محجّتي ... وطريقيَ المزروع بالأشواك
فاذا ذكرتك فالحنان يهزّني ... والروح تسمو كي تنال رضاك
ولقد فقدتك اذ فقدت مواطني ... وربيعها في أفقه الضحّاك
إن البلاد رعيتها وخدمتها ... نقضت عهودي، يا لبؤس الشّاكي!
لأياً ذكرت طفولتي في مهدها، ... والورد يزهو في المناخ الزاكي
والفكر خالٍ والفؤاد منعّم ... في حضن دالية وظلّ أراك...

حتى أقول:

أمّاه، قد شطّ المقال، ولم أكن ... لأرى الحقيقة حَصْحَصَتْ لولاك
علّمتني الخُلُق النبيل عقيدة ... والصدق والايمان من تقواك
وَمَحَضْتني الحبّ الجميل مضمّخاً ... بالطّيب من قلب أريب ذاكي
فذكرتُ أرضاً نمتِ في جوف الثرى ... بربوعها وسقى الحَيَا مثواك
سكب الإله عليك رحمة لطفه ... في جنّة المأوى مع الأملاك

شؤون الطائفة

على أثر نزوح أكثرية اليهود عن العراق أبقيت المؤسسات الطائفية الرسمية بعد أن جعل اسم الطائفة «الموسوية» بدلا من «الاسرائيلية». وقد بقي عزرا مناحيم دانيال عضواً بمجلس الأعيان الى وفاته سنة ١٩٥٢، أما النواب فلم يبق لليهود من يمثلهم بحلّ المجلس القائم سنة ١٩٥٢. ولما جرى الانتخاب الجديد أصبح عدد اليهود دون العشرين ألفاً، وهو العدد الأدنى الذي يخوّلهم الحصول على نائب واحد. وعادت الحياة اليهودية الى مجراها في الأسواق، وقد تقلّصت حسب انخفاض عدد أبناء الطائفة. ولم يبق في دوائر الحكومة سوى عدد قليل من اليهود. ولم تفرض عليهم أية قيود في مزاولة أعمالهم والتصرّف في أموالهم والسفر الى خارج العراق باستثناء ضرورة عودتهم خلال ستة أشهر. وثبّتت الجنسية العراقية لليهود الذين اعتادوا السكنى خارج العراق وتولّت السفارات والقنصليات العراقية تجديد جوازات سفرهم ورعاية شؤونهم. لكن حظر قبول الطلاب اليهود في الكليات والمعاهد لئلا يعدّ العراق العربي، كما قيل، رجالا مثقفين لاسرائيل. وبقي هذا الحظر الى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ حين سمح عبد الكريم قاسم للشبان والشابّات من اليهود بالانتماء الى الجامعة واكمال دراستهم العالية، ثم أصدر قانوناً بالغاء اسقاط الجنسية عن المسافرين المتأخرين في العودة. وحضر وزير معارفه حفلة التخرّج في مدرسة فرنك عيني فألقيت خطاباً أمامه أشدت فيه بالحرية غير المحدودة الممنوحة لأبناء الشعب على اختلاف طوائفهم ومنازعهم.

استقال حسقيل شمطوب رئيس الطائفة سنة ١٩٥٣ فكلف محمد علي محمود وزير العدلية ابراهيم الكبير بقبول الرئاسة، لكنه رفض. ثم كلفني بقبول هذا المنصب فاعتذرت أيضاً. وعند ذلك أعيد الحاخام ساسون خضوري الى منصبه الذي استقال منه قبل أربع سنوات واستمر في اشغاله الى وفاته سنة ١٩٧١. ثم جرى انتخاب اللجنة الادارية لليهود العراقيين، وهي اللجنة التي حلت محل المجلس الجسماني وتولت جميع وظائفه، فأصبح فريد داود سمرة رئيساً لها.

في سنة ١٩٥٨، قبل ثورة تموز، انتخبت لجنة ادارية جديدة برئاسة سلمان دانيال الياهو. وقد قامت اللجنة باحياء اللجنة الفرعية للمدارس وعهدت اليّ برئاستها. كان للطائفة مدرستان: مدرسة فرنك عيني يديرها الأستاذ الكفؤ القدير عبد الله عوبدياً، وفيها أكثر من ألف طالب وطالبة، من روضة الأطفال الى نهاية الدراسة الثانوية. وهي تسير حسب منهاج وزارة المعارف، لكن فيها دروس اضافية للتوراة مع توسع في اللغتين الانكليزية والفرنسية. وعنيت المدرسة بالألعاب الرياضية، فكان الطلاب والطالبات يمارسون الرياضة على مختلف أنواعها في ملعب عزرا مناحيم دانيال الذي أسسه المحسن الكبير سنة ١٩٤٨. وظلّ هذا الملعب في عهدة الطائفة الى حرب حزيران ١٩٦٧ حين استولى عليه الجيش.

أما المدرسة الثانية فهي مدرسة مناحيم دانيال الابتدائية، وهي مشتركة للجنسين، وكان فيها نحو ٦٠٠ تلميذ وتلميذة. وكانت تدير المدرسة المربية اللبنانية القديرة السيدة ماري قنواتي التي ظلت تتعهد المدرسة أكثر من ثلث قرن حتى اعتزلت العمل سنة ١٩٦٧ وخلفتها في الادارة معاونتها الآنسة مارسيل داود. وأغلقت مدرسة فرنك عيني سنة ١٩٧٣ لقلّة الطلاب، أما مدرسة مناحيم دانيال فأممتها الحكومة سنة ١٩٧٦ في جملة المدارس الطائفية والأهلية التي أصبحت جميعها في قبضة الادارة الرسمية البعثيّة.

لعلّ العهد الذهبي للطائفة اليهودية الضئيلة المتبقية في العراق بعد الهجرة الجماعية لسنة ١٩٥٠/٥١ كان في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم قائد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، ذلك العهد الذي دام ٤ سنوات ونصف السنة. تمتع اليهود بكل حقوقهم المدنية والدينية والطائفية ولم يمسّهم ما مسّ الأديان والطوائف الأخرى من أحداث وفواجع في بغداد والموصل وكركوك وسائر الأنحاء. لقد كانوا بمعزل عن السياسة والأحزاب ففازوا بالسلامة والأمان.

كان الحادث الوحيد الذي أزعج أبناء الطائفة في تلك الحقبة الاستيلاء على المقبرة اليهودية في بغداد، تلك المقبرة التي ضمت رفات آبائنا وأجدادنا منذ مئات السنين وأصبحت في وسط الأحياء السكنية الجديدة. رغب عبد الكريم قاسم في تشييد برج لبغداد على غرار برج القاهرة الذي أقامه جمال عبد الناصر، فأتى بالخبراء من المهندسين السوفييت الذين قرروا أن أرض المقبرة الاسرائيلية الواسعة خير مكان لاقامة ذلك البرج. واستدعى الزعيم الحاخام ساسون خضوري رئيس الطائفة في صيف سنة ١٩٦١ وأنذره بوجوب اخلاء المقبرة ونقل القبور الى المقبرة الجديدة التي منحت للطائفة سنة ١٩٤٥ في ضواحي العاصمة وتم تسويرها، لكن لم تستعمل. ولم تفد احتجاجات الطائفة ورئيسها ازاء اصرار عبد الكريم قاسم، فقام اليهود بنقل رفات آبائهم وأجدادهم في الحرّ اللافح والحزن الشامل ليتسنى تسليم الأرض الى الحكومة قبل ١٤ تموز من تلك السنة. لكن البرج لم يشيّد وبقيت أرض المقبرة خلاء تنعى أهلها وتقوم برهاناً حسياً على الظلم والطغيان.

أثّر بي الاستيلاء على المقبرة القديمة حيث يرقد أبي وأجدادي فقلت في ذلك(٥٠):

أقــبر أبي، دُرِسْتَ مــع الـــمقــبــور	فــوَاحَــسرَتِي ويــا ويـــح الـــدثــور!
أضـــاق بـــك الـــتــراب، وفي بــــلادي	تــراب الــقــفــر يــعــبــث بــالــصــدور؟
وهــذا الـــتــرب كـــوّن مـــن جـــدودي	وآبـــائي على مـــرّ الـــعــصـــور
فـــيـــا أبــتِ الـــذي قـــد غـــاب عـــنّي	وعـــاش الموت بـــالجســـد الـــطّهـــور،
فـــقـــدتـــك والـــصّبـــا غـــضّ نـــضير	فـــلـــم أهـــنـــأ بـــأيـــام الـــسّرور
اذا انـــدثـــر الضريـــح ففي فـــؤادي	مـــقـــامـــك، يـــا أبي، حـــتّى الـــنـــشـــور
يمينـــاً إنّ رسمـــك في عيـــوني	يـــنير دجـــى مـــتـــاهـــات الـــدهـــور!

وزارني ذات يوم الصديق السيد حسين الرفيعي نقيب أشراف النجف فرآني ساهماً كئيباً. ولما أخبرته بما كان، قال لي مؤاسياً: ان وادي السلام مقبرة النجف أكبر من مدينة الأحياء، فاذا ضاقت بكم الأرض لدفن موتاكم فأنا على استعداد للوساطة في منحكم جانباً من وادي السلام ليرقد فيه أبناء طائفتكم!

ولا بأس أن أروي هنا نموذجاً من أخلاق بعض الموظفين، وهو لا يقتصر على العراق بل له مثيل في كل أنحاء العالم.

كان لي صديق وهو قائممقام أحد الأقضية في لواء ذيالى دعانا ذات يوم لزيارة قضائه، فأرانا بكل اعتزاز حديقة جميلة أنشأها في وسط البلدة ودعاها باسم عبد الكريم قاسم وأقام فيها تمثالا نصفياً للزعيم.

وجاء يزورني بعد سقوط العهد القاسمي، فقلت له: كيف احتفظت بمنصبك وكنت معروفاً بشدّة تأييد عبد الكريم؟ قال: حالما سمعت من الاذاعة خبر مقتل الزعيم خرجت في مظاهرة يتبعني الموظفون وأبناء الشعب حاملين المعاول والفؤوس فحطمنا التمثال واللافتة التي تحمل اسمه. ثم ابرقت الى رئيس الجمهورية الجديد مؤيداً ومهنئاً بسقوط الطاغية.

سقط عبد الكريم قاسم وقتل في شهر شباط ١٩٦٣، فجاء العقيد الأرعن المتعصب عبد السلام محمد عارف الى سدّة الحكم يعاونه حزب البعث. وقد بادر الى اعادة قانون اسقاط الجنسية الذي ألغاه سلفه، وأخذ شيئاً فشيئاً يضع القيود على اليهود العراقيين ويقلص حقوقهم المدنية ويعرقل سفرهم الى خارج العراق. وفي السنة التالية دعا اليهود الذين اعتادوا الاقامة في الخارج الى العودة خلال ستة أشهر، والاّ سلبت منهم جنسيتهم العراقية وجمّدت أموالهم وأملاكهم. فلم يعد منهم سوى نفر قليل، بينما آثر الآخرون التخلي عن جنسيتهم وممتلكاتهم.

بدأت المراجعات لدى رئيس الجمهورية والسلطات المختصة لمعالجة الوضع المزري. وذهبت الوفود برئاسة الحاخام ساسون خضوري مطالبة باعادة الحقوق السليبة. وقد اشتركت في تلك الوفود، فزرنا رئيس الوزراء عبد الرحمن البزّاز. وخاله الشيخ الطيب النبيل السيد نجم الدين الواعظ مفتي العاصمة وغيرهما. وذهبنا لتهنئة عبد الرحمن عارف الذي اختير رئيساً للجمهورية في نيسان ١٩٦٦ خلفاً لأخيه الراحل عبد السلام. وكان عبد الرحمن رجلا طيباً أنيساً، أكرم وفادتنا وذكر خدمات طائفتنا للوطن العراقي. دعا له الحاخام ساسون خضوري بالخير والإقبال، ثم قلت مخاطباً اياه: ان اليهود عاشوا في هذا لبلد منذ ٢٥٠٠ سنة، أي قبل الفتح الاسلامي بأكثر من ألف سنة، وقد أخلصوا لهذا الوطن وائتلفوا مع أبنائه من سائر الملل والنحل... فأجابني قائلا: ألست أعلم ذلك؟ لقد كان اليهود يديرون التجارة والاقتصاد... وقال: أذكر، وأنا صبي يافع، أنني كنت أذهب مع والدي الى شارع السموأل شارع البنوك والأعمال. وكان موسم التمر الخستاوي والخيار (القثّاء) يحل، فاذا جيء ببواكير الثمار أكلها اليهود ثم النصارى وبعد ذلك نحن المسلمين! قال ذلك بحسن نيّة وسلامة قلب ولم يقصد الحقد والحسد.

خلال هذه المدة مرض سلمان دانيال واستقال من رئاسة اللجنة الادارية لليهود العراقيين، وتوفي بعد أمد غير طويل. وأصبحت اللجنة في أيدي تجار لم يعملوا في الشؤون العامة. وبدأ بعضهم باثارة القلاقل في الادارة والمدرسة، وسمحوا للمحاسب بجمع آلاف الدنانير من الواردات نقداً، فاذا به يختلسها ويهرب عن طريق ايران. ولما تفاقم الأمر راجع بعض افراد الطائفة وزارة العدل فقررت حلّ اللجنة وتأليف لجنة وقتية برئاسة رئيس الطائفة. ووافق المحامي سلمان الكبير على تولي نيابة الرئاسة. ومنحت هذه اللجنة مهلة ستة أشهر لاجراء الانتخاب.

جاءني الحاخام ساسون خضوري والوجهاء ورجوني أن أرأس اللجنة الجديدة الدائمة. وقد ألحوا عليّ، وأنا لا رغبة لي في العودة الى العمل في ادارة الطائفة بعد ما كابدت الأمرّين قبل نحو من عشرين سنة. ولم أر بدأ من اجابة طلبهم، فجرى الانتخاب في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٧ وأصبحت رئيساً للجنة الادارية، يعاونني نائب الرئيس داود نسيم خلاصجي والعضو منشي شاؤل شعشوع وعضوان آخران. بدأنا باصلاح الأمور، وعيّنا المحامي الشاعر أنور شاؤل مشاوراً قانونياً. وأعدنا النظام الى ادارة الطائفة ومدارسها ووضعنا حداً للتبذير والاختلاس.

التأميم

في نيسان ١٩٦٤ أعلن طاهر يحيى رئيس الوزراء تأميم المعامل والتجارة الخارجية، فوضع اليد على الاستيراد وانشأ شركات عامة استولت على الوكالات التجارية والمصانع[٥١] عدا معامل البيرة والكحول باعتبار ان الدولة اسلامية تحرّم الخمور. ومن الغريب أن طاهر يحيى أعلن قبل أيام قليلة أن الحكومة لا نيّة لها للتأميم، وكنت قد نشرت في جريدة الزمان آنئذٍ أبياتاً من الشعر عن كذبة نيسان، قلت:

وقـــوم قـــد قـــضـــوا بـــالـــكـــذب عـــمـــراً   كـــــأنّ حـــيـــــاتهـم زُور صَـــــرَاحُ
اذا نـــــطـــــقـــــوا ببهتـــــان تمادوا   ولم يـــكـــبـــح لـــنـــزوتهم جمـــاح
فـــلـــو صـــدقـــوا خـــلال الـــعـــام يـــومـــاً   لـــقـــالـــوا: صـــدق نـــيـــســـان مـــبـــاح!

ان التأميم في العراق جاء تقليداً لما فعله جمال عبد الناصر في مصر قبل ثلاث سنوات. واذا اعتبر الحاكمون ذلك جزءاً من الخطة الاشتراكية التي تبنّوها فان كارل إمام الاشتراكية نفسه قد قال ان الثورة الاشتراكية لا تنجح الا بعد مرحلة توطيد النظام الرأسمالي لكي يبنى المجتمع الشيوعي على أساس الرأسمالية الناضجة ويتمتع بما جمّعته من فوائد وأموال وصناعات.

جاء التأميم في العراق ومصر في مجتمع يفتقر الى الأساسيات فقضى على الصناعة الناشئة وحصر التجارة والأعمال في يد فئة من الموظفين جعلوا التجار وأصحاب المصالح مستخدمين لديهم يتصرفون في أمورهم كما يشاؤون دون أن يعرفوا من مبادىء الاقتصاد شيئاً. وقبل ذلك أصدر عبد الكريم قاسم قانون الاصلاح الزراعي فقضى على الزراعة وجعل العراق يستورد ما يستهلكه من الحبوب والفواكه والخضر واللحوم بعد أن كان يستهلك ويصدّر. ولولا ايرادات النفط التي غطّت على كل الاختلالات الاقتصادية لأصبح العراق في الحضيض الأوهد من الفقر والحاجة.

حين اتكلم عن التأميم والخذلان الذي جرّه على الاقتصاد العراقي لا بدّ أن أذكر حادثة تمثل تطبيق الاقتصاد المؤمّم وتكشف عن ناحية من أخلاق بعض العراقيين الذين تسلّطوا على الجيش والدولة.

كان الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس المجمع العلمي ووزير المعارف ورئيس مجلس الاعيان ومجلس النواب سابقاً، وهو الشاعر العراقي الكبير وعضو مجمع اللغة العربية بمصر والمجمع العربي في الشام، رجلا نزيهاً قليل الموارد ويصعب عليه أن يعيش بمستوى حالته الاجتماعية. وكان يأتيني كل عام لاستبدال سيارته «الشفروليه» بسيارة جديدة فأساعده ببيع سيارته القديمة وأمنحه شروطاً سهلة تيسّر له الحصول على السيارة الجديدة. وجاءني بعد التأميم وقال: لقد حان الوقت لاستبدال سيارتي والاّ فلا أستطيع ان أحصل على سيارة خاصة. قلت: لكن الحكومة حصرت استيراد السيارات بالشركة العامة التي ألفتها لهذه الغاية وأصبحت شركتنا قشراً بلا لبّ. وقلت: مع ذلك سأرى ما أستطيع عمله.

وجاءني في اليوم الثاني صديقي العميد المتقاعد عبد الرحمن التكريتي الذي كان قبل ذلك يشغل منصباً كبيراً في الجيش، وهو الى ذلك مؤلف فاضل وضع عدة كتب في الأمثال. قصصت عليه أمر الشبيبي، فقال: هيّا بنا الى الشركة

العامة للسيارات لنحصل للشيخ على بغيته. قلت: وهل تعرف مدير الشركة العام؟ قال: لا حاجة لذلك فهو يعرفنا حق المعرفة.

ومضينا الى الشركة وحدثنا مديرها العام بالأمر فأوعز الى رئيس الشعبة المختصة بتسهيل طلبنا. ذهبنا الى مكتب رئيس الشعبة فوجدناها غاصة بالمراجعين. جلسنا مع الجالسين والموظف المتعجرف مشغول عنّا. ثم التفت الينا وقال: ان المدير العام أعلمني هاتفياً أنكما جئتما لابتياع سيارة للشيخ الشبيبي، وتعلمان ان الطلب شديد ولا نستطيع تسليم سيارة الا بعد عدة أشهر. وقال ان قيمتها المقررة كذا ألف دينار يجب ان يدفع نصفها فوراً ويقسط باقي الثمن بأقساط شهرية لمدة سنة واحدة بكفالة مقبولة. ولا يستطيع المشتري أن يختار نوع السيارة او لونها، بل نحن نقرر ذلك. قلت: ان الشيخ الشبيبي رجل معروف ويحتاج الى السيارة فوراً، ثم هو لا يستطيع دفع نصف القيمة سلفاً ولا تقسيط الباقي لمدة سنة ولا الاستعانة بكفيل. قال: ان الثورة قد ساوت بين المواطنين فلا كبير ولا صغير، وشروط البيع وضعتها المراجع العليا فلا نستطيع التصرّف فيها.

وفي هذه الاثناء كان جالساً ضابط كبير من رجال الجيش يرتدي ملابسه العسكرية ويزيّن صدره بالأوسمة والشارات، فقال: يا عبد الرحمن، أراك تدور في الدوائر للحصول على البضائع والمنافع... ولم يكمل كلامه حتى رأينا التكريتي ينهض اليه فيجذبه من معطفه العسكري ويشرع بضربه ضرباً مبرّحاً ويصفعه على وجهه بمرأى من الحاضرين. بادرت وبادر رئيس الشعبة الى الأخذ بيد التكريتي الضارب وانقاذ الضحيّة من قبضته، ولم يكن من الضابط الكبير الا ان ولّى هارباً لا ينبس ببنت شفة ولا يلوي على شيء.

وهنا تغيّر الموقف بصورة عجيبة. فلم نكد نجلس ويعود الصفاء الى الغرفة حتى قال رئيس الشعبة: انكما لم تشربا شيئاً. تعال يا فرّاش، ماذا تريدان؟ قهوة، شاي، كوكا كولا؟ ثم قال: جئتما لابتياع سيارة للشيخ الشبيبي استاذنا، وهو رجل عظيم يستحق كل اجلال وتكريم. فما شروطكم؟

قلت: يسمح للشيخ باختيار السيارة التي يريدها وتسلم له فوراً. يدفع ثلث القيمة ويقسط الباقي لمدة سنتين بدون كفيل. قال: هذه مطالب صعبة، لكنني واثق أن المدير العام يوافق عليها لأن الشيخ يستحق الاستثناء من الشروط الموضوعة لعامة المشترين.

وهكذا كان: ففي الغداة جئنا بالشيخ الشبيبي فتسلم السيارة التي اختارها ودفع ثمنها بالشروط الميسورة التي طلبناها له.

قلت للعميد التكريتي: كيف تضرب الضابط في دائرة رسمية وأمام الناس؟ فضحك وقال: ان هذا الرجل رآني في بعض الدوائر وكلمني مراراً بمثل ما تفوّه به. وأنا أعلم انه موصلّي جبان يده مغلولة ولسانه طويل، فقلت لأؤدبنه أخيرا. وقد رأيته يهرب كالفأر الهالع. وقال: انت لا تعرف أخلاق الشعب العراقي، فهو يعبد القوّة ويخافها وينصاع لها. ورأيت رئيس الشعبة يبدّل موقفه تبديلا عجيباً، فيسرع الى تكريمنا بالشاي والقهوة ويوافق على طلباتنا بلا نقاش!

وكان من نتائج تأميم التجارة والصناعة وتولّي الهيئات الحكومية شؤون الاستيراد والتصدير والوكالات الأجنبية ان انحلت شركة شفروليت المتحدة التي كنت مديراً فيها، فتركت العمل في آخر أيار ١٩٦٦.

انصرفت الى الكتابة والنظم، ونشرت معظم أشعاري ومقالاتي في جريدة «البلد» التي أصدرها الصديق عبد القادر البرّاك بعد اغلاق جريدته «الأيام». وترجمت رحلة الرحالة الهولندي ليكلاما آ نايهولت الذي جاء الى العراق سنة

١٨٦٦ عن الفرنسية ونشرتها متسلسلة في جريدة البلد.وكانت هذه الرحلة دقيقة ممتعة، اذ عني صاحبها خلال نصف السنة التي قضاها في بغداد وبعض أنحاء العراق الأخرى باستقصاء شؤون البلد وحالته الاجتماعية والاقتصادية وطوائفه وعشائره وحياته الشعبية والعادات المحلية في الأفراح والمآتم.

حرب ١٩٦٧

لم تكن حالة البضعة آلاف يهودي في العراق حسنة جداً في سنة ١٩٦٧، لكن حرب حزيران دقّت ناقوس الخطر وبلبلت الأفكار. أعلنت الاذاعة العراقية في بادىء الأمر فوز العرب وتدمير القوة الجوية الاسرائيلية نقلاً عن اذاعة القاهرة، لكن الحقيقة لم تلبث أن عرفت على بشاعتها، فخرجت الجماهير الى الشارع وقامت المظاهرات.

كان رئيس الجمهورية الفريق عبد الرحمن عارف رجلاً طيباً لكن ضعيفاً ازاء رئيس وزرائه طاهر يحيى ووزير الداخلية عبد الستار عبد اللطيف اللذين كانا يمثلان القوة الغاشمة. وقد قرر الرئيس المصري جمال عبد الناصر حجز اليهود المصريين من سن الثامنة عشرة الى الخامسة والاربعين في المعتقل، فارتأى طاهر يحيى وزميله أن يقلداه وأعدّا معسكراً متروكا في أنحاء ذيالى ليكون معتقلا لشباب اليهود وكهولهم.

لم ترق الفكرة لرئيس الجمهورية، غير انه كان أضعف من أن يستطيع رفضها، فقال ان العراق بلد اسلامي ويجب استشارة المفتي الشيخ في الأمر. كان المفتي السيد نجم الدين الواعظ في السادسة والثمانين من عمره، حيّ الفكر طيب السريرة. وكنّا أنا والحاخام ساسون خضوري رئيس الطائفة وأنور شاؤل قد زرناه في داره قبل سنة واحدة، فأبدى لنا مودته وعطفه. ورأينا صورة عبد الناصر معلقة في حجرة الاستقبال، فلما شاهدنا ننظر اليها، قال معتذراً: ماذا نفعل وللشباب اندفاعه!

سئل الواعظ عن اعتقال ابناء الطائفة الموسوية فاستهجن الفكرة وقال: نحن مسلمون وهم أهل ذمتنا لم يعلنوا لنا العداء، فكيف نسيء اليهم؟ ثم اننا دولة دمقراطية وهم اخواننا ومواطنونا لهم ما لنا وعليهم ما علينا.
وكان ذلك ايذاناً بصرف النظر عن فكرة الاعتقال الجماعي. لكن طاهر يحيى وعبد الستار عبد اللطيف لم يعدما رأياً فقررا سجن عشرات من وجهاء الطائفة وتجارها، اختاروهم اعتباطاً ووضعوهم في سجن الأمن العام بحجة خطرهم على أمن الدولة. وفي الوقت نفسه طرد الأعضاء اليهود من الأندية الاجتماعية وقطعت تلفوناتهم ومنعوا من السفر الى خارج العراق والتنقل في داخله.

لقد راجعنا وراجع الحاخام ساسون خضوري رئيس الوزراء والسلطات لرفع القيود المفروضة على أبناء طائفتنا واطلاق سراح الموقوفين، لكن دون جدوى. وفي ١٧ تموز ١٩٦٨ قلب حزب البعث حكومة الرئيس عبد الرحمن عارف وتولى السلطة، واضطلع أحمد حسن البكر برئاسة الجمهورية. ولم تمضِ أشهر قليلة حتى أعلن عزمه على القضاء على التجسّس والعمالة الأجنبية للولايات المتحدة وبريطانية واسرائيل، مع أنه جاء الى الحكم بمساعدة خفية من الحكومة الأميركية. وبادر الى اغتيال ناصر الحاني سفير العراق السابق في واشنطن الذي كان الوسيط في رفع حزب البعث الى منصّة الأحكام.

وفي خريف تلك السنة شرع بالقاء القبض على عدة يهود من بغداد والبصرة بتهمة ملفقة هي الاتصال باسرائيل عن طريق جنوبي ايران وتدريب الشباب على أعمال التجسس والتخريب. واعتقل في الوقت نفسه عدد من خصوم الحزب ورجال الأعمال والمحامين من المسلمين والمسيحيين بحجة اشتراكهم في مؤامرة التخريب، وجميعهم أبرياء ألقاهم سوء الطالع في براثن الحزب المتطلع الى تثبيت دعائم حكمه في جوّ من الارهاب والاضطراب.

كان الحاخام رئيس الطائفة وكنت أنا رئيس اللجنة الادارية ليهود العراق في مقدمة المدافعين عن أبناء طائفتنا، بل الوحيدين في المراجعة والاحتجاج. وقد اعتقل شاؤل ناجي ابن الحاخام في جملة المتهمين بالتجسس بأوهى الحجج، وعذب واهين في «قصر النهاية»، وهو قصر الرحاب السابق للأمير عبد الإله، ولم يفرج عنه الا بعد أشهر عديدة. وفي اليوم الأول من سنة ١٩٦٩ جاء زبانية الأمن الى دارنا نفتشوها تفتيشاً دقيقاً، فلم يجدوا من «أدوات الجريمة» سوى بضعة دولارات وباونات بقيت عندي من سفرات سابقة وطابعتين عربية وانكليزية.

٥٤ يوماً في السجن[٥٢]

في أول يوم من سنة ١٩٦٩ عدت الى الدار مساءً فوجدت معاون الأمن مخلف منير العاني وجلاوزته يفتشون دارنا غرفة فغرفة. كان الوقت عصيباً: فقد أعلن رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر في خطاب شديد له انه سيمحق التجسس لأميركة وانكلترة ويقضي على العملاء وأذناب الدول الغربية. وقد ألقي القبض على عشرات الرجال والصبيان، من يهود ومسلمين ومسيحيين، بتهمة التجسس وألقوا في غيابات السجون حيث عذّبوا تعذيباً مؤسياً تمهيداً لمحاكمتهم. واتهم اليهود بأنهم عبروا الحدود الى ايران في جهات شط العرب وتدربوا على حمل السلاح والقاء القنابل والمتفجرات، ثم عادوا الى البصرة ليقوموا بأعمال التخريب ويتجسسوا لحساب اسرائيل. وكانت كل تلك التهم ملفقة لا أساس لها من الصحة، والغرض منها توطيد أركان الحكم البعثي الذي استولى على مقاليد الأمور قبل بضعة أشهر. وساد البلد جو من الخوف والارهاب، فامتلأت الطرق والمحلات العامة وحتى المدارس بالمخبرين ورجال الأمن المقيت يحصون على الناس أنفاسهم ويزجون الأبرياء في المعتقلات ويقتلون خصوم حزب البعث، وفي مقدمتهم ناصر الحاني الذي أعانهم في قلب نظام حكم عبد الرحمن محمد عارف وكان وزيراً لخارجيتهم نحواً من أسبوعين قبل أن يزيحوه عن طريقهم.

فرغ معاون الأمن من تفتيش دارنا وأخذ بعض الأوراق وطابعتين عربية وانكليزية واعتقلني في تلك الليلة في موقف الأمن. وكانت التهمة الموجهة اليّ ان احدى السيدات الأميركيات زارتني قبل سنة أو نحو ذلك، فماذا أعطيتها من المعلومات السرية التي يستفيد منها «العدوّ الأميركي المتربّص بالعراق شراً؟»

قلت: ان هذه السيدة تكتب أطروحة عن تأريخ العراق القديم لتقديمها الى بعض الجامعات الأميركية. وقد جاءت بصورة رسمية واتصلت بوزارة التربية ورجال العلم والأدب للمباحثات في الموضوع الذي تتناوله. ثم أية معلومات سرية عندي عن الجيش أو غيره لاعطائها اليها؟

وقد انتهى التحقيق في ساعة متأخرة من الليل ولم يتكرر بعد ذلك. وأودعت السجن ٥٤ يوماً لم يسألني أحد شيئاً. وأذكر، والحق يقال، أنني كنت في محبسي موضع الرعاية والاحترام، فلم يمسني أحد بسوء، بل كان المساجين يحفون بي ويخدمونني ويخففون عني ما أقاسي من وحشة وغيظ وشجن. وقد سمح لأسرتي بزيارتي، وكانت ترسل لي كل يوم بالطعام، فاذا حضر جلس معي عدد من المعتقلين لتناول الغداء.

كان المسجونون يؤخذون الواحد بعد الآخر للتحقيق، فأسمع أخباراً فظيعة عن تعذيبهم واهانتهم على وجه تأباه الانسانية. وكان مخلف العاني أحد أركان التهويل والتعذيب، ولذلك هجوته بعد أن غادرت العراق بأبيات منها:

قد ساء فألك، أيها المهبول، وغدوت وحشاً في الفلاة يصول

عَدِم الضمير فكل شيء جائز في عرفه والخير فيه قليل

وله مخالب بالدماء خضيبة
والسمّ من خلل اللعاب يسيل
وعيونه جحظت وسال لعابه
والشرّ في قسماته مصقول
وله بهامته القرون نواطحاً،
وله فروع شوّهت وأصول
- يا خائباً عصف الجنون بعقله
وعلى المساوىء والخنى مجبول،
انّ الضعاف الأبرياء ظلمتهم
ضجّوا وصاحوا، واللسان كليل.
أحسبت أن الله ربك غافل
عما تراوغ في الدجى وتقول؟
والله يمهل عبده في غيّه
حين يحين قصاصه فيزول
فاذا القويّ محطّم في لحظة:
رأس يطيح وساعد مشلول
فاخسأ وبُؤ بالعار، إنك مجرم
أبد الزمان مقبّح مرذول

وجاءني بعد ذلك بعض الأصدقاء من بغداد فقال لي ان هذا المعاون نقل الى وظيفة في الشرطة بمكان ناءٍ من أنحاء العراق، ثم أحيل الى التقاعد. وتوالت عليه المصائب، فقتل ولده في حادث سيارة، ومات هو نفسه صعقاً بينما كان يعالج اصلاح الكهرباء في داره.

وفي أواخر كانون الثاني ١٩٦٩ عقدت المحكمة العرفية الخاصة برئاسة العقيد علي هادي وتوت الحلّي، فكانت جلساتها المعدودة مهزلة من المهازل، اذ أرهبت المتهمين، وصرخ رئيس المحكمة في وجههم شاتماً ومشنّعاً ولم يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم. ثم أعلن الحكم عليهم بالاعدام ناعتاً اياهم بأقبح النعوت. وشنق هؤلاء البائسون المظلومون(٥٣) في بغداد والبصرة علناً، فتجمهر الرعاع يرقصون تحت أعواد المشانق ويدقون الطبول والدفوف. ولم يتورع الرئيس البكر من الذهاب الى ساحة التحرير، بل ساحة الموت والترهيب، ليشارك حثالات الناس في فرحهم وهوشتهم.

ماذا نقول في رئيس المحكمة وتوت الذي سخره المسيطرون على الحكم لقضاء مآربهم؟ لقد كان مستأسداً على الضعفاء، ذليلاً أمام رؤسائه ينفذ أوامرهم بلا رادع من ضمير. وقد تمادى في غيه، فحكم بالموت غياباً على التاجر يعقوب اطرقچي مع ان هذا الرجل البريء قد مات في سجنه من أثر التعذيب الرهيب وألقيت جثته في نهر دجلة أو دفنت في مكان بعيد مجهول. ثم أعلن وتوت في الصحف داعياً المحكوم عليه الهارب، كما قال، ليلاقي جزاءه المحتوم!

يا لله! هل تبلغ النفوس الوضيعة هذا الدرك الأسفل من الاساءة والاجرام! هل يموت الوجدان في قلب شخص مسؤول عهدت اليه انفاذ محاكمة مزعومة لفريق من الرجال جيء بهم من دورهم ومكاتبهم بلا ذنب جنوه ليواجهوا الموت

بحجة التجسس والعمالة لدولة أجنبية وليرهبوا الشعب الذي خنع لحكم البعثيين الرهيب خائفاً مخذولاً؟ وكان بين المتهمين صبيّ واسمه داود دلال لم يبلغ السادسة عشرة من عمره، فقررت المحكمة زيادة عمره الى الثامنة عشرة لتتمكن من شنقه.

وقد لاحق القدر الغاشم يعقوب اطرقچي، فبعد ستة عشر عاماً لقي ولده ألبير مصرعه في القاهرة برصاص أحد المعتدين المتعصبين، وكان قد هاجر الى اسرائيل والتحق بالسلك الخارجي وعيّن ملحقاً بالسفارة الاسرائيلية في مصر، فقضى بعد أشهر قليلة على هذا الوجه المؤسي، وجرحت زوجته التي كانت معه في السيارة. ولم يتجاوز الثلاثين من عمره.

أما علي هادي وتوت فلم تكد المحاكمة التي أقامها والعدل منها براء حتى أحاله أسياده على التقاعد ونبذوه نبذ الحذاء العتيق الذي لا يصلح لغير المزابل. ورآه الناس جالساً في بعض مقاهي الحلة زائغ النظرات ساكن الحركة لا يجالسه في مجلسه أحد.

وقد قلت فيه بعد عدة سنين:

يا «وتوتاً» قد خانه الوجدان
لم ينهَهُ شرف ولا إيمان
سفك الدماء وشطّ في أحكامه،
فلأنت في عرف الورى شيطان
هزل الزمان فجئت يوماً حاكماً
لا يرتضي أفعاله الانسان
حققت آمال الألى قد أصدروا
لك أمرهم بغياً، وأنت جبان
قد كنت في أيدي العصابة آلة
صمّاء لا فكر ولا احسان
حتى اذا نفّذت حكماً جائراً
نزل الستار ولفّك النسيان
ماذا جنيت سوى الشناعة والقِلى
واسم على مرّ الدهور يُدانُ؟
سُجّلتَ بين الظالمين قطينهم،
إنّ الذليل مسخّر ومهان!

شجب العالم الحرّ تلك الاعدامات، فقامت المظاهرات في لندن ونيويورك وباريس تحتجّ على المظالم اللاحقة بالجماعة اليهودية الصغيرة في العراق. ولم تر الحكومة البعثية بدأ ازاء الغضب العالمي من اطلاق سراح اليهود الذين كانوا قابعين في سجونها الرهيبة. وحاولت الحصول على شهادات من رجال اليهود تعلن حسن معاملتها لهم، فنشرتها في كتيّب باللغة الانكليزية وزعته على سفاراتها للدعاية.

ومضى على توقيفي نحو من شهرين وأنا منسيّ في سجن الأمن فلا سؤال ولا جواب. حلمت ذات ليلة حلماً غريباً: رأيتني ساقطاً في جبّ وأنا أتلمّس الخروج منه بلا جدوى. وبعد لأي مدّ لي رجل يده ورفعني برفق، فاذا بي حرّ طليق في أرض الله الواسعة. وكان أصدقائي خلال هذه المدة يسألون عني ويحاولون انقاذي من مخالب الأمن. وقد مضى جعفر الخليلي الى الدكتور مصطفى جواد ورجاه أن يواجه الرئيس البكر الذي كانت له دالّة عليه، فاعتذر بمرضه وعدم قدرته على الذهاب. ونظم أنور شاؤل، الذي عيّنته قبل سنتين مشاوراً حقوقياً لرئاسة الطائفة الموسوية، أبياتاً من الشعر، قال(٥٤):

إن كـنـت مـن مـوسـى قـبـسـت عـقـيـدتـي
فـأنـا الـمـقـيـم بـظـلّ ديـن مـحـمّـد
وسـمـاحـة الاسـلام كـانـت مـوئـلـي
وبـلاغـة الـقـرآن كـانـت مـوردي
مـا نـال مـن حـبّـي لأمّة أحـمـد
كـونـي عـلـى ديـن الـكـلـيـم تـعـبّـدي
سـأظـل ذيّاك الـسـمـوأل في الـوفـا
أسـعـدتُ فـي بـغـداد أم لـم أسـعـد!

وقدم هذه الأبيات الى المحامي سلمان بيّات الذي أوصلها الى الفريق صالح مهدي عمّاش نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية عن طريق أخيه سكرتير مجلس الوزراء صلاح الدين بيّات. استحسن عماش هذه الأبيات، وكان هو نفسه أديباً شاعرا، فحدثه صلاح بيات بامر اعتقالي فاستغربه لأنه لم يكن يعلم عنه شيئاً. وفي الحال كلم مدير الأمن العام حامد العاني تلفونياً وأمره باطلاق سراحي.

وفي اليوم الثاني وجدت على كيس الطعام الذي أرسلته العائلة كلمة مآلها أن الوزير سأل عنك. لم أفطن الى تلك الكلمة المثبّتة على الكيس حتى نبّهني اليها أحد الذين كانوا يتناولون الغداء معي. استبشرت خيراً بعد هذا، ولم يلبث معاون الأمن أن استدعاني الى غرفته وقال: انك هنا منذ ما يقارب الشهرين بدون ذنب جنيته، فلماذا لا تطالب باخلاء سبيلك؟ قلت: مع من أتكلم ولمن أطالب؟ فناولني قلماً وورقة وقال: اكتب عريضة لنقوم بما يجب. قلت: نسيت الكتابة خلال هذه المدة.

قال:عجباً. وكتب هو نفسه العريضة وناولني القلم وطابعاً مالياً بقيمة ٥٠ فلساً وقال: وهل نسيت كيف توقع أيضاً؟ نوقعت وربطت بكفالة اسمية تفضل بامضائها الأخ أنور شاؤل وذهبت الى الدار مطلق السراح، في ٢٤ شباط ١٩٦٩. وقد أعيدت اوراقي، لكن الطابعتين حجزتا لأن الرجل في العراق لا يستطيع امتلاك آلات طابعة يكتب بها المناشير والرسائل!

كانت تلك تجربة قاسية لم آلفها في حياتي وخلّفت في نفسي مرارة على مدى الأيام. وقلت في ذلك:

إيـهِ يـومـاً قـضيتـه في الـسـجـون،
في اسـار مـن الـونى والـشـجـون،
رسـمـتـه رؤى الـنـوى والمنـون
شـاحـبـاً مـقـفـراً كـلّيل الجنـون،
نـهـو دهـر مـن الصراع الـدفين.

تـلـك مـأساة شـاعـر نِضوِ نـفـس
بين هـول مـن الـشـعـور وحـدس،
فـاذا بـالـفـراغ: وحـشـة رمـس
غـشـيـت حـاضري الـرهـيـب وأمسي،
وغـدي لـفه الـضـبـاب بـيـأسِ.

أيّ جـرم جـنـيـتـه في حـيـاتي
لأجـازى جـزاء بـاغ وعـات؟
أوقـوفي مـنـاضـلاً بـثـبـاتي
لـعـراقي ودجـلـتي وفـراتي
يـومَ دهـري بـصـول غير مـؤات؟

أم جـهـادي لأجـل عـقـلٍ وفـكـرِ،
أجـتلي في الـظـلام أقـبـاس فـجـر.
أدب قـد أفـنـيـتُ رونـق عـمـري
أغـرس الـشـعـر في الـريـاض كـزهـر
يـنشر الحسـن في غـلالـة عـطـر؟

واعـتـقـادي بـالحقّ قـولاً وفـعـلا،
ودفـاعـي عـن الـضـعـيـف اسْتُغِلاَ
وأهـيـنـت كـرامـة لـه جـهـلا
بحقـوق الانـسـان، ايـه فمهـلا
انما الحق غـالـب لـيـس يُعْلَى.

ونـزوعـي الى الـعلى والـتـسـامـي
عـن صـغـار وذلّة وخـصـام.
فـكـرتي الـتّرس والـيـراع حـسـامـي،
أنثر الـنـور في لـيـالي الـظـلام
كـنـجـومٍ تـلـوح في الأحـلام...

وعلمت بعدئذ ان سبب اعتقالي لم يكن مجيء السيدة الأميركية الى دارنا وانما كان الرغبة في حجزي احتياطاً خلال مدة محاكمة المتهمين بالتجسس وادانتهم واعدامهم. كنت، وأنا رئيس اللجنة الادارية لليهود العراقيين، مع رئيس الطائفة الحاخام الأكبر ساسون خضوري الوحيدين اللذين نرفع صوتنا ونراجع المسؤولين من رجال الحكم بشأن الرجال والشبان اليهود الذين لفقت عليهم تهمة التجسّس، فكيف السبيل الى اسكاتنا؟ كان الحاخام يتجاوز الثمانين من عمره، فاكتفت دوائر الأمن بتوقيف ولده شاؤل ناجي في قصر النهاية الرهيب وتعذيبه تعذيباً مؤلماً ولم يطلق سراحه الا بعد عدّة أشهر. وقد سكت الحاخام ساسون مضطراً مشفقاً على ولده، أما أنا فأوقفت لئلا أستطيع الكلام. وأخلي سبيلي بعد انتهاء مهزلة المحاكمة والشنق، حين ضجّت المحافل الدولية بالتنديد بالعراق وسلطاته وطالبت باطلاق سراح مئات الموقوفين واعادة الحقوق المدنية الممنوعة لأبناء الطائفة اليهودية الباقين في بلادهم. وكانت تلك أسوأ دعاية خشي عاقبتها رجال الحكم الذين لم يرعوا لمواطنيهم الاّ ولا ذمّة. وأخبرني الصديق التاجر يوسف زلخة الذي كانت له علاقات تجارية طيبة مع الاتحاد السوفييتي وسائر الدول السائرة في ركابها انه اتصل بالمستشار التجاري للسفارة السوفيتية في بغداد وأعلمه بما يجري من اعتقال اليهود واضطهادهم، فنقل المستشار الخبر الى السفير الذي راجع المسؤولين وحذّرهم من عاقبة عملهم. لكن يوسف زلخة نفسه لم يلبث ان اعتقل مع شريكه وعدد من التجار وأودعوا سجن قصر النهاية حيث مكثوا شهوراً عدة.

مؤتمر ادباء العرب السابع ومهرجان الشعر

لم يمضِ يومان او ثلاثة حتى جاءني اصدقائي من وزارة الاعلام وقدموا لي كتاب الدعوة الى الاشتراك في مؤتمر ادباء العرب الذي ينعقد في بغداد في شهر نيسان ١٩٦٩ ومهرجان الشعر الذي يتلوه في البصرة، وقالوا ان انور شاؤل دعي ايضاً الى الحضور(٥٥). فغضبت وقلت: انني كنت معتقلاً شهرين بلا موجب ولا مبرر، فلا رغبة لي في الادب ومهرجانه. قالوا انهم لم يعلموا بالأمر وأبدوا أسفهم لما حدث وحاولوا جهدهم التخفيف من ألمي ومرارتي. وألحوا عليّ بقبول الدعوة، فلم أجد بدأ من الموافقة.

عقد المؤتمر في موعده المقرر بحضور عدد كبير من الادباء والشعراء من مصر وسورية ولبنان والمغرب والأردن وسائر أقطار العروبة، وأقام احمد حسن البكر مأدبة في القصر الجمهوري كما أقيمت حفلات اخرى تكريماً لاعضاء المؤتمر. وجرت المناقشات والمباحثات الادبية وألقيت القصائد. وألقى انور شاؤل قصيدة رائعة قال منها:

قـــلبي بحبّ بني الـــعــــروبـــة يخفـــق وفي بـــضـــادهـــم يـــشـــيـــد ويـــنـــطـــق

وقدمت انا بحثاً في «دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي العصري»، وقد طبعته وزارة الاعلام ضمن ما نشرته من البحوث.

ثم دعيت في نيسان ١٩٧١ الى مهرجان المربد الشعري المعقود في البصرة مع ابنتي نورا. وقد ترأس هذا المهرجان وزير الاعلام شفيق الكمالي وحضره الادباء والشعراء من أقطار العروبة كافة. منحت وسام المؤتمر، ودعيت في احد الأيام الى ترؤس جلسة المناقشة فقلّدت الادباء المبرّزين أوسمتهم. وأقيمت حفلات متعددة في دار المتصرف وباخرة ميناء البصرة في شط العرب والخليج، وهي باخرة اشترتها الأسرة الهاشمية المالكة وسلّمت بعد الثورة الى ادارة الميناء.

ودعي الشاعر المهجري رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ــ ١٩٨٤) المعروف بـ «الشاعر القروي» الى زيارة بغداد ضيفاً على الحكومة. وهو لبناني هاجر الى البرازيل سنة ١٩١٣ ونظم شعراً كثيراً وأصدر دواوين متعددة يشيد فيها بفضل العروبة والاسلام ويدعو الى استقلال البلاد العربية وتحرير فلسطين. وقد عاد الى الوطن بعد غياب أعوام طويلة قاسى فيها العوز والحرمان. قال محمد عبد الغني حسن: «وقد بلغ من ايمان الشاعر القروي باللغة الفصيحة الصحيحة وسموّ رسالتها أنه وسم كل عادل عنها بسمة الكفر بالعروبة والعرب».

كان الخوري الذي توفي سنة ١٩٨٤ عن ٩٧ عاماً مسيحياً ارثذكسيّ المذهب. لكنه حين بلغ التسعين من عمره كتب وصيّة يقول انه مسلم يشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله، وان عيسى بن مريم كلمة الله. وقال انه يريد أن يموت على دين الرسول العربي انسجاماً مع نفسه ومع تاريخه. لكنه ادعى انه يبقى مع ذلك على دين المسيح، فخيّره آباء كنيسته بين المسيحية والاسلام، فمات على دين السيد المسيح. قال جهاد فاضل في مجلة «الحوادث» انه «مسلم، مسيحي، لبناني، عربي، عشق الكثير، ولكن العروبة كانت الأغلى على قلبه، ومن أجلها لقي ما لقي، ولفرط حبّه لها لم يشرك بها أحداً. ومن أجلها أحيا مذهباً نصرانياً قديماً بائداً هو المذهب الأريوسي الذي كان مؤسسه أريوس يقول بناسوت السيد المسيح دون لاهوته. اكتشف القرويّ أريوس أسقف صور القديم في العصور المسيحية الاولى ففرح به لأن

تصوّره لشخصية المسيح شبيه او مماثل لتصور القرآن له. كان يريد التوحيد وكان يرى ان هذه النظرة الى المسيح تتواقف مع نظرة المسلمين اليه. ولكن الناس لم يفهموها هكذا وقامت القيامة عليه».

وقد قال الشاعر القروي في الحرب الأهلية اللبنانية:

تخذنـــا الـــصـــلـــيـــب شـــعـــاراً ورحـــنـــا	لـــســـفـــك الـــدمـــاء نـــســـوق الجيـــوشـــا
نـــذبّح أطـــفـــالـــنـــا كـــالـــفـــراخ ونـــبـــكـــي	المســـيـــح لـــنـــضـــحـــك مـــوشى
فـــصـــارت قـــرانـــا قـــبـــوراً وأمـــســـت	أسرّتـــنـــا الحـــالمات نـــعـــوشـــا
وتهنـــا على الـــنـــاس عُجْبـــاً كـــأنّا	دكـــكـــنـــا عـــروشـــاً وشِدْنـــا عـــروشـــا
فـــكـــم ألـــف مـــلـــيـــون عـــام ســـتـــمضي	لـــكـــي نـــرتقي ونـــصير وحـــوشـــا؟

ولكننا نعود الى سنة ١٩٧١ والى بغداد التي دعت الشاعر العربيّ القوميّ الشيخ الى زيارة العراق واحتفت به احتفاءً عظيماً جعلته يقول انه قرأ الف ليلة وليلة وتصوّر مجد عاصمة الرشيد وعظمتها وبذخها، لكنه لم يحلم بما شاهده بعينه ولمسه بيده وسمعه بأذنه من عظمة يصغر أمامها مجد الرشيد وتتضاءل ازاءها عزّة العباسيين ورفعتهم!

وفي الحفلة الكبرى التي أقيمت تكريماً له وحضرها المئات من رجال الدولة والفضل والأدب دعيت الى الجلوس الى جانبه والتحدث اليه، فقلت: انك، يا استاذ، ولا ريب شاعر كبير. واذكر اننا درسنا في المدرسة قصيدتين من شعرك الرائع حفّظنا اياها استاذنا محمد الفراتي شاعر دير الزور.

ففرح والتفت يوزّع نظراته على الحاضرين وكأنه يقول: هل تسمعون؟ ثم سألني عن القصيدتين، فقلت اولاهما:

طـــوبـــاك ســـارحـــة في الـــقـــفـــر طـــوبـــاك	إنْ كـــنـــتُ أحْســـدُ مخلـــوقـــاً فـــإيّاك

أما الثانية فلا اذكر مطلعها، ثم أضفت قائلا: غير أن استاذنا الفراتي، وقد درس في الأزهر وكان متزمّتاً، قال لنا ان هذا الشعر رائع لكن اول كلمة منه خطأ لغويّ. فقال الخوري: كيف، كيف؟

قلت: قال الفراتي لنا: لا يقال «طوباك» لغوياً بل «طوبى لك». ولو قال الشاعر «رحماك» لكان ذلك أصحّ وأفصح.

قال وقد خفض بصره: تعلم انني غادرت بلدي العربي صغيراً وقضيت في المهجر اكثر من نصف قرن، فاعذرني اذا صدر مني هذا الخطأ.

فقلت: انك لا شك معذور، والشاعر لا يحاسب على مثل هذه الهنات.

وفاة الحاخام ساسون خضوري

أجرى الحاخام جراحة بسيطة في عينه. ولما كان في المستشفى قرّر الأطباء عمل جراحة اخرى للبروستات، لكن حصلت مضاعفات فتوفي الى رحمة الله في ٢٤ ايار ١٩٧١. وعلى اثر ذلك أسندت اليّ رئاسة الطائفة بالاضافة الى رئاسة اللجنة الادارية بتأييد وزارة العدل. وطلبتُ اعادة انتخاب اللجنة، فتم الانتخاب في ٨ آب وأعيد انتخابي للمنصبين.

لم أنقطع عن النظم والكتابة، وظهرت في مناهج التلفزيون الأدبية مع سالم الألوسي والدكتور مصطفى جواد والشاعر حافظ جميل. ونشرت معظم كتاباتي في مجلة الأقلام وفي جريدة التآخي (لصاحبها حبيب محمد كريم ومحرر صفحتها الأدبية عبد الغني الملاح). ومن المواضيع التي نشرتها: الملك الضحاك في المراجع العربية القديمة، مواكب العصور، مختصر التاريخ لظهير الدين الكازروني، طه حسين بين أنصاره وخصومه، عبد المسيح وزير والصنم المحطم، ناجي القشطيني الشاعر المرتي، عباس العزاوي مؤرخ العراق الحديث، أدب الزيات في العراق، ابراهيم أدهم الزهاوي، نديم الأطرقجي شاعر الشباب الذابل، النقد الأدبي بين الماضي والحاضر، فاضل الصيدلي، الخ. وقوبل كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» الذي نشرته وزارة الاعلام سنة ١٩٧١ بتقدير بالغ، فكتب عنه عبد القادر البراك وعلي التلّعفري وغيرهما وطالبوا باصدار أجزائه الأخرى.

ودأبت وزارة الاعلام على ارسال وفود الصحفيين القادمين الى بغداد لزيارتي والتحدّث اليّ، فكانوا يفهمون من أحاديثي، تلميحاً إن لم يكن تصريحاً، ما نعانيه من ارهاق وسلب الحقوق. وقد كتبت اليّ الوزارة في ١٩٧٢/١/١٠ تقول: «تقديراً لموقفكم الوطني النبيل تجاه الوفود الأجنبية المستضافة من قبل وزارة الاعلام، نسجّل لكم بمداد الفخر والاعتزاز هذا التعاون المخلص الجميل...»

كان المقرّر عندما غادر اليهود العراق أن يستقدم الفلسطينيون ليحلوا محلهم، وقد جيء بنحو خمسة آلاف فلسطيني او دون ذلك وأسكنوا في الدور المجمّدة. لكن الشعب لم يألفهم فبقوا في عزلة، وبقي اكثرهم عاطلاً، وقد خصصت لهم الحكومة جعلاً ضئيلاً لا يكاد يسدّ رمقهم.

ومرّت أعوام طويلة. وحينما كنت رئيس الطائفة في سنوات السبعين كان في جوار مقرّنا دار كبيرة مجمّدة تطلّ على نهر دجلة تقيم فيها عدة عوائل فلسطينية ومعظم أفرادها من الشيوخ العجزة والنساء والاطفال. وكنت أراهم يقضون نهارهم في الساحة المقابلة للدار، تلوح على سيائهم الكآبة وتتطلع عيونهم الى الفضاء بنظرات ساكنة تكاد تخلو من الحياة. وقد اوصيت الحارس والفراشين برعايتهم والسماح لهم باستعمال التلفون وسائر المرافق.

وفي ذات صباح جاء وفد من شيوخهم لمواجهتي وقالوا ان السلطات قررت نقلهم الى عمارة في ضواحي العاصمة واسكانهم في شقق عالية لم يألفوا العيش فيها. ولما امتنعوا عن الانتقال قطعت عنهم الماء والكهرباء. قلت لهم انهم لا يستطيعون مقاومة الأوامر الحكومية مهما كانت شاقة ومرهقة، فطلبوا مساعدتي لامهالهم أمداً ليقوموا بتدبير أمورهم.

كلمت مدير شؤون اللاجئين في وزارة الشؤون الاجتماعية، فقال انهم يعصون أوامرنا منذ أشهر ولا بدّ من وضع حدّ لتمرّدهم. وأخيراً أقنعته بامهالهم شهراً واحداً واعادة الماء والكهرباء الى دارهم، فقال: هل تكفلهم؟ قلت: نعم. وبعد شهر واحد جاء الشيوخ لتوديعي وانتقلوا بعوائلهم الى مساكنهم الجديدة.

مراجعات وفواجع

على أثر مراجعاتنا المتواصلة والضجّة العالمية التي قامت في الولايات المتحدة وبريطانية والأقطار الحرة الاخرى تراجعت الحكومة العراقية البعثية في خريف سنة ١٩٧١ وسمحت للمواطنين اليهود بالسفر بجوازات وبيع املاكهم وقبض أثمانها. وبادر الكثير من ابناء الطائفة الى استحصال جوازات سفر ومغادرة العراق بصورة مشروعة، كما أسرع الكثيرون الى التصرف في أملاكهم. ولم تمض بضعة أشهر حتى رأت السلطات اشتداد حركة البيع فأوقفته وأعادت المنع السابق.

وكنت أزور وزير الداخلية الفريق سعدون غيدان بين الحين والحين للمباحثة حول شؤون الطائفة ومشاكلها فقال لي: كان في العراق ٣٣٣٠ مواطناً يهودياً حين جئنا الى الحكم، وقد سافر منهم اكثر من ألف بصورة غير شرعية عن طريق ايران «وحرّك يده قائلاً: الله معهم!». وأضاف قائلاً: واستحصل الف آخر جوازات سفر فغادر العراق خمسمائة «الله معهم!» واحتفظ الباقون بالجوازات ليغادروا في المستقبل.

وعلى أثر نشوب حرب عيد الغفران في خريف سنة ١٩٧٣ صدر الأمر بوقف اصدار الجوازات ومنع السفر. فكتبت الى رئيس الجمهورية وراجعت سعدون غيدان وكلمته في فتح باب السفر مجدداً واعادة الحقوق الممنوعة فقال لي: ان هذه الامور من سلطة مجلس قيادة الثورة وسأعرض الأمر عليه. وقال: انا أضمن لك اعادة فتح السفر لأنه يعود الى وزارتي واستطيع اقناع المجلس بالموافقة. أما سائر الشؤون التي تشكو منها فالرأي للمجلس في نهاية الأمر. ولم يمض أمد طويل حتى أعيد منح الجوازات، لكن لم يوافق مجلس قيادة الثورة على سائر المطالب.

وفي سنة ١٩٧٤ أشرفت مدة اللجنة الادارية لليهود العراقيين، وقدرها ثلاث سنوات، على الانتهاء فأصدرت وزارة العدل أمرها بتمديد المدة الى أجل غير محدود. لكنني أصررت على اعادة الانتخاب لأنني كنت عازماً على السفر، كما أن نائب الرئيس داود خلاصجي والعضو منشي شعشوع أبديا الرغبة في الانسحاب. وقد جرى الانتخاب في ١٦ نيسان وأعيد انتخابي للرئاسة ورئاسة الطائفة، واختير روبين ناجي الياس، وهو ملاك في بعقوبا انتقل الى السكنى في بغداد ومن أفاضل الرجال، نائباً للرئيس. واقترحت وزارة العدل اشتراك النساء في الانتخاب، لكنني اوضحت ان سجل النساء لدينا لم يكن كاملاً وارتأيت تأجيل الموضوع الى المستقبل.

أرسلت اوراق الانتخاب الى وزارة العدل لاصدار الأمر باقرارها حسب الاصول واذا بها تتأخر خلافاً للعادة. وذهب السكرتير ناجي چچك الى دائرة التدوين القانوني لتعقيب القضية فوجد كتاباً سرياً من وزارة الداخلية أرفق به كتاب من مديرية الأمن العامة يقول بعدم استحسان اعادة اختيار مير بصري للرئاسة لأنه «ذو ميول صهيونية». قال لهم السكرتير: لقد وردكم هذا الكتاب قبل أمد فلم لم تخبرونا، فان مير بصري كان مصراً على عدم تجديد انتخابه فألححنا عليه بالقبول.

ذهبت في اليوم الثاني لمقابلة أمين عبد الكريم وزير المالية الذي كان يقوم بمهام وزير العدل بالوكالة وسألته عن تأخير الجواب، فاعتذر بأن الاوراق متراكمة لديه ولم تسنح له الفرصة للنظر فيها (كذا). ثم اوعز باصدار الأمر باقرار

الانتخاب فوراً.

وبعد أيام دعاني مدير الأمن العام عبد الخالق عزيز، وقد حلّ محل ناظم كزار الذي أعدم في السنة السابقة، ليخبرني باعادة اصدار جوازات السفر وتسهيل سفر أبناء الطائفة اليهودية حسب أمر وزير الداخلية. فانتهزت الفرصة وكلمته بشأن محام يهودي اوقف بوشاية مغرضة. قال انه لم يكن يعلم بالأمر، وسجّل اسمه ثم افرج عنه في اليوم الثاني.

قلت وانا أهمّ بالانصراف: يا سيادة المدير العام، هل تعرفني؟

قال: كيف لا أعرفك وانت «أستاذنا».

قلت: وهل انا ذو ميول صهيونية؟

قال: حاشا، أستغفر الله. انت معروف بوطنيّتك واخلاصك للبلاد.

قلت: فكيف اذن تكتب دائرة الأمن مدعية بأنني ذو ميول صهيونية؟

قال: ابداً، لا يمكن ان تكتب دائرة الأمن ذلك.
وصافحته وخرجت فخرج يودعني الى الباب.

كتبت رسائل عديدة الى رئيس الجمهورية احمد حسن البكر ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدّام حسين والوزراء ومدير الأمن العام طالبت فيها بحقوق أبناء الطائفة وحرية تنقلهم وسفرهم. وكان لنا أصدقاء محبّون ورجال انسانيون يدافعون عنّا ويراجعون في سبيلنا، وفي مقدمتهم السيد نجم الدين الواعظ مفتي الجمهورية والفريق سعدون غيدان وزير الداخلية وأمين عبد الكريم وزير المالية وعزيز شريف وزير العدلية وبعد ذلك وزير الدولة وعضو المجلس السلم العالمي وشفيق الكمالي وزير الإعلام والفريق الأول نافع سليمان مدير الشرطة العام والعقيد ابراهيم محمد اسماعيل أمين العاصمة والدكتور أحمد عبد الستار الجواري وزير المعارف وغيرهم كثير.

وقد رتّبت مع الكمالي وزير الاعلام لارسال ٢٥ سفراً من أسفار التوراة الى انكلترة، فتوسط في ارسالها عن طريق وزارة الخارجية بالبريد السياسي وبالطيارة العراقية الى سفارة العراق في لندن. وسلمت السفارة تلك الاسفار المقدسة الى الحاخام الدكتور شلومو غاؤون حاخام الطائفة السفارادية فوزعها على الكنائس في لندن ونيويورك وكندة واسرائيل.

وكان صديقي حامد مصطفى رئيس التدوين القانوني ورئيس جمعية الدفاع عن حقوق الانسان في العراق، فاستدعيته ذات يوم وقلت له: انك رئيس جمعية الدفاع عن الحقوق الانسانية وأعضاء الجمعية كلهم من الحكام والمحامين واساتذة الحقوق، فكيف لا تدافعون عن حقوقنا نحن مواطنيكم اليهود؟ فضحك وقال: كيف ندافع ومن يسمع صوتنا؟ ان جمعيتنا أسست لتحصل على منافع لأعضائها كالأراضي البنائية وما ماثل ذلك، ولا شأن لنا الا تأييد الحكومة والدفاع عن حقوق الفلسطينيين والكوبيين وأقرانهم بمناشير تقرأ وتهمل. وكان ذلك جواباً بمنتهى الصراحة من هذا الرجل العالم الفاضل.

وجدير بالقول أن الحكومات العراقية المتعاقبة، على اضطهادها لأبناء طائفتنا وغمطها لحقوقهم، لم تمسّ الكنائس اليهودية ولم تتعرض لشؤون الدين قط، واحترمت تشكيلات الطائفة واوقافها ومرافقها. غير أن مديرية الأموال المجمدة العامة وضعت يدها، بتحريض من أحد صغار المحامين الذي استخدمته دائرة العين عزرا مناحيم دانيال وأصبح فيما بعد وزير دولة ووكيل وزير الخارجية، على أوقاف مناحيم وعزرا وحسقيل دانيال التي آلت ادارتها الى اللجنة الادارية لليهود

العراقيين. وتقدمنا بالشكوى الى الحاكم فطالت القضية عدة سنوات ووصلت أخيراً الى محكمة التميز. وزرت رئيس المحكمة وقلت له: ان قضية الأوقاف قد طالت حتى عرضت على محكمتكم العليا. وأنا لم آتِ للتوسط لديكم فأنا أعلم حرصكم على العدالة، لكنني فهمت ان القضايا المحالة عليكم كثيرة ودور قضيتنا لن يأتي الا بعد سنتين او أكثر. فاستدعى في الحال رئيس الكتاب وأمره بأن يكتب على ملف القضية «مستعجل جداً». وعرضت الدعوى فوراً على المحكمة وصدر القرار النهائي برفع اليد عن الأوقاف وتسليمها الى الطائفة.

غير أن دائرة الأموال المجمّدة رفضت تنفيذ قرار محكمة التميز. فكتبت الى رئيس الجمهورية كتاباً شرحت فيه الموضوع، فأصدر أمره بتأليف لجنة من ممثلي الطائفة ووزارتي المالية والعدل لادارة الأوقاف وصرف غلّتها حسب شرط الواقف. وهكذا ألفت اللجنة وتسلمت الأوقاف والمبالغ المتراكمة لها خلال السنوات الماضية وتولت ادارتها اسمياً ودفع ايراداتها للطائفة.

حلّ هذا القرار مشكلة مالية كبيرة للطائفة، اذ اننا كنّا في ضيق شديد في دفع رواتب الموظفين والمدرسين ونفقات المدارس واعانات العجزة والمحتاجين ومصروفات الكنائس وذبح اللحوم فضلاً عن مساعدة الموظفين اليهود العاطلين الذين اخرجوا من وظائفهم والمزمعين على السفر الذين كنّا نعينهم مالياً سواء كان سفرهم بصورة غير مشروعة أو بجوازات سفر.. وقد تفضل المحسن الكريم فرنك عيني صاحب المدرسة المعروفة باسمه فصار يرسل مبالغ شهرية لاعانة المحتاجين. وألفت لجنة خاصة برئاسة الاستاذ عبد الله عوبديا مدير المدرسة وعضوية سيدتين فضليين وأنطت بهم توزيع تلك المبالغ بعد أن أضفت اليها شيئاً من أموال صندوق الطائفة، فقامت اللجنة بواجبها أحسن قيام. ولما أعيدت أوقاف آل دانيال الينا كتبت الى المحسن الفاضل شاكراً ورجوته الكف عن ارسال اعانته لزوال الحاجة اليها.

حصلت مناقشات مع مدير الأموال المجمّدة العام خصوصاً عند تجاوز دائرته على القانون واستيلائها على اوقاف وأموال تعود الى يهود مقيمين في العراق ولم تسقط عنهم الجنسية العراقية. وقد أسندت المديرية العامة بالوكالة في حين ما الى علي الراوي رئيس التفتيش الاداري، فزرته وشكوت من تصرّفات موظفيه.

قلت له: انني عرفت اباك المرحوم السيد أحمد الراوي، وقد اشتهر بصراحته وعدم سكوته على ما كان يعدّه ظلماً وتجاوزاً على الحقوق، فسبّب مشاكل كثيرة للحكومة، رافعاً صوته كلما أنس منها انحرافاً عن الحق. وأضفت قائلا: وأنا مثله صريح وشديد على الظلم والغبن.

فقال: انني أعلم ذلك. وأنا رجل حقوقي لا أتجاوز على القانون، ومع انني هنا بصورة وقتية فلن آلو جهداً لدراسة القضايا واصلاح ما يجب اصلاحه.

لكن وكالة الراوي لم تدم سوى أشهر معدودة، وعين عبد الجبّار الألوسي مديراً عاماً أصيلاً سنة ١٩٧٣. زرته مهنئاً وكلمته عن تجاوز دائرته على حقوق بعض اليهود المقيمين في العراق، فنفى حصول ذلك. ولما ذكرت له المظالم التي حصلت احتدّ وقال: انا لا أقبل منك ان تستعمل كلمة الظلم، ونحن نتبع القانون وتعليمات وزارة الداخلية. قلت: ان تعليمات الوزارة لا يمكن ان تخالف القانون. واشتدّت المناقشة بيننا، فتدخل السكرتير ناجي چچك الذي كان يصحبني وحاول تهدئة الجوّ واعادة الصفاء.

ولا بدّ من القول اننا خلال السنوات العصيبة التي تلت حرب ١٩٦٧ حظينا برعاية السفارات الأجنبية الغربية وفي مقدمتها السفارات الفرنسية والهولندية والبلجيكية والدنمركية والاسبانية (بأمر خاص من رئيس الدولة الجنرال فرنسسكو فرانكو وزوجته). وكانت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانية مقطوعة، فقامت السفارة البلجيكية برعاية

المصالح البريطانية. فكان القنصل الانكليزي يزورني كل أسبوع أو أسبوعين في مقر رئاسة الطائفة، فيسأل عن أحوالنا ويجلب استمارات طلب تأشيرات الدخول الى بريطانية وسائر الوثائق، قائلا انه يعلم ان أبناء طائفتنا لا يحبذون زيارة دائرته فيرغب في تسهيل أمورهم. وقد نقل بعد ذلك من بغداد فزارني مصطحباً خلفه للتعرف عليه. ولما هم بالخروج ودعته الى باب الدائرة صافحني وقال: خدمت طائفتك خدمة طيبة في أدق الظروف، وقد حان الوقت لتفكر بنفسك وعائلتك. وكانت تلك اشارة لطيفة لحثي على ترك العراق.

وكان السفير الكندي، ومقره طهران، يلتقي بنا كلما زار بغداد ويقدم لنا الأوراق التي تؤهل ابناء طائفتنا للهجرة الى كندة والاستقرار فيها. وكان هؤلاء السفراء يتوسطون لدى الحكومة العراقية لتسهيل أمورنا ورفع المظالم عنّا، ويدعوننا الى حفلاتهم الرسمية، ويقدمون التقارير لحكوماتهم عن أحوالنا. وكان المركز الثقافي الفرنسي والمركز الاسباني مفتوحين لجماعتنا، فيذهب الشبان والنساء لدراسة اللغتين وقضاء الوقت.

كان أخي صالح مترجماً للسفارة الفرنسية. وفي حين امتنع الكتّاب العدول والدوائر الرسمية عن تصديق وثائقنا كشهادات الميلاد والزواج والوفاة والوكالات، حدث السفير الفرنسي في الأمر وأخذ صور توقيع الحاخام ساسون خضوري وتوقيعي، فكان السفير يصدق تواقيعنا رأساً ويرسل الوثائق الى الخارج حيث تكتسب الصفة القانونية.

زارني ممثل الملا مصطفى البارزاني في دارنا فقال ان الزعيم الكردي يسهل سفر أبناء طائفتنا الى ايران عن طريق المنطقة الكردية شمال غربي العراق، ثم ينقلون من ثمّ الى طهران واسرائيل. وفي الوقت الذي كانت الحكومة العراقية لا تمنحنا جوازات سفر استطاع أكثر من ١٣٠٠ شخص، من رجال ونساء وأطفال، العبور الى ايران من الجبال الكردية. وقبضت السلطات العراقية مرة على نحو مئتي يهودي قبل خروجهم من الحدود، فأعيدوا الى بغداد وسجنوا. راجعت أولي الأمر بشأنهم، فوافقوا بعد لأي على اطلاق سراحهم بكفالة ٥٠٠ دينار لكل فرد. فاستدعيت المحامي يعقوب عبد العزيز وقلت له: هل تستطيع ترتيب كفالات لمئتي شخص؟ قال: نعم. ان في غرفة المحامين عشرات بل مئات المحامين المتخرجين حديثاً والذين يستعدون لأي عمل، وفي وسعي أن اختار فئة منهم للتوقيع على الكفالات وانجازها فوراً. وطلب ١٠ دنانير لكل كفالة، ٥ لنفسه و ٥ دنانير أخرى للمحامي الكافل، فأوعزت الى محاسب الطائفة باعطائه المبلغ. ولم يمض يوم واحد حتى أنجزت الكفالات وخرج الجميع من السجن. وتمكن اكثرهم بعد مدة قليلة من معاودة السفر الى الشمال والانتقال الى ايران.

راقبت سفر اخواننا الى ايران فراراً من الظلم والهلع عن طريق جبال كردستان الوعرة، فقلت:

(١)

في جبال الكرد، في ظلّ السماء،	يشرف الله من الأفق الرفيع
فيرى الكون غريقاً في الضياء	وهدوء الصبح والصخر المنيع.
في مضيق وَعِرٍ بين الجبال	موكب كالنمل يسعى في الطريق،
أسرة قد ركبت ظهر البغال	هرباً من ظلم جلّاد صفيق.
ورأى الله مرور القافلة	بين أخطار الصخور الهائلة

تتحدّى الموت يرنو في الحضيض،

قال: بارك، أيها الفجر الجميل،	موكب الحريّة الغضّ الضئيل

وليفز بالأمن والنور العريض.

(٢)

يـا أخـي الانـسـان، حـمـداً وافـراً بـعـد يـأس وعـذاب فـي الـوطـن.
قـد بـلـغـت الأمـن يـومـاً عـابـراً بـبـحـر إرهـاق لـروح وبـدن.
كـم سـهـرت الـلـيـل والـخـوف الـشـديـد يـعـصـر الـقـلـب كـكـابـوس ألـيـم!
يـا لـويـل الـغـد يـأتـي بـالـجـديـد بـالأسـى، بـالـمـوت، بـالأمـر الـوخـيـم.
إنّ هذا الفكـر حيـران بديـد، هـذه الأعـصـاب لـيـسـت مـن حـديـد،
كـم يـطـول الـصـبـر، كـم يـبـقـى الـرجـاء؟
تـلـك أيّام مـضـت، لا رجـعـت! فـانـسـهـا قـد أبـطـأت أو أسـرعـت،
وتـمـتّع بـالـمـنـى، زال الـعـنـاء!

(٣)

انّ لـلإنـسـان حـقـاً في الحيـاة، أيهـا الظـلاّم سَفاكـو الدمـاء.
لا أقـول اليـوم: رفقـاً يا طغـاة، رسل الارهـاب أنـتم والفنـاء.
وضـحـايـاكـم، مـن الـقـبـو الـعـمـيـق، مـن بـطـون الأرض، مـن فـوق الـمـشـانـق،
فـي قـيـود الـذلّ، فـي أسـر الـرقـيـق، كلّ حـرّ النفـس مقـدام وصـادق،
مـنـهُمُ مـن ذاق آلام الـسـجـون وقـضـى فـارتـاح فـي حـضـن الـمـنـون،
أو جـفـاه الـمـوت فـاخـتـار الـبـقـاء،
كـلّهـم جـمـع الـضـحـايـا الأبـريـاء، فـي ربـوع الأرض أو مـثـوى الـعـلاء،
أمـنـوا شرّ أذاكـم والـبـلاء.

اختطاف واغتيال

هدأت الأمور قليلاً وأخذ أفراد طائفتنا يحصلون على جوازات سفر ويغادرون العراق بصورة منتظمة. واذا بنا نفاجأ في ١٤ أيلول ١٩٧٢، قبل يوم واحد من عيد الغفران، بفقدان المحامي يعقوب عبد العزيز(٥٦). ولما سألت عنه قيل لي لعلّه هرب الى ايران. فقلت لم يهرب أحد بصورة غير مشروعة في الأشهر الأخيرة لأن الجوازات متيسرة، كما ان هذا الرجل متعلق بالعراق ولم يبد أية رغبة في مغادرته.

وتعاقب فقدان الأشخاص والقبض عليهم حتى بلغ عددهم الى شهر نيسان من السنة التالية ٢٥ شخصاً يضاف اليهم ثلاثة اعتقلوا(٥٧) واستطعت انقاذهم من السجن والتعذيب والموت. وقد راجعت السلطات وكتبت العرائض والبرقيات الى رئيس الجمهورية ونائبه والوزراء فلم أحظ بنتيجة، ولم يظهر لأحد من أولئك المخطوفين والمعتقلين أثر، بل نهبت دورهم واستولت سلطات الأمن على أموالهم بلا رادع ولا وازع(٥٨).

وكانت فاجعة الفواجع مقتل روبين قشقوش وزوجته وولديه وابنته في دارهم صباح ١٢ نيسان ١٩٧٣، ولم يبق من تلك الأسرة المفجوعة سوى بنت واحدة ذهبت الى الكلية للدراسة وعادت لترى دار ابيها خالية ومنهوبة. لم يعثر على جثث المقتولين ولم يعرف مصيرهم الأخير. وقد جلبت الفتاة التي فقدت صوابها وسلمتها ل ممرّضة فاضلة أخذتها الى دارها وأبقتها تحت رعايتها حتى تسنّى تسفيرها الى اسرائيل بعد بضعة أسابيع.

وفي حزيران ١٩٧٣ حاول اللواء ناظم كزار مدير الأمن العام قلب نظام الحكم وقتل رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدّام حسين التكريتي تمهيداً للاستيلاء على السلطة. كان البكر في زيارة للاتحاد السوفييتي، لكنه عاد متأخراً بضع ساعات عن الموعد المقرر فكشفت حركة ناظم كزار وأخمدت في مهدها. وقبض على كزار بعد محاولته الهروب الى حدود ايران فأعدم مع ٣٦ شخصاً من أعوانه. وجرت غربلة كليّة في مديرية الأمن العام، فسجن الكثير من موظفيها وفصل الآخرون من الخدمة أو نقلوا الى الألوية البعيدة. وقيل لي بعد ذلك ان ناظم كزار وأعوانه كانوا المسؤولين عن حوادث خطف اليهود واعتقالهم وتعذيبهم وقتلهم والقاء جثثهم في دجلة أو دفنها في أماكن مجهولة. ولما طلبت من السلطات المختصة تحريرياً وشفهياً تأييد ذلك كتابياً رفضت اجابة الطلب واكتفت بالبيان الشفهي.

وقف الخطف والقتل بعد ذلك فعلاً. وقيل أن ناظم كزار قال للرئيس البكر قبل اعدامه: لقد فتكت بالآلاف تثبيتاً لحكمك فتجازيني الآن هذا الجزاء المرّ؟ غير أن كلامه ذهب أدراج الرياح.

وأعود الى موضوع الأشخاص الثلاثة الذين استطعت انقاذهم من الموت في شهر كانون الأول ١٩٧٢ بمساعدة خير الله طلفاح محافظ بغداد، وهو خال صدّام حسين وأبو زوجته. وفي الحقيقة كان خير الله رجلاً رهيباً لا ضمير له ولا مبدأ، يدعي العروبة والوطنية ويشيد بالاسلام بينما هو يبتزّ الأموال والأراضي ويستهين بالأرواح والنفوس.

كان معاونه محمد فائق محمود صديقاً لي. فلما أوقف توفيق سوفير وسليم دلاّل وعزيز عربوك خادم المرحوم الحاخام ساسون خضوري وهم خارجون من صلاة المساء وغاب أثرهم، زرت خير الله في ديوان المحافظة، فوجدت لديه عدة أشخاص وهو يحاكمهم اعتباطاً، فيهدد بعض الشبان بالقصاص لأنهم لم يخصصوا راتباً لوالدهم، ويأمر رجلاً آخر بمصالحة زوجته والكفّ عن طلاقها، وكأنه شيخ عشائري يقضي بين أتباعه في البادية. ولما فرغ من شأنه قلت له: لقد كثر خطف المواطنين اليهود في الآونة الأخيرة ولم يظهر لهم أثر. وقبض أمس على ثلاثة رجال كانوا خارجين من الكنيس في المساء ولا نعلم من أمرهم شيئاً.

قال: أنا لست راضياً عن الخطف والارهاب، وهذه الأمور لا تختصّ باليهود بل تعمّ المسلمين أيضاً. فلماذا يعارضون الحكومة ويعملون ضدّها؟ قبل أيام قتل الشيخ عبد العزيز البدري وألقيت جثته عند جامع الامام الأعظم...

قلت: ان جماعتنا لا يعارضون الحكم ولا ينافسونكم على الكراسي، وجلّ رغبتهم ان يعيشوا بسلم وأمان.

قال: أنا لست راضياً عن هذه الأمور، ولكن ما شأني في القضية ولماذا تراجعني؟

قلت: انك محافظ بغداد ونحن أهل بغداد فمن واجبات وظيفتك أن تحافظنا.

قال: هذا منطق صحيح، وأنا أحب المنطق.

عند ذلك خابر تلفونياً ناظم كزار مدير الأمن العام وسعدون شاكر مدير أمن حزب البعث وغيره من رجال الأمن فأكدوا له جميعاً انهم لا يعلمون بتوقيف هؤلاء الأشخاص ولم يسمعوا بهم.

ولما ألححت عليه بالبحث عنهم وعد أن يفعل.

وكلمني معاونه بعد أيام وقال ان خير الله قال له: ان مير بصري قطع عليّ السبيل، فأنا ذاهب الى صدام اليوم، فإمّا أن يعثر على هؤلاء الثلاثة ويفرج عنهم واما أن انهي الموضوع.

ذهبت الى المعاون ولم يلبث المحافظ ان جاء، فاستدعاني وقال لي: لقد عثر على هؤلاء الأشخاص في معتقل قصر النهاية وأمر نائب الرئيس باطلاق سراحهم فوراً.

ولم أعد الى البيت حتى أخرجوا من السجن الرهيب. وجاءت زوجة أحدهم به الى دارنا، فاذا به شبه مجنون من التعذيب والارهاب.

وقف خطف اليهود عدة أسابيع ثم استؤنف الاختطاف. فذهبت الى خير الله طلفاح فقال لي: لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت. لقد غاضبت جماعتي من أجل اولئك الثلاثة حتى أنقذتهم من الموت الأكيد.

وبعد فمها يكن من أمر خير الله فأنا أسجّل له هذه الحسنة. فهل أستطيع أن أقول فيه كما قال الشاعر كورناي في الكردينال دي ريشليو:

مهما قيل في الكردينال الشهير فانّ نثري وشعري لن يقولا شيئاً عنه.

لقد أحسن اليّ فلا أذكره بسوء، وأساء اليّ فلا أذكره بخير!

في سنة ١٩٧٣ أعلنت الحكومة انها تمنح المساواة للمواطنين اليهود في الحقوق والواجبات. وكانت الخطوة الأولى تطبيق قانون التجنيد الاجباري على الشبان اليهود، فجنّدت شاباً من أهل بلدة الحيّ. لكنها لم تدربّه على استعمال السلاح بل جعلته كاتباً في مركز حامية بلدته.

ضاق الجندي ذرعاً بحياة المعسكر، فطلب اجازة وجاء الى بغداد واقترن بفتاة. ودبّر الأمر مع زوجته نفرّا الى اسرائيل عن طريق ايران.

وقد سألت عنه بعد ذلك فقيل لي انه لم يلبث ان جنّد في الجيش الاسرائيلي!

مناجاة الأرواح

في شتاء ١٩٧١/٧٢ أخبرني الصديق مصطفى علي الأديب ووزير العدل السابق ان جماعة من أصدقائه يعقدون كل ليلة سبت جلسة مناجاة الأرواح ويستحضرون أرواح فريق من أصحابهم ويكلمونهم بطريقة الأقداح ويسجلون أجوبتهم. سألني هل أرغب في حضور بعض تلك الجلسات، فوافقت.

وفي مساء الجمعة رافقت الصديق الى دار صاحبه، فدخلنا الى غرفة كبيرة توسطتها مائدة جلس حولها عدة كهول وشيوخ من المحامين والحكام المتقاعدين.

جلسنا الى جانبهم والسكوت يخيم على القاعة. وكان على المائدة ورقة كبيرة كتبت عليها حروف الهجاء وبعض الكلمات المألوفة. وكان قدح فارغ أمام صاحب الدار وجلس ازاءه زميل له، بينا تحلقنا بينهما. وكان أمام أحد الاخوان دفتر كبير يسجل فيه المحادثات.

ثم عتمت الأضواء وأطلق البخور الذي أضفى على جوّ القاعة روحانية تأخذ بمجامع النفوس وتحلّق بها في أعلى عليين.

فتحت الجلسة باسم الله. واستأذنت القوم في ترتيل شعر نظمته لهذه المناسبة:

هفت النفس الى الغيب المصون ... واعترتها هزّة الوجد المثير
أتي سحر! بهر النور العيون ... واجتلى الأشباح في مسرى الأثير

خثر الإحساس واعتلّ الشعور، ... وغدا الجسم كشفاف الثياب
ضمّ روحاً من هَيُولى، والبخور ... يغمر الجوّ بطيب وضباب

وسرت من أفق ناءٍ رفيع ... نغمات مثل أنسام الربيع
تحمل الحبّ وأنفاس الخلود

فتناجت في سكون وصفاء ... أنفس قد ظهرت بعد الخفاء
حرّة تختال في سحر الوجود

ثم بوشر استدعاء الروح الوسيطة التي تكون حلقة الوصل بين الجماعة والأرواح السماوية. ووضع صاحب الدار اصبعه على القدح كما وضعها زميله من الجهة الأخرى. وتحرّك القدح ناقلاً الاصبعين الى الحروف على الورقة التي توسطت المائدة. وكان جواب الروح يأتي حرفاً فحرفاً فيقرأه القارىء ويسجله في الدفتر. فاذا ما هدأ القدح جمعت الحروف في كلمات وجمل وقرئت على الجمع قبل الشروع بمحاولة أخرى.

قال لي الأخوان انهم في جلساتهم استدعوا أرواح عدد من أصدقائهم الذين مضوا الى الرفيق الأعلى وحادثوهم فأجمعت الأرواح على حثّهم على العمل الصالح والتمسك بأذيال الخير والطيبة وحبّ التفاهم والسلام والابتعاد عن الشرّ والأذى. وقالوا انهم استدعوا أرواح أناس من مختلف الطوائف والأديان، من مسيحيين ومسلمين وصابئة ولكن لم يعرفوا يهودياً يحادثونه. وسألوني هل يتهيأ لي ان استدعي روحاً يهودية؟

في تلك السنة توفي صديقان لي: الحاخام ساسون خضوري في بغداد والاستاذ عزرا حداد في اسرائيل. فارتأيت أن أطلب حضور روح الأخير، وقلت للروح الوسيطة: ايتها الروح الطيبة، هل يمكن ان تحضري لنا روح عزرا حداد المربي الفاضل الكاتب الأديب؟ وكان الجواب الذي سجله المسجل حرفاً فحرفاً ان المومأ اليه مشغول في ندوة روحية ولعله يستطيع الحضور في فرصة اخرى.

وفي ليلة تالية طلبنا حضور روح عزرا حداد فحضرت. وقلت: أيها الصديق العزيز، علمت بوفاتك وحزنت لذلك كثيراً. وحين غادرت بغداد قبل أكثر من عشرين سنة جئت لزيارتنا. وكان في دارنا الحاخام ساسون خضوري، فحصلت بينكما مشادّة حاولنا تسويتها حسب امكاننا. قلت له انك صحبته عمراً طويلا فلم تجد منه الا التعالي والتأمّر والارهاق. والآن وقد خلع رداء الحياة الأرضية هل تجتمع به وهل حلّ بينكما الصفاء؟

وكان جواب الروح قاسياً اذ قال: انكم، يا أهل الأرض، قد انطوت نفوسكم على الحقد والنزاع، أما نحن فقد صفت أرواحنا ولا نشعر الا بالحب والوئام. وقد التقيت الحاخام، ونحن نجتمع ونتحدث ونتذاكر في الأمور على أتم ما يكون من الود والصفاء.

تلك مناجاة أرواح غريبة أسجلها بصدق واخلاص. واذكر ان الجماعة لم يكونوا يعلمون من هو عزرا حداد ولا علاقته بالحاخام ساسون خضوري، فلا يمكن ان يكون هناك وهم وخداع. ومع ذلك فالعقل قاصر عن ادراك أسرار ما بعد الموت وحقيقة استحضار الأرواح. وقد آمن بذلك علماء وأدباء وفلاسفة كبار أمثال السر وليام كروكس (Sir William Crooks) والسر آرثر كونان دويل (Sir Arthur Conan Doyle) ووليام بليك (William Blake) والسر أوليفر لودج (Sir Oliver Lodge) العالم الفيزيائي الكبير الذي اذّعى الاتصال بروح ولده ريموند الذي قتل في معارك الحرب العظمى (١٩١٥) ووضع في ذلك كتاباً. أما أنا فأقول: لست أدري، وفوق كل ذي علم عليم!

وقد حدثني مصطفى علي عن روح امرأة فارسية اتصلت بالجماعة وحدثتهم عن قصتها فنظمت القصة شعرا:

من عالم الأرواح

(١)

جلس الصَّحْب بصمت وخشوع، قد أحسّوا بحضور كالأثير،
كبَخُور في ذرى الجوّ يضوع، كسلام يطلق الفكر الأسير
من وراء الغيب، من مثوى الخلود قدمت روح، أطلّت من علاء
حرّة من قيد خوف وجمود، أشبهت في كُنهها لطف الهواء
حملت من عالم النور البعيد نبأ عن مجمع ناءٍ سعيد

فأصاخ الجمع، يا طيب النداء!

ها هنا، في حيّز الأرض البهيم، قبس لاح من الكون العظيم،

كوّة قد فتحت نحو السماء

(٢)

قالت الروح: أنا سرّ الهَيُولَى، ذرّة النور الذي يغشى الرحاب،

في ربوع الأرض قد رمت المثولا، فهنا قضيت أيام الشباب

كنت بنتاً لأمير فارسِ قبل ألف من سِنِي الأرض القصيرة،

وحياتي، كالشتاء القارس، ذبلت في محنة العمر المريرة

قد عرفت الحبّ لكن في العذاب، وتذوّقت هناءً كالسراب،

وبلوت الموت حلماً في التراب

وسمت روحي بطهر وصفاء، بلغت أوْجاً عليّاً في الخفاء

حبّذا من رحلة الأرض الإياب

الحاخام ساسون خضوري

من الشخصيات اليهودية البارزة في العراق الحاخام الأكبر ساسون خضوري الذي تولّى شؤون الطائفة الدينية والمدنية أكثر من نصف قرن. كان عالماً فقيهاً متبحراً في الدين الموسوي، لكنه كان أكثر من ذلك سياسياً وادارياً قديراً، ولو أنه كان يؤمن ان الغاية تبرّر الوسيلة ويعتقد ان وجوده ضروري لتأمين مصالح طائفته وصلاتها بالسلطات الرسمية. وكان لذلك يقدم مصلحته الشخصية على المصلحة العامة اعتقاداً منه بأنه بذلك يستطيع خدمة الناس على الوجه الأفضل. وكثيراً ما كنت أقول له انه أشبه بوزراء فرنسة الكردينالية ريشليو ومازاران ودوبوا وفلوري والكردينال توماس بولسي (Wolssy) الانكليزي وزير الملك هنري الثامن، والقياس مع الفارق طبعاً.

تدرج الحاخام ساسون في الوظائف الدينية منذ شبابه، وأفاد من صلته الوثيقة بالحاخام حسقيل وولديه شاؤل التاجر وساسون وزير المالية ليتقدم مُنحّياً الحاخامين الكبار الذين سبقوه بكل وسيلة. فكان عضواً في المحكمة الدينية فرئيساً لها فرئيساً للحاخامين. وفي سنة ۱۹۳۰ اتفق الحاخامون مع روبين بطاط المحامي وسائر أعضاء المجلس الجسماني لعزله بعد أن ضاقوا ذرعاً بأساليبه الملتوية، فنسبوا اليه مخالفة أحكام الدين وحرّموه ونزعوا عنه صفة الحاخامية. وخرجت المظاهرات من أبناء الطائفة اليهودية المسالمة تقصد البلاط الملكي وسراي الحكومة مطالبة بتنحيته عن رئاسة الحاخامين. ولم تر الحكومة بدأ من تلبية الطلب رغبة في استتباب السكينة.

حدثني أن رئيس الوزراء نوري السعيد جاء اليه في داره بنفسه وقال له ان الأمور قد تفاقمت وان الطائفة بزعمائها الدينيين والأهليين مجمعة على فصله، ولذلك لم يبق مناص من تنحيته. لكنه أثنى عليه وأحسن له القول وأمّله أن يعود الى منصبه بعد هدوء العاصفة. ثم قال له: هناك مرشحان لوظيفته أحدهما الحاخام سلمان عبودي عضو المحكمة الدينية والآخر الحاخام ابراهيم أصلان فأيّهما يراه الأصلح للتعيين؟

قال لي الحاخام ساسون: فكّرت ان الحاخام سلمان صغير السنّ في الحادية والثلاثين من عمره، وهو قدير واسع الاطلاع، فاذا تولّى رئاسة الحاخامين بقي فيها عشرات السنين. أما ابراهيم أصلان فشيخ معتزل للناس قليل الخبرة في الشؤون الدنيوية، واذا عيّن للمنصب المرموق فلا يحتمل ان يبقى فيه سوى أمد قصير. ولذلك قلت لرئيس الوزراء: ان الحاخام سلمان صغير السنّ لا يملك من الهيبة والوقار ما يهيئه للرئاسة. واقترحت تعيين الحاخام ابراهيم أصلان، وهكذا كان.

وقال لي الحاخام ساسون: انه في خلال فترة اعتزاله العمل استعمل بعض العجائز من النساء لزيارة دار الحاخام داود الحاخام يعقوب زعيم الفئة المناوئة له بصفة فقيرات متسوّلات أو صاحبات حاجة لاستطلاع أخبار الاجتماعات التي يعقدها الحاخامون في داره للمذاكرة في شؤون الطائفة. ولم تمرّ فترة طويلة حتى أصدرت الحكومة قانون الطائفة الاسرائيلية ليحل محل القانون العثماني القديم، فخلقت منصب رئيس الطائفة وجعلت وظيفة رئاسة الحاخامين ثانوية لا علاقة لها بغير الشؤون الدينية.

استطاع الحاخام ساسون خضوري خلال هذه المدة القصيرة ان يصالح الحاخامين ويرأب الصدع مع أبناء الطائفة، فأعيدت اليه صفة الحاخامية ورفع الحرم عنه وانتخب رئيساً للطائفة، فاستمرّ في وظيفته ١٦ سنة حتى استقال سنة ١٩٤٩ قبيل صدور قانون اسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين وهجرتهم الجماعية الى اسرائيل. وفي سنة ١٩٥٣ استقال حسقيل داود شمطوب رئيس الطائفة فرشحت وزارة العدلية للرئاسة ابراهيم الكبير أو أنا، فلما رفضنا المنصب اختارت الحاخام ساسون للرئاسة مرة أخرى فباشر العمل الى وفاته سنة ١٩٧١.

كان الحاخام في أثناء الحكم الملكي يثبّت بعد انتخابه بارادة ملكية، فيذهب الى البلاط لشكر الملك او الوصيّ على العرش على اقرار تعيينه. وقد حدثني انه حين انتخب لرئاسة الطائفة في سنة ١٩٤٩ قابل الأمير عبد الاله فسأله كم مرة انتخب للرئاسة. أجاب الحاخام ساسون: انتخبت أربع مرات مثل الرئيس روزفلت!

ولما قامت ثورة ١٩٥٨ كان الحاخام يزور الزعيم عبد الكريم قاسم ووزراءه. وكان وزير الداخلية أحمد محمد يحيى شديد الاعتقاد بقداسة الدين الموسوي. قال للحاخام: ماذا مكتوب في أسفاركم عنّا؟ ان أسفاركم لا تكذب أبداً. فأجابه: خير، كل الخير. وطلب الوزير ان يعمل له الحاخام تميمة تحمل اسم الله يتبرّك بها. فعمل له التميمة وقدّمها له في علبة فضية، وأخذها وقبلها ووضعها في جيبه. لكنه أعاد العلبة قائلا انه لا يقبل هدية ثمينة.

شهد الحاخام ساسون في حياته الطويلة العزّ والهوان. بعد حرب ١٩٦٧ اعتقل نحو ستين يهودياً من الوجهاء ورجال الاعمال والمهنيين بأمر من رئيس الوزراء طاهر يحيى. وقد حاول الحاخام مواجهته فلم يأذن له. وذهب الحاخام مراراً في الصباح الباكر الى داره فمنعه الحرّاس من الدخول. واضطر وهو الشيخ العاجز الذي تجاوز الثمانين ان يبقى قابعاً في السيارة في انتظار خروج طاهر يحيى، فاذا خرج ركب سيارته ومضى الى مكتبه دون أن يلتفت اليه.

ومضت سنة واحدة وسقط حكم الطاغية في ثورة البعث في تموز ١٩٦٨، فقبض عليه وأودع سجن قصر النهاية الرهيب حيث شدّد عليه النكير وعذّب وأهين. حدثني احد الذين كانوا معتقلين معه ان سجّانيه كانوا يربطون عنقه بالحبل ويرغمونه على المشي على أربع كالكلب، ثم يسحبونه ويركلونه ويضربونه بالسوط مجبرين اياه على النباح. وقد أطلق سراحه بعد أكثر من سنتين والزم بالاقامة في بلده تكريت وأدركه الأجل فيها سنة ١٩٨٦ غير مأسوف عليه.

توفي الحاخام ساسون خضوري في ٢٤ أيار ١٩٧١ فحصل له تشييع عظيم اشترك فيه ممثلو الحكومة ورؤساء الدين المسلمين والمسيحيين فضلا عن أبناء الطائفة اليهودية الذين كانت عدّتهم تزيد على الألفين من رجال ونساء وشباب. وقامت دار الاذاعة والتلفزيون والصحف بتأبين الفقيد وذكر خدماته للشعب العراقي. ثم أقمنا له مجلس صلاة في مدرسة فرنك عيني لمدة سبعة أيام حضره المئات من رجال الدولة والكنائس وأبناء الشعب.

اعتقد ان سبب اهتمام الحكومة البعثية بالاحتفال بوفاة رئيس الطائفة انما كان حافزه الرغبة في تحسين صورتها في العالم الخارجي بعد أن اشتدت الحملات الدعائية عليها لاضطهادها المواطنين اليهود وسلب حقوقهم وحريتهم. ولعلها اقتدت بما فعله الرئيس المصري جمال عبد الناصر عند وفاة الحاخام الأكبر حايم ناحوم افندي في تشرين الثاني ١٩٦٠ اذ جعل من تشييعه ورثائه شبه مهرجان وطني.

ويحسن بي أن أقول كلمة في ناجي الياهو چَچَكْ سكرتير الطائفة من ١٩٥٣ الى وفاته في بغداد في نيسان ١٩٨٧ عن ٧٤ عاماً. انتمى الى كلية الحقوق وتخرّج فيها ومارس المحاماة. وفي سنة ١٩٣٧ رغبت الحكومة في اعداد ضباط شرطة ذوي ثقافة قانونية وفتحت دورة مسلكية لتخريج الحقوقيين. وقد دخل ناجي في هذه الدورة وأصبح بعد ثلاثة أشهر

معاون مدير شرطة، وتنقل بهذه الصفة في قضاء المسيّب وبغداد والبصرة. وقيل لي انه كان ضابطاً حازماً قوياً يجلب المجرمين والفلاحين والسراكيل وكلاء الشيوخ المخالفين فيودعهم الموقف ويضربهم ضرباً مبرّحاً. وفصل عن المسلك سنة ١٩٤١ لانتقاده الانكليز علناً بعد ان نزلت جيوشهم في البصرة، فعاد الى مزاولة المحاماة حتى عين سكرتيراً للطائفة حيث أبدى نشاطاً محموداً.

عزرا حداد (١٩٠٠ ـ ١٩٧٢)

كان صديقنا عزرا حداد([٥٩]) مربياً فاضلاً وأديباً كاملاً يتصف بتواضع العلماء والجدّ المتصل ليلا ونهارا. نقل الى العبرية طرفا من رباعيات عمر الخيام شعر([٦٠])، فأثنى عليه أحمد حامد الصرّاف في كتابه عن الشاعر الفارسي. ثم ترجم الى العربية رحلة بنيامين التطليلي الاندلسي سنة ١٩٤٥ صدرها بمقدمة وافية ووضع لها شروحاً وحواشي، وكانت موضوع تقدير مؤرخ العراق عباس العزاوي. وأقامت له الليدي دراور، زوجة السر أدوين دراور مستشار وزارة العدلية، وكانت امرأة فاضلة ألفت كتباً عن الطوائف العراقية وعاداتها وطقوسها، حفلة تكريم في دارها حضرها نخبة من الأدباء والموظفين ورجال الفضل من العراقيين والانكليز.

حدثني عزار حداد انه، حينما كان مديراً للمدرسة الوطنية سنة ١٩٢٣ أخذ كشافة مدرسته في يوم جمعة الى النزهة في المكان المعروف آنذاك بالخندق في منتصف طريق الأعظمية. كانت بغداد صغيرة الرقعة، غير معبّدة الطرق، فسقط بعض التلاميذ الصغار في أثناء اللعب في الحفر التي تملأ الأرض الخالية.

كان على مقربة من المكان معسكر للجيش العراقي الناشيء، فبادر الضباط والجنود الى اسعاف التلاميذ ورعايتهم وأخذوهم الى المعسكر فقدموا لهم الشاي والكعك. ودعا عزرا حداد الضباط الى زيارة مدرسته. وبعد أسابيع قليلة جاء الى محلة قنبر علي لفيف من الضباط بملابسهم العسكرية وأشرطتهم الزاهية راكبين على خيولهم ووراءهم الجنود، فزاروا الصفوف وتفقدوا الطلاب وتناولوا الشاي والحلوى.

وتقاطر أهل المحلة لرؤية المشهد الرائع وقابلوا رجال الجيش بالتصفيق والهتاف.

وكان الحاخام ساسون خضوري رئيس الطائفة على صلة طيبة بالسيد أبي الحسن الموسوي مرجع الشيعة الأكبر، فكان يزوره بين الحين والحين. ولما توفي السيد ذهب الحاخام على رأس وفد من رجال الطائفة الى النجف للتعزية بوفاته، فاستقبل في الحلة والنجف باحترام كبير.

وفي زيارة له للسيد أبي الحسن قال له في معرض الكلام انه يعتمد على القاضي الشرعي مهدي سميسم في كتابة رسائله وفتاواه. فقال الحاخام: وأنا عندي مدير المدرسة عزرا حداد أدعوه كلما احتجت الى تدوين خطاب او رسالة مهمة.

ومنذ ذلك الحين صرنا نسمي عزرا حداد «سميسم الحاخام».

وكانت أسرة حداد ملتزمة للمقبرة منذ القديم. وفي سنة ١٩٤٨، وكنت نائب رئيس المجلس الجسماني، قلت للحاخام ساسون ان حالة المقبرة زريّة ويحسن تنظيفها وزرع الاشجار فيها. وذهبنا لتفقدها واستدعينا حسقيل حداد وسألناه أن يعنى بالتنظيف والتحسين.

وجاءني عزرا حداد في اليوم الثاني ودخل، وبدلا من أن يحييني، صاح بي: حتى انت، يا بروتوس! (كان بروتوس صديق يوليوس قيصر الذي انقلب عليه وتآمر على قتله في مسرحية شكسبير). وعجبت للأمر فقلت له: تفضل اجلس

وقل لي ما القضية؟ فخفف من حدته وقال لي: ألا تعلم ان التزام المقبرة يعود الى ماضٍ قديم، فكيف تريد ابطاله؟ قلت: أولا انني لم أكن أدري ان حسقيل حداد أبوك، وثانياً كيف أريد ابطال الالتزام؟ انني انما طلبت تنظيف المقبرة، وذلك جماع الأمر.

وأذكر ان مير حداد(٦١) شقيق عزرا كان يعلم اللغة الانكليزية للسيدة فضيلة زوجة رئيس الوزراء صالح جبر. وفي أثناء الحركة المعروفة بالوثبة لاسقاط معاهدة بورتسموث قامت المظاهرات الصاخبة ضد الوزارة والمعاهدة. كان مير حداد جالساً يصبغ حذاءه في دكان بساحة شارع الرشيد، فاذا بالمظاهرة تسير والشرطة تتعقبها.

ولم يكن من صاحب الدكان الا ان يبادر الى غلقه. ولما اعاد فتحه حين هدأت الحالة، جاءت الشرطة واعتقلت الجالسين متهمة اياهم بالاشتراك في المظاهرة، فأودعوا في مركز الشرطة دون اهتمام بتنصلهم واحتجاجهم.

وأبلغ الخبر الى عقيلة رئيس الوزراء فكلمت مديرالشرطة العام وأمرته بالافراج عن معلمها. وجاء معاون الشرطة، وقد تملكه الفزع، فقال: من منكم مير حداد؟ قال: انا.
ـ تفضل اخرج!
ـ لا أخرج!
ـ كيف لا تخرج؟ اتريد ان تجلب علينا نقمة رئيس الوزراء؟

فقال مير حداد: هؤلاء كانوا معي ولم يشترك احد منهم في المظاهرة، فلا أخرج حتى تطلق سراحهم.

وكان كذلك، فخرج صاحبنا يتبعه خمسة او ستة من الموقوفين يسيرون وراءه كالجنود وراء قائدهم.

الملوك والحكّام

أودّ أن أقول كلمة مختصرة في الملوك والرؤساء الذين حكموا العراق منذ سنة ١٩٢١. وقد ترجمت في كتابي «أعلام السياسة في العراق الحديث» الذي صدر في لندن سنة ١٩٨٧ لرجال الحكم الذين تعاقبوا الى سنة ١٩٦٣، وكان أولهم:

الملك فيصل الأول

ابن الشريف حسين ملك الحجاز، جاء الى بغداد في صيف ١٩٢١ وتوّج ملكاً في ٢٣ آب. كان قائداً عظيماً ورجل دولة حيّ الضمير حاول ان يصهر مختلف الأديان والطوائف والفرق في دولته الجديدة في بوتقة الوطنية العراقية. دعته الطائفة في ١٨ تموز ١٩٢١ قبل أن يلي الملك الى حفل حافل خطب فيه خطاباً جاء فيه ــ كما قال يوسف رزق الله غنيمة ــ من المبادىء الدمقراطية آيات بيّنات، ومن ألفاظ الحرية ما سحر القلوب وخلب الألباب، ومن مواعيد المساواة ما كان أندى من زلال الماء على الأفئدة، ومن روح التساهل ما رقص له القوم وطربوا. ثم جيء له بسفر التوراة مصوناً بغلاف من الذهب فقبله.

توفي الملك فيصل سنة ١٩٣٣ فخلفه ابنه غازي على العرش، وكان شاباً غريراً لم يحسن السيطرة على وزرائه وقتل في حادث سيارة سنة ١٩٣٩. وكان ابنه فيصل الثاني في الرابعة من عمره فأعلن ملكاً بوصاية خاله الأمير عبد الاله. وحدثني محمود صبحي الدفتري قائلا: لم أشهد في حياتي انساناً تتغيّر أخلاقه وتتطوّر الى الأسوأ مثلما شهدت في شخص عبد الاله. فقد اختير وصياً وهو شاب حيّي مهذب ساكن النفس. ومرّت أعوام قليلة فاذا به يخرج عن طوره ويصبح رجلا شرساً أنانياً، شديد الحقد، سريع الغضب، لا يرعى لأحد حرمة. وقد كان لتصرّفاته أسوأ الأثر في تلاطم أمواج السياسة وتعقيد الأزمات وقيادة البلاد الى هاوية لم تجد نهايتها الا في ثورة تموز ١٩٥٨.

عهد الثورات

قام الزعيم عبد الكريم قاسم بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فقضى على الملكية وأعلن قيام الجمهورية، وحكم العراق أربع سنوات ونصفاً. تجاذبته التيارات المختلفة ذات اليمين وذات اليسار، من وطنية وقومية وناصرية وشيوعية وبعثية وانتهازية، فحافظ على توازنه بصعوبة بالغة ومهارة عجيبة كالسالك على الحبل الممدود في الهواء. كان رجل عزم وايمان يقرّر الأمر ويسرّه في صدره حتى ينفذه يوماً من الأيام. وهو الى ذلك انسان عاطفيّ سريع التأثر، كثير الرأفة والحنان، نزيه مخلص لا تغرّه المادة ولا يستهويه الترف والثروة. لكنه كان ثرثاراً كثير الكلام مزهوّاً بنفسه هائماً بالمجد نازعاً اليه مغتبطاً بالزعامة والسلطة. وقد ثار عليه نفس الرجال الذين تآمروا عليه وعفا عنهم فهدروا دمه في ٩ شباط ١٩٦٣.

استولى عبد السلام محمد عارف على مقاليد الأحكام وأصبح رئيساً للجمهورية. اتّسم بالجرأة الفائقة والانتهازية الواضحة، وكان، بخلاف عبد الكريم قاسم، متهوراً حقوداً متعصباً متعجلا للأمور لا يحسب للعواقب حساباً. ولم يطل به العهد اذ قضى نحبه في حادث سقوط طيارته في ١٣ نيسان ١٩٦٦، فنودي بأخيه الفريق عبد الرحمن عارف رئيساً خلفاً له.

وماذا أقول في عبد الرحمن؟ كان رجلا طيباً متسامحاً، ضعيفاً في ادارته خضع لسلطة الجيش ورؤسائه. ونحي عن الحكم في ثورة تموز ١٩٦٨ فاستسلم وغادر البلاد، ثم عاد الى العراق بعد عدة سنوات واعتزل في داره.

جاءت الثورة الجديدة بحزب البعث الى كراسي الحكم وتولى أحمد حسن البكر رئاسة الجمهورية. وكان عهده وعهد نائبه صدام حسين التكريتي الذي خلفه في الرئاسة سنة ١٩٧٩ عهداً دموياً رهيباً كثر فيه الارهاب والاعتقال والتشريد والتقتيل. وأعلنت الحرب على ايران سنة ١٩٨٠ فجرح وقتل فيها مئات الآلاف. كمّت الأفواه وشلّت الأيدي، وقيّدت الأفكار، وسلّط الجلاوزة على أفراد الشعب فملأ قلوبهم الخوف وانطووا على أنفسهم يحذرون الوشاة من الأقارب والأباعد. وقد قلت في ذلك من قصيدة:

شقي العـــراق بـــزمـــرة رعـــنـــاء قـــد	نـــصـــبـــت لأحـــرار الـــورى الأشراكـــا
وتـــربّعـــت فـــوق الـــكـــراسي لم تـــدع	في الحكـــم الآ خـــانـــعـــاً أفّاكـــا
ضـــجّ الأنـــام مـــن المظـــالم والـــضنى	واســـتـــعـــذبـــوا الموت الـــزؤام فـــكـــاكـــا...

وقد قلت لسعدون غيدان وزير الداخلية في احدى مقابلاتي له: كل التدابير التي اتخذتها الحكومات الماضية على اليهود عمّت بعد ذلك على سائر المواطنين.

قال لي: عجباً، كيف ذلك؟

قلت: جرّد اليهود من جنسيتهم العراقية فلم تلبث بعض الجماعات الاخرى كالايرانيين والشيوعيين والاكراد أن نقلوا من مواطنهم او نزعت عنهم جنسيتهم وأبعدوا الى خارج البلاد. وجمّدت اموال اليهود فاذا بدائرة الاموال المجمّدة تستولي بعد ذلك على أموال المعارضين السياسيين وبعض الفئات الاخرى. وطبقت على جماعات اخرى من المواطنين

نفس الاجراءات التعسفية التي عانى منها اليهود في بادىء الامر كالسجن والاعتقال والخطف والقتل وتقييد الحقوق المدنية ومنع السفر والرقابة على البريد وهلمّ جراً.

وأودّ ان أذكر في الختام عزّت ابراهيم الدوري الذي اتخذه الرئيس صدّام نائباً له والرجل الثاني في الدولة، وهو رجل طيب هادىء عرف ببساطته وسلامة طويته واخلاصه الشديد لرئيسه. درس في المدارس الابتدائية وانتمى الى حزب البعث في اوائل عهده، واشتغل عاملاً في معمل الثلج الذي يملكه موشي ابراهيم عبد الله سنوات طويلة. ولما جاء الحزب الى الحكم أصبح الرجل فجأة من القادة، فتولى وزارة المواصلات وكان بعد ذلك وزيراً للداخلية، ولم تشمله التصفيات المتكررة التي اودت بحياة الكثيرين من زملائه.

ولما كان السفر محظوراً على اليهود ذهبت أرملة موشي ابراهيم الى الوزارة وقابلت سكرتيره الذي أخبره بمجيئها. قال عزت: انني كنت عاملاً لديهم فاسألها ماذا تريد؟ فقال لها السكرتير متعجباً: هل كان حقاً عاملاً لديكم؟ قالت: كلا، وإنما ربّيناه لدينا كأحد اولادنا. وطلبت منحها واولادها وأفراد عائلتها جوازات سفر لمغادرة العراق، فأمر الوزير بإجابة سؤلها فوراً. وتسنّى لها أن تسافر مع جميع اسرتها بصورة مشروعة الى انكلترة.

لماذا غادرنا العراق؟ لم نغادره وحدنا بل تركه ايضاً مئات الآلاف من الشباب المثقف ورجال الاعمال وابناء الشعب، مسلمين ومسيحيين، فانتشروا في مختلف الاقطار العربية والشرقية والغربية. ولم يبق في العراق من المثقفين والاحرار الا الذين استسلموا للواقع فماشوا السلطة وهللوا لها وكبروا وفريق الشيوخ العاجزين الذين قبعوا في بيوتهم لا يزورون ولا يزارون.

مغادرة العراق

وأخيراً حان وقت السفر وقطع العلاقة بالوطن الذي عشنا فيه آلاف السنين وشاركنا أهله في السرّاء والضرّاء. وقد تمثلت بقول أبي الطيب المتنبّي:

اذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا ... ألاّ تفارقهم فالراحلون هُمُ!

وذكرت شاعر العراق معروف الرصافي الذي قال:

هي المواطن أدنيها وتقصيني ... مثل الحوادث أبلوها وتُبْليني
قد طال شكواي من دهر أكابده، ... أما أصادف حرّاً فيه يُشكيني؟
كأنني في بلادي إن نزلتُ بها ... نزلت منها ببيت غير مسكون...
أنا ابن دجلة معروفاً بها أدبي ... وإن يكُ الماء منها ليس يُرْويني...

أخذنا جوازاتنا الى دائرة السفر للحصول على سمة الخروج فقال الكاتب: ان العلاقات مع بريطانية مقطوعة، وقد وردتنا تعليمات بحذف المملكة المتحدة من الدول المسموح بالسفر اليها. قلت: لا بأس. قال: ولكنني سأحذف ايضاً الولايات المتحدة وكندة. ولما سألته عن السبب قال: اذا كنتم لا تذهبون الى انكلترة فكيف يتسنّى لكم السفر الى أميركة؟ قلت: نذهب عن طريق فرنسة او هولندة... قال: ألا أعرف الجغرافية؟ لا يمكن السفر الى اميركة الا عن طريق انكلترة. ولما رأيت أن لا فائدة من مناقشة هذا الموظف البعثي الصغير، أخذت الجوازات وذهبت الى مدير السفر ورويت له القصة، فقال: انه جاهل. ثم حذف «المملكة المتحدة» وختم الجوازات وقال: سافروا على بركة الله. وقال: لا تعد الى هذا الكاتب الجاهل.

وكان لي نحو ٣٠٠٠ كتاب ومئات الجرائد والمجلات باللغات العربية والعبرية والفرنسية والانكليزية، اخترت زهاء ٥٠٠ كتاب والصحف التي تهمني لأخذها معي، وبعت ما تيسّر بيعه ووزعت القسم الاكبر على الأصدقاء. ثم عملت قائمة بالكتب وأخذتها الى دائرة الرقابة على المطبوعات لأجل السماح باخراجها من العراق.

نظر مدير دائرة الرقابة في القائمة واعترض على بعض الكتب الاجنبية. قال: بلاتو (افلاطون)، ماركوس اوريليوس... من هؤلاء؟ قلت: انهم فلاسفة يونانيون عاشوا قبل اكثر من الفي سنة. قال: وما أدراني ان ليس في كتبهم مواضيع ممنوعة؟ وقد أجّل تصديق القائمة الى اليوم الثاني ريثما ينظر ذوو الاختصاص بالانكليزية والفرنسية في الكتب بتينك اللغتين.

وفي هذه الاثناء وردت المجلات المصرية واللبنانية فأوعز الى موظفيه بتدقيقها. وكانت العلاقات سيّئة مع المملكة العربية السعودية فأمر بتمزيق الصفحات التي تتضمن مواضيع عن السعودية او منع دخول المجلة. وجيء بكتاب في الفقه الجعفري لتدقيقه والسماح بتوزيعه فأحاله على فتاة صابئية من موظفاته للنظر فيه. قلت له: وما أدرى هذه الفتاة بشؤون الفقه؟ فقال: انها خرّيجة كلية الآداب وانا أعتمد عليها في تدقيق الكتب الدينية لحيادها.

ثم سألني: هل الشمعدان ذو سبعة غصون شعار دولة اسرائيل؟ قلت: لا علم لي بذلك. قال: انني احقق في الأمر لأكتب تقريراً عن الموضوع.

واخيراً وقّع على قائمتي وختمها، فأرسلت الكتب في حقائبنا التي ضمّت أمتعتنا الضرورية على متن الطائرة السويسرية.

وفي تشرين الاول ١٩٧٤ صباحاً نظرنا الى بغداد نظرة الوداع من مطارها ووصلنا جنيف عصراً وانتقلنا منها الى أمستردام.

صور من الحياة في العراق

نشأت في بيئة متفتحة، متمسكة بالقيم الأخلاقية، متديّنة من غير تعصّب. وتتلمذت منذ الصبا على أحرار الفكر الفرنسي: فولتير، روسو، ألفرد دي ڤينيي، فكتور هوغو، أناتول فرانس... وطالعت أمهات الكتب العالمية باللغات العربية والعبرية والفرنسية والانكليزية فحزت سعة الأفق ورحابة الفكر.

انتميت الى وزارة الخارجية وعمري لا يتجاوز السابعة عشرة، فكانت الوزارة مدرسة لي، وأية مدرسة! وكان من حسن حظي أنني تعرّفت الى رجال مثقفين مفكرين عاملين من مختلف الأديان والمذاهب، فلم أشعر انني يهوديّ بينهم. وكان في مقدمة من تعرّفت اليه أحمد حامد الصرّاف مدير المطبوعات، وكان رجلاً انسانياً يجمع الحزم العملي الى التصوّف الفكري، ويقول بلسان محيي الدين ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة،	فرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أنّى توجّهت	ركائبه، فالحبّ ديني وإيماني

وكبرت بعد ذلك، ومرّت الأيام والاعوام، فاذا اصدقائي الذين التقي بهم في الحياة اليومية وأجتمع بهم في المجالس والدواوين الاجتماعية من مختلف الطبقات والأديان، أذكر منهم سليم اسحق وصالح قحطان وابراهيم الكبير ويوسف الكبير وعزرا مناحيم دانيال وخضوري شكر وأنور شاؤل من اليهود، ورفائيل بطّي والاب أنستاس الكرملي ويعقوب سركيس ويوسف غنيمة ورزوق غنام ويوسف يعقوب مسكوني من المسيحيين، وعباس العزاوي ومحمود الملاح ومحمود صبحي الدفتري ومصطفى علي وعبد العزيز المظفر وسعاد هادي العمري من السنّة ومصطفى جواد ومحمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وجعفر الخليلي من الشيعة، وغيرهم عشرات بل مئات...

كان لي مجلس حافل يؤمه رجال الفكر والادب والفضل، ذكره ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون أخبارهم ومجالسهم» (طبع ١٩٥٨) فقال في صفحتي (٢٤٠ ــ ٢٤١).

«لليهود في العراق بيوت وأسر اشتهرت بكثير من مجالات الاشتهار، وخاصة المجالات المالية والاقتصادية. ومن هذه البيوت اسرة بصري المعروفة برجالها البارزين، منهم الاستاذ الاقتصادي المعروف مير بصري سكرتير غرفة تجارة بغداد سابقاً ومن أعيان التجار والاقتصاديين في بغداد اليوم. وقد عرف له البغداديون بحوثاً ممتعة ومقالات شيّقة وكتباً معتبرة ومجاميع نضرة في الادب والاقتصاد والمال والتاريخ والشعر وغير ذلك من الدراسات... ويعدّ الآن أديباً من الأدباء المشهورين...»

وقدم بغداد سنة ١٩٦٦ الاستاذ المصري الجليل الدكتور عبد اللطيف حمزة رئيس قسم الصحافة بجامعة القاهرة المنتدب لرئاسة قسم الصحافة في جامعة بغداد، فأكرمنا وفادته وكان لنا نعم الصديق خلال اقامته في العاصمة العراقية التي امتدّت بضع سنوات. وقد كتب في جريدة الجمهورية في ١٠ ايار ١٩٦٦ مقالاً مسهباً عن «الصالونات البغدادية» تكلم فيه عن المجالس الادبية والاجتماعية. وقال:

«ومن الحق أن أذكر هنا ان اكثر الزائرين اختلافاً الى دار التعارف (صاحبها جعفر الخليلي) الى الآن رجلان، هما الاستاذ مير بصري والاستاذ انور شاؤل. أما أولهما فكاتب وشاعر يعرف اللغتين الانكليزية والفرنسية معرفة تامة، وله ذاكرة عجيبة في حفظ اسماء الرجال وسني ميلادهم وسني وفياتهم، ولو كان ابن خلكان حياً لغار من الاستاذ مير بصري من هذه الناحية غيرة كبيرة. وهو قارىء ممتاز لا يدور الحديث في شيء الا ذكره بمعلوماته الكثيرة حول هذا الشيء. وتدور قراءاته كلها حول الأدب، وله عناية خاصة بعلم الاقتصاد. وله في هذا العلم بعض الكتب.

«وأما ثانيهما وهو الاستاذ انور شاؤل فمحام وقصّاص، وله ديوان شعر، وله معرفة دقيقة باللغتين الانكليزية والفرنسية. وقد شارك في ترجمة كتاب من الكتب الهامة، وهو كتاب «الطباعة العامة»، وهو من الكتب التي رشحتها مؤسسة فرنكلين ببغداد لنقلها الى اللغة العربية».

ولكي أصوّر البيئة المتسامحة وسط التعصّب التي نشأت فيها أذكر نادرتين قد يجدهما القارىء غريبتين لا محلّ لهما في هذه المذكرات:

كان عمّ جدي الحاخام الياهو عوبديا الذي توفي سنة ١٨٩٥ عن ١٠٥ سنين حبراً عالماً متفقهاً واسع الأفق. تولّى رئاسة المحكمة الدينيّة سنوات عديدة، ثم اعتزل في داره يفد اليه الطلاب وترده الأسئلة من أنحاء البلاد وخارجها. وجاءه يوماً رجل يسأله عن أمر فقال له: هذا حلال. قال الرجل: ولكنني سألت الحاخامين فحرّموه تحريماً باتاً.

وأتى الحاخامون الى الحاخام الياهو يقولون له: يا استاذنا، كيف تحلّل هذا الأمر وهو حرام حسب النصّ الفلاني؟ قال: اذا راجعتم «التلمود» في هذا الموضوع تجدون الحاخامين قد ناقشوا القضية نقاشاً واسعاً ثم قرروا التحريم بثلاثة آراء مقابل اثنين مخالفين قالوا بالتحليل. وانا شخصياً أرى التحليل واجباً، فنكون ثلاثة مقابل ثلاثة. ولما كنت حياً وكان اولئك امواتاً فرأيي يغلب على رأي المحرّمين.

والنادرة الثانية شهدتها عن جدّي لأمي الحاخام عزرا دنكور رئيس الحاخامين سنة ١٩٢٥.

كنت أنذاك تلميذاً في مدرسة الأليانس(٦٢)، وكان الاستاذ اسحق بونفيس يدرّسنا العبرية الحديثة. وأذكر أننا تعلمنا في أحد الكتب المستوردة من روسية او بولندة قصيدة لشاعر يخاطب ابراهيم الخليل قائلاً له: انك حطّمت الأصنام الصغيرة ووضعت الفأس في يد الصنم الكبير، فلو حطّمت هذا الصنم دون صغار الأوثان لنقي العالم من الشرّ.

واتصل أمر القصيدة بالحاخامين والعوامّ فاعتبروها تمسّ بسيدنا ابراهيم. قالوا: كيف يخاطبه الشاعر بمثل هذا الكلام وهو خليل الله وصفيّه وجدّ المؤمنين؟

وكنّا في الصف ذات صباح فاذا بحاجب رئاسة الحاخامين يأتي فيدعو معلمنا بونفيس لمقابلة جدي الحاخام عزرا دنكور في دائرته. ومضى المدرس ومضى معه لفيف من الطلاب وانا في مقدّمتهم، فجئنا الى مقرّ الطائفة ودخلنا الى القاعة الكبرى، فرأينا رئيس الحاخامين الشيخ جالساً في الصدر يحفّ به عشرات الحاخامين ورجال الجمهور.

قال للاستاذ بونفيس: ألا تقرأ هذه القصيدة على مسامعنا؟ فقرأها. واستنكر رجال الدين معانيها، لكن جدي تأمّل قليلاً ثم قال: لا أرى فيها شيئاً من الكفر او الخلاف، فهي ليست سوى عاطفة أدبية ترمي الى الخير. وخاطب المدرس قائلاً: لا مانع من تدريسها. وشكره على جهوده التثقيفية، فارفضّ المجلس وعدنا الى المدرسة.

وحين أذكر جدّي الحاخام عزرا دنكور وتسامحه أقول انه وضع تفسيراً لأسفار التوراة الخمسة تولّى طبعه حفيده نعيم

الياهو دنكور في اورشليم في جزءين سنة ١٩٨٧. وهو تفسير يعنى بظاهر الالفاظ ومراميها دون التطرق الى «الباطن»، اذ كان الحاخام لا يميل لمذاهب التصوف وللتوسع الذي يوجد في كل حرف وكلمة تلولاً من المعاني. وقد قال عزرا حدّاد في تأبينه «إنه كان خير طراز لما يجب ان يكون عليه حاخام القرن العشرين، فكأنه عاش بعد حياته بنصف قرن».

وأذكر ان في آذار ١٩٩٠ اهداني الحاخام الفاضل القاضي (الديّان) بنحاس توليدانو كتاباً دينياً، فكتبت اليه شاكراً وقلت ما مؤداه: ان الديانة اليهودية في أساسها طريقة مثلى للأخلاق الفاضلة. وكان الاحبار الذين وضعوا الطقوس والصلوات والممارسات الكثيرة التي يجب على اليهودي المتديّن القيام بها منذ يقظته صباحاً حتى لجوئه الى الفراش ليلاً قد أرادوا ان يربطوه بدينه ويذكروه بواجباته الأخلاقية.

وأرى ان هذه الطقوس الكثيرة لا تتلاءم مع الحياة المعاصرة ومتطلبات العمل. فحبذا لو اجتمع مجلس من الاحبار وعلماء التوراة البارزين في اسرائيل والعالم لاعادة النظر في هذه الطقوس دون مخالفة أحكام التوراة وتخفيف أعبائها عن كاهل المؤمنين...

اصدقاء واخوان

اذكر من اصدقائي العالم الجليل الدكتور احمد سوسة عضو المجمع العلمي العراقي وصاحب المؤلفات الكثيرة في الريّ والهندسة باللغتين العربية والانكليزية.

ولد نسيم سوسة في الحلة سنة ١٩٠٠، وكان أبوه موشي سوسة من الملاكين ورجال الاعمال المعروفين، أنشأ بعد الحرب العظمى الاولى مشروعاً صغيراً للكهرباء اشترى مولّداته وآلاته من أنقاض الجيش البريطاني. وكان العوامّ من أهل الحلة لا يعرفون كلمة «كهرباء» أو «الكتريك» بل يسمّون المشروع «سوسة». ونظراً الى قدم منشآته كان كثيراً ما ينقطع التيار فيقول الناس: انطفأ سوسة، اشتعل سوسة.

عرفت الدكتور سوسة لأول مرة سنة ١٩٣١ حين عاد من الدراسة في الولايات المتحدة. زارني في وزارة الخارجية وطلب الانتهاء الى السلك الدبلوماسي. قال لي انه حصل على الدكتوراه في الهندسة من جامعة جونس هوبكنس، لكنه في الوقت نفسه درس العلاقات الدولية ونال شهادة الدبلوم فيها ووضع مصنفات عن عصبة الامم والعراق والمؤتمر الدولي لتجميع حقوق الدول. وكان متزوجاً من سيدة اميركية أتت معه الى بغداد، غير أنها بعد اقامة قصيرة طلبت الطلاق وعادت الى موطنها.

عين معاون مهندس ريّ ثم اصبح مدير ريّ الحلة. لكنه مضى الى مصر واعتنق الدين الاسلامي بعد التأمل والقناعة وتسمّى «أحمد» سنة ١٩٣٦. ووضع كتابه «في طريقي الى الاسلام» وفيه تحامل على الدين الموسوي وانتقاص للقيم اليهودية. ولم يلبث ان انتدب للعمل في المملكة العربية السعودية فحجّ وانشأ مشروع الخرج الزراعي في واحة جنوبيّ مدينة الرياض. حفر الآبار الارتوازية وغرس الاشجار فنجح المشروع نجاحاً عظيماً، ولا يزال يجهز الرياض والمملكة السعودية بالخضر والفواكه.

وعاد الى العراق فتقلد أرفع المناصب وكان مديراً عاماً للمساحة وديوان وزارة الزراعة. وكرّمته مؤسسة اليونسكو وحكومة المغرب على مؤلفاته المقوّمة.

لكن الدكتور سوسة عاد بعد تقاعده الى الطعن في دينه القديم فألف كتاب «العرب واليهود في التاريخ» سنة ١٩٧٢، وهو كتاب ضخم هاجم فيه التوراة مع تأييده للانجيل والقرآن. سألني بعض اصدقائي في وزارة الاعلام التي نشرت كتاب سوسة ان أقوم بالردّ عليه فاعتذرت. لكن احد علماء المسلمين انبرى فوراً للردّ رداً مفحماً ذاكراً ان تكذيب التوراة انما هو ضمناً تكذيب القرآن.

لا شك ان الانسان حرّ في اختيار دينه ومسلكه كما يشاء. لكن العتب على أحمد سوسه وأمثاله أنه ترك دينه وصار يتحامل على دينه القديم ويحقّره. وقد توفي في بغداد في ٦ شباط ١٩٨٢.

ومن الذين عرفتهم نعيم بدوي، وهو من صابئة العمارة، كان في بادىء أمره يميل الى الشيوعية ثم وظّف في معاهد أورزدي باك المحلات الشهيرة. ولما قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ عيّن مديراً عاماً للأموال المستوردة، ولم يطل عهده في هذا المنصب.

والصابئة طائفة صغيرة قديمة وموطنها قلعة صالح والعمارة على نهر دجلة ونبيّها يحيى (يوحنا المعمدان) ولها كتب دينية باللغة المندائية، ومعظم طقوسها تجرى في الماء. وأفرادها عاملون جادّون يمتهنون الزراعة ويختصون بصياغة الفضة التي تفننوا فيها كل التفنن وسمّيت «شغل الصبّة». واشتهر من بينهم في العهد الأخير الدكتور عبد الجبار عبد الله الذي اختص بالفيزياء في الجامعات الأميركية وتولّى رئاسة جامعة بغداد في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم. فلما قضي على العهد القاسمي سجن وعذّب وأهين، فاضطرّ الى ترك بلاده والذهاب الى الولايات المتحدة حيث درّس في جامعاتها وتوفي بها سنة ١٩٦٩.

وماذا أقول في الصديق جمال عمر نظمي الونداوي؟ كان تركمانيّ الأصل من كفري في لواء كركوك، تقدم في مناصب الدولة في العهد الملكي فكان متصرفاً ووزيراً. ثم عاد الى الخدمة في عهد الرئيس عبد السلام عارف وتولّى الوزارة وكان سفيراً في سويسرة. كان مثقفاً ثقافة عالية، كثير المطالعة وله مكتبة خاصة كبيرة. وكنّا نلتقي بين الحين والحين فنتكلم في شؤون الفكر والأدب.

ومما يذكر ان جمال عمر نظمي كان في عهده الأول شديد الغطرسة لا يبالي بالقانون، مستنداً الى نفوذ ابيه عمر نظمي بك الوزير المزمن ونائب رئيس الوزراء ودالّته على رجال الحكم. كان جمال متصرفاً للبصرة سنة ١٩٤٨ فمنع دوائر الطابو بلا سند قانوني من تسجيل بيع أملاك اليهود. ولما شكوه الى نوري السعيد رئيس الوزراء أوعز اليه بمراعاة القانون فلم ينفذ أوامره. ويمكن القول انه بدون رغبة منه أسدى خدمة جليلة للملاكين اليهود، اذ كانت اسعار البيع هابطة لكثرة العرض. وقد احتفظ اليهود قسراً بأملاكم، فلما هيء لهم بيعها حين نقل من منصبه ارتفعت الأسعار وجنوا أرباحاً جسيمة. وكان الموظفون يخافونه فينفذون أوامره التعسفية. وكان اذا رام ان يذهب في بعض الأمسية الى دار السينما أمر صاحبها بتأخير عرض الأفلام ساعة أو أكثر حتى يفرغ من تناول عشائه ويمضي الى السينما للترفيه عن نفسه مع خواصّ أصحابه. وأخيراً ضجّ البصريّون من تصرّفاته فنقل من منصبه.

وقد قرأت، وأنا على مقاعد الدراسة، روايات الكاتبة الفرنسية المعروفة باسمها المستعار غي دافلين (Guy d'Aveline)، وهي زوجة الدكتور سليمان غزالة. كانت فرنسية المنبت تعرّف عليها الدكتور غزالة واقترن بها في طرابلس الغرب حيث كان يعمل طبيباً في العهد التركي. وكان لهذه السيدة وقرينها، على ما أخبرت، مجلس أدبي حافل في بغداد في سنوات العشرين يحضره عليّة القوم ورجال الثقافة. وقد درس ابن زوجها من قرينته الأولى كامل (كميل) غزالة الزراعة وأصبح مدير الزراعة في بعض الألوية. ثم ترك الخدمة الحكومية وسافر الى السويد واشترى مزرعة قريبة من العاصمة استكهلم. وعيّن بعد ذلك قنصلا فخرياً للعراق في السويد.

تعرّف كميل غزالة على فتاة سويدية تزوجها ثم طلقها مانحاً اياها نصف ممتلكاته حسب أحكام القانون. وبعد سنتين أو ثلاث تودّدت اليه فأعاد الزواج منها وعقب ذلك طلاق ثان استولت بموجبه على نصف ثروته الباقية. وتكرر هذا الزواج للمرة الثالثة وعقبه طلاق ثالث حسبما أخبرت، فلم يقض نحبه حتى آل معظم ما يملكه الى هذه الزوجة المغرية المشاكسة. ولله في خلقه شؤون!

وممّن هيء لي التعرّف عليهم رياض رفائيل المترجم في وزارة المالية. كان من أقباط مصر، جاء الى العراق مع الحملة البريطانية في أعقاب الحرب العظمى الأولى. وقد أسلم بعد ذلك واتخذ اسم رياض رأفت، ونقل الى العربية كتاب تأريخ العرب للسيد أمير علي القاضي الهندي الشهير. كتب رياض الى ابيه يخبره باسلامه فأجابه، على ما قيل: انني حرّ الفكر ولا بأس عليك اذا غيّرت دينك. ولكن لماذا غيّرت اسمي ولم تغيّر اسمك؟

وقد ربطتني صداقة وثيقة بالبحاثة المحقق يوسف يعقوب مسكوني. كان معلماً وأصبح فيا بعد ملاحظ المكتبة ومترجماً في وزارة المعارف. كان رجلا فاضلا حسن الدعابة، لكنه شارد الذهن كثير الذهول. وقد روت زوجته ان صديقاً له كلفه بخطبتها الى أبيها، فجاء الى دارهم ونسي المهمة التي أوفد من أجلها فخطبها لنفسه. وكنّا كثيرا ما نداعبه بالشعر والنثر، من ذلك ما قلته:

ذا يـــوســف فـضـلـــه قـد فـــاق فـائـقـه
وطـيـبـة الـنـفـس زانـت نـاصـع الـسُّرَرِ
أبـــدت ظـــواهـــره مـــكـــنـــون مخبـــره
لم يَخْفَ سرّ لـــــه في الـــوِرْد والـــصَّدر
فـــهـــو الـــبـــريء كـطـفـل يـوم مـولـده
وهـــو الـــصفيّ الـــذي يخلـــو مـــن الـــكـــدر
تـــلـــك الـــسذاجـة مـعنى مـن لـطـافـتـه
دامـــت ودام كـــريماً هـــانئ الـــعُمُر

واذكر حفلات العشاء الأدبية التي كانت تقام بلا انقطاع في دورنا يحضرها الأدباء والشعراء وبعض اعضاء السلك الدبلوماسي العربي ويلقى فيها الشعر المناسب وفرائد الأدب. كان الشيخ جلال الحنفي امام جامع الخلفاء اللولب المحرّك لهذه الولائم يطالب بها ويدعو اليها. وقد قلت في احدى قصائدي:

هـــزج الأديـــب بـشـعـره، يـــا حـــبّذا
شـعـر يجرّر سـابـغـات ذيـولـه
شـــيـــخ تصرّف في الـــبـــحـــور ووزنها
مـتـمـرسـاً بـالـنـظـم بـعـد خـلـيـلـه
دان الـــقـــريـــض لـــه فـــروّض صـعـبـه
واخـتـار ثـوبـاً حـالـيـاً لـذلـولـه
أأبـــا لـــبـــيـــد، والمآدب دسـمـة،
والـقـول لا يجدي بـغـير دلـيـلـه:
هـدي الـولائم قـد عـقـدت نـظـامـهـا
فـأقـامـهـا الجوّاد قـبـل بـخـيـلـه
أنـــت المحـــرّك والمـــدبّر بـــاذلا
جـهـداً تـفـوز بـفـيـضـه وفـضـولـه
قـد رمـت شـيـئـاً تـشـتهي تحقـيـقـه
وتخذت شـعـرك سـلّمـاً لـوصـولـه
فـاهـنـأ بـتـحـقـيـق المنى في مجمع
مـن كـل نـدب زانـه ونـبـيـلـه
في مجمـع الأدب الـرفـيـع، وقـد زهـا
بـشـبـابـه وشـيـوخـه وكـهـولـه
جـاد الـزمـان بـوصـلـه في لـيـلـة
أرخـى عـلـيها زاهـيـات سـدولـه
فـكـلـوا هـنـيـئـاً وانهلوا مـن كـوثـر
واسـتـمـتـعـوا بـالـورد قـبـل ذبـولـه...

ومن الذين كانت دورهم مسرحاً لهذه الحلقات الدكتور عبد المجيد القصاب وجعفر الخليلي وناجي جواد الساعاتي وفؤاد عباس وسالم الألوسي وخاشع الراوي وغيرهم.

وأقام نافع قاسم مدير الاوقاف العام في صيف سنة ١٩٧٤ مأدبة كبرى في قاعة جامع الخلفاء لرؤساء الطوائف

تعزيزاً للألفة والتعارف حضرها علماء المسلمين من اهل الشيعة والسنّة وبطريرك الكلدان ومطارنة الطوائف المسيحية المختلفة وممثلو البروتستانت واليزيدية الخ. وجاءني الشيخ الحنفي فقال: دعونا الى حفلتنا رؤساء الأديان والمذاهب على اختلافها ولم يبق الا رئيس الصابئة لا نقدر على الاتصال به. فقلت: هلمّ معي، وأخذته الى دكان الصائغ القريب خليل مال الله وسألناه عن رئيس طائفته. قال: انه الشيخ سام ولكنه قد بلغ المائة أو نحوها وهو عاجز قعيد داره لا يبرحها. قلت: وهل هناك غيره؟ قال: انا من وجهاء طائفتنا لا ينكر عليّ ذلك أحد. فدعاه الحنفي الى الحضور مع واحد أو اثنين من جماعته.

وفي مساء اليوم الموعود ذهبت الى المأدبة يصحبني ناجي چچك سكرتير الطائفة وعبد الله عوبديا مدير المدرسة الفاضل القدير. كان نافع قاسم يستقبل المدعوين عند الباب، فلما قدمت اليه عبد الله عوبديا احتضنه وقبّله على خده وقال: تعرّفني باستاذي الذي درّسنا الرياضيات في المدرسة الثانوية؟

وكانت الحفلة لطيفة زاهرة القيت فيها الخطب تدعو الى الوئام والتكاتف، وقد خلفت في نفوس الحضور أطيب المشاعر.

كنت أذهب الى القصر الجمهوري في الأعياد والمناسبات الرسمية، فكانت فرصة طيبة للقاء رجال الدولة وكبار الموظفين ومحادثتهم وتبادل الرأي في الشؤون العامة. وكان الرئيس احمد حسن البكر ونائبه صدّام حسين يحضران في بعض الأحيان لمصافحة الحاضرين. وأصدر في سنة ١٩٧٣ قانون جديد للعطل الرسمية اعترف فيه بأعياد اليهود، فاتصل بي احد موظفي التشريفات وحسّن لي توقيع سجلّ التشريفات لشكر الرئيس على حسن التفاته. فذهبت الى القصر الجمهوري مصطحباً داود خلاصچي نائب رئيس اللجنة الادارية ووقعت في السجل شاكراً.

سألني السفير حكمت سامي سلمان رئيس تشريفات القصر الجمهوري (وكان خلفي في وزارة الخارجية حين تركتها سنة ١٩٣٣) عن تأسيس الوزارة ووزرائها الأولين، وقال ان المحافظ القديمة مبعثرة ولا تعرف المعلومات عن منشأ السلك الخارجي. فكتبت له، بناء على طلبه، تأريخاً للوزارة في سنيها العشر الأولى من ١٩٢٥. وقد أخبرني بعد ذلك ان الوزارة عممت هذا التأريخ على شعبها وممثلياتها في الخارج.

واذكر حادثة طريفة وقعت لصديقنا الدكتور عبد الهادي التازي سفير المغرب الذي مثّل بلاده في بغداد سنوات طويلة. قرأنا ذات يوم في الصحف نبأ وفاة والده في القطر المغربي واقامته مجلس الفاتحة على روحه، فذهبنا الى السفارة للتعزية. لكن لم تمرّ أيام قليلة حتى وردت برقية تنبىء أن الوالد الشيخ لا يزال في قيدة الحياة وان المتوفى سميٌ له أدركه الحمام. وكتبت الى التازي كتاب تهنئة بهذه المناسبة السعيدة.

وكانت لي بعد قدومنا الى لندن مراسلة مع التازي الذي نقل الى الرباط بوظيفة عالية. وكتب اليّ انه عيّن سفيراً لبلاده في طهران بعد سقوط الشاه واستيلاء آية الله الخميني على مقاليد الأحكام. وفي سنة ١٩٨٦ وضع كتاباً في «التأريخ الدبلوماسي للمغرب» فسألتني اذاعة لندن العربية ان اتحدث عن الكتاب ومؤلفه والعلاقات الدولية للمملكة المغربية، ففعلت.

وأقول أخيراً اننا وسائر العوائل كنّا كثيراً ما نذهب في نزهات خلوية الى الضواحي والبساتين ونقضي ساعات هنيئة بين الأشجار وعلى ضفاف المياه. وكنّا نزور المراقد القريبة كالكفل والقصبات والقرى كالمحمودية والمسيب وسدّ الهندية والحلة وسامراء وتكريت والفلوجة والرمادي وبعقوبا وخانقين...

ومن المناسب أن أذكر هنا أخي صالح الذي يكبرني ستّ سنوات، وقد كان لي نعم الصديق والسند والنصيح، لم نفترق لحظة واحدة وشاركنا السرّاء والضرّاء في حياتنا. سافر للدراسة في مصر وعمره ١٦ سنة فواصل الدرس في مدرسة الفرير ثم انتمى الى مدرسة الحقوق الفرنسية. وقد اضطرّ على قطع دراسته في السنة الأخيرة لوفاة والدنا، فعاد الى بغداد ووظّف في وزارة المالية ومديرية البريد والبرق العامة، وكان مترجماً في وزارة المواصلات والأشغال. وترك خدمة الحكومة بعد ذلك فكان سكرتيراً محلياً للمفوضية السوفييتية التي أنشئت في بغداد سنة ١٩٤٦. وقد حدثني انه دخل مرة على الوزير المفوض فوجد سائقه جالساً أمامه رافعاً رجليه بلا كلفة على المكتب وهو يحتسي الوسكي ويدخن السيكارة. وعلم ان السائق كان ممثل الشرطة السرية يراقب الوزير الذي يخافه ويتودد اليه.

وكانت المفوضية تقيم حفلات استقبال في المناسبات الرسمية فيحضرها الوزراء والموظفون وسائر الطبقات. وقد عرف العراقيون الفودكا وشربوها لأول مرّة في تلك الحفلات فتذوّقوها واستحسنوها. ولما وقف الوزير المفوض يودّع الضيوف التمس منه أحدهم ان يعطيه قنّينة فودكا فأمر له بها. وجاء ثان وثالث يطلبون نفس الطلب، فقال لهم: في وسعكم ان تبقوا هنا تحتسون الفودكا الى منتصف الليل، ولكن لا يمكن اخراج شيء منها خارج هذه الدار! وقد ألغى نوري السعيد التبادل الدبلوماسي مع روسية السوفيتية سنة ١٩٥١ وأغلق المفوضية، ثم أعيد فتح سفارة سوفيتية في بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨.

وكان أخي صالح بعد ذلك مترجماً للسفارة الفرنسية حتى غادر بغداد مع عائلته الى اسرائيل في شباط ١٩٧٢. وقد حظي بتقدير السفراء الذين تعاقبوا في تمثيل بلادهم، وكانت تقاريره مثال الدقة والجودة بلغة فرنسية ممتازة. وأقول أخيراً وأنا أكتب هذه السطور، والألم يحزّ في نفسي حزّاً، والدموع تترقرق في عيني، انه توفي الى رحمة الله بعد مرض قصير في تل أبيب في ١٢ أيلول ١٩٩٠، وكان في الخامسة والثمانين من عمره.

وكيف أغفل ذكر ابن عمّي وسمّي مير حسقيل البصري (١٩٠١ ــ ١٩٨٦) ذا المواهب المتعددة الذي ترك أثراً كبيراً في نفسي في عهد الصبا؟ لقد كان خطأه أنه يعمل شيئاً ويتقن فناً ولكن سرعان ما يتركه الى سواه، وبذلك أخفق في نيل ما يستحقه من نجاح واكرام.

درس درساً طيباً وألمّ باللغات العربية والتركية والانكليزية والعبرية، وداوم أمداً قصيراً في مدرسة الحقوق ثم انصرف عنها. وألقى المحاضرات الأدبية في الأندية الاجتماعية في سنوات العشرين، وجرّب قلمه في وضع رواية بعنوان «محبّ» (وهو رؤوس حروف اسمه)، ولم يتمها. وكان رياضياً يركب الخيل ويحمل السلاح، ويمتلك شخصية تفرض نفسها على الناس، وله مساعٍ حميدة لخدمة الضعفاء والبائسين.

اهتمّ في شبابه بأمور الطائفة اليهودية فتزعم فئة من الشباب وحاول اصلاح شؤونها الادارية والخيرية واستخلاص ادارتها من ايدي زعمائها الشيوخ المحافظين الذين عرفوا بالجمود. ودعا الى اصلاح شؤون الأسرة ومعالجة مشكلة زواج البنات الفقيرات اللواتي يفتقرن الى المهر المطلوب.

وكان له أصدقاء كثيرون من الشبان السوريين واللبنانيين الذين وفدوا على بغداد للعمل في المتاجر ووظائف الحكومة. واشترك باسم احدهم في امتحان لمديرية المحاسبات العامة (ولم يكن يطلب آنذاك هوية شخصية للاشتراك في امتحانات الدولة) ففاز وعيّن صاحبه في وظيفة حسابية. وانتهى الأمر بهذا الرجل ان أصبح بعد أعوام طويلة مديراً عاماً لحسابات مجلس الأعمار.

ومال في احدى الفترات الى الرسم، فرسم لوحاً فنياً جميلا باهر الألوان. ورأيته بعد ذلك يعمل التجارب الكيماوية ويعكف على الانبيق لاستخراج مادة النيكوتين من التبغ. وأصبح مديراً لشركة الدخان الشرقية، وكان يذهب في الخريف الى انحاء كردستان المشهورة بزراعة التبوغ، وذلك قبل اقدام الحكومة على انشاء انحصار التبغ سنة ١٩٣٩، فيفاوض أصحاب المزارع من شيوخ وأغوات على الأسعار ويقدم لهم السلف السخية ليجلبوا للمعمل أفخر تبوغهم عند حلول الموسم. وقد حدثني انه ذهب مرة الى كويسنجق ونزل ضيفاً على القائممقام الذي دعا الزراع الى موافاة مركز القضاء. واجتمع ابن العم بهم، وكانوا عدة أغوات من الرجال وبينهم امرأة واحدة، لأن المرأة في كردستان كثيرا ما ترأس القبيلة اذا مات زوجها أو أبوها. فاوضهم على الأسعار وطالت المفاوضة الى منتصف الليل، وتم الاتفاق على ان توقع عقود البيع في الصباح. ولكن في الصباح الباكر قدم ممثل شركة منافسه وزاد السعر، فنقض الرجال اتفاقهم ما عدا السيدة التي التزمت بعهدها. فقال القائممقام حين هموا بالانصراف: لقد جئتم الى هنا عشرة رجال وامرأة فخرجتم عشر نساء ورجلا واحداً!

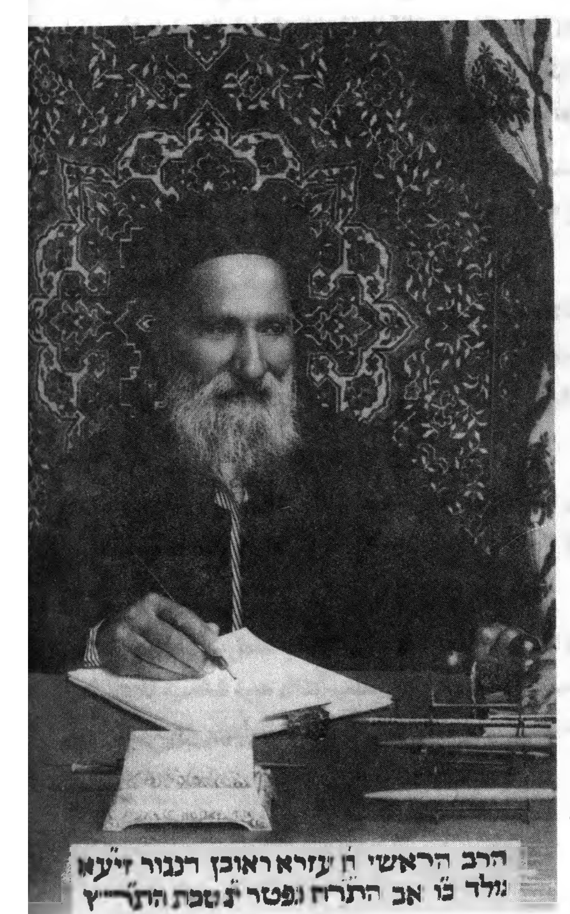
وكان طريق كردستان آنذاك وعراً غير معبّد متعرّجاً بين منعطفات الجبل، فكان ابن العم يترك سيارته ويصعد في شعاب الجبل على ظهر البغال.

وأخيراً انصرف الى التجارة ووكالة الشركات. ثم اخلد الى الراحة وقد بلغ من العمر عتيّاً، وتوفي في بغداد سنة ١٩٨٦.

غير أنّ مزيته الكبرى التي لازمته الى آخر رمق من حياته كانت في الموسيقى، اذ كان عارفاً بفنونها، مطلعاً على أسرار المقامات والأنغام الشرقية، يعزف على الكمنجة والعود وسائر آلات الطرب. والحقيقة ان عمي حسقيل واولاده كانوا جميعاً من هواة الموسيقى والخبراء في فنونها. وقد عمل احدهم نعيم (١٩١٠ ــ ١٩٧١) اكثر من ٢٥ سنة في القسم العربي من اذاعة لندن وتقلد أخيراً منصب المدير الفني فيه.



الحاخام الياهو يهوشع عوبديا عمّ جدّ المؤلف



الحاخام الاكبر عزرا روبين دنكور جدّ المؤلف لأمّه



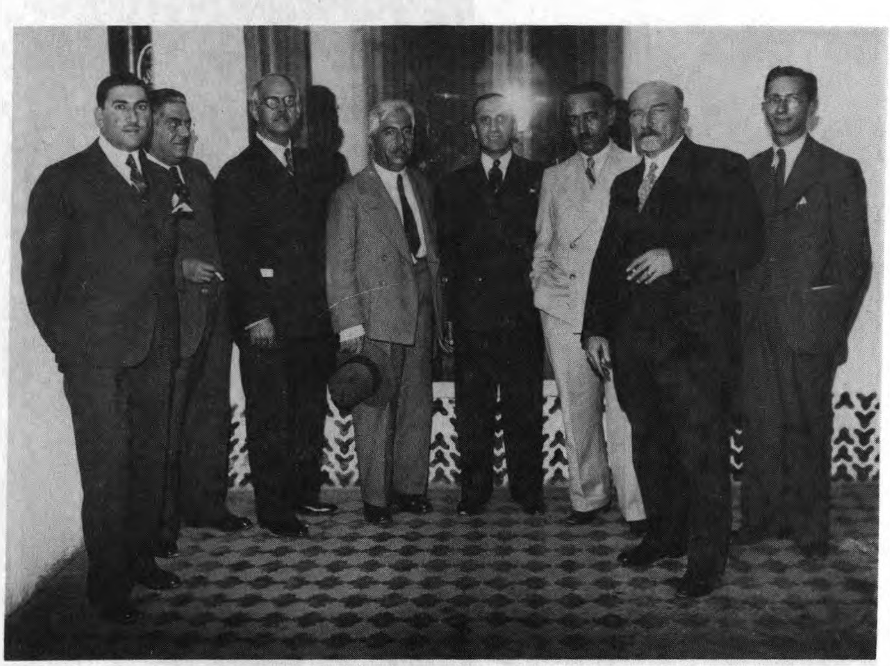
جدّ المؤلف وجدّ الحاخام عزرا دنكور وجدّته ووالدته واخوه الكبير صالح واخته (١٩١٠)



صورة عائلية (١٩١٢)
المؤلف طفل في حجر والده



صاحب المذكرات في باريس (الثاني من اليسار) ويظهر في الصورة الوزير المفوض علي جودت الأيوبي وأنور خياط رئيس لجنة التمور والرابع من اليسار المسيو موريس صبّاغ معاون مدير مدرسة الاليانس في بغداد (١٩٣٧)



صورة للمؤلف في باريس (١٩٣٧) ويظهر الى جانبه أنور خياط رئيس لجنة التمور وشاكر الوادي (وزير الشؤون الاجتماعية فيما بعد) ونوري فتاح ومنير عباس وتحسين العسكري (الوزير والسفير فيما بعد) والمهندس عزت الكرخي ونجيب الراوي (الوزير والسفير فيما بعد)



لجنة ادارة غرفة تجارة بغداد (١٩٣٨)

من اليمين (الجالسون): يعقوب مكحّل، صالح اليشاع، عزرا عاني، خضوري لاوي، محمد كامل الخضيري (السكرتير)، محمد جعفر أبو التّمن (الرئيس)، ابراهيم حيم معلم، اسحق (نائب الرئيس)، صيون عبودي، محمد الحاج خالد، عبد الرزاق قدوري، يوسف موشي، رحمين مصري.
من اليمين (الواقفون): حسقيل شمطوب، ابراهيم الشابندر، محمد جعفر الشبيبي، محمد طيّب آل حويز، نوري فتاح، مير بصري (معاون السكرتير).



(من اليمين) في دير الآباء الكرمليين الجالسون: علي غالب العزاوي، عباس العزاوي، الأب أنستاس ماري الكرملي، الشيخ مهدي مقلّد، مير بصري (١٩٤٣)



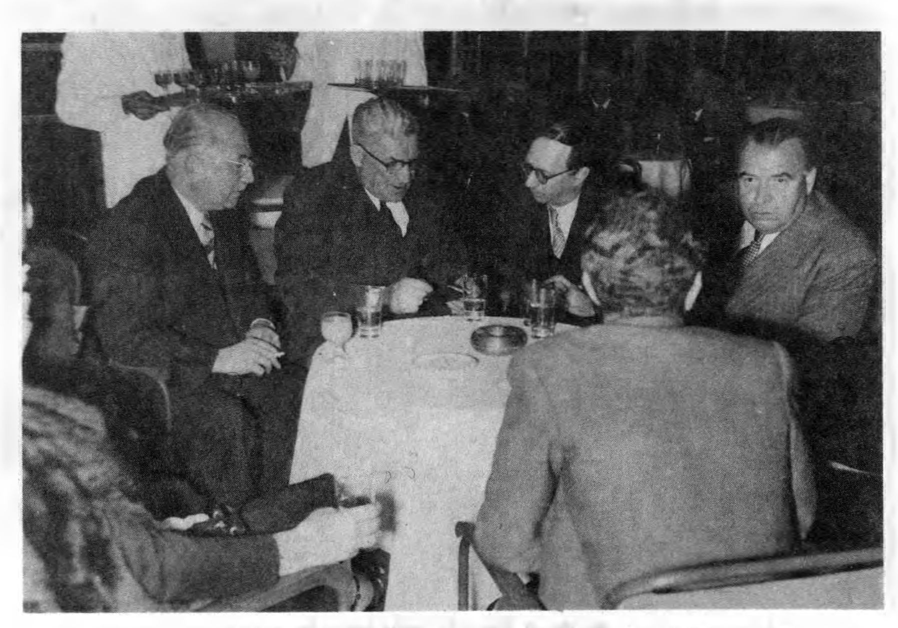
المؤلف مع جعفر الشبيبي سكرتير غرفة تجارة بغداد ورئيسها بعد ذلك والوزير المفوض السعودي (١٩٤٣)



المؤلف في تأبين المرحوم السر ايلّي خضوري بمدرسة لورة خضوري للبنات في ١٦ آذار ١٩٤٤



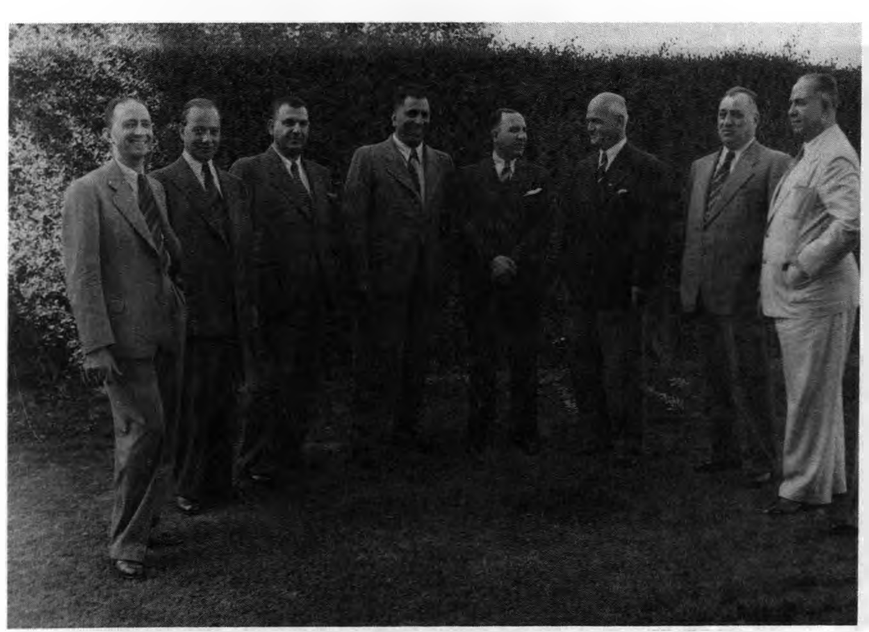
صاحب المذكرات مع الوفد العراقي في ميامي بالولايات المتحدة (الاول من اليسار) ويظهر في الصورة حافظ القاضي باللباس العربي



المؤلف في حفلة جمعية التمور العامة للمدير العام لمؤسسة الطعام والزراعة الدولية (١٩٥١). ظهر من اليسار مظفر احمد مدير الجمعية العام فدير المؤسسة فالمؤلف فدرويش الحيدري مدير الزراعة العام



الوفد العراقي الى مؤتمر التجارة الدولي (١٩٤٤)
(من اليمين الى اليسار): الجالسون: خضوري شكر، نوري فتاح، حافظ القاضي، عبد الهادي الجلبي.
الواقفان: مير بصري، اسكندر اسطيفان.



الوفد التجاري في القاهرة وقد ظهر المؤلف الاول من اليسار والى يساره خضوري شكر، والوزير المفوض تحسين العسكري الثالث من اليمين (١٩٤٤)



في حفلة افتتاح مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع والعشرين بميونيخ (ألمانية) آب ١٩٥٧
الى يساري: يوسف داغر (بيروت)



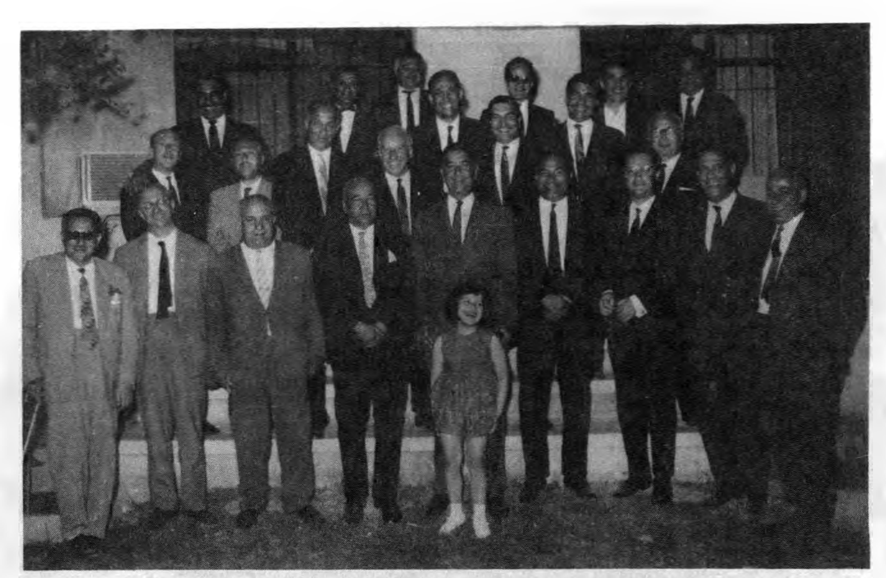
مير بصري يخطب في حفلة مدرسية
ذكرى حفلة توزيع الجوائز لصيف ١٩٥٨
أقيمت في حديقة مدرسة فرنك عيني في ١٩٥٨/٥/١٨



المؤلف وانور شاؤل مع الشاعر الكبير محمود الملاح (١٩٦٤)



المؤلف مع الدكتور عبد اللطيف حمزة الاستاذ المصري وأديب فاضل من دير الزور في سورية



المؤلف في حفلة أدبية ببغداد وهو الثاني من اليسار (الصف الاول) والى يمينه الدكتور علي الوردي والى يساره الدكتور مصطفى جواد فجعفر الخليلي ففؤاد عباس. وظهر أنور شاؤل الاول من اليمين في الصف الثاني (سنة ١٩٦٥)



صورة نادرة للحاخام ساسون خضوري في مناجاة مع الراب داود حفيد الحاخام الراب يوسف حيم (بغداد ١٩٦٦)



في مقابلة للفريق عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية سنة ١٩٦٦ وقد ظهر الحاخام الاكبر ساسون خضوري وناجي چچك سكرتير الطائفة والمؤلف



مؤتمر الادباء العرب السابع ــ بغداد، ١٩ نيسان ١٩٦٩ وقد ظهر أنور شاؤل والمؤلف



حفلة مدرسة فرنك عيني ١٩٧١/١/٥
الجالسون (من اليمين): السيدة مارسيل عقيلة المؤلف فالمؤلف فعبد الله عوبديا مدير مدرسة فرنك عيني

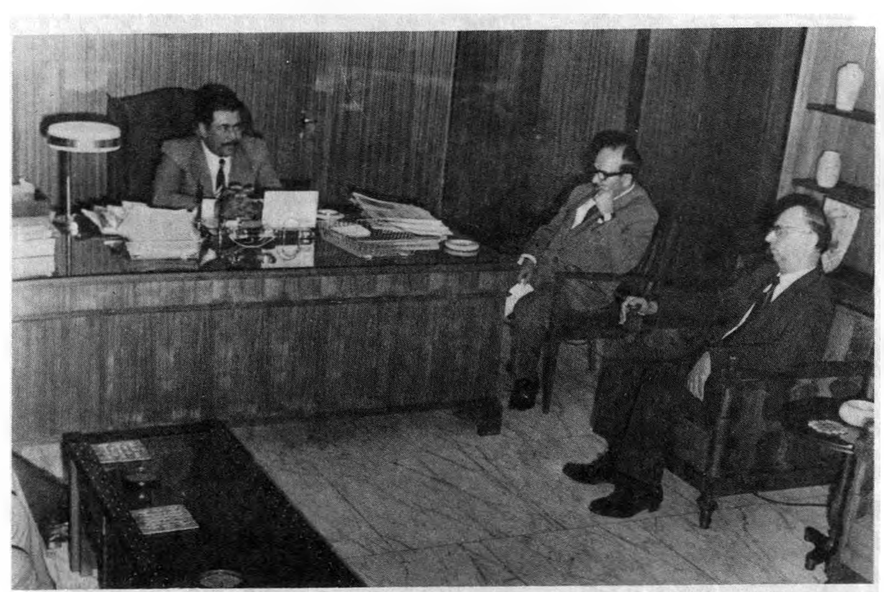


تشييع الحاخام ساسون خضوري (١٩٧١)



تشييع الحاخام ساسون خضوري

١ ـ مير بصري ـ ٢ ـ الحاخام داود حاخام يعقوب ـ ٣ ـ صالح بصري مع ممثلي الحكومة وبطريرك الكلدان



المؤلف مع وزير الاعلام شفيق الكمالي سنة ١٩٧١ وقد ظهر بينهما سالم الألوسي مدير الثقافة العام



حفلة أدبية

من اليمين الى اليسار: جعفر الخليلي، عبد الرحمن التكريتي، حافظ جميل، مير بصري، عبد القادر البرّاك، خالص خليل عزمي — في دار الدكتور عبد المجيد القصاب (١٩٧٢)



مير بصري يلقي قصيدته والى يمينه الحبيب نويره سفير تونس والى يساره الدكتور محمد الكبيس عميد كلية الشريعة وذلك في حفلة الربيع على العشاء (الرز بالباقلاء) في دار الدكتور القصاب بكرادة مريم (٢٦ ربيع الاول ١٣٩٤، ٢٠ نيسان ١٩٧٤)



صاحب المذكرات في حفلة أدبية: الاول من اليمين، ثم الدكتور أحمد سوسة ومشكور الأسدي وفؤاد عباس سنة ١٩٧٤



صورة تذكارية للحفل التكريمي المقام على شرف الاستاذ جعفر الخليلي بدار السيد سالم الالوسي مساء السبت ٩٧٤/١/١٢

الجالسون (من اليمين) كمال عثمان، فؤاد عباس، جعفر الخليلي (المحتفى به)، خليل الله خليلي (سفير افغانستان)، الدكتور احمد سوسة، مشكور الاسدي، خالد الشواف

الواقفون (من اليمين) عبد الله الجبوري، نافع قاسم، ناضل مهدي، مير بصري، الدكتور محمد صالح عبد المنعم، الدكتور عبد المجيد القصاب، الشيخ جلال الحنفي، غادة سالم الالوسي، سالم الالوسي

السفر الى امستردام

نزلنا في امستردام في ٩ تشرين الأول ١٩٧٤ فرحّبت بنا وهيّأت لنا جواً من الحرية والراحة. وكان فيها عشرات الأسر من يهود العراق أوتهم الحكومة الهولندية وخصصت لهم الرواتب والمساكن وقبلتهم لاجئين بكل رعاية واحترام. وكتب السفير الهولندي في بغداد الى حكومته عن قدومنا فاستقبلنا في المطار ممثلو وزارة الخارجية والطائفة اليهودية وقدموا لنا المساعدة والتسهيلات.

قضينا في هولندة أكثر من أربعة أشهر قبل ان ننتقل الى لندن للاستقرار فيها. وكانت تلك الأشهر من أهنأ الأيام، نعيش في الفندق ونزور الضواحي والمدن، فلا مسؤولية ولا هموم. ودعانا مندوب هيئة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في لاهاي العاصمة الى زيارته فكرّمنا وأبدى استعداده لنحنا جواز مرور اذا سحبت جوازات سفرنا العراقية.

وقد حيّيت أمستردام بقصيدة قلت منها:

يا دياراً حرّة قد رحّبت — بيَ في منفاي، أهديك السّلاما
جئت مكسوراً جناحي باكياً — فمسحتِ الدمع، داويت الكِلاما
في بلادي ذقت جوراً وأذى — واحتملت الذلّ والداء العُقاما
بيد أنّي لم أحد عن مسلكي، — لم أخن عهداً ولم أخفر ذماما
وحفظت الودّ في القلب الذي — عرف الحبّ، فهل يسلو الغراما؟
وتركت الدار تنعى غربتي — وقبوراً في الفلا تشكو الأواما
مرقد الآباء والأجداد في — تربة ضمّت قلوباً وعظاما
ورؤى في العين حامت فذّة — سجّلت عمراً مضى عاماً فعاما...

حتى أقول:

إيه يا حرية الفكر ويا — عزّة النفس التي تجلو الظلاما،
كنتما لي هادياً في محنتي — ومجناً أتّقي فيه الحماما
ودليلاً قاد خطوي في السّرى — وشفى في قلبيَ الواني السّقاما
وهنا جئت طليقاً رافعاً — هامتي في مجمع لم يَخنِ هاما.
يا أمستردام، قد هان النوى — في ديار حرّة طابت مقاما
قد كسبت الأرض من بحر طغى — وزرعت الورد عطراً وسلاما
وحبوت العطف ناساً فقدوا — وطناً قد سامهم هُوناً وذاما
وأسوت الجرح، سدّدت الخطى — وشددت العزم، رممت الحطاما

ورفعت العدل تمثالاً سما ... في دُنىً قد داست العدل رُكاما

ودفاعاً عن حقوق هُدِرَتْ ... رنّ صوت لك لا يخشى الملاما...

واحترمت الفكر، كرّمت الورى ... ورعيت الشيخ هِمّاً والغلاما

ونصرت الحق في محنته، ... فاز من تخذ الحقّ إماما!

يا أمستردام، شكراً وافراً ... من كريم يشكر القوم الكراما

الأشغال الشاقة الأدبية

حلم شاعر فرنسة الكبير ألفونس دي لامارتين بزعامة سياسية تهيء له ان يخدم بلاده ومبادىء الحرية والكرامة الانسانية. فتحت له ثورة شباط ١٨٤٨ الأبواب على مصراعيها، لكنه خذل امام منافسه الأمير لويس نابليون بونابارت الذي فاز برئاسة الجمهورية وأعلن نفسه بعد أمد وجيز امبراطوراً باسم نابليون الثالث.

اعتزل لامارتين الحياة العامة، وقد نضبت موارده وضاقت سبل عيشه، فاضطر على ممارسة ما سماه بـ «الأشغال الشاقة الأدبية» ليسدّ رمقه. وضع كتباً تأريخية ودراسية درّت عليه رزقاً شحيحاً حتى اتمسته الحكومة الامبراطورية بعد أعوام طويلة قبول اعانة مالية تكفيه العوز في سنوات شيخوخته.

جئت الى لندن وقد جمّدت السلطات العراقية اموالي وممتلكاتي في العراق وكل ما كسبته بعرق الجبين وحرمتني جنسيّتي الطبيعية التي نلتها باقامة آبائي وأجدادي في هذه البقعة نحوا من ٢٥٠٠ سنة. فلم أر لتدبير معيشتي واعالة أسرتي الا ان أباشر انا أيضاً، والقياس مع الفارق بطبيعة الحال، الأشغال الشاقة الأدبية. كتبت المقالات للصحف والاذاعة في لندن واسرائيل بالعربية، وتوليت الترجمة بين اللغات الانكليزية والعربية والفرنسية، ووضعت كتباً بالانكليزية، بتكليف من احدى الشركات، عن اقتصاديات بعض الاقطار العربية وقوانين الشركات والاعمال في ليبية وعمان والمملكة العربية السعودية والامارات العربية المتحدة وقطر والعراق.

لكنني لم أنقطع خلال هذه المدة عن التأليف الأدبي ونظم الشعر وكتابة الفصول التأريخية والاجتماعية. ووضعت أربع مسرحيات: ملك المهرجان، أسوكا ملك الهند الصالح، محرقة شندي، طاغية هايتي. وقد نشر بعضها في مجلات القدس وأخرجت احداها اذاعة اسرائيل. وواصلت تدوين تراجم اعلام العراق في القرن العشرين ونظم المقطّعات للمحمة «مواكب العصور». وفي وسعي ان أقول ان هذه السنوات التي مرت منذ قدومنا الى لندن كانت حافلة بالعمل والانتاج، زاخرة بآثار الفكر والتمحيص والتدقيق.

انني أصبحت خطيباً بلا منبر وكاتباً بلا قرّاء وشاعراً بلا مستمعين ونبياً بلا حواريّين. وقد قلت:

يـــــا الهي، انـــــا انـــــــــان صـــــغير   ضـــــائـــع بين جـــــوع الـــــنـــــكـــــرات
إن صـــــوتي خـــــافـــــت الجرس حـــــسير   تـــــنتهي مـــــنـــــه بـــــأذني الـــــنـــــبـــــرات
قـــد رأيـــت الـــظـــلـــم يـــطـــغـــى ويـــثـــور   ويـــــدوّي في الـــــضّـــــيـــــاصي كـــــالهزيم
ورأيـــت الـــنـــاس ســـكـــرى بـــخـــمـــور   عصرت مـــن كـــرمـــة الـــيـــأس الـــكـــظـــيم
وفـــــؤادي طـــــافـــــح بـــــالحسرات   صُعّدت خـــرســـاء شـــبـــه الـــلـــهـــثـــات

كـــطـــيـــوف الـــلـــيـــل تمضي وتـــؤوب

وشـــكـــاتي جـــمـــدت بين الـــشـــفـــاه،   هـــل تُراهـــا بـــلـــغـــت ســـمـــع الإلـــه؟

هـــل تُراهـــا، إيـــه عـــلاّم الـــغـــيـــوب؟

وقلت:

يــا الهي، قــد ســمــعــت الأنــبــيــاء جــلــجــلــت أصــواتهم في المشرقين
ليــس خــوف، لا نكــوص، لا ريــاء، وســنــاء الحق يجلــو المقــلــتين
نــدوا بــالــظــلــم، نــادوا بــالــســلام، نشــدوا العــدل، أدانــوا الأقــويــاء
بــاسـمــك الــســامــي أهــابــوا بــالأنــام، أشــهــدوا الأرض وأركــان الــسماء.
وأنــا، يــا رب، مــســكين ضــعــيــف، بُحّ صــوتي في فــي الــواني الــنــحــيــف.
أيــن لي الــصــوت الــقــويّ الهادر؟
يــغــمــر الــدنــيــا كــاعــصــار عَصُوف ويــبــثّ الهول في لــيــل الــكــهــوف:
قــم تــيــقّظ وانــتــفــض، يــا ســادر!

وقلت غير ذلك الكثير.

أما في مسرحياتي التأريخية فقد حاولت الدعوة الى الخير والمحبّة والسلام. تنتقل هذه المسرحيات من بابل الى الهند ومن السودان الى جزيرة هايتي في البحر الكاريبي، وتمتدّ عصورها من القرن التاسع عشر قبل الميلاد الى القرن التاسع عشر بعده. ففي «ملك المهرجان» يقع الاختيار على بستاني مغمور ليكون قرباناً لملك بابل، لكن الملك يموت فجأة ويصبح هذا الشاب الفقير عاهلا في محله، وكان ملكا مصلحا خلّد اسمه في التأريخ.

ومسرحية «أسوكا» تستمدّ قصتها من ملك الهند الشهير الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. بدأ عهده بالحرب، ثم مال الى السلم وأمر بنقش مبادىء السلام والأخلاق الرفيعة على الأعمدة والصخور لتكون تذكاراً للأجيال القادمة.

و «محرقة شندي» تختلف عن ذلك، فهي تقوم على أساس غزو مصر للسودان في عهد الوالي محمد علي باشا الكبير. وقد انتقم اهل السودان من الغزاة، فأحرقوا ابن الوالي وضباطه في مكيدة دبروها لهم، ثم هربوا الى الجنوب.

و «طاغية هايتي» مبنية على سيرة جان جاك ديسالين الذي أعلن نفسه امبراطوراً على هايتي متشبّها بنابوليون الأول، فاضطهد العبيد أبناء جلدته وسامهم سوء العذاب حتى قامت الثورة عليه وقتل سنة ١٨٠٦ بعد أن حكم بلاده سنتين. وهذا الرجل مثال كل الطغاة الذين ظهروا في مختلف الأزمنة وأقاموا سلطانهم على الارهاب والتعذيب والتقتيل، ثم لقي اكثرهم مصيره المحتوم جزاء أعماله المنكرة. وكم طاغية ظهر في عصرنا الحاضر، في بلادنا العربية وفي سائر الأقطار الآسيوية والافريقية والاميركية الجنوبية، فكان شعاره مماثلا لشعار امبراطور هايتي الذي يقول:

اقــتــلــوا ثم اســألــوا، نحن الــطــغــاة قــد خــبــرنــا داء هــذا الــبشر
إنهم لا يــســتــحــقــون الحيــاة، داؤهــم خــوف وضــعــف الــبصر...

حكم هؤلاء الطغاة باسم الشعب، لكنهم ساموا شعبهم عذاباً وهواناً، كمّوا لسانه وأحصوا عليه أنفاسه، سلّطوا عليه جلاوزتهم وجواسيسهم ولم يرعوا له إلاً ولا ذمّة.

في سنة ١٩٨٣ صدر كتابي «أعلام اليهود في العراق الحديث» نشرته رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق وقدمه للطبع البروفسور شموئيل موريه الاستاذ في الجامعة العبرية بالقدس وجامعة بار ايلان في رمات غان والدكتور

نسيم تزّاز المحاضر في جامعة النقب بئر السبع، وهو كتاب صغير ضمّ تراجم للأعلام الذين خدموا العراق خلال النصف الاول من القرن العشرين في ميادين السياسة والادارة والحقوق والدين والتجارة والاقتصاد والصحافة والادب والفنّ، مع مقدّمة موجزة عن اليهود في العراق وأثرهم في الحياة العامة. والحقيقة ان هذا الكتاب لا يضمّ جميع صور الحياة، اليهودية ورجالها، وقد اجتمعت لي بعد طبعه معلومات وأخبار وتراجم كثيرة نستحق ان تضم اليه في طبعة جديدة. لقيت الصديق القديم الشاعر الاديب المربّي الدكتور مراد ميخائيل في زيارة لاسرائيل فقال لي معاتباً: لم تذكر ترجمتي في كتابك بل جعلتني «معدّدة» للأموات أندبهم وأبكيهم. وقد توفي مراد سنة ١٩٨٦ وقامت أرملته الوفيّة بنشر أعماله الشعرية الكاملة في طبعة نفيسة، فهيّئت لي الفرصة لكتابة بحث عن الشاعر وأدبه(٦٣).

ثم نشرت لي دار رياض الرّيس في لندن سنة ١٩٨٧ كتاب «أعلام السياسة في العراق الحديث»، وهو يؤرخ سيرة الرعيل الاول من السياسيين الذين ساهموا في بناء العراق الحديث ابتداءً من الملك فيصل الاول وانتهاءً بالزعيم عبد الكريم قاسم. وقد حاولت اعادة اعتبار رجال العهد الملكي الذين أهملتهم الثورات المتعاقبة او وصمتهم بالخيانة والمروق امثال عبد الرحمن النقيب وعبد المحسن السعدون وجعفر العسكري ونوري السعيد وتوفيق السويدي وغيرهم. وتضمّن الكتاب فصولاً صريحة لاعادة تقييم تاريخ العراق الملكي وثورة ١٩٢٠ وثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فلم تر دار النشر بداً أن تعلن على الغلاف ان المؤلف «مير بصري يحاول أن يعيد النظر في الأحداث السياسية التي شهدها العراق الحديث بعد الاستقلال، ولا سيا ثورة العشرين وثورة ١٤ تموز، وذلك من خلال متابعته الشخصية للأحداث ومعايشته للأشخاص الذين لعبوا دوراً في بناء الكيان السياسي للعراق»، ثم انتهت الى القول: «وفي هذا الكتاب محاولة جديدة وجريئة وصريحة لتقييم تاريخ العراق الحديث من منطلقات جديدة قد تتفق او تتناقض مع آراء ومواقف الآخرين، ولكنها تفتح باب النقاش تمهيداً لوضع الأمور في نصابها الصحيح».

وأنجزت خلال هذه الفترة ايضاً وضع كتب متعددة جاهزة للطبع أهمها الآتية:

(١) أعلام الأدب في العراق الحديث في نحو ١٥٠٠ صفحة يتناول تاريخ الادب العراقي في القرن العشرين في اطار الآداب العربية والعالمية العامة ويترجم لمئات الشعراء والادباء ورجال الدين في عصر النهضة الحديثة.

(٢) اعلام الوطنية والقومية العربية في اكثر من ٥٠٠ صفحة، تناولت فيه ترجمة اعلام الوطنية والقومية في القرن العشرين في مصر وسورية والعراق وبلاد المغرب وسائر أقطار العروبة من احمد عرابي ومصطفى كامل ومصطفى النحاس الى عمر المختار ومحمد بن عبد الكريم والملوك حسين عاهل الحجاز وعبد العزيز آل سعود والامام يحيى ملك اليمن الى دعاة القومية أمثال شكيب أرسلان وعزيز علي المصري وساطع الحصري ورجال الثورة العراقية الكبرى الخ. ناقشت آراء رجال القومية والوحدة العربية بوجه الصراحة وعلى بساط الحقيقة. تكلمت عن نشوء القومية العربية وأهدافها وأثر النهضة الادبية فيها، وقلت: «انّ مستقبل الامة العربية يقوم على استقرار الامور في بلادها المترامية الاطراف وقيام حكومات ثابتة ترعى مصالح الاهلين وتستعين بالثروات والخيرات الوطنية لانشاء المشاريع المفيدة وترقية الزراعة والصناعة وتوفير المواد الغذائية والاستهلاكية وتنمية الثروة القومية ورفع مستوى معيشة جميع الطبقات...»

وقلت: «لقد أصبح العالم بسبب المواصلات الحديثة والاختراعات الباذخة وحدة شاملة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. فلا بدّ للعرب من التفاهم والتعاون فيما بينهم والتعاضد مع الأقطار الخارجية تحقيقاً لصالحهم وبلوغاً لمقامهم السامي في الهيئة الدولية. وذلك مستقبل الشعب العربي في قاصي أقطاره ودانيها ومستقبل الأمم العالمية عموماً في فجر القرن الحادي والعشرين».

(٣) أعلام الكرد والقومية الكردية في اكثر من ٣٥٠ صفحة، وهو يتناول تاريخ الاكراد في العصور الحديثة وسيرة رجالهم في العراق وايران وتركية ومصر وسورية والحجاز ونماذج من أدبهم وثقافتهم. وناقشت طموحهم الى الاستقلال وثوراتهم المتعاقبة ومقامهم في المجتمع الدولي خلال العصور. وقد اكبرت مساعي هذا الشعب العامل الحيّ الذي قلما حظي بما يستحق من تقدير وانصاف في مختلف الاقطار التي جزّأت وطنه التاريخي في الشرق الاوسط.

مساع ورسائل واتصالات

لم نكد نصل الى أمستردام ولندن حتى اتصلت بنا لجنة العفو الدولية التي كانت مهتمة بالحقوق الانسانية في العراق وطلبت المعلومات الوافية عن معاملة اليهود وسائر الأقليات والهيئات المعارضة للحكم البعثي.

وقد أوفدت احدى موظفاتها المختصة بشؤون الشرق الاوسط لمواجهتي، وأخبرتها عن اعتقال البنّائين الأحرار (فري ميسنس) السابقين ووفاة احدهم في السجن. ولما تطرقت الى القبض على البهائيين رجالهم ونسائهم والتنكيل بهم، قالت ان المجلس الاعلى للمذهب البهائي في حيفا طلب من لجنة العفو (آمنستي) الامتناع عن الدفاع عن البهائيين لأنهم يسرّهم أن يتحملوا العذاب والاستشهاد في سبيل ديانتهم.

واتصل بي ايضاً ابراهام كارليكوف مدير المكتب الاوربي للمجلس اليهودي الاميركي في باريس The American Jewish Comitteeوقال انه كان مطلعاً على أحوال طائفتنا ومساعيّ في سبيلها وطلب تقريراً مفصلاً عن الموضوع فوافيته به. وعلى أثر ذلك كتب اليّ في ٥ شباط ١٩٧٥ يشكرني على المواد التي قدمتها اليه ويقول: «هذه المواد تجعلنا نشعر شعوراً اكثر كيف كان وضعك الخاص صعباً ونوع الشجاعة التي حملتك على كتابة تلك الرسائل (الى رئيس الجمهورية والسلطات العراقية) في ذلك الوقت. وأودّ أن أقول لك ان هذه القائمة الموثوقة التي جهزتنا بها تتفق مع المعلومات التي تسرّبت من العراق في حينه. وهنا ايضاً اعتقد ان الجماعة اليهودية العالمية مدينة لك بالشكر.

ولا نأسف الا لأننا لم يسعنا العمل بصورة فعّالة كما كنّا نودّ للحيلولة دون وقوع الفواجع التي وصفتها».

ولقد كنّا في العراق، بالرغم من انشغالنا بأمورنا، نتتبع اخبار اسرائيل وانجازاتها وحروبها. وكانت الصحف والاذاعة العراقية تحرّف تلك الاخبار وتشوّهها. وأورد مثالاً بسيطاً على ذلك ان القنصل العراقي في القدس عاد الى بغداد مع عائلته بعد حرب ١٩٦٧، فقالت زوجته لصاحباتها ان السلطة العسكرية الاسرائيلية عاملتهم أحسن معاملة ووفّرت لهم أسباب الراحة والرعاية، ثم سفّرتهم الى عمّان بكل احترام. أما القنصل نفسه فظهر على شاشة التلفزيون وقال ان اسرائيل عاملتهم بخشونة ولم تحترم صياناتهم الدبلوماسية، وبالغ في ذلك كل المبالغة.

وانتهزت فرصة وجودي في هولندة فكتبت رسالة مطوّلة الى حكومة اسرائيل قدّمتها عن طريق قنصلها العام في لندن آنذاك زئيب صفوت الذي تعرّفت عليه فيما بعد. وقلت ان اسرائيل يجب أن تسعى الى الصلح مع العرب لأن الزمن مؤات لهم وتعمل لاسكان اللاجئين الفلسطينيين لأن المشكلة تبقى قائمة والحرب دائمة ما داموا مشرّدين في الملاجىء والأكواخ. وأملي ان الدولة اليهودية توحد جهود أبنائها وتصهرهم في البوتقة الوطنية، وتترك التناحر الداخلي وتؤمن بالقيم الروحية تراث الدين اليهودي القويم دون تعصب ولا تفرقة لكي تكون مركزاً روحياً انسانياً وقوة عالمية للخير والسعادة البشرية.

ألم يقل الشاعر الانساني شاؤل تشرنيخوفسكي (١٨٧٥ ـ ١٩٤٤) في قصيدة له:

اسخري، اسخري من الاحلام.
أنا لا زلت اؤمن بالانسان...
لا زلت اؤمن ان يوماً سوف يأتي،
وإن يكن متأخراً،
حيث تجتمع الأمم وتتبادل تحية السلام
وتشارك في الخيرات دون خوف ولا رهبة.
عند ذلك سوف تزدهر أمتي وتلد جيلاً تحرر
من قيوده
ويرى الخلاص عياناً، جيلاً يعيش ويحبّ
ويكدح ويجاهد
ويجد آلاء الحياة الصحيحة
وجنّة النور الأرضية التي لا تعرف القيد ولا الحدود

وقال شاعر العراق معروف الرصافي (١٨٧٥ ــ ١٩٤٥):

حنانيك، يا هربر صموئيل، كم لنا ... على الدهر من حقّ مضاع ومن وتْرِ
لنا أنفس تحيا بثروة عزّها ... وإن نشأت بين الخصاصة والفقر
اذا نحن عاهدنا وفيْنا ولم نكن ... إذا ما أُوتُمِنّا جانحين الى الختر
فإن شئت، يا هربر صموئيل، فاختبر ... خلائق منّا لا تميل الى الغدر

لجأ الرصافي الى فلسطين سنة ١٩٢٠ وعيّن استاذاً في دار المعلّمين. وألقى الاستاذ ابراهام يهودا العراقي الأصل محاضرة في القدس، بدعوة من رئيس بلديتها راغب بك النشاشيبي وفي حضور المندوب السامي السر هربرت صموئيل، أشاد فيها بمدنيّة العرب في الشرق والغرب. ولما أتمها نهض السر هربرت وألقى خطاباً ابتهج له الحاضرون. هزّت تلك الكلمات نفس الشاعر العراقي الكبير فنظم قصيدته «الى هربر صموئيل» قال في مطلعها:(٦٤)

خطاب يهودا قد دعانا الى الفكر ... وذكّرنا ما نحن فيه على ذُكْر
لدى محفل في القدس بالقوم حافل ... تبوّأه هربر صموئيل في الصدر

حتى يقول:

ولسنا كما قال الأُلَى يتهموننا ... نعادي بني إسْرال في السرّ والجهر
وكيف وهم أعمامنا وإلَيْهُمُ ... يمتّ باسماعيل قِدْماً بنو فِهْر؟
وإني أرى العُرْبيَّ للعرب ينتمي ... قريباً من العِبْريّ ينمى الى العِبْر
هما من ذوي القربى وفي لغتيها ... دليل على صدق القرابة في النّجر...

أرى الخيال قد شطّ بي، فلم يبق في اسرائيل تشرنيخوفسكي ولم يبق في العراق والبلاد العربية رصافيّ. ولكن...

قلت في حديث لي أذيع من بغداد في ٢٧ ايار ١٩٤٤: «وان امة ذات ماض مجيد عريق هل تستطيع ان تتطلع قدماً وان تسير الى الامام؟ نعم، اذا اتخذت من سيرتها السالفة وحياً وعبرة ولم تتخذها أداة لهو واستكانة وتفاخر».

اذا كان هذا الكلام ينطبق على العراق والعرب فانه ينطبق ايضاً على دولة اسرائيل. لا ريب ان اسرائيل دولة

عصرية دمقراطية، لكن نظامها الانتخابي يجعل ميزان القوى السياسية في أيدي فئة قليلة من رجال الدين المتعصبين الذين ينظرون الى الوراء ويتحكمون في الاحزاب دون أن يدافعوا عسكرياً عن وطنهم. وهذا النظام الانتخابي يجعل النائب مسؤولاً امام حزبه لا أمام منتخبيه في منطقته، وبذلك يرفع المسؤولية في نهاية الامر امام الامة. وقد كان هذا النظام سائداً في جمهورية ويمار الألمانية في فترة ما بين الحربين فساعد على وصول هتلر الى منصّة الأحكام.

فوجئت عند قدومي الى لندن برسالة من الاب جان بوشيه، من الدير الذي يعتكف فيه في ليستر بانكلترة، يهنئني بمغادرة العراق أخيراً والاستقرار في البلاد الحرة. عرفت هذا الراهب الكاثوليكي الفرنسي في بغداد قبل نحو من ثلاثين سنة اذ حلّ ضيفاً على دير الكرمليين وبقي بضع سنوات. كان مختصاً باللغة العبرية الحديثة، وقد علمت انه سافر بعد ذلك الى اسرائيل وحصل على الدكتوراه من الجامعة العبرية في اورشليم، وتولى ترجمة الانجيل وبعض الكتب الدينية الى العبرية الحديثة.

كتب اليّ قائلاً انه كان يتتبع اخباري ولم يشأ ان يكتب اليّ وانا في العراق. ولما علم بمجيئي الى لندن أسرع بالاتصال بي. وهو الآن يقضي شيخوخته معتزلاً في الدير. وهذا منتهى التفقّد والوفاء!

ويجدر بي أن أقول ان اصدقائي في العراق، مسلمين ومسيحيين، لم ينقطعوا عن مراسلتي، وكانوا اذا ما جاء احدهم الى لندن يبادر الى الاتصال بي وزيارتي. وقد كتب اليّ مصطفى علي الاديب الكبير ووزير العدل السابق، وكان له مجلس صباح الجمعة حافل برجال الادب والفضل والقضاء، يبدي أسفه لسفرنا ويقول ان روّاد مجلسه «يذكرونك دائماً وينظرون الى المحلّ الذي كنت تجلس فيه يوم الجمعة بشوق ويؤلمهم أن لا يجدوا صاحبه فيه. وكلهم آمال ان لا يطول غيابك عن موطنك بل عن هذه التربة المباركة التي ضمّت رفات آبائك وأجدادك منذ قرون». ولما أدركته الوفاة سنة ١٩٨٠ كتبت اليّ ابنته كريمة تبعث لي ــ كما قالت ــ بسلام والدها الأخير لي وللعائلة وللعم أبي ضياء (انور شاؤل).

وكتب اليّ الشيخ جلال الحنفي إمام وخطيب جامع الخلفاء في بغداد والذي انتدب حيناً لتدريس العربية في الصين يبثّ أشواقه ويقدم تحياته وتحيات «جميع مقدّري أدبكم وفضلكم».

وكتب اليّ الأديب الكبير جعفر الخليلي يقول انه ينشج بالبكاء حين يقرأ رسائلي تأثراً وشوقاً ويذكر تلك الأوقات الهنيئة التي كنّا نقضيها في المجالس الأدبية الأخوية. وحمّلني سلامه الى صديقنا أنور شاؤل وقال: «ولا قرار لي والله حتى يتحقق قول الشاعر القائل:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظنّ ان لا تلاقيا.»

ثم قال: «وكم أكون ممتنا اذا تفضلت وبما عرفت به من ذلاقة اللسان وحسن البيان فأعربت لأخي الوفيّ والشاعر الكبير المبدع أبي ضياء عمّا يكنّ له قلبي من الشوق والمحبة، فإني والله لعاجز كل العجز عن تصوير ما أحمله لك وله من العاطفة الصادقة، أدامك الله وأدامه عنواناً للفضيلة وآية من آيات الاخاء والوفاء.»

وكان الصديق النبيل محمود صبحي الدفتري الذي عرف بـ «سيّد الاتيكيت» والذي تولى وزارة العدلية ووزارة الخارجية في العهد الملكي يعقد مجلسه الشهير «صالون الجمعة» فيحضره كبار الناس من رجال الدولة والوجهاء والأدباء. وقد دأبت على حضور هذا المجلس نحواً من ٣٥ سنة وتمتعت بلطف صاحبه ورعايته، ونقلت عنه مئات الصفحات مما كان يحفظه من الأخبار القديمة والأحداث الجسيمة والشعر التركي الرائق. وكان هو نفسه يعدّ من أدباء

اللغة التركية المبرّزين. قضى في استانبول عاصمة السلطنة والخلافة سنوات اتصل خلالها بعبد الحق حامد والدكتور رضا توفيق وسليمان نظيف وسواهم من عباقرة الادب التركي. واشتهر محمود صبحي بعشرات القطط الأصيلة التي كان يربّيها فتسرح وتمرح في منزله، وقد قلت فيها:

قــطــط لاحــت (أمــر عــجــبٌ!)	ولــهــا رأس ولــهــا ذنــب
ولــهــا فــهــم ولــهــا أدب	ولــهــا حــسـب ولــهــا نــسـب
تــغــدو وتــروح عــلــى مــهــل	لــيــســت تــدري مــاذا الأرب
وتــداعــب ضــيــفــاً فــي غــنــج	فــيــحــار أجــدّ أم لــعــب؟
فــوقــار جــاء بــلا كــلــف	ودلال بــان ولا ســبــب...
عــلــمــت عــن حــدس او فــطــن	أن واتــاهــا حــظ عــجــب،
فــغــدت بــالــقــســمــة راضــيــة	لا تــنــغــص عــيــشــتــهــا الــكــرب.

زرته مودعاً حين قررنا مغادرة بغداد فخرج يودّعني الى حديقة داره وصافحني قائلا: محمود صبحي يقول لمير بصري: لا تنسني!

توفي الدفتري فكتبت الى أسرته معزّيا، فأجابتني ابنته السيدة لميس تقول: «... وما إن استلمت رسالتكم حتى هاجت ذكرياتي عن والدي وبدأت الجمل تتراءى لي: شعر عبد الحق حامد، التأريخ العثماني، تأريخ العراق الحديث ودوره في بعض أحداثه، أحاديث صالون الجمعة، حتى أبيات الشعر التي نظمتموها عن القطط. انني لن أنساها مطلقاً، ولا انسى يوم جاءنا والدي بالشعر مكتوباً بعد احدى جلسات صالون الجمعة في بيتنا في الحيدرخانة واخذ يتلوه علينا بيتاً بيتا.»

ثم قالت: «لقد عاش والدي تسعين عاماً ناقصاً سبعة أيام: فقد ولد في بغداد في ١٤ كانون الأول ١٨٨٩ وتوفي في ٧ كانون الأول ١٩٧٩. وبقي الى آخر يوم من حياته قويّ الملاحظة، سريع النكتة، راوياً للشعر... لقد رحل جميع أصدقائه قبله وعاش سنواته الأخيرة يعيد عنهم ويتسلّى بها. ولم ينس ولا واحداً منهم، وكنت أنت أحدهم...» وختمت كلامها وذكرياتها المتتابعة قائلة: «لا تعجبوا من اندفاعي، فان رسالتكم كانت مؤثرة. وهذه الرسالة هي ردّ فعل لتلك الرسالة...»

وكان الدكتور عبد المجيد القصاب الطبيب الأديب وزير المعارف والصحة سابقاً يزورنا مع زوجته كلما جاء الى لندن. وحين غادر انكلترة في احدى المرّات كتب اليّ يقول: «لقد أوحت لي طبيعة سويسرة واليونان بهذين البيتين عندما كنت أفكر بالكتابة اليكم هناك...:

أنّي رحــلــتُ فــإنــكــم في خــاطــري	وبــنــاظــريّ ومــهــجتي وضــمــيــري
وتــركــت قــلبي عــنــدكــم شــغــفــاً بــكــم،	وكــذاك عــنــدكــمُ تــركــت شــعــوري.»

ولم يستطع القصاب القدوم الى لندن في السنوات الأخيرة لمنع السفر بعد حرب ايران، لكنه كان لا يفتأ يرسل اليّ تحياته الى وفاته في بغداد في أواخر كانون الأول ١٩٨٨.

وكتب اليّ عبد الحميد العلوچي مدير دار الكتب والوثائق يقول: «... فبغداد، كما هي في ذاكرتك، بلد السلام، وستبقى كذلك أبد الدهر... وما أظنها تمنع نفسها من رؤيتك أو تمنعك من رؤيتها... ان سنواتك الحافلة التي عشتها غريباً في لندن تشهد على عطاء فكري ملحوظ، وأنت أهل له...»

وكتب اليّ أمين المميّز وزير العراق المفوّض في المملكة العربية السعودية سابقاً في تشرين الثاني ١٩٨٨ يقول: «ان أصدقاءك والمعجبين بك وبمنزلتك في عالم الأدب والشعر والتأليف والتأريخ والاقتصاد وغير ذلك من حقول المعرفة لن ينسوك أبداً. واني أحد الذين لم ينسوك، فقد خلّدت ذكرك في كتابي عن بغداد في مناسبتين أو ثلاث، فأدّيت بذلك واجبي تجاهك...»

وكتب اليّ الدكتور حسن الچلبي أستاذ الحقوق في جامعة بغداد وبعد ذلك في بيروت، وقد طلب مني بحوثاً عن مستقبل العراق بعد زوال الحكم الفردي وعن الاتحادالعربي، كتب اليّ من جنيف في أيلول ١٩٨٧: «تسلمت وقرأت رسالتك الرقيقة والبحثين المرفقين بها بالشكر والامتنان والتقدير والاهتمام. واذا كنت قد أحسست بكل هذه المشاعر الطيبة ازاء رسالتك وبحثيك فلأن ذلك يدلّ على ما تحملون من محبة وتعلق بوطن عشتم به عشرات السنين عاملين ومنتجين ومشاركين شعبه بالسرّاء والضرّاء. واني لأدعو الله مخلصاً ان تعود الى العراق وتشارك في صنع مستقبله بمواهبك التي ما تزال قادرة على العطاء وبخبرتك الواسعة ومعرفتك الدقيقة...»

وذكر بعد ذلك مخالفته لآرائي المتشائمة في مستقبل العراق وقال ان العراق لا بدّ ان ينهض من كبوته بعد ما قاساه من المحن والأرزاء والخطوب فينجب في آخر الأمر انساناً يختلف عن ذلك الذي كان قبل وقوعها. وقال: «وحسبي من ذلك الاشارة الى الشعب اليهودي. فلولا ما أصاب أبناءه من اضطهاد وقمع وبطش وتنكيل لما تحفّز الى التحرر وكان له ما كان في هذا السبيل رغم العوامل الأخرى التي لعبت دورها والتي هي غير خافية عليكم.»

هذا وقد جدّدت العهد في لندن بعشرات بل مئات الأصدقاء الذين اتخذوا مقامهم في العاصمة البريطانية، ومنهم ابن الخال نعيم الياهو دنكور المهندس العالم المفكر الذي أصدر صحيفة «الكاتب» (ذي سكرايب) باللغة الانكليزية فكانت صلة الوصل بين اليهود العراقيين في شتّى مغترباتهم، وأنفق عليها من ماله الآلاف. ومنهم داود سلمان (الدكتور دڤيد سالا) الذي التقيت به بعد فراق ثلاثين سنة والذي ينفق عن سعة في سبيل الخير والاحسان. ومنهم مقدم الطيران ناجي ابراهيم الذي كان من أوائل الضباط الطيارين العسكريين في العراق، ثم تطوّع سنة ١٩٤٠ في القوة الجوية البريطانية فأبلى البلاء الحسن في معارك الحرب العالمية.

ومن هؤلاء أيضاً أذكر عبد العزيز المظفر مدير الخارجية العام الذي عملت معه في أوائل أعوام تأسيس الوزارة، وتوفيق وهبي العلامة الكردي وزير المعارف والشؤون الاجتماعية في العراق ومؤلف القاموس الكردي الانكليزي مع الميجر ادموندس، وعبد الهادي الچلبي الشيخ الجليل، رجل الاعمال ووزير المواصلات والاشغال الذي كان زميلنا في السفر الى مؤتمر التجارة الدولي في نيويورك سنة ١٩٤٤. وقد أدركته الوفاة في لندن في شهر آذار ١٩٨٨ فرثيته بقصيدة قلت منها:

خلتِ الدار فأين الصاحبُ؟	غشي الأبهاء نور شاحب
وانطوت ذكرى عهود قد مضت،	أسفاً لا لن يعود الذاهب!
رحلة العمر انقضت في غربة،	كيف يرثي، ما يقول النّادب؟
إنني أرثي صلاحاً وحجى	فيض احسان جلاه الواهب
انني أرثي رشاداً، حنكة	كان يمليها الفطين الصائب
انني أرثي حياة حفلت	بالسّجايا حين عزّ الطالب
بك أرثي وطناً قد غاله	في ضياء الصبح عاتٍ غاصب الخ...

حمد وشكر

شكراً لله الذي شملنا بلطفه، وهيّأ لنا الاستقرار في بلاد الغربة، وأتاح لنا حياة عائلية هنيئة، وأحاطنا بالأصدقاء القدماء منهم والجدد. وقد زوّجنا بناتنا اللواتي سمّاهن أنور شاؤل «الفراشات الأربع».

وقديما قال احمد شوقي في البنات:

إنّ البنات ذخائر من رحمة   وكنوز حبّ صادق ووفاء
الساهرات لعلّة أو كِبْرة   والصابرات لشدّة وبلاء
والباكياتك حين ينقطع البكا   والزائراتك في العراء النائي
والذاكراتك ما حيين تحدّثاً   بسوالف الحُرُمات والآلاء

وأنعم الله عليّ بزوجة مخلصة محبّة رفيقة السرّاء والضراء.

وحبانا الله بأحفاد كانوا لنا نعم الأنيس. وقديما قال الشاعر:

حفيدنا من ابننا أحَبّْ   الإبن قشر والحفيد لُبّْ

وقلت:

أيّها الطفل، أيا طفلي الصغير،   أنت حلمٌ أمل المستقبل.
اضحك العب، نم هنيئاً في السرير،   لا تخف من سأم او كلل.
وغداً انك تنمو تكبر،   تنظر الدنيا بعين الواقع،
تَخْبُرُ الأيام، تبكي تشعر،   ثائراً تلبس ثوب الخانع.
قد هرمنا، أيها الطفل الحبيب،   وشكونا الدهر أكثرنا النحيب.
ما الذي تجدي تفيد الأدمع؟
فقم انهض، قد حلمنا في المساء   عالم الخير الذي يحيي الرجاء
يدك البيضاء يوماً تصنع

قمنا برحلات في اوقات مختلفة الى أنحاء أوربّة والولايات المتحدة وكندة، وزرنا اسرائيل حيث انتقل معظم اخواننا بعد سنوات الخمسين فنموا وتكاثروا وتبوّؤوا المناصب وأخذوا مكانتهم في المجتمع المتجدد المتوسّع. وأخيراً حصلنا على الجنسية البريطانية في سنة ١٩٨٢ فقلت أودّع العراق:

وداعـــاً، عـــراقي، وداعـــاً وداعـــاً، خـفـضـت الـرجـال رفـعـت الـرّعـاعـا

رؤى الخير أمـسـت حـطـامـاً وقـد غـدا الشرّ يـرجـى لـديـك مـتـاعـا

رفـعـنـا الـعـقـيـرة نـشـكـو الـزمـان ونـنـطـق والـدهـر يـأبى استماعـا

وبـعـد ألـوف الـسـنين مـضـت خـرجـنـا نـقـاسي أسىً والـتـيـاعـا

تـركـنـا الـديـار تموج ضـحـىً وتـشـهـد حـربـاً وتـشـكـو اصـطـراعـا

وفي كـلّ يـوم قـتـيـل بـريء أديـن، وهـل يـسـتـطـيـع الـدفـاعـا؟

ولم يـبـق ذكـر لأهـل الـنـهـى وحَقّ الـمـحـقّ مـضـى لا يـراعـى

ومـا مـن ضـيـاءٍ يـنـير الـعـقـول ويمحـو ظـلامـاً يـعـمّ الـبـقـاعـا

يـسير الـكـريم بـطـيء الخطـى كـئـيـبـاً يـداري الـونى والـضـيـاعـا

وحـرّ الجَنَـان قـصـير الـلـسـان يخاف الـرقـيـب ويخشى الـسّـبـاعـا

ويـنـظـر شـعـبـاً أسير الهوى وقـومـاً الى الـعـدل بـاتـوا جـيـاعـا

وقـطـراً يئنّ مـن الموبـقـات وفـيـه يـسـاوي الجبـان الـشـجـاعـا

يـصـوّب طـرفـاً لأفـق بـعـيـد لـعـلّ مـن الـنـور يـلفي شـعـاعـا

أتـيـنـا بـلاداً تجلّ الأنـام وتـرعـى الـذمـام وتجلـو الـطـبـاعـا

وتـنـشـئ جـيـلاً نـبـيـل الـسّمات يعزّ بـوجـه الـعـتـاة الـيـراعـا

وفيها الـدواء لجرح الـنـفـوس، وفيها الأمـان يـسـود مُشَاعـا

ويـعـلـو الـوجـوه ابـتـسـام الـرّضـا ويُكْرَعُ كـأسُ الـصـفـاء اكـتـراعـا

حمدنـا المقـام ونـلـنـا الـسـلام إذ الحقّ يـعـلـو قـويّاً مـطـاعـا

•

مساع ورسائل اخرى

في تشرين الثاني ١٩٧٤ قدمت الى لندن قبل ان ننتقل للاستقرار فيها وحضرت مؤتمر رؤساء الطوائف السفارادية مع ابن الخال نعيم الياهو دنكور. حيّاني الحاخام الدكتور شلومو غاؤون ورحّب بي كـ «آخر رئيس الجالوت في بابل»، فألقيت كلمة وجيزة شاكراً حسن الوفادة وذاكراً شيئاً عن احوال الطائفة التي تركتها في بغداد.

وفي اواخر السنة التالية حضرت مؤتمر المنظمة العالمية لليهود النازحين من البلاد العربية، وقد نظمه مردخاي بن بوراث الرجل العامل الذي سجن في العراق خلال الهجرة الجماعية سنة ١٩٥٠ ــ ٥١ والذي ما فتىء يبذل جهوده للدفاع عن حقوق يهود العراق وسواهم من الذين غادروا بلادهم الى اسرائيل وشتى أنحاء العالم.

في تلك الآونة قررت جمعية الأمم المتحدة وصم الصهيونية بالتمييز العنصري. أنشئت هيئة الأمم المتحدة في اعقاب الحرب العالمية الثانية لتقوم مقام عصبة الامم السابقة في اقرار السلم العالمي والدفاع عن حقوق الانسان والعدالة الدولية. كان عدد أعضائها في بادىء الأمر نحواً من ٥٠، ثم ازداد بعد استقلال الممتلكات والمستعمرات حتى بلغ ١٦٠ دولة، منها الدول العظمى كالمملكة المتحدة البريطانية والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين وفرنسة، ومنها الدول الصغيرة حديثة الاستقلال وبعضها لا تعدّ من النفوس سوى عشرات او مئات الآلاف. واكثر هذه الدول الأخيرة غارقة في الجهل والاستبداد تتقلّب في سلسلة الثورات والانقلابات وتستمرىء الحكم العسكري الدكتاتوري. فكيف يتسنى لهذه الدول التي لا تستطيع اقرار السلم في بلادها ولا تراعي حقوق الانسان في شعوبها، كيف يتسنى لها القيام بمهامها الدولية وصيانة السلم والعدالة؟

انتهزت فرصة صدور القرار الذي يشجب الصهيونية، مع انني لم اكن صهيونياً يوماً ما، فبعثت برسالة الى جريدة «التايمس» اللندنية نشرتها في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٧٥ قلت فيها ان قرار الهيئة الأممية لن يكون سوى حجة جديدة لاضطهاد اليهود ومعاداتهم في البلدان المتأخرة. وذكرت ما عاناه يهود العراق بعد انشاء دولة اسرائيل، وقد عاشوا في ذلك البلد ٢٥٠٠ سنة وقدّموا له أجلّ الخدمات في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة، فكان جزاؤهم التشريد والاعتقال والقتل والتعذيب. وقلت ان الشعب العراقي النبيل لم يكن راضياً عن اعمال السلطات التي اغتصبت الحكم فكان افراده يواصلون مساعدتهم لمواطنيهم الموسويين ويحفظون لهم الودّ والصداقة.

وعلمت ان السفير العراقي قد أرسل الى الجريدة رداً على رسالتي فلم تنشره «لانه لم يكن فيه ما يهم الجريدة او قرّاءها». وكتبت احدى الصحف العربية تقول: اننا نعرف مير بصري وطنياً مخلصاً، فكيف قلب لوطنه ظهر المجنّ بعد مغادرته اياه؟ ومن العجب ان الناس تضطهدنا وتؤذينا ثم تهاجمنا اذا دافعنا عن أنفسنا. وقد قال شاعر فرنسيّ ما ترجمته:

يا لقبح الحيوان	ليس يرضى بالهوان
إن تهاجمه يدافع	عن حماه والكيان!

***

في شباط ١٩٧٦ حصلت فرصة للتعرّف على سعيد حمامي ممثل منظمة تحرير فلسطين في لندن، فكتبت اليه:

«لقد رأيت لزاماً عليّ، بعد تفكير طويل، أن أكتب اليك هذه الكلمة الشخصية من لاجيء الى لاجيء، من شخص اضطّر على ترك بلاده الى مثيل له قاسى نفس المتاعب والمصاعب. فكلانا قد أرغمته الظروف على مغادرة أرض آبائه والتخلّي عن ارتباطاته وذكرياته وترك أمواله وأملاكه التي حصل عليها بكدّ يمينه وعرق جبينه».

ثم قلت ان العداء بين العرب واليهود قد استفحل وتفاقم وتعاظم حتى خرج من يد أصحابه الى دول كبرى وصغرى لا شأن لها الا بمصالحها وشعاراتها، فماذا يستطيع يهودي ضعيف وفلسطيني مسكين أن يعمل في سبيل تقرير مصيره ووضع حدّ لمأساته ومأساة الآلاف، بل الملايين، من اخوانه وأقاربه واللائذين به من نساء وأطفال؟ هل يستطيعان وقف عجلة التاريخ او اعادة عقارب الساعة الى الوراء؟ وما فائدة التحدث عن مسؤولية ما حدث من الأحداث وانماء الحقد والضغينة وافناء العمر في الحسرات والتأمّلات؟

وقلت: «أنا أدري ان ملايين الفلسطينيين قد شرّدوا وما زالوا يعيشون في ظروف تأباها الانسانية. ولكن لعلّك لا تدري ان مئات الآلاف من اليهود العرب قد تركوا بلادهم التي عاشوا فيها آلاف السنين وتكلموا بلغتها وتثقفوا بثقافتها من جراء الاضطهاد والتفرقة وسوء المعاملة التي تعرّضوا لها».

ذكرت ما عاناه المواطنون اليهود بعد تأسيس دولة اسرائيل وما تعرّضوا له من الاضطهاد والسجن والاعدام. وأشرت الى دعوة الحكومة العراقية أخيراً لمواطنيها اليهود الذين نزحوا عن بلادهم منذ سنة ١٩٤٨ الى العودة والتمتع بحقوق المواطنة أسوة بأخوانهم من المسلمين والمسيحيين. وقد نسب السفير العراقي في لندن في رسائله الى الصحف الانكليزية الظلم الذي حاق بيهود العراق فاضطرّهم على الهجرة الى الحكومات العراقية في عهد الملكية والاستعمار، ولم يحاول أن يعلم ماذا قاسى هؤلاء خلال السنوات الأخيرة في عهد الحكم الوطني من ظلم زهّدهم بحياتهم وكفّرهم بوطنهم وبالانسانية جمعاء.

وقلت: «ان مياه الرافدين قذفت خلال ربع القرن الأخير ملايين الملايين من أطنان الماء الى البحر، فهل تعود المياه الى منابعها وهل يعود الذين نكبوا وشرّدوا وطلبوا لأنفسهم ولأسرهم أوطاناً جديدة في كل صقع وتحت كل نجم؟...»

وتخلصت الى القول ان الوقت قد حان للتفكير في الامور وحلّ المشكلة المستعصية، ومن أجدر بحلّها من أبنائها من اليهود العرب والعرب الفلسطينيين بالتفاهم والحوار؟ وقد آن الاوان لترك الحقد والعداء والجلوس جنباً الى جنب لتدارك الامور في سبيل ابنائنا وأحفادنا والخروج من هذا المأزق الذي مزّق الاعصاب وبلبل الأذهان.

أجابني سعيد حمامي شاكراً رسالتي التي قرأها ــ كما قال ــ بعناية واهتمام وخرج منها بانطباع مؤثر. وقال: «لقد تأثرت بصدق مشاعركم وعمقها. كيف لا وأنتم تكتبون عن وطنكم ووطن أجدادكم؟ لكنني اودّ أيضاً ان أصارحكم بأنني لا أتفق معكم بهذا الشعور بالضعف أمام كِبَر المسألة وصعوبتها. ان كلّ تعقيدات القضية (قضية الصراع العربي الاسرائيلي) يمكن ردّها الى حقيقة أن قوى كثيرة قد تداخلت في مجريات هذا الصراع في الوقت الذي كانت قوى الطرفين الأصيلين لا يحسب حسابها».

واقترح أن نلتقي لنتحدث في الموضوع. فاجتمعنا في ٦ ايار وَقنا بمناقشة عامة عن قضية فلسطين واسرائيل، وقال: ولدت في حيفا وأرغب في العودة الى مسقط رأسي. قلت: وانا ولدت في بغداد وارغب في العودة الى مسقط رأسي، وقلت: انك تستطيع العودة عن طريق الأردن وجسر اللنبي، اما انا فلا استطيع العودة الى بغداد لأن الحكومة اسقطت جنسيّتي

العراقية ــ وهو حقّ طبيعي لا يتمكن أحد من سلبه ــ وجمّدت أموالي.

وتكلمنا عن موقف الدول العربية وسوء معاملتها لمواطنيها من اليهود. وأعرب عن رغبة اللاجئين الفلسطينيين في العودة الى ديارهم والبقاء في الخيام حتى يسمح لهم بذلك. وقال ان منظمة التحرير طلبت من الحكومات العربية اقرار حقّ اليهود العرب بالعودة الى مواطنهم. فقلت: ان التيّار التاريخي لا يعود الى الوراء، واسرائيل لا يمكن تدميرها. وقد جرى تبادل فعلي للسكان في الشرق الاوسط، وشرحت امثلة تاريخية لذلك: مثلاً بين اليونان وتركية سنة ١٩٢٢، بين تركية وسورية سنة ١٩٣٩ حين اقتطعت الاسكندرونة من الجسم السوري وألحقت بتركية لتكون ولاية هاتاي، بين الالمانيتين الغربية والشرقية في اعقاب الحرب العالمية الثانية، بين الهند وباكستان سنة ١٩٤٧ ــ ٤٨ وبعد ذلك مع بنغلاديش عند استقلالها سنة ١٩٧٢، وهلم جراً. وذكرت له ان مشاكل الشرق الاوسط العربي لا تنحصر بقيام دولة اسرائيل، فهناك معضلات الأقليات كالأكراد والشيعة ولبنان الخ.

وطلب اقرار اسرائيل مبدئياً بحق ابناء فلسطين في العودة وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة بحق اللاجئين في العودة او التعويض. بيّنت له ان الدول العربية لم تلتزم بقرارات هيئة الامم، فأجابني متنصّلاً عن المسؤولية عن الدول العربية. واقترح عودة اسرائيل الى حدود سنة ١٩٦٧ وانشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. قلت: ان الأردن دولة فلسطينية، وقد اقتطعت من جسم فلسطين سنة ١٩٢٢ ومنحت للأمير عبد الله. فقال: ان الفلسطينيين يريدون الاحتفاظ بهويتهم ولا يعتبرون الأردن وطناً لهم.

واقترحت بعد ذلك حلّ مشكلة الشرق الاوسط حلاً إجماعياً وتأسيس دولة فلسطينية قد تدخل بعد ذلك في اتحاد فدرالي مع اسرائيل، وقد تلتحق بها دول عربية اخرى في المنطقة. قال ان منظمة التحرير قد أيّدت حق الاكراد في التعايش والاستقلال الذاتي لا الانفصال.

دامت المناقشة اكثر من ثلاث ساعات، ولما هممت بالخروج قلت: لقد أضعنا وقتنا فيما لا جدوى وراءه، قال: ذلك ليس صحيحاً، فقد فهمت رأيك وفهمت رأيي. وارتأى دوام الاتصال والمناقشة.

كان سعيد حمامي رجلاً صريحاً معتدلاً، فلم تمض بضعة أشهر حتى سقط جديلاً في دمه ضحية التطرّف والارهاب من جانب ابناء جماعته.

في خريف سنة ١٩٧٦ نفسها حصلت لي الفرصة للتعرّف على قنصل مصر في لندن محمد عبد الرحيم، وذلك قبل الزيارة التاريخية للرئيس انور السادات لأورشليم القدس. ذلك ان مدرسة ابنتي ميّ هيّأت سفرة لطالباتها الى تركية ومصر واليونان وقبرص، فمضيت الى القنصلية المصرية للحصول على تأشيرة الدخول لها، ووجدت من القنصل كل تعاطف اذ منحها التأشيرة المطلوبة دون تأخير. وكانت تلك المناسبة بادرة للتعارف والتزاور، فزارنا مع زوجته في دارنا وجلب لي بعد ذلك من القاهرة عدة كتب صدرت حديثاً، منها كتاب محمود الدرّة «حياة عراقي من وراء البوّابة السوداء» وغيره. وحيّيته بقصيدة قلت منها:

حباني الزمان بخلّ كريم	وهل من خليل كعبد الرحيم؟
صفاء وفضل وخلق نبيل	ولطف يضوع كعطر النسيم
يمثّل مصر، ومصر جنان	ونيل يفيض بخير عميم
وواد سعيد وعهد جديد	ونور مديد ووجه بسيم
معين الثقافة، مهد العلوم	وفي منتداها شفاء السقيم

وكـم أوحـت الـشـعـر عـذب الـبـيـان — وكـم قـد جـلـت مـن ظـلام بهيم...
أبـو الهول أقـعـى رسـول الـدهـور — ويـكتم سرّاً بـصـمـت الحكيم
وأهـرام خـوفـو تحيّي الـقـرون — وتـروي حـكـايـات عصر عـظيم
ووادي الملـوك دلـيـل الخلـود — يـطـلّ مـهـيـبـاً نقيّ الأديم
حـنـت لمصر وعـهـد الـشـبـاب — تـرفّ رؤاه فتحيـي الرمـيم الـمـخ...

جرى البحث بيننا عن اسرائيل وقضية فلسطين فشرحت له نظرية تبادل السكان في الشرق الاوسط. قال لي: انني ضابط عسكري أصلاً، لكنني تخرّجت بعد ذلك في العلاقات الدولية والتحقت بالخدمة الخارجية، ولم يسبق لي الالتفات الى هذه الناحية. فهل تملي عليّ شرحاً في الموضوع؟ أمليت عليه بحثاً مسهباً عن تبادل السكان وأمثلته التاريخية، فكتبه وأظنه قدّم تقريراً به الى حكومته.

ومن اللطائف التي تروى في هذا الباب ان حسن حفني الموظف المختص بالتأشيرات جاءني وأنا أخرج من غرفة القنصل وقال: انا موظف منذ زمن بعيد ولم أحصل على ترفيع. وقد رأيت اهتمامي بسرعة انجاز التأشيرة وجلبها لك، فهل تتكرم بالكتابة الى سفير الجمهورية المصرية مثنياً على خدماتي؟ فكتبت رسالة الى السفير وقلت انني راجعت القنصلية للحصول على تأشيرة لابنتي فوجدت من الموظف المسؤول حسن حفني كل رعاية واهتمام وتسهيل لمعاملات المراجعين قاطبة. وختمت رسالتي قائلاً ان السيد حسن يعدّ حقاً وجهاً من وجوه مصر الكريمة في العاصمة البريطانية ورجوت السماح لي بتسجيل التقدير له.

ورآني حسن حفني بعد ذلك فشكرني على رسالتي وقال ان السفير استدعاه وأثنى عليه وأمر بوضع رسالتي في محفظته تمهيداً لترفيعه.

***

كتبت خلال السنين رسائل إلى شخصيات عربية وبعض الأصدقاء الذين عرفتهم أوضحت فيها معاملة الحكومة العراقية وحكومات الأقطار العربية الأخرى لمواطنيها من اليهود، وتطرقت الى تبادل السكان الذي جرى في المنطقة ووجوب حلّ المشكلة الفلسطينية. وقد أجابني بعضهم وامتنع عن الرّد آخرون، ومن أولئك الذين كتبت اليهم محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان ورئيس الجمهورية المصرية أنور السادات والملك حسين عاهل الأردن وادوارد سعيد الأستاذ في جامعة كولمبية والدكتور عبد الهادي التازي سفير المغرب السابق في بغداد وموسى مزّاوي أستاذ الحقوق في لندن الخ.

وكتبت الى الدكتور ألفرد ليلنتال محرر مجلة «منظر الشرق الأوسط» في نيويورك ومؤلف عدة كتب في تأييد وجهة النظر الفلسطينية ضد اسرائيل. زارنا ليلنتال في بغداد سنة ١٩٥٥ والتقى برجال الحكومة والحاخام ساسون خضوري ووجهاء الطائفة، وكتب عنّا في الكتاب الذي أصدره بعد ذلك. كتبت اليه في سنة ١٩٨٠ أسأله ألا يزال يؤيد ارهاب السلطات العربية لليهود وغير اليهود، وتكلمت عن تبادل السكان في المنطقة. أجابني أنه لا يرضى بالارهاب، وقد حذّر الفلسطينيين منه، غير أنه يرى إعطاءهم حقوقهم السليبة، ولا يوافق على نظرية تبادل السكان ولا يحبّذ الصلح الفردي الذي تمّ مع مصر.

***

في أيار ١٩٨٦ عادت السيدة مارغرت تاتشر رئيسة وزراء بريطانية من زيارة لها لاسرائيل، فكتبت اليها أذكرها أن اللورد پيل رئيس اللجنة عن فلسطين المعروفة باسمه كان أول من اقترح في تقريره الصادر سنة ١٩٣٧، تقسيم البلاد بين العرب واليهود، لكنه أبدى مخاوفه في الوقت نفسه أن يقضي على الطوائف اليهودية المزدهرة في العراق ومصر وسائر الأقطار العربية في حالة تشكيل دولة يهودية.

ذكرت أن مخاوف اللورد قد تحققت بعد سنة ١٩٤٨ وشرحت الاضطهاد الذي عاناه يهود العراق والبلاد العربية الأخرى حتى اضطرّوا على النزوح عن مواطنهم التي سكنوها منذ أجيال بعيدة واللجوء الى اسرائيل في الغالب. وتطرقت بعد ذلك الى تبادل السكان الواقعي الذي حصل في الشرق الأوسط وارتأيت وجوب حلّ المشكلة على هذا الأساس.

قلت ان العراق بأراضيه الواسعة ومياهه الوافرة يستطيع بكل سهولة أن يؤوي ملايين الفلسطينيين. وفي بلاد الرافدين الآن مليون مصري يعملون في الفلاحة وسائر الأعمال التي شغرت بذهاب الشباب الى ساحة الحرب الايرانية. والعراق يحتاج الى اليد العاملة لا سيا في الزراعة اذ يمكن احياؤها وإعادة خلق الجنان التي تكلم عنها هيرودوتس قبل ٢٥٠٠ سنة.

أحالت رئيسة الوزراء كتابي الى وزارة الخارجية، فأجابني رئيس قسم الشرق الأدنى في الوزارة قائلاً انه طالع بكل اهتمام ما كتبته عن يهود العراق، لكنه لا يرى اسكان اللاجئين الفلسطينيين في العراق حلاً واقعياً للنزاع العربي الاسرائيلي، فليس هناك أية علامة عن قبول العراق أو الفلسطينيين أنفسهم لذلك.

وقال أن الحكومة لا تزال تعتقد أنه يجدر إيجاد الترتيبات لممارسة الفلسطينيين حقهم في التقرير الذاتي ولانسحاب اسرائيل من أقاليم احتلّت سنة ١٩٦٧، والاتفاق الذي عقد بين المملكة الأردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية في ١١ شباط ١٩٨٥ يقترح اقامة اتحاد بين تلك الأقاليم والأردن، وذلك يبدو خياراً حسناً.

وفي كانون الثاني ١٩٨٨ كتبت بنفس المعنى الى ديڤد ميلور وزير الدولة في وزارة الخارجية بمناسبة عودته من زيارة لاسرائيل واعطائه تصريحات في الموضوع، فأجابني شاكراً ومبدياً اطلاعه على رسالتي باهتمام.

وفي شباط ١٩٨٨ زار نيل كينوك زعيم المعارضة مصر والأردن واسرائيل وعاد فأبدى انطباعاته. وقد كتبت اليه فأجابتني سكرتيرته معربة عن شكره، وأرسلت إليّ صورة تصريحه في أورشليم القدس، وخلاصة التصريح شكر الزعيم العمالي البريطاني لحزب العمل الاسرائيلي عن حسن ضيافتهم. وقال ان الفرصة سنحت له للاتصال بزعماء اسرائيل فضلاً عن زيارة مخيمات اللاجئين في الأردن وغزّة، وخرج من تلك الزيارات والمباحثات بلزوم حصول السلام والاستقرار في المنطقة، وتلك أهداف حزب العمال البريطاني. وقال ان السلام يستلزم التصميم والمثابرة ويجب أن يحقق مبدأين رئيسيين، هما قبل كل شيء توطيد أمن دولة اسرائيل، ثم تحقيق طموح الشعب الفلسطيني. وقال ان الاضطرابات في الضفة الغربية وغزّة تستعصي على الحلّ بالوسائل العسكرية لأنها نابعة من اليأس وانعدام الأمل والاستياء، ولا بدّ من إيجاد حلّ سلمي سريع عن طريق عقد مؤتمر دولي تمثّل فيه اسرائيل والبلاد العربية ووفد أردني ـ فلسطيني مشترك في ظل أعضاء مجلس الأمن، ومثل هذا المؤتمر يجب أن يقرر ضمانات لمنح اسرائيل حدوداً آمنة وتجريد الضفة الغربية وغزّة من السلاح وإعطاء الشعب الفلسطيني وطناً بالاتحاد مع الأردن اذا أمكن، وتقرير المساواة في المعاملة للجميع بدون تمييز في الدين والعرق... وختم كلامه قائلاً انه يحثّ أصدقاءه الاسرائيليين أن يراعوا طموحاتهم للمستقبل: فاسرائيل عرفت دائماً بالدمقراطية، ونالت الاحترام لدمقراطيتها، وحصلت على الاعجاب والدعم لدمقراطيتها، ولذلك يحكم على أعمالها ومواقفها ومطامعها في المستقبل حسب الأساليب الدمقراطية ـ داخلياً وفي الضفة الغربية وقطاع غزّة.

وفي كانون الاول ١٩٨٨ قررت سكرتيرية الدولة الاميركية الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية مباشرة، فكتبت الى ابراهام سوفير المشاور القانوني للسكرتيرية، وهو قاض واستاذ حقوق عراقيّ الأصل، في موضوع الحقوق المسلوبة والاموال المجمدة لليهود النازحين من العراق والبلاد العربية الاخرى. وقد أوضحت له الاضطهاد الذي أرغم اولئك اليهود على مغادرة أوطانهم، وشرحت نظرية تبادل السكان في الشرق الأوسط، ورجوت أن تأخذ الحكومة الاميركية بنظر الاعتبار حقوق يهود البلاد العربية عند نظرها في حقوق الفلسطينيين.

تبادل رسائل مع الدكتور الجمالي

الدكتور محمد فاضل الجمالي في مقدمة رجال السياسة والثقافة في العراق في العهد الملكي، درس في الولايات المتحدة وشغل أرفع المناصب في وزارة المعارف، ونقل سنة ١٩٤٤ الى وزارة الخارجية فتولى منصب وزير الخارجية ورئيس مجلس النواب ورئيس الوزراء. ومثّل العراق في معظم السنين في هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، فكان اللسان الناطق المعبّر عن الآراء المتطرفة ضد اسرائيل وكيانها ودعم القضية الفلسطينية. أنهت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ حياته السياسية وحاكمته وسجنته، ثم أطلقت سراحه فمضى الى تونس يدرّس التربية في جامعتها.

عرفت الدكتور الجمالي خلال السنين وكنت زميلاً له في نادي القلم، وقرأت في لندن كتباً له أصدرها بعد مغادرته العراق، ومنها كتابه عن مساعيه السابقة للعروبة ودفاعه عن استقلال البلاد العربية في المغرب والمشرق، وكتابه رسائل أب مسلم من السجن الى ولده. كتبت اليه في آب ١٩٨٠ أذكره بالعراق الذي عرفناه فيما مضى حينما كان يصول ويجول في المحافل الوطنية والدولية. ثم تكلمت عن اليهود في العراق والبلاد العربية واخلاصهم لمواطنهم وانسجامهم مع مواطنيهم واشتراكهم وإياهم في السرّاء والضرّاء. وقد جوزوا على وفائهم وخدماتهم جزاء سنّمار، تستّر الكثير من رجال السياسة بستار الوطنية ورفعوها علماً وشعاراً حتى انطبق عليهم قول صموئيل جونسن «الوطنية هي الملجأ الأخير للأوغاد».

قلت ان الظلم لا يتجزّأ: بدأ العراقيون تنكيلهم باليهود، فلم تمضِ سنوات حتى عمّ الظلم والارهاب وشمل مختلف طبقات الأمة. وقامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وتبعتها مذابح الموصل وكركوك، وتتابعت الانقلابات والثورات والاضطرابات والانحرافات والمغامرات والتجاوزات. ألقي بالمواطنين على اختلاف مذاهبهم ومنازعهم في السجون، وعذّبوا وقتّلوا وهدرت دماؤهم وأموالهم، ونقل آلاف المواطنين من الشمال الى الجنوب، وألقي بالآلاف على الحدود الايرانية. وما زالت أشباح التدمير والتعذيب تقضّ المضاجع في بلاد الرافدين، وما زالت المحاكمات الصورية تتوالى، وكلّما جاءت أمّة لعنت أختها، والعياذ بالله.

ثم تطرقت الى هجرة اليهود من الأقطار العربية، من مصر وسورية وليبية واليمن وعدن، ولم تكن حالهم في الأعوام الثلاثين المنصرمة خيراً من حالنا. وقد غادر البلاد العربية من المحيط الى الخليج مليون أو أكثر من المواطنين اليهود هاربين من الجور والارهاب، نزح معظمهم الى اسرائيل، وشرّد الباقون تحت كل نجم وفي كل قطر... قلت ان عدد هؤلاء المشرّدين يوازي عدد الفلسطينيين المهجّرين من أوطانهم، والفرق الوحيد هو أن اليهود وصلوا ما انصرم من حبل حياتهم في اسرائيل وسائر البلاد ونفضوا عن أنفسهم غبار الماضي وتطلعوا الى المستقبل، في حين أبقي اللاجئون الفلسطينيون أو جلّهم عمداً في الخيام والخصاص وتركوا تحت رحمة الهيئات الخيرية الدولية تقيتهم الخبز القفار وتسقيهم الماء الأجاج وتحرم صغارهم التعليم إلاّ أقلّة. وقد أهينت كرامتهم وعكّرت معيشتهم بينما مضى الزعماء والمتزعمون يركبون المراكب الفارهة ويعيشون في القصور ويظهرون في المحافل الدولية متشدّقين بالكلام، مجانبين الواقع، رافضين الحلول، باكين على الطلول، يطالبون كل يوم بما رفضوه بالأمس. وقد ظهر في بلادنا العربية حكام جدد يدعون الى الحقّ ويحكمون بالباطل...

قلت ان البلاد العربية قد عملت ازاء مواطنيها اليهود بفلسفة المعتوه عبّاس كِزّة الذي عرفته بغداد قبل جيل أو جيلين. كان يسير في الطرقات يتبعه الصبيان والعوام يثيرونه بالكلم وفاضح القول، فكان اذا ضربه أحدهم من ورائه لم يكلّف نفسه عناء الالتفات ليثأر منه بل عمد الى ضرب أول شخص يراه أمامه. وهكذا فعلت السلطات العربية حين فشلت في القضاء على اسرائيل، فكلما خسرت معركة أو حرباً اندفعت تضرب اليهود العرب الضعفاء المواطنين في بلادها وتقيّد حريّاتهم وتهين كرامتهم حتى اضطرتهم على الهجرة من أوطانهم.

تحدثت بعد ذلك عن نشوء القومية العربية والصهيونية فقلت أنها نشأتا في وقت واحد تقريباً وأتيت على موجز تاريخها حتى انتهت الحرب العظمى الأولى، ففاز العرب بما لم يحلموا به الا قبل فترة وجيزة، فاستقلّت أقطارهم أو سارت نحو الاستقلال. وكان موضوع الوحدة أو الجامعة العربية آنذاك خيالاً لا يراود المخيّلة، فلم يكن من المعقول أن ترضى البلدان العربية، وحتى العراق وسورية والجزيرة (عدا الحجاز) بحكم الملك حسين الهاشمي الذي أعلن نفسه سنة ١٩١٦ ملك العرب، فاعترف به الحلفاء ملكاً على الحجاز...

وانتهيت الى القول بوجوب تقرير حقيقتين ناصعتين: أولاهما أن البلاد العربية الممتدة من المحيط الى الخليج ليست عربية صرفة، بل فيها أقليات كثيرة تختلف عن معظم السكان لغة أو عرقاً أو ديناً أو مذهباً. وطالما اعترفت الحكومات العربية بحقوق هذه الأقليات ومنحتها حكماً ذاتياً وراعت مبادىء التسامح والعدالة والدمقراطية وصانت الحقوق والحريات في أقطارها فهي تفوز بالنجاح وتحظى بتأييد مواطنيها ورضاهم، أما اذا حكمت بالقوة والارهاب وغمطت الحقوق وسلبت الحريات فلا يقدّر لها الاستمرار مهما بلغت وارداتها النفطية ومكانتها الدولية.

ثانية الحقيقتين: لا بدّ للحكومات العربية أن تؤمن بالواقع كما آمنت به ألمانية واليابان المدحورتان في الحرب واللتان أصبحتا بعد عشرين أو ثلاثين سنة أحسن حالاً وأكثر رخاءاً وأمتن اقتصاداً من الدول المنتصرة. ان السياسة فنّ تحقيق الممكن، وإذا كان نابوليون قد قال انه لا مستحيل في العالم فإنّ نهايته كذّبت زعمه. فهل آمنت الحكومات العربية بالواقع في قضية فلسطين وغير فلسطين؟ وهل حققت سياستها منذ استقلالها نجاحاً مرضياً لشعوبها؟

وتخلصت الى ذكر حصول تبادل فعلي للسكان في منطقة الشرق الأوسط بصورة واقعية وأسهبت في شرح ذلك، فلا محيد للبلاد العربية من مجاراة الواقع. وقد شعر الرئيس أنور السادات بهذه الحقيقة بعد أن رأى مصره العزيزة مختلّة الاقتصاد، مكتظّة بالسكان، عاجزة عن حلّ مشاكلها الاجتماعية والسياسية والعسكرية، تنوء بأعباء عشرين عاماً من المجازفات في اليمن والانقلابات والدسائس في آسية وافريقية، فتقدم خطوة جريئة الى الأمام، ونهض لتحقيق السلام، وانصرف بجهوده لانهاض بلده وإطعام الأفواه الجائعة المتكاثرة من أبناء شعبه واستعادة مكانة مصر في المجتمعات العربية والدولية.

قلت: لا بدّ اذن من تسوية النزاع العربي الاسرائيلي في هذه المنطقة الحساسة التي ترنو اليها أبصار الدول ومطامعها وحلّه على أساس من الواقع وبدافع التفاهم والتسامح والنظرة الحكيمة البعيدة المدى...

ثم حملت حملة شخصية على الجمالي بصفة كونه أحد المسؤولين عن التربية والتعليم في العراق خلال السنوات ١٩٣١ — ٤٣ واحد رجال الحكم في الفترة التالية الى ثورة ١٤ تموز، وقلت: لا شك أنك سايرت الأوضاع السائدة آنذاك في العراق المحالف لبريطانية والمناهض للشيوعية والمنتمي الى حلف بغداد، ولم تكن لك ولأكثر رفاقك من رجال السياسة يد في رسم السياسة العامة، بل كنتم موظفين تنفذون السياسة المرسومة والخطط المعلومة. ولا بأس في ذلك، اذ كان العراق يسير بخطى وئيدة حيناً، وسريعة أحياناً، نحو الرخاء والإعمار والتقدم الاقتصادي ونحو زيادة الثروة العامة ونشر الثقافة والتعليم ورفع مستوى المعيشة للمواطنين...

وحملت عليه في أثناء عمله في وزارة المعارف حين انتهجت الوزارة «نهجاً وطنياً» ورفعت شعارات «الغرور القومي» و«صناعة الموت»، وحاولت تحقيق التوازن بين «الأكثرية» الشيعية و«الأقلية السنيّة» الحاكمة. اختير أفراد البعثات الدراسية على أساس المذهب والدين، وكان أول المغبونين أبناء طائفتنا اليهودية، اذ طبّقت بحقهم ما سمّي بـ«شرط النسبة» (نومروس كلوزس) وحرم أكثرهم من مواصلة الدراسة العالية والسفر في البعثات. ولولا مدارسهم الخاصة وحرصهم على التعلم والتقدم لأصبح جيلهم الجديد جاهلاً متأخراً.

وجاءت قضية فلسطين فتطاير شررها وأصاب اليهود في تجارتهم ومعايشهم، واتخذت حجة مبررة للظلم والاضطهاد. وقد نزح عن العراق في سنة ١٩٥٠ ــ ٥١ أكثر من ١٠٨ آلاف يهودي، لكنك ــ قلت أخاطب الدكتور الجمالي ــ جئت رئيساً للوزراء سنة ١٩٥٣، وكان قد بقي نحو من عشرة آلاف مواطن يهودي، وأنت تنادي بالتفريق بين اليهودية والصهيونية، لكنك وضعت لائحة قانونية لاسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين الذين لهم أقارب في اسرائيل، ناسياً أو متناسياً مبدأ «ولا تزر وازرة وزر أخرى»... ومعنى ذلك أنك كنت تريد نزع الجنسية عن جميع اليهود الباقين واستصفاء أموالهم وأملاكهم. واتصلنا بالمرحوم صالح جبر، وكان من رجال الدولة القلائل الذين أنجبهم العراق، فتوسط في اخماد تلك اللائحة الجائرة في مهدها...

وقلت له بعد ذلك: «ثم انكم تتباهون بالاسلام والقيم الاسلامية الرفيعة، هل عرفتم الاسلام الصحيح ومبادئه الانسانية وتعاليمه الكريمة يوم كنتم متربعين على دست الأحكام وجالسين على كراسي الوزارة الوثيرة؟

«انك، يا سيدي، قد كتبت الى ولدك من غيابة السجن رسائل تعجّ بالفضائل الاسلامية وتدعو الى الخير والصلاح. ذكرت أهمية الدين للانسان، وقلت انّ الدين ضروريّ للمجتمع، وانه ضابط اجتماعي ومصدر الفضيلة والأخلاق. لعلك طبّقت بعض هذه المبادىء يوم كنت في منصّة الحكم، ولعلّ رجال السياسة في بلادنا العربية ألزموا أنفسهم بشيء منها، ولكن هل عدلتم فينا؟ هل طبقتم علينا هذه المبادىء السامية، علينا نحن مواطنيكم يهود البلاد العربية؟ أهذا هو الاسلام الذي ينادي به آية الله الخميني والعقيد القذافي وسواهما من زعماء العرب والمسلمين؟

«انني نشأت وعشت عمري في بلد اسلامي عربي، ونعمت سنين طوالاً بسماحة الاسلام وسعة آفاق العروبة. كيف أنكر ذلك، وقد قلت من قصيدة لي نظمتها في بغداد:

ان يــكــن اسـلامـهـم هـذا الـذي	قـد رأيـنـاه فـيـنـا لـلـكمد!
نـعـرف الاسـلام عـدلاً سـامـيـاً	مـنـح الـعـبـد حـقـوق الـسـيّد
نـعـرف الاسـلام نـوراً زاهـيـاً	بـسـنـاه الـنـاس طـرّاً تهـتـدي
نـعـرف الاسـلام خـيـراً صـافـيـاً	ألـبـس الـقـوم بـرود الـرغـد
نـعـرف الاسـلام عـلـمـاً وتقى	رفـعـا فـيـه لـواء الـسـؤدد
أيـن مـنـه الجـهـل، حـاشـا، والهوى	وهما قـد ذهـبـا كـالـزبـد؟...»

وأشرت بعد ذلك الى المملكة الأردنية التي حكمت مدينة القدس القديمة ١٩ عاماً من ١٩٤٨ الى ١٩٦٧. فهل سمحت لنا بزيارة مقدّساتنا في هذا البلد المقدّس؟ ألم تنبش القبور وتهدم المعابد وتستعمل الشواهد والأحجار في البناء؟ أين تلك الأعمال الشائنة من سماحة الاسلام، بل أين هي من سموّ نفس السلطان صلاح الدين الذي فتح بيت المقدس فأشاع فيه الحرية والأمن والسلام؟... ان العرب اليوم في دور انحطاط ولم يظهر فيهم صلاح الدين او أشباه له.

إني لأغمض عيني ثم أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا!

ومنذ أكثر من نصف قرن وضع شكيب أرسلان كتابه «لماذا تأخر المسلمون»، فهل قرأ الشباب الطالع كتاب أمير البيان واعتبروا به وساروا في الاصلاح على نهجه؟ وقد تدفقت في بلادهم سيول النفط وفازوا بالثروة الباذخة والمكانة الشامخة، ونالوا الذهب الأصفر بفضل الذهب الأسود. وقد قلت في ذلك:

تدفق النفط في الصحراء منطلقاً والفضل للأرض لا للسعي والشُغُلِ
ثرّ المعين، ولكن ظلّ مورده سَيْب الطبيعة منذ الأعصر الأوَلِ
حتى أتى علماء الغرب يسندهم فنّ الصناعة والاتقان في العمل
فأخرجوه وصفّوا خامه فغدا تبراً يسيل لدى حافٍ ومنتعل
نال الثراء أناس كلّ فضلهمُ لَوْك الكلام ورعي الجهل والكسل...

فكيف استعملوا هذه الثروة المفاجئة؟ هل استعانوا بشيء منها لإسكان ملايين اللاجئين المشرّدين في الخيام والعائشين عالة على هيئة الغوث الأممية؟ وماذا نقول في التقتيل والارهاب وإثارة الفتن والقلاقل مّما امتدّ الى المسارح الدولية في أقاصي أوربة وآسية وأميركة؟...

تلك خلاصة موجزة لرسالتي التي بلغت نحواً من ثلاثين صفحة من القطع الكبير. وقد أجابني الدكتور الجمالي مبدياً سروره لأنني تذكرته وذكرته بأيام وظروف أصبحت في عداد التأريخ. قال: «نظرتي الى الحياة اليوم هي غير ما كانت عليه بالأمس، فصرت اليوم عميق الايمان بالله وبالفضائل التي يتضمنها هذا الايمان، كما أصبحت مقتنعاً بأن العالم كله يتغيّر باستمرار و «كل شيء هالك الا وجهه»...» وقال انه يؤمن بالتآخي والوحدة العراقية، و «ربما كان خطأنا الاساسي في الثلاثينات من هذا القرن اننا لم نؤكد الوحدة العراقية في سياستنا التربوية قدر تأكيدنا القومية العربية، ولا تناقض بينهما فانهما متكاملان.»

وقال ان ما قلته بأن القومية الصهيونية والقومية العربية نشأتا متعاصرتين ففيه شيء من الصحة، لكن الصهيونية جاءت الى المشرق العربي كحركة أوربية استعمارية توسعية واعتدائية، وكانت المسؤولة في الدرجة الأولى عن تسميم الجوّ في علاقات الأخوّة بين المسلمين واليهود في العراق. وقال ان ما حمل اليهود العراقيين على ترك وطنهم كان يجري وفق خطة صهيونية دقيقة، وقد حذّر «اخواننا اليهود من الخطر الصهيوني» واعترض وهو في الأمم المتحدة على سنّ قانون اسقاط الجنسية. وكتب قبل عدة سنوات مقالا في أميركة بعنوان «أبناء عمّي اليهود». وقال ان له اصدقاء عديدين من اليهود عراقيين وغير عراقيين ولم يشعر يوماً بغير الاخاء الصادق لليهودي والمسيحي الذي يبادله الاخاء. ودعا الى «العودة الى العقل والمنطق والاعتدال بين أبناء الأديان السماوية الثلاثة وبين أبناء الطوائف المتعددة في كل دين بحيث يتحقق العيش بسلام ووئام مع الثقة المتبادلة والأمن المستتبّ في الشرق الأوسط».

كتبت اليه ثانية أفنّد الآراء التي أبداها في جوابه وأؤكد النقاط التي أوردتها في كتابي الأول، فأجابني قائلا انه يعتقد بأن تبادل الآراء والحوار الحرّ مفيد اذا اقترن بحسن النية والروح الرياضية... وقال انه يجدر بنا ان نتذكر دوماً ان الانسان لن يتوصل الى الحقيقة كاملة مهما أوتي من ذكاء وعبقرية، فلكل مسألة جوانب قد تخفى على الانسان، والكمال لله تعالى. وقال انه كان ، وهو تلميذ في المدرسة الابتدائية، يذهب الى مدرسة الأليانس كل جمعة لاقتناء الكتب الفرنسية وتلقي الدروس باللغة الفرنسية من المسيو كوهين. وقال انه كان يسكن في منطقة يسكنها اليهود مع المسلمين، وكان جيرانه من اليهود يعيش معهم في جوّ من الصفاء وحسن الجوار. ولم يسمع بالاعتداءات على اليهود والاضطهاد الذي أشرت اليه. وأضاف قائلا: «أقول لك باخلاص بأنني لم أطلع على شيء من الارهاب أو الاعتقال أو الحرمان من

الحقوق المدنية. ولم أكن على اتصال بما يجري في نطاق وزارة الداخلية... وما أزال اعتبر اليهودي العراقي مواطناً كامل الحقوق وأخاً في الوطنية...»

وقال في الختام انه لا يتفق مع رأيي القائل بحصول تبادل واقعي للسكان في الشرق الأوسط، فالقضية ليست بهذه البساطة، وانما هي قضية «أوطان وأديان» وقضية «حقوق ومقدسات». وقال ان الرئيس السادات لم يقابل من الطرف الاسرائيلي بما يستحقه من الانصاف والتشجيع لدفع عجلة السلام الى الأمام. وختم رسالته طالباً الهداية من الله تعالى لرؤية الحقيقة كاملة ناصعة من كل جوانبها بكل تجرّد من الأنانيات والعصبيات، علّنا نتوصل الى مبادىء انسانية متفق عليها يبنى عليها صرح السلام والتآخي في الشرق الأوسط خاصة وفي العالم عامه (اهـ).

ندوة ومجلس

أقام مركز الدراسات المعاصرة ندوة عن الشرق الأوسط في كلية القديس أنطوني بجامعة أكسفورد في نيسان ١٩٨٥ حضرها فريق من الأساتذة ورجال الفكر وممثلون عن وزارة الخارجية البريطانية والسفارتين المصرية والاسرائيلية في لندن. جرى النقاش حول مشاكل المنطقة بصراحة وبحث موضوع اقامة اتحاد فدرالي، فأشار البعض الى عدم احتمال نجاحه. وقدم احد الصحفيين الحاضرين تقريراً عن انتشار التطرف الديني الاسلامي يثير المخاوف في المحافل الدولية.

ألقيت كلمة في الندوة أشرت فيها الى الاضطرابات والحروب والثورات التي عتمت أجواء الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية فضلا عن القضية الفلسطينية والمشكلة الكردية. وقلت ان اسرائيل امتصت مئات الآلاف من المهاجرين من يهود البلاد العربية فحصل فعلاً تبادل واقعي للسكان لا بدّ من الاعتراف به وملاحظته.

وفي نفس تلك السنة انتخبت عضواً في مجلس ممثلي اليهود البريطانيين مندوباً عن الجالية العراقية الأصل. وقد نظم المجلس رحلة دراسة الى اسرائيل في كانون الأول ١٩٨٦ ووضع منهاجاً مسهباً لزيارة المناطق المختلفة وجامعاتها والتباحث مع رجال الدولة وممثلي الضفة الغربية وغيرهم. وفي اليوم الثالث من وصولنا صدمتني سيارة مسرعة في طريق الجليل فكسرت رجلي اليمنى وذراعي الأيسر. نقلت الى المستشفى حيث مكثت شهراً واحداً أجريت لي خلاله عمليات جراحية، ثم سفّرت على الطائرة الى لندن وبقيت طريح الفراش عدة شهور. وأحمد الله انني نلت الشفاء التام وعدت أستطيع المشي بصورة طبيعية. وقد قلت في ذلك:

قبل عام واحد أو نحو عام … صنتني، يا ربّ، من أسر الحمام.
رُضّ جسمي وتولاّني السّقام، … غير أن الروح فازت بالسلام.
أحمد الله اجتباني بالشفاء، … أبرأ الأعضاء من كسر شديد،
وأراني زاهياً نور السماء، … فادياً نفسيَ بالعمر الجديد.
انني آمنت حقاً بالحياة، … غاية عظمى استهانت بالممات،
أرشدتنا بيد اللطف الخفيّة.
إن جهلنا كيف جئنا للوجود … وطمعنا في معاد وخلود
فلقد نلنا هدى الروح البهيّة.

وجدير بالذكر أنني كنت راقداً في المستشفى الى جانب سرير آخر رقد عليه شابّ عربي اسرائيلي. وجاءه أحد أصدقائه فأخذا يتناقشان في معنى بعض الآيات القرآنية، ولم يدركا الصواب. ولم يكن مني الاّ أن أشرت لهما بالمعنى الصحيح. ثم جاءت ممرضة لا تعرف سوى العبرية فصار الشابّ يترجم لها كلامي العربي الى اللغة العبرية. وكان ذلك خير مثال للتعاون والتفاهم!

أنور شاؤل والشعر

غادر أنور شاؤل بغداد سنة ١٩٧١، وتركناها بعد ثلاث سنوات الى أمستردام. فكتبت اليه اسأله ألا يزال يهتم بالأدب وينظم الشعر، فأجابني قائلا: وهل بوسعي ألاّ أهتم بالأدب وأنظم الشعر؟ وشفع جوابه بقصيدة نظمها باللغتين العربية والعبرية، قال:

أتسألني: هل هجرتُ القصيدا
وهل ربّة الشعر راحت بعيدا؟
فلا ومضة تستشفّ الظلاما،
ولا صرخة تستثير النياما،
ولا لهفة للرؤى والقوافي
ولا نغمة من نشيد يوافي؟
حتى يقول:
اتسألني: هل هجرتُ القصيدا
وهل بالقوافي رميت بعيدا؟
لماذا، وكيف؟... فإنّي لعمري
عقدت على الشعر نهيي وأمري،
وفيه حييتُ الشقيّ السعيدا،
وفيه لعلّي سأمضي شهيدا.

وقد نقلت الخبر الى مصطفى علي في بغداد، فكتب اليّ يقول: «موقف أبي ضياء من الشعر كموقف معروف الرصافي»: فقد أرسل اليه طه الراوي في سنة ١٩٤٢ بقصيدة يعاتبه فيها على تركه الشعر، فأجابه بقصيدة جاء فيها:

«ظننتني قد هجرت الشعر مُذْ زمن،
وهل أطيق لحبّ النفس هجرانا!
ذاك الحبيب الذي أوسعته مِقَةً
منّي وصيّرته للمجد عنوانا
قد شفّني حبّه حتى هجرت له
طيب المنام وبتُّ الليل سهرانا...»

وقد أتيح لي أن أرى أنور لآخر مرّة قبيل وفاته، اذ كنّا في زيارة لاسرائيل. وجدته ضعيفاً لكن كان نشطاً حيّ الفكر. تحدّث عن جائزة الأدب العربي التي منحه اياها رئيس الوزراء، واستعاد الذكريات والأحاديث الأدبية. ولم يمض أسبوع أو أسبوعان حتى نعي لي في ١٤ كانون الأول ١٩٨٤، وكان في الثمانين من عمره الحافل. وقد أسفت أنني لم أستطع تشييعه الى مثواه الأخير، اذ اننا عدنا الى لندن حسبما كان مقرراً في نفس يوم الدفن(٦٥).

وقلت في رثائه:

يـا صـديـق الـعـمـر، قـد آن الـوداع،	أنـت تمضي في طـريـق الـسّابـقين
وخـطـى المـوت حـثـيـثـات سِراع	في حـجـاب الـشـكّ أو فـجـر الـيـقين.
وافـتـرقـنـا بـعـد أعـوام طـويـلـة،	قـد تـلـونـا الـشـعـر فيها كـالـصـلاة،
ونـظـمـنـاه أنـاشـيـد نـبـيـلـة	لـسـمـوّ الـفـكـر تُهْدَى، لـلـحـيـاة.
كـم زرعـنـا الخير في جـدب الـفـلاة	وطـلـبـنـا فـي الـهـدى سـرّ الـنـجـاة

لـنـفـوس يـائـسـات حـائـرة.

فـارقـد الآن بـأمـن وسـلام،	لأمـانـي الـروح هـل ذا مـن خـتـام؟

رُبَّ يـوم نـلـتـقـي فـي الآخـرة.

وكان صديقنا الأديب الكبير جعفر الخليلي الذي حفظ لنا الودّ الى رمقه الأخير قد اضطرّ على مغادرة بلده العراق والاقامة في عمّان، ثم وافاه الأجل في دبي بالخليج، حيث ذهب لزيارة ابنته، في ٢ شباط ١٩٨٥. وقد كتبت اليّ ابنته تقول: «مات أبي وقد عرف قبل موته برحيل العمّ المرحوم أبي ضياء وبكى. بكى وقال: كنّا نشترك بأشياء عديدة في حياتنا... وما حسبت أنهما يشتركان حتى في موعد الموت.»

هاشم علي الحلي

كنت سائراً في لندن ذات يوم فلقيت رجلاً عرفته وجهاً ولم أتذكر اسمه. وقف هو أيضاً وقال لي بكلام لا يكاد يفهم: ألا تعرفني؟ انا هاشم الحلي. وبعد تبادل التحيات قال لي انه اعتقل في قصر النهاية سنة ١٩٦٩ بتهمة التجسّس للولايات المتحدة وعذّب تعذيباً شديداً، فكسر فكّه الأسفل ورضّت ضلوعه، وذلك سبب تلجلجه في الكلام واستعانته بالعصا في سيره. وقد برئت ساحته بعد نحو من تسعة أشهر فجاء الى لندن مستشفياً وأطال الاقامة فيها.

كان يسكن قريباً من دارنا فصرنا نتزاور بين الحين والحين ونلعب بالنّرد ونناقش اخبار العراق والشؤون العالمية. أخبرني انه درس في جامعة كولمبية في نيويورك، فلما نشبت الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ تأخرت الحكومة في ارسال نفقته الشهرية فبات على شفا الافلاس لا يدري كيف يعالج أمره. ومضى الى التاجر العراقي اليس مير وحدثه بأمره فبادر الى اعطائه ألف دولار للاستعانة بها في تدبير معاشه ودرسه، وقال له: لا بأس عليك، فاذا نفد هذا المبلغ فتعال اليّ. قال الحلي: ان وزارة المعارف أرسلت لي مخصصاتي بعد أمد، فأعدت المبلغ شاكراً وعدت الى العراق عن طريق الشرق الأقصى والهند. وحفظت لهذا المحسن يده في وقت الضيق، فلما أصبحت قنصلاً عاماً في نيويورك بعد نحو من عشر سنين جددت عهد الصداقة وأسديت له ما استطعت من خدمة.

قال لي انه مثل العراق مراراً في اجتماعات هيئة الأمم مع الدكتور محمد فاضل الجمالي. وكان عدد أعضاء الهيئة آنذاك ٥٠ أو أكثر قليلاً، فكان جلوس مندوب اسرائيل حسب الحروف الأبجدية الافرنجية بين العراق ولبنان. «ولم نكن ندري ان المندوب الاسرائيلي أبّا إيبان يحسن العربية، فكنّا نتناقش مع الدكتور شارل مالك مندوب لبنان، فاذا بإيبان يطلب الكلام ويردّ على ما بحثنا فيه سلفاً قاطعاً علينا خطّ الرجعة. ولما تكرر الأمر مرتين أو ثلاث مرات علمنا انه يفهم كلامنا وصرنا نتبادل الرقع المكتوبة من وراء ظهره.»

قلت له ان إيبان كتب في مذكراته انه كلما دخل الى أحد المطاعم القريبة من مقرّ هيئة الأمم، وهو آنذاك في ليك سكسس من أعمال نيويورك، وكان فيها مندوبو العراق بادر هؤلاء الى ترك عشائهم في أثناء تناوله والانصراف. فقال: ان ذلك لم يكن عملا صحيحاً، لكننا كنّا نتلقى الأوامر المشددة من بغداد فلا يسعنا مخالفتها.

وكان هاشم الحلي يأمل ان يسقط حكم البعث، وعلى رأسه أحمد حسن البكر وصدّام حسين، فيعود الى العراق ويزاول السياسة مع أصحابه من القوميين والمثقفين ويصبح وزيراً للخارجية في الحكومة الجديدة. وقال انه اذا تسلم كرسي الوزارة يستدعيني لأكون مستشاراً له. فقلت: هذا خيال بعيد المنال، فلا انت تصبح وزير خارجية ولا أنا مستشاراً لك. قلت: ان زمانكم قد فات وطويت صفحته. فاذا انتهى حكم البعث فان جيلا جديداً سوف يرتقي منصّة الحكم، ولا ندري هل سيكون حكما ديمقراطياً أصيلاً أم امتداداً للثورات والرّهصات والاضطرابات التي هدّت كيان البلاد منذ عشرين عاماً.

وقد مدحته بقصيدة هي في الحقيقة نقد للأوضاع العراقية أكثر منها إشادة بذكره، لانني كنت أعرفه في بغداد رجلاً قومياً متعصباً يتظاهر بالوطنية والغيرة على المصلحة العامة، بل كان انتهازيا يعرف من أين تؤكل الكتف، وحسبت انه غيّر مسلكه بعد ما لاقاه من عنت وتعذيب وتشريد.

قلت:

يا هاشماً رام الصلاح لقومه
متفرّداً في فضله وبعزمه

تخذ العروبة ديدناً منذ الصّبا
ورمى الى الأفق البعيد بسهمه...

قد عذّبوه، وهو كهل أعزل،
لم يدرِ ماذا قد جنى من جرمه...

يا أيها القوميّ، لم تحصل على
ما رمت من جاه تفاخر باسمه

فلقد بليت بعصبة فتّاكة
قد سامت الشعب الهوان بحكمه

إن العروبة مزّقت أوصالها
بيد الذي قهر البلاد بظلمه

نادى بكل فضيلة بلسانه
والشرّ يشوي في قرارة لؤمه الخ.

وأصدر سعد صالح جبر جريدته «التيار الجديد» في لندن مناوئاً للحكم البعثي في العراق، فدعاني الى الكتابة في صحيفته، وحثّني على ذلك هاشم الحلي وأصدقاؤنا الآخرون. وقد نشرت في الجريدة بحوثاً تأريخية واقتصادية وتراجم رجالات العراق في العهد الملكي، ولم أتطرّق لشؤون السياسة الحاضرة، عدا قصيدتين في شرح الأحوال السيئة في العراق والارهاب السائد ونكبة الحرب مع ايران. ولم أوقع على تلك المقالات والاشعار باسمي الصريح، بل وقعتها بأسماء مستعارة كالمؤرخ أو م. ب. الخ.

وكم كان عجبي ان ظهر أحد أعداد تلك الجريدة وفيه كلمة لهاشم الحلي يهاجم يهود العراق ويتهمهم بالخيانة ويدعو الى محو اسرائيل من الخريطة ويضرب على وتر المعادين والاعتدائيين فيذكر بروتوكولات حكماء صهيون وغيرها من الأكاذيب والتلافيق الموجهة الى اليهود.

وقد ساءني ذلك منه اذ كشف عن دخيلته وأظهر سريرته، فهجوته بقصيدة، قلت:

قالوا: اتّقِ الشرّير، قد قالوا: اتّقِ،
فغررت بالغرّ البليد الأحمق

ألف التجارة بالمبادىء، يدّعي
دعوى له في كلّ فجر مشرق

قد أبطن الحقد الذي في صدره
متظاهراً بالودّ، حلو المنطق

حتى اذا ظن الزمان مؤاتياً
نهق الحمار، وليته لم ينهق

أبدى سريرته وأعلن كيده
بلسانه المتلوّن المتحذلق...

حتى أقول:

بلي العراق بزمرة نهّازة
قلبٌ لها جافٍ لاكفٌّ مصفّق

طمحت الى نيل الزعامة والغنى
بدسائس من صنع فكر ضيّق

قد دمّرت أمن البلاد بلا هدى
وتسابقت في جمعها المتمزّق

ماذا يهمّ رجالها من فتنة
تصلي العباد بنار شرّ محدق؟

إنّا ابتعدنا عن مكائد أهلها
نبغي الأمان من الشواظ المحرق

وقلت أيضاً بعنوان «الحقد القاتل»:

باسم ربّ الكون والدين القويم،   باسم شعب كادح يهوى النظام،
ينصب الأشراك في الليل البهيم   حاقد يدعو الى الموت الزؤام.
يتلوّى، ينفث السّمّ الزّعاف   صافراً مستأسداً كالأفعوان،
قابعاً في كهفه الداجي يخاف   صولة الحقّ الذي يأبى الهوان.
يرفع الصوت، يثير الشَّغَبا   مثل بوم في الفيافي نعبا
موقظاً عنف الميول الغافية.
أيّ حقد يملأ النفس الوضيعة   طلبت في خيبة الحظّ ذريعة
لتنال الرّغبات الخافية!

ولم يطل الزمان بعد ذلك بهاشم الحلي. فقد خرج في صباح أحد الأيام من شهر آذار ١٩٨٥ من شقته ليشتري جريدة فسقط ميتاً في الطريق. ونقل الى المستشفى، لكنه لفظ أنفاسه قبل الوصول اليه، ولات حين علاج. ومهما يكن من أمره فانني قضيت معه عدّة سنين في أنس ومودّة ومطارحات فكرية وأدبية ممتعة لا تزال عالقة بالذهن.

المحامي الدكتور موريس يعقوب الياس

من الشخصيات التي تعرّفت عليها في لندن في سنوات الثمانين شخص غريب كان مناضلاً مندفعاً ثم خمدت همته على مرّ السنين. والحقيقة انني، وقد سمعت منه كثيراً اخبار حياته في العراق واسرائيل وباريس ولندن، وجدته رجلا لا ينسجم مع المجتمع الذي يعيش فيه.

أخبرني موريس يعقوب الياس انه ولد في بغداد واتهم بالشيوعية وهو على مقاعد الدراسة الثانوية. قال انه كان ينتمي الى الحزب الوطني الدمقراطي المعتدل، وقد خرج مراراً في المظاهرات سنة ١٩٤٨ وقبلها، فقبض عليه واعتقل وأبعد الى عين التمر في الصحراء وراء كربلاء. وقد استطاع بمساعدة الحزب ان يدخل الى كلية الحقوق وينهي دراسته فيها ويصبح محامياً. وفي احدى السنوات، وكان مبعداً عن بغداد، توسط له رجال الحزب ليؤدي الامتحان في بغداد، فأدّاه ويداه مكبّلتان بالحديد والشرطي واقف وراءه. ولم يهم الأساتذة بتلك الظاهرة الغريبة عدا استاذاً مصرياً وجده على هذه الحالة المؤسية فأصرّ على فكّ القيد عن يديه واخراج الشرطي من قاعة الامتحان.

نجح في الامتحان بالرغم من كل تلك العقبات وحصل على شهادة الحقوق وانتمى الى نقابة المحامين. وأعيد القبض عليه بتهمة ملفقة فأبعد الى سامراء حيث فرضت عليه الاقامة الجبرية في البلدة، لكن سمح له بممارسة المحاماة.

وفي سنة ١٩٥٢ حكم عليه بالسجن مرة أخرى فقضى فيه أمداً ثم اسقطت عنه الجنسية العراقية ووضع في طيارة نقلته ـــ كما قال ـــ الى اسرائيل.

بدأت هنا صفحة جديدة من حياته المعذّبة: عيّن معلماً في احدى مدارس القرى العربية فلم يرق للسلطة تقرّبه من العرب الاسرائيليين ودفاعه عن حقوقهم وكتابته في الصحف بقلم من نار. فصل عن التدريس ومنع من العمل فاضطر على الاشتغال عامل بناء يحمل على كتفه الآجرّ وأكياس التراب. وقد جمع شيئاً قليلاً من المال وسافر الى باريس حيث انتمى الى جامعة السوربون وهو لا يعرف كلمة من الفرنسية.

قال لي انه عاش في ضنك شديد، استطاع خلال أربع سنوات أن يحصل على الدكتوراه في القانون الدولي العام وقدم أطروحته في موضوع الملاحة في المياه الدولية. عرض عليه أساتذته ان يقدم طلباً للتوظف في الأمم المتحدة، غير أنه فضّل أن يأتي الى لندن لممارسة اختصاصه.

تعرّف في لندن على فتاة ألمانية الأصل فاقترن بها. واتصل بدور المحاماة الانكليزية فكلفته بمهام تتعلق بالقانون الدولي. وفي ذات يوم كلفته احدى الشركات بدرس موضوع المياه الاقليمية في شط العرب والخليج والخلاف حولها بين العراق وايران فقدم تقريراً مسهباً تقاضى عنه أجراً يبلغ خمسمائة باون. وعلم بعدئذ ان الشركة الحقوقية تقاضت عن تقريره مائة ألف باون حين قدمته الى الجهة التي كلفتها به، فاغتاظ وزهد في العمل القانوني. ولما كانت له معلومات عن الطوابع فقد افتتح محلاً للمتاجرة بمساعدة زوجته.

ولا زال يأتيني بين الحين والحين فأنس بلقياه والتحدث اليه. ويؤسفني ان أراه أخيراً مريضاً شديد الهزال، وقد تجاوز على ما أعتقد السبعين من عمره.

نعيم دنكور

من الأشخاص الذين توثقت صلتي بهم في بغداد وبعد ذلك في لندن أذكر ابن الخال نعيم الياهو دنكور المهندس ورجل الأعمال، الكاتب المفكر. درس الهندسة في جامعة لندن وتخرج فيها سنة ١٩٣٨، فعاد الى بغداد وعمل حيناً في بناء الجسرين على نهر دجلة بالشركة البريطانية التي قامت بالمشروع. وقد أدخل في دورة ضباط الاحتياط بالكلية العسكرية، فتعرف على أحمد صفوت نجل صفوت باشا العوّا كبير أمناء الملك فيصل الاول وناظر الخزينة الخاصة. وكان أحمد شاباً مثقفاً في سنّ نعيم (ولد كلاهما سنة ١٩١٦) وتخرج من جامعة لندن في نفس سنة ١٩٣٨ بكالوريوس في الاقتصاد.

انعقدت أواصر الصداقة بين الشابين فقررا سنة ١٩٤٠ الاشتراك في الاعمال التجارية. أخذا مناقصات حكومية وعملا في تجارة التصدير والاستيراد مع تركية التي التزمت الحياد في الحرب العالمية الثانية. ومن الغريب أن نعيم دنكور رأى الهلال وفي وسطه نجم، وهي ظاهرة طبيعية نادرة، فاعتقد أنها تبشر بالتزام تركية الحياد في الحرب. وذكر أن السلطان محمد الفاتح رأى نفس الظاهرة يوم كان يحاصر القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ودخلها في اليوم التالي، فاتخذ الهلال والنجم شعاراً لدولته.

لقيت مساعي الشريكين التجارية نجاحاً باهراً ولما آذنَت الحرب بالانتهاء أسّسا شركة تجارة الشرق ودعياني الى ادارتها، فقضيت فيها نحواً من أربع سنوات وقد وجدت أنني لا أصلح للعمل التجاري فعدت الى الوظيفة الحكومية سنة ١٩٤٩، واتسعت أعمال الشركة فدخلت ميدان تعمير الدور وانشاء المشاريع الصناعية والزراعية، وحصلت على وكالة تعبئة الكوكا كولا وتوزيعها في العراق.

انتقل نعيم دنكور الى لندن سنة ١٩٦٤ وأنشأ فيها مشاريع اقتصادية جديدة. وأصدر في أيلول ١٩٧١ صحيفة دورية باسم «الكاتب» (ذي سكرايب) فدامت نحواً من سنتين. حيث توقفت عام ١٩٧٣، ثم عاد الى اصدارها بعد ١٠ سنوات (١٩٨٣) منفقاً عليها المال والجهد، ولا تزال تصدر وتوزع مجاناً على القرّاء حتى أصبحت لسان حال الجالية اليهودية العراقية في انكلترة وسائر أنحاء العالم، ومن أوربة وأميركة الى استرالية وأقطار الشرق الأقصى.



نعيم دنكور (الى اليسار) وشريكه أحمد صفوت



المؤلف في لندن مع حاخام اسرائيل الاكبر عوبديا يوسف



المؤلف مع اللورد جانَر (لندن ١٩٧٩)

كلمة الختام

لقد كتبت هذه المذكرات، لكنني أعتقد ان شعري يمثل حياتي ونفسي اكثر من الذكريات والخواطر العابرة. فشعري الذي حرصت على تدوين تاريخ نظمه يمثل حالتي النفسية في مختلف الادوار، يمثل النزعة الانسانية والفرح الطاغي والحزن المثير، يمثل الحب والبغض والأمل والقلق واليأس، يمثل النجاح والخيبة والايام البهيجة والليالي الساهرة. يمثل الشمس المشرقة التي تفتح الذهن وتنعش القلب والعواصف الثائرة التي تهيج النفس حتى لتتمنى الموت والدثور.

قال صاحب المزامير يخاطب الله: ما الانسان فتعرفة وابن آدم فتقيم له حساباً. ان ضآلة الانسان ورفعته يكمنان في شخص واحد، في قلب واحد، في فكر واحد، في نفس واحدة. وفي النفس البشرية بقايا صامتة من آلاف الأجيال، من انسان الغاب والمغاور الى انسان الحضارة والعلم والثقافة. ألم أقل في ذلك:

نحن أنقاض زمان قد مضى، نحن نحيا في مدى الأمس السحيق،
ونحيّي بابتسام ورضا رفقاء العمر قد ضلّوا الطريق.
تلك آثار خُطاهم في الرمال سوف يمحوها غداً سير الزمان
أين غابوا؟ لا جواب للسؤال، أين صاروا؟ في بوادٍ أم جنان؟
نحن نحيا في صميم الذكريات ونرى الأشباح عادت للحياة
باسمات تارة او عابسات
لم يبدّد شملهم مرّ السنين، قد دعاهم نحونا فرط الحنين
فتى نطوي قديم الصفحات؟

ويمكنني أن أقول انني لم أعرف التعصب والحقد، بل آمنت بالانسان كما آمنت بالله، وآخيت أتباع مختلف الاديان والمذاهب، لا فرق عندي بين المؤمن والجاحد، لا أطلب فيهم الا الخير والمودة والصدق. لم أحاب ولم أداج، وانا الضعيف الذي لا يملك سوى قوة العمل والرجاء.

كنت دائماً محافظاً على كرامتي، مراعياً للأدب والمحاسنة مرؤوساً ورئيساً، متمثلاً بقول ابي فراس الحمداني:

وما المرء الا حيث يجعل نفسه، وانّي لها فوق السمّاكين جاعل

ولقد حاولت في مختلف الظروف أن أكون متفائلاً أنظر الى الحياة بمنظار الرضا، متأسياً بقول أبي فراس:

ما العمر ما طالت به الدهور العمر ما تمّ به السرور

وأذكر حكمة الفيلسوف المجري ماكس نورداو الذي قال:

«لا تقاس الحياة بطولها وقصرها بل تقاس بجمالها». وفي وسعي ان أقول ان حياتي كانت، ولا تزال، جميلة عميقة متعددة المسالك والمشارب. وهذا شعري وكتاباتي تشهد لي بما قلت مذ خطّ قلمي أول كلمة.

تألمت لألم الانسانية، وحلمت بالمدينة الفاضلة والدولة العادلة والخير الشامل. مسّت أوتار قلبي صرخات الانبياء وحكم الفلاسفة وقصائد الشعراء وتجارب العلماء، فسرت في طريق الحياة وأنا أعزف الحان الحبّ وأردّد آهات المعذّبين والأشقياء. وانني الآن، وقد بلغت من العمر عتيّاً، أستطيع أن أقول مع الشاعر الانكليزي وليم وردزورث:

«إن قلبي ليقفز حين أرى قوس قزح في السماء. كذلك كان الأمر يوم بدأت حياتي، وهي كذلك الآن حين بلغت مبلغ الرجولة. ولتكن كذلك حين أدرك سنّ الشيخوخة، او فليلقني الحمام بدثاره».

نماذج من رسائل مير بصري رئيس الطائفة
إلى رئيس الجمهورية المهيب أحمد حسن البكر
وإلى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة آنذاك

ـ صدام حسين ـ

والمسؤولين العراقيين دفاعاً عن الطائفة
اليهودية ومطالبة بحقوقها وصيانتها.

رئاسة الطائفة الموسوية
في بغداد
رقم التلفون ٨٣٥٣١ الرئيس

الرقم ط/ ١٢٦١ / ٧٤
التاريخ ٢٦ / ٣ / ١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع /..........

السيد الاستاذ الفاضل صدام حسين المحترم
نائب رئيس مجلس قيادة الثورة
المجلس الوطني
بغداد

سيدي نائب الرئيس

اسمحوا ان انتهز الحكم وسط مشاغلكم الكثيرة والمكاسب العظيمة والامجاد الباذخة التي حققتموها لجماهير الشعب وللأمة العربية قاطبة برعاية الاب القائد السيد رئيس الجمهورية ومعاونة رفاقكم الكرام اعضاء مجلس قيادة الثورة ، اسمحوا لي ان انتهز الفرصة لاعرض على مسامعكم الكريمة استغاثة ابناء طائفتنا الصغيرة التي تعتز بهذا الوطن والتي عاشت في ربوعه منذ مئات ، بل آلاف السنين ، وشاركت سائر ابناء الشعب في السراء والضراء .

سيدي المحترم

ان يهود العراق قد عاشوا في هذه البقعة وكانوا جزءاً لا يتجزأ من الشعب العراقي في لغتهم وأدبهم . وقد شهد لهم السر ارنلد ولسن ، وكيل الحاكم المدني العام في العراق في نهاية الحرب العظمى الاولى ، شهادة غير مقصودة ، فذكر في كتابه " مواطف الولاء " انه على اثر صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، استدعى وجهاء الطائفة الموسوية في بغداد وقال لهم ان الحكومة البريطانية قررت ايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين واصدرت بلاغا بهذا المعنى . فقالوا له - حسبما سجله في كتابه : ان وطننا العراق ، ولا وطن لنا سواه ، ومصيرنا مرتبط بهذه البلاد التي عشنا فيها وعاش فيها آباؤنا واجدادنا .

ثم توالت الاحداث بعد ذلك على طائفتنا الموسوية العراقية ، أحداث قاسية لا يد لنا في خلقها وتوجيهها ولا قدرة لنا على منعها والوقوف امامها ، فحطمت كياننا وعبثت بمقدراتنا وشردت اخواننا وفرقتهم تحت كل نجم . وهكذا كنا ضحية وعد بلفور الذي لم يرتضه آباؤنا ولم يعهدوه ولا نحن ارتضيناه ولا أردناه . وقد استطاع بعض افراد طائفتنا ان يقاوموا ويثبتوا في وجه العواصف ويبقوا في بلدهم العراق بالرغم من كل شيء . وجاءت ثورة ١٧ تموز المباركة فألغت القوانين الاستثنائية التي كانت تحرمنا ، نحن الفئة القليلة الباقية ، حق العمل وممارسة حقوقنا المدنية وفتحت باب السفر اسوة بباقي المواطنين ، ثم عادت الامور الى ماكانت عليه بدون نص قانوني وجمدت اموال المواطنين اليهود واوقف سفرهم قبل اشهر قليلة .

لكيف يعيش الفرد وكيف يحفظ كرامته اذا حرم من العمل ومنع من ممارسة حقوقه المدنية المشروعة ولم يسمح له بالتصرف في امواله وسحب المبالغ المودعة باسمه في

(يتبع)

رئاسة الطائفة الموسوية

في بغـــداد

رقم التلفون ٨٣٥٣١ الرئيس

الرقم ط/ ١٢٦١ / ٧٤

التاريخ ٢٦/ ٣ / ١٩٧٤

الموضوع / ....

الصارف ؟ وانجاز معاملات التوكيل وغيرها لدى الكاتب العدل ؟ وكيف يحس الفرد ويحفظ كرامته اذا دعي كل يوم الى دائرة الجنسية لاثبات احتفاظه بجنسيته العراقية فاذا فشل في الحضور اسقطت جنسيته وسفّر الى خارج بلاده ؟ وكيف يحس الفرد في وطنه ويحفظ كرامته اذا لاحقته اجهزة الامن بدون جريمة اقترفها ولا ذنب جناه لتحقق معه بين الحين والحين واوقفته ساعات او اياما او اسابيع ولم تطلق سراحه الا بكفالة ؟ ولا ادل شيئا من الارهاب الذي حدث في العام المنصرم والذي ذهب ضحيته خمسة وعشرون او اكثر من ابناء طائفتنا قتلوا في بيوتهم — ومنهم بعض العوائل محيت بأسرها — ثم استصفيت اموالهم ووضعت اليد على املاكهم . وقد رفعت الشكوى آنذاك الى الاب القائد المناضل السيد رئيس الجمهورية فوضع حدا لذلك برأفته وانسانيته . ويتقولون بعد ذلك : لم لم يعد اليهود العراقيون الذين سافروا في السنوات الاخيرة ؟ انهم لم يعودوا لأن المهلة الممنوحة لهم للعودة لا تتجاوز اشهرا ثلاثة تسقط بعدها جنسيتهم . انهم لم يعودوا لأن الحالة التي شرحتها في السطور المتقدمة لا تشجع على العودة ولانهم لا يعاملون معاملة المواطنين ومع ذلك فقد عاد افراد منهم بالفعل خلال الثلاثة اشهر المسموح بها .

ولا يسعني في هذه المناسبة الا ان أشيد بعطف السيد المناضل المهيب رئيس الجمهورية المحترم وعطف سيادتكم وسائر اعضاء مجلس قيادة الثورة الموقر ورعايتهم لامورنا واعتنائهم بمساواتنا مع سائر ابناء الشعب في الحقوق والواجبات . واننا لم نأل جهدا في الدعاية الطيبة لوطننا العراق ورفع سمعته في الاوساط العالمية والرد على التخرصات التي تحاك عليه في الخارج : لقد كتبنا بتاريخ ٢٨/ نيسان ١٩٧١ الى السكرتير العام لامم المتحدة نؤيد حسن معاملة حكومة الثورة الموقرة لطائفتنا ومساواتنا بسائر المواطنين كما صرحنا للصحفيين والمراسلين الاجانب العديدين الذين قدموا الى العراق وسألونا عن حالتنا تصريحات تنفي الدعايات المغرضة الذائعة في الصحف الخارجية مما كان له اطيب الوقع واحسن الاثر ولدى وزارة الاعلام الخبر اليقين .

سيدي المحترم

ان حزبكم الذي ينادي بالحرية والوحدة والاشتراكية حزب انساني عظيم لا يفرق بين المذاهب والطوائف والاديان ويستهدف خير المواطنين ورفاهيتهم وأمنهم وحفظ كرامتهم بلا تفريق .

وقد عرضت وضع طائفتنا الحالي بحرارة رفعتها الى الجهات المسؤولة المحترمة ، ولا شك عندي انهم لا يرضون بهذه الحالة لفئة صغيرة من المواطنين المسالمين . ولذلك كتبت اليكم هذه السطور ياسيدي المناضل الكريم طلبا لمساعدتكم الانسانية للتفريج عن كربتنا

(يتبع)

رئاسة الطائفة الموسوية

في بغداد

رقم التلفون ٨٣٥٣١ الرئيس

الرقم ط/ ١١٦١ / [illegible] هـ

التاريخ ٢٦ / ١٢ / ١٩٧١

(٢)

الموضوع /

وحدة كرامتنا وتحسين احوالنا ورفع القيود الاستثنائية التي تأخذ بخناقنا والسماح لنا بالعمل والعادة لفتح باب السفر أسوة بسائر المواطنين .

وارجو ان تتفضلوا ، وقد حققتم لهذا البلد مكاسب تاريخية مهمة في المحافل العالمية وحققتم لابناء الشعب الرفاهية والرخاء ، ومنحتم الحكم الذاتي لكردستان واعطيتم الحقوق الثقافية والمدنية لجميع الطوائف العراقية ، ارجو ان تتفضلوا بالنظر في امرنا بعين العطف وتهيئة الفرصة لنا للعيش الكريم والمشاركة في الخير العام ، مبتهلا الى المولى القدير ان يسبغ عليكم جميعا اثواب الصحة والهناء وان يأخذ بايديكم الى ما فيه سؤدد الوطن ورفعته وعلاه .

واذا تفضلتم بتعيين موعد لي لمواجهة سيادتكم وشرح الموضوع مفصلا فانكم تضيفون فضلا الى افضالكم الكثيرة .

واخيرا ارجو ان تتفضلوا بقبول فائق الاجلال والاحترام .

مير بصري

رئيس الطائفة الموسوية بالنيابة

رئاسة الطائفة الموسوية
في بغداد
رقم التلفون ٨٣٥٢١ الرئيس

الرقم ط/ ٧٢/٧٧٩
التاريخ ٢٣/ ٧ / ١٩٧٢

الموضوع /

سيادة وزير الداخلية المحترم

تحية واحتراما وبعد

تأكيدا لمحادثتنا مع سيادة وكيل وزارة الداخلية المحترم صباح ١٩ تموز الجاري اعرض لسيادتكم :

ان مجلس قيادة الثورة المبجل الغى مشكورا جميع القوانين الاستثنائية من اليهود العراقيين وساواهم مع بقية المواطنين ، غير ان وزارتكم المحترمة قد اصدرت في الآونة الاخيرة تعليمات خاصة بأحالة جميع المعاملات المالية المتعلقة بأبناء طائفتنا الى الامانة العامة للاموال المجمدة لغرض التأكد من احتفاظ صاحب الشأن بالجنسية العراقية بالرغم من ان صاحب المعاملة يحمل هوية الاحتفاظ بالجنسية العراقية .

ان الامانة العامة للاموال المجمدة بدورها صارت اما أن ترفض الطلب او تمتنع من الجواب وبهذا فأنها تسد بوجه الموسوي العراقي جميع سبل العمل وتحول دون تمكنه من التصرف بأمواله وشؤونه حسب احكام القوانين وحتى لاجل تدبير معيشته اذ ان اكثر افراد طائفتنا عاطلون عن العمل منذ سنوات ، وعلى سبيل المثال لا الحصر لم يسمح لابناء طائفتنا منذ خمسة اشهر :

١ – بأجراء اية معاملة بيع للاموال غير المنقولة ورهنها وفك الرهن وقبض قيمة الارتهان او بدل الاستملاك والفوائد المترتبة على ذلك .

٢ – بقبض بدلات اسهم الشركات وثمن التعويضات عن اسهم الشركات التي وضعت اليد عليها .

٣ – بالتصرف بالسندات المؤمنة .

٤ – وكذلك ايقاف جميع المعاملات المالية لدى كتاب العدول وتوكيل الغير وما ماثلها .

٥ – عدم التمكين من بيع العرصات رغم وجوب دفع الضرائب عنها .

٦ – وقد امتنع البنك المركزي في الآونة الأخيرة من تزويد الفرد الموسوي المحتفظ بالجنسية العراقية بالتحويل الخارجي المسموح له بالرغم من موافقة وزارتكم المحترمة على ذلك .

يتبع ص/٢

رئاسة الطائفة الموسوية

في بغــداد

رقم التلفون ٨٣٥٣١ الرئيس

الرقم ط/ ٢٧٩ / ٧٢

التاريخ ٢٣/ ٧ / ١٩٧٢

الموضوع /

- ٢ -

ان تطبيــق هــذه التعليمات قــد حـدد جميع تصرفات ابناء طائفتنا ولا ســيما للعاطلين الذين يحاولون تدبــير معيشــتهم • ولذلك نرجو من ســيادتكم التفضل بالأمــر بالنظار في هــذه القضيــة بعيــن العطـف والرعايــة والســماح للمواطنين الموســويين بالتمتــع بحقوقهــم وتصرفاتهــم حســب القانــون وفي ضمــن اطار المصلحــة العامـــة •

وتفضلوا بقبــول فائق الاحــترام •

مــير بصــرى

رئيس الطائفــة بالنيابــــة

رئاسة الطائفة الموسوية

في بغداد

رقم التلفون ٨٣٥٣١ الرئيس

الرقم ط/ ١٠٥٢/ ٧٢

التاريخ ٥ / ٨ / ١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع /

السيد القائد المناضل المهيب احمد حسن البكر المحترم

رئيس مجلس قيادة الثورة

رئيس الجمهورية — بغداد

تحية واحتراما وبعد

نرفع الى سيادتكم آيات التعظيم والاخلاص واحيي فيكم الرئيس القائد المناضل الذي أناط به الدستور رعاية حقوق المواطنين وحرياتهم عملا بالحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) واسأل الله ان يوفقكم ومجلس قيادة الثورة الموقر لخير الشعب والوطن انه السميع المجيب .

سيدي الرئيس

لقد مرت على طائفتنا التي عاشت في هذه البلاد آلاف السنين وكانت جزءاً من هذا الشعب الذي شاركته السراء والضراء ظروف عصيبة ولا سيما في الاشهر الماضية اذ فقد أو قتل عدد من افرادها حسب العرائض المتعددة التي رفعناها الى سيادتكم في حينه . والآن وقد انجلت الغمة وقيض الله على الزمرة الخائنة ومنّ بالسلامة على الامة بقادتها وعادت الامور الى نصابها استميحكم عذرا لاشكر سيادتكم على اهتمامكم بأمورنا واصداركم بتأليف لجنة للتحقيق في قضية قتل العائلة بتاريخ ١١/٩/١٩٧٢ تلك الجريمة الشنعاء التي اودت بحياة خمسة اشخاص وسرقة أموالهم في وضح النهار مع عدم العثور على جثث المجني عليهم . والتي التمس الايعاز ببيان نتيجة التحقيق واظهار مصير الاشخاص التالية اسماؤهم الذين فقدوا او القي القبض عليهم او قتلوا خلال تلك الفترة وهم :-

١ — اكرم صيون بصري القي القبض عليه بتاريخ ١٩٦٩/٩/٢٧ ولم يظهر له أثر منذ ذلك التاريخ

٢ — المحامي يعقوب عبد العزيز فقد او القي القبض عليه في ١٩٧٢/٩/١٩ .

٣ — يعقوب ياسين بجوان القي القبض عليه في داره في ١٩٧٢/٩/٢٢ .

٤ — شاؤل ياسين بجوان القي القبض عليه في داره في ١٩٧٢/٩/٢٨ .

٥ — الدكتور عزرا خزام القي القبض عليه في ١٩٧٢/١٠/١ .

٦ — ابراهيم الصائغ قتل في داره وسرقت امواله في ١٩٧٢/١٠/١٠ .

٧ — شاؤل ساروخ شماش القي القبض عليه في داره في ١٩٧٢/١٠/١١ .

٨ — حسقيل ابو داود (المعروف باسم دكتور ابو داود) القي القبض عليه في ١٩٧٢/١٠/١١ .

٩ — عزوري منشي شماش فقد او القي القبض عليه في ١٩٧٢/١٠/١٤ .

١٠ — سليم صدقا فقد او القي القبض عليه في ١٩٧٢/١٠/٢٩ .

١١ — ناجي جهتايات القي القبض عليه في ٥ / ١١/١٩٧٢ .

١٢ ، ١٣ — ناجي عزرا الشقوش وزوجته عمام فقدا او القي القبض عليهما في ١٩٧٣/٢/٦ .

١٤ ، ١٥ — عزرا منشي قحطان واخوه سليم قحطان فقدا او القي القبض عليهما في ١٩٧٣/٣/٢٠ .

(يتبع)

رئاسة الطائفة الموسوية
في بغداد
رقم التلفون ٨٣٥٣١ الرئيس

الرقم ط/ ١٠٥٧ / ٧٣
التاريخ ٥ / ٨ / ١٩٧٣

الموضوع / ....

١٦ – نعيم سلمان قتال القي القبض عليه في داره في ١٩٧٣/٣/٢٩ ٠

١٧ – شوع منير البقال فقد او القي القبض عليه في ١٩٧٣/٤/٩ ٠

١٨ }
١٩ } – سعود ا خضوري طويق فقد او القي القبض عليه في ١٩٧٣/٤/٩ وفي نفس اليوم القي القبض
٢٠ } على اخته الشابتين رحمة واليزة طويق ٠

٢١ }
٢٢ } روبين كشكوش وزوجته واولاده الثلاثة (ولدان وبنت) قتلوا في دارهم وسرقت اموالهم
٢٣ }
٢٤ } في ١٩٧٣/٤/١٢ ولم يعثر على جثثهم بعد ٠
٢٥ }

سيدي الرئيس

التمس من سيادتكم الامر بالتحقيق من مصير هؤلاء المواطنين واطلاق سراح الموجودين منهم على قيد الحياة وبيان مصير المقتولين منهم لتكون اسرهم على بينة من أمرهم لا سيما ان لبعضهم زوجات معلقات لا يعرفن هل هن أرامل ام لا زلن في عصمة ازواجهن وفقكم الله وحفظكم ورعاكم بعنايته الصمدانية ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ٠

صبير بصري
رئيس الطائفة الموسوية بالنيابة

صورة منه الى :–
مجلس قيادة الثورة الموقر – امانة السر
سيادة نائب رئيس مجلس قيادة الثورة المحترم
السيد وزير الداخلية المحترم
السيد وزير العدل المحترم
السيد وزير الاعلام المحترم
السيد محافظ بغداد المحترم
السيد مدير الشرطة العام المحترم
السيد مدير الامن العام المحترم
السيد مدير الجنسية العام المحترم الحاقا بكتابنا المرقم ط/٧٣/١٠٠٤ والمؤرخ ١٩٧٣/٧/١٥

رئاسة الطائفة الموسوية
في بغداد
رقم التلفون ٨٣٥٣١ الرئيس

الرقم ط/ ١٠٠٨ / ٧٢
التاريخ ٦ / ٨ / ١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع /

سيادة القائد المناضل المهيب السيد احمد حسن البكر المحترم
رئيس مجلس قيادة الثورة
رئيس الجمهورية
بغداد

تحية واحتراما وبعد

نرفع الى سيادتكم والى مجلس قيادة الثورة الموقر آيات التهاني والاخلاص واعمق تقديرنا لرعايتكم للاقليات والطوائف التي تؤلف جزءاً لا يتجزأ من هذا الشعب ونشكر لكم حفظ حقوق المواطنين وصيانة حرياتهم .

سيدي الرئيس

اسمحوا لي ان اشير اخيراً الى وضع لا نعاني بالنظر الى وضع طائفتنا الموسوية العراقية المخلصة تلك الطائفة التي تأمل ان تتمتع بالعمل بموجب القوانين الاستثنائية التي تحد من حرية افرادها وتقلص حقوقهم المدنية وبذلك مساواتهم مع سائر المواطنين في هذا البلد الذي عاشوا فيه أكثر من الفي سنة .

اخبر سيادتكم ان وزارة الداخلية قد اصدرت منذ اكثر من سنة تعليمات خاصة باحالة جميع المعاملات المالية المتعلقة بأبناء طائفتنا الى الامانة العامة للاموال المجمدة لغرض التأكد من احتفاظ صاحب الشأن بالجنسية العراقية بالرغم من ان صاحب المعاملة يحمل شهادة الاحتفاظ بالجنسية العراقية .

ان الامانة العامة للاموال المجمدة بدورها صارت تتصرف بشكل يسد في وجه الموسوي العراقي جميع سبل العمل ويحول دون تمكنه من التصرف في امواله وشؤونه حسب القانون وحتى لا تحصل تدابير معيشته الى ان اكثر افراد طائفتنا عاطلون عن العمل منذ سنوات . وعلى سبيل المثال لا الحصر لا يسمح لافراد طائفتنا باجراء المعاملات والتصرفات التالية :-

١ - اجراء اية معاملات بيع الاموال غير المنقولة ورهنها وفك الرهن .
٢ - بيع اسهم الشركات وتحويل نقلها والتصرف في السندات الحكومية .
٣ - بيع السيارات لدى شرطة المرور والنقليات .
٤ - اجراء المعاملات المالية لدى الكاتب العدل وتوكيل الغير بها عنهم .

ان تطبيق هذه التعليمات منذ اكثر من سنة قد ادى الى تجميد ابناء طائفتنا وتجميد تصرفاتهم حتى اصبح على قسم منهم تدبير معيشتهم بالرغم من امتلاكهم اموالاً غير منقولة وسيارات وغير ذلك وقد اصبح وضعهم حرجاً لا مخرج منه .

سيدي الرئيس

اسمحوا لي ان اضيف الى ما تقدم ان الامانة العامة للاموال المجمدة قد وضعت يدها على قسم كبير من اوقاف طائفتنا واملاكها . وقد راجعنا المحاكم التي نظرت في الموضوع فكان القرار الاخير للمحكمة

(يتبع)

رئاسة الطائفة الموسوية

في بغداد

رقم التلفون ٨٣٥٣١ الرئيس

الرقم ط/ ١٠٥٨ / ٧٣

التاريخ ٦ / ٨ / ١٩٧٣

(٢)

الموضوع /

التمييز الذي يمنع ممارسة الامن العام لمراقبة وادارة اموال اليهود المسقطة عنهم الجنسية العراقية اضافة الى املاكه وتسليمها الى الهيئة الادارية لليهود العراقيين في بغداد خالية من الشواغل وقد حاز هذا الحكم درجة البتات واصبح حجة بما فصل فيه من الحقوق على الناس كافة بما دون فيه ولا سبيل للطعن بصحة هذا الحكم كما جاء ذلك في كتاب وزارة العدل (ديوان التدوين القانوني) المرقم أ ٧/١/١١ والمؤرخ في ١٩٧٢/٦/١١ وكتابها المرقم أ ٧/١/١١ والمؤرخ في ١٩٧٢/٧/١٥ المرسلة صورة منه الى مجلس قيادة الثورة – مكتب امانة السر – ورئاسة ديوان رئاسة الجمهورية ووزارة الداخلية .

ان الامانة العامة للاموال المجمدة قد امتنعت من تنفيذ قرار محكمة التمييز ووضعت اليد في المدة الاخيرة على اوقاف واملاك اخرى تعود لطائفتنا مما جعلنا في موقف محرج لتنفيذ شروط الواقف ومساعدة المحتاجين والمرضى وتمشية شؤون الطائفة حسب القانون وقد نضطر الى اغلاق مدارسنا التي اشتهرت بحسن تعليمها وحسن دروسها ولم تقتصر على ابناء طائفتنا بل ان في صفوفها التدريسية ومن طلبتها وطالباتها نسبة كبيرة من ابناء سائر الطوائف .

نرجو يا سيدي الرئيس، ان تتفضلوا بالنظر في الموضوع والايعاز بالسماح للمواطنين الموسويين بالتمتع بحقوقهم وتصرفاتهم حسب القانون ضمن اطار المصلحة العامة وكذلك الامر بتطبيق القانون وقرار محكمة التمييز فيما يتعلق باوقاف طائفتنا . لا زلتم يا سيدي الرئيس ، نصيرا للانسانية وراعيا لحقوق ابناء الشعب ، وفقكم الله وحفظكم وجمعكم الابرار بمناسبة الصداقة لخير الوطن والامة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

مير بصري

رئيس الطائفة الموسوية بالنيابة

صورة منه الى :-

السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة المحترم

مجلس قيادة الثورة – مكتب امانة السر

السيد وزير الداخلية المحترم

السيد وزير العدل المحترم

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الاعلام

بغـداد

مديرية الثقافة العامـة

الشعبة مديرية الفنون والثقافة الشعبية

ختم الواردة

الرقم ....

التاريخ .... / ١ / ١٩٧٢

الى :ـ

الاديب الكبير الاستاذ مير بصرى المحترم

رئيس الطائفة الموسوية في العراق

تقديرا لموقفكم الوطني النبيل تجاه الوفود الاجنبية المستضافـة من قبل وزارة الاعلام نسجل لكم بمداد الفخر والاعتزاز هذا التعـاون المخلص الجميل ، راجين لكم دوام التوفيـق •

محمد سعيد الصحاف

م وزير الاعـلام

نسخة منه الى /ـ

مديرية الثقافة العامة

مديرية الاعلام العامة / راجين تزويد الاستاذ الآنف الذكر بمطبوعات الوزارة السابقة واللاحقة ودعوته الى حفـلات الوزارة ومناسباتها •

مديرية الفنون والثقافة الشعبية / مذكرتها المؤرخة في ٥/ ١/ ١٩٧٢

مديرية الادارة والذاتية

ملاحظات

١. عن بغداد انظر امين المميّز، بغداد كما عرفتها، شذرات من ذكريات (بغداد، ١٩٨٤).
٢. صدرت في الآونة الاخيرة بعض الكتب باللغة الانكليزية عن يهود العراق وهي:

1- Nissim Rejwan, The Jews of Iraq: 3000 years of History and Culture, (London 1985)
2- Norman A. Stillman, The Jews of The Arab Lands in Modern Times, (New-york, 1991)
3- Abbas Shiblak, The Lure of Zion, The Case of Iraqi Jews, (London, 1986)
4- Max Sawdayee, All Waiting to be Hanged. Iraq Post Six-day war (Tel -Aviv. 1976)
5- Heskel M. Haddad, Flight from Babylon (New york, 1986)
6- Naim Kattan, Farewell, Babylon (Toronto.1975)

هذا وبالاضافة الى الكتب العبرية التي اصدرها عن يهود العراق كل من الدكتور ابراهام بن يعقوب وابراهام توينه ونير شوحظ باللغة العبرية. وصدرت في الآونة الاخيرة اطروحة الدكتوراة لكل من الدكتورة تكفا درويش، يهود العراق في الاقتصاد (رمات غان، جامعة بار ــ ايلان، ١٩٨٧) والدكتور موشيه غات، طائفة يهودية في ازمة.الخروج من العراق ١٩٤٨ ــ ١٩٥١ (اورشليم مركز زلمان شزار لتاريخ الشعب الاسرائيلي، ١٩٨٩). والدكتور نسيم قزاز، يهود العراق في القرن العشرين (اورشليم، معهد بن صفي، ١٩٩١).

اما باللغة العربية فراجع الكتب التالية:

١. اسحاق بار ــ موشيه، الخروج من العراق، ذكريات ١٩٤٥ ــ ١٩٥٠ (القدس، ١٩٧٥).
٢. اسحاق بار ــ موشيه، بيت في بغداد (اورشليم، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ١٩٨٣)
٣. د. سلمان درويش، كل شيء هادىء في العيادة (اورشليم ــ القدس، رابطة الجامعيين اليهود، ١٩٨١).
٤. يوسف غنيمة، كتاب نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق (بغداد، ١٩٢٤).
٥. خلدون ناجي معروف: الاقلية اليهودية في العراق بين سنة ١٩٢١ ــ ١٩٥٢ (بغداد، ١٩٧٥).

٣. عن المدارس اليهودية في العراق انظر: فاضل البرّاك، المدارس اليهودية والايرانية في العراق، دراسة مقارنة، ط ٢ (بغداد، ١٩٨٢).
٤. راجع ايضاً مير بصري، اعلام اليهود في العراق الحديث (اورشليم ــ القدس، ١٩٨٣)، ص ٨ ــ ١٤. وداڤيد صيمح، مير بصري ونهضة الادب العراقي الحديث، الكرمل، العدد ١٠ (١٩٨٩). ص ٨٣ ــ ١٢٢. وشموئيل موريه، القصة القصيرة عند يهود العراق، (اورشليم ــ القدس، ١٩٨١)، ص ١٥٥ ــ ١٥٩.
٥. لا يستعمل يهود العراق في لهجتهم العامية كلمة «كنيس» بل يستعملون كلمة آرامية هي «صلاه» فيقولون مثلا

بنى «صلاه» وجمعها «صلاووث».

٦. انظر ذكرى الحاخام عزرا دنكور مجموعة ضمت البعض مما قيل وكتب عن وفاة الخالد الذكر والاثر المرحوم الحاخام عزرا دنكور، نشرته لجنة التأبين (بغداد، مطبعة دنكور الحديثة، ١٩٣١) ٢٤ ص.

٧. عن هذا المدرس انظر ايضاً انور شاؤل، قصة حياتي في وادي الرافدين، (اورشليم، ١٩٨٠) ص ٤٩ ـ ٥٠.

٨. مؤلف نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق (بغداد، ١٩٢٤)، عن غنيمة انظر: مير بصري، اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث، (بغداد، ١٩٧١) ص ١٦٣ ـ ١٧١.

٩. عن هذا الأدب انظر، الموجز في تاريخ الادب العبري الحديث ١٧٨١ ـ ١٩٢٩ تأليف يوسف كلاوزنر وتعريب اسحق شموش (عكا ١٩٨٦).

١٠. راجع هذه القصيدة في ديوانه اغاني الحب والخلود (اورشليم القدس، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ١٩٩١). اما عن رجال السياسة العراقيين المذكورين في هذه المذكرات فانظر: مير بصري، اعلام السياسة في العراق الحديث (لندن، رياض الريّس للكتب والنشر ١٩٨٧).

١١. عن ابراهيم حييم النائب عن بغداد في البرلمان العراقي ووالد السيدة استرينة ابراهيم زوجة الشاعر انور شاؤل انظر مير بصري، اعلام اليهود، ص ٤٩ ـ ٥٠، وانور شاؤل، قصة حياتي ص ١٨٨ ـ ١٩٥.

١٢. عن يوسف شاؤل انظر، مير بصري، اعلام اليهود ص ٦٣ وهو اخ ليعقوب شاؤل (١٩٠٩ ـ ١٩٦٧) المحرر في جريدة «بغداد تايمس» الانكليزية.

١٣. عن سليم ترزي انظر مير بصري، اعلام اليهود ص ٧٧ ـ ٧٨.

١٤. كانت الحاصد مجلة اسبوعية جامعة ثم اصبحت صحيفة سياسية اسبوعية عامة في ١٧ كانون الاول ١٩٣٦ وتوقفت عن الصدور عام ١٩٣٨ انظر شموئيل موريه، المطبوعات العربية التي الفها او نشرها الادباء والعلماء اليهود ١٨٦٣ ـ ١٩٧٣). (القدس، ١٩٧٣)، ص ١٠٥ رقم ٤٦٨. وانور شاؤل، قصة حياتي، ص ١٤٨ ـ ٢٢٩.

١٥. عن رزوق غنام انظر مير بصري، اعلام اليقظة الفكرية ص ١٤٥ ـ ١٤٨.

١٦. نشرت هذه الارانين في ديوان المؤلف، اغاني الحب والخلود (اورشليم ـ القدس، ١٩٩١)، ص ١٨٨ ـ ٤٦٣. راجع موقف د. مصطفى جواد عن هذا المصطلح مير بصري، اعلام اليقظة الفكرية، ص ١٩٥ ـ ١٩٧.

١٧. عن هؤلاء الاطباء اليهود انظر فصل «دور الاطباء اليهود في العراق» الذي عقده الدكتور سلمان درويش في كتابه، كل شيء هادىء في العيادة، (اورشليم القدس، ١٩٨١) ص ١٨١ ـ ١٩٩.

١٨. عن هذا الدليل انظر ايضاً ش، موريه، فهرس المطبوعات ص ١٢٣ رقم ٥٧١.

١٩. عن داود سمرة (١٨٧٧ ـ ١٩٦٠) نائب رئيس محكمة تمييز العراق انظر مير بصري، اعلام اليهود ص ٤١ ـ ٤٣. وانور شاؤل، قصة حياتي، ص ١٣٤ ـ ١٣٨.

٢٠. انتخب حسقيل داود شمطوب رئيساً للمجلس الجسماني الاسرائيلي ورئيساً للطائفة الموسوية في العراق (١٩٤٩ ـ ١٩٥٣). انظر مير بصري، اعلام اليهود ص ٩٣ ـ ٩٤.

٢١. عن د. مصطفى جواد انظر مير بصري: اعلام اليقظة الفكرية، ص ١٨٢ ـ ١٩٧.

٢٢. عن يونس بحري انظر د. سلمان درويش، كل شيء هادىء، ص ١٧٤ وملاحظة نسيم قزاز رقم (١) من نفس الصفحة. وانور شاؤل، قصة حياتي، ص ٢٤٠ وكتاب يونس بحري، ٧ اشهر في سجون بغداد (بيروت ١٩٦٠).

٢٣. صدرت تحت عنوان «مجلة غرفة تجارة بغداد»، حررها الاستاذ مير بصري من ١٩٣٨ الى سنة ١٩٤٥ ثم حررها

يعقوب بلبول من سنة ١٩٤٥ ــ ١٩٥١. راجع ش موريه، فهرس المطبوعات، ص ١٠٣، رقم ٤٥٨.

٢٤. عن الكرملي انظر، مير بصري، اعلام اليقظة الفكرية، ص ٩٠ ــ ٩٩.

٢٥. عن صالح قحطان نائب بغداد في البرلمان العراقي (١٩٣٩ ــ ١٩٤٣)، انظر مير بصري، اعلام اليهود، ص ٦٨ ــ ٧٤.

٢٦. عن روبين بطاط نائب بغداد ثم البصرة انظر مير بصري، اعلام اليهود، ص ٥١. وعن محاكمته عام ١٩٤٨ بتهمة مصادقته على وقف للجمعية الصهيونية يوم كان حاكماً في البصرة سنة ١٩٢٣ انظر اسحاق بار ــ موشيه، الخروج من العراق، ذكريات ١٩٤٥ ــ ١٩٥٠ (القدس ١٩٧٥) ص ١٩٠ ــ ١٩١، و د. سلمان درويش، كل شيء هادىء القسم الرابع قصة وتعليق بقلم شالوم درويش، ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠.

٢٧. عن الشبيبي انظر مير بصري، اعلام اليقظة، ص ١٤٩ ــ ١٥٦.

٢٨. يُعِدُّ البروفسور ش. موريه كتاباً بالعبرية عن الفرهود وهو مجموعة من المقالات الموضوعة والمترجمة عن الانكليزية بقلم سلفيا حيم وحييم كوهين وايلي كدوري وس. ويلد ونسيم قزاز وصفي يهودا و ش. موريه. يصدر عن مركز تراث يهود العراق في اور ــ يهودا عام ١٩٩١.

٢٩. عن چچك انظر د. سلمان درويش، كل شيء هادىء، ص ٨٥، ١٥٤. وانور شاؤل، قصة حياتي ص ٢١٥.

٣٠. عن موقف الشيخ جلال الحنفي المشرف انظر ايضاً انور شاؤل، قصة حياتي، ص ٢٤٧.

٣١. نشر المؤلف هذه الملحمة في ديوانه «اغاني الحب والخلود»، ص ٤٠ ــ ٤٦.

٣٢. عن هذه «الصالونات» او المجالس انظر ابراهيم الدروبي، البغداديون اخبارهم ومجالسهم (بغداد، ١٩٥٨)، وقد عقد فيها المؤلف فصلاً عن البيوتات اليهودية في بغداد ومجالسها منها مجلس مناحيم دانيال وعزرا مناحيم دانيال والحاخام ساسون خضوري، وانور شاؤل و «مجلس الاستاذ مير بصري» (ص ٢٤٠ ــ ٢٤١) وداود سمرة ويوسف الكبير ونعيم زلخة وابراهيم حييم وروبين بطاط وصالح قحطان (الدروبي، البغداديون، ص ٢٣٨ ــ ٢٤٣).

٣٣ لم تنشر هذه الابيات في ديوان المؤلف «أغاني الحب والخلود»، وهي مهيئة للنشر في ديوانه «الاخوانيات» الذي لم ينشر بعد.

٣٤. انظر مير بصري، تقرير عن مؤتمر التجارة الدولي المنعقد في راي (نيويورك) من ١٠ الى ١٨ تشرين الثاني ١٩٤٤ (بغداد، ١٩٥٤) طبع ملحقاً بمجلة غرفة تجارة بغداد.

٣٥. عن هذه الشركة ومطبوعاتها انظر انور شاؤل، قصة حياتي، ص ٢٦٣ ــ ٢٦٩.

٣٦. انظر كذلك مير بصري، اعلام اليهود، ص ٩٥.

٣٧. انظر نفس المصدر، ص ٨٩ ــ ٩٠.

٣٨. انظر النيسابوري، عقلاء المجانين، تحقيق محمد بحر العلوم (النجف، ١٣٨٧/١٩٦٨). ص ٨٧.

٣٩. انظر مير بصري، اعلام اليهود، ص ٦٣.

٤٠. يشغل الصحفي مراد العماري في اسرائيل اليوم منصباً رفيعاً في دار الاذاعة الاسرائيلية.

٤١. انظر انور شاؤل، وبزغ فجر جديد (شعر)، اورشليم ــ القدس، ١٩٨٣ ص ١٣٥ ــ ١٣٦.

٤٢. انظر ايضاً: سلمان درويش، كل شيء هادىء، ص ١٠١ ــ ١٠٢ وكذلك ما كتبه شالوم درويش في نفس الكتاب ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩ واسحاق بار ــ موشيه، الخروج من العراق، ص ٢٨٧ ــ ٢٩٥.

٤٣. عن الحاخام ساسون خضوري انظر مير بصري، اعلام اليهود، ص ٥٧ ــ ٥٨.

٤٤. عن العين عزرا مناحيم دانيال انظر مير بصري، اعلام اليهود، ص ٣٨ ــ ٤٠.

٤٥. انظر مير بصري، اعلام اليهود، ص ٩٣ ــ ٩٤، راجع باقي الاسماء في كتاب مير بصري المذكور.

٤٦. وهذان الشهيدان هما شالوم صالح ويوسف بصري، اعدما بتهمة الصهيونية يوم ١٩٥٢/١/٢٣ وقد اقيم في حديقة مركز تراث يهود العراق في اور ــ يهودا نصباً تذكارياً لتخليدهما، ويُقام كل عام حفلٌ تأبيني لهما ولجميع شهداء يهود العراق امام هذا النصب برئاسة الوزير السابق ورئيس ادارة المركز السيد مردخاي بن پورات.

٤٦أ. كان والد البروفسور ش. موريه السيد ابراهيم مئير معلم يعمل محاسباً عاماً لهذه الشركة حتى اغلاقها. كما عمل فيها اخوه الدكتور يعقوب موريه وصديقها الشهيد چارلس حوريش وقد اعدم الاخير بتهمة الصهيونية عام ١٩٦٩.

٤٧. نشرت هذه القصائد في ديوان المؤلف «اغاني الحب والخلود».

٤٨. انظر ملاحظة رقم ٣٢ ورقم ٤٤ اعلاه.

٤٩. انظر الريحانيات، الجزء ٢ (بيروت، ١٩٠١) ص ١٨٣ ــ ١٨٥.

٥٠. انظر مير بصري، اغاني الحب والخلود، ص ١٥٥.

٥١. عن تأميم المعامل في العراق انظر عزت ساسون معلم، على ضفاف الفرات، ذكريات أيام مضت وانقضت (شفاعمرو، ١٩٨٠) وكتابه الثاني بعيد وقريب، ذكريات وحكايات من الفرات الاوسط ١٩١١ ــ ١٩٨٣، (شفاعمرو، ١٩٨٣).

٥٢. انظر ايضاً انور شاؤل، قصة حياتي ص ٣٢٩ ــ ٣٣٢.

٥٣. يذكر انور شاؤل الشهداء اليهود الذين صدر حكم الاعدام فيهم في ١٩٦٩/١/٢٧ وهم عزرا ناجي زلخة. فؤاد كباي، يعقوب كرجي نامردى، شارلس رفائيل حوريش، صباح حييم، نعيم خضوري هلالي، داود غالي، حسقيل صالح حسقيل، وداود دلال (والاخير كان في سنّ السادسة عشرة من عمره) (انظر قصة حياتي، ص ٣٢٨ ملاحظة ١).

٥٤. انظر هذه الابيات وما قاله الاستاذ انور شاؤل عن هذه الحادثة في كتابه قصة حياتي ص ٣٢٩ ــ ٣٤٠.

٥٥. عن اشتراك مير بصري وانور شاؤل في هذا المهرجان انظر ايضاً قصة حياتي، ص ٣٣٤ ــ ٣٣٨.

٥٦. اغتيل المحامي المرحوم يعقوب عبد العزيز ولا يعرف مكان دفنه وقد قدمت عائلته الى اسرائيل.

٥٧. ارسلت منظمة اليهود النازحين من البلاد العربية الدكتور ش. موريه الى لندن وباريس في اواخر عام ١٩٧٢ لتنبيه الرأي العام في اوربا الى خطورة هذه الموجة من الاضطهادات والتقى باللورد جانر في لندن وبآلان بوهير رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي وقام بتنظيم المظاهرات ضد اعتقال اليهود الابرياء واعدامهم وتحدث في الراديو والصحف عن هذه الاحداث مما ساعد على تخفيف وطأة الاضطهادات ضد اليهود في العراق تحت ضغط الرأي العام العالمي.

٥٨. عن هذه الاحداث انظر كتاب فؤاد (ماكس) سودايي باللغة الانكليزية «كلنا ننتظر الاعدام» (تل ابيب، ١٩٧٤):
All waiting to be hanged

٥٩. انظر ايضاً ش. موريه ومحمود عباسي. تراجم وآثار في الادب العربي في اسرائيل (شفاعمرو ١٩٨٧)، ص ٥٤ ــ ٥٥.

٦٠. ما زالت هذه الترجمة مخطوطة ومحفوظة في مكتبة ولده في اسرائيل.

٦١. عن مير حداد انظر موريه ــ عباسي، تراجم وآثار، ص ٥٥.

٦٢. كتب شريف يوسف مقالاً عن «مدارس الاتحاد الاسرائيلي «الاليانس» في العراق وارتباطها بالحركة الصهيونية العالمية» «انظر مجلة آفاق عربية» السنة ٦، العدد ٥، كانون الثاني ١٩٨١.

٦٣. عنوان ديوان الدكتور مراد ميخائيل هو: الاعمال الشعرية الكاملة للدكتور مراد ميخائيل، تحقيق واشراف عبد الرحيم الشيخ يوسف، تقديم ساسون سوميخ. (تل ابيب ١٩٨٨)، وقد طبع الكتاب على نفقة زوجة المؤلف السيدة شوليت.

٦٤. انظر معروف الرصافي ومقالة البروفسور شموئيل موريه عن معروف الرصافي في الطبعة الجديدة للانسكلوبيدية الاسلامية.

٦٥. اقامت رابطة الجامعيين اليهود والنازحين من العراق حفلا تأبينياً لذكراه وقد نشرت الخطب والقصائد التي القيت في الحفل في مجلة الشرق (شفاعمرو) العدد ١، السنة ١٥، كانون ثاني ـ نيسان ١٩٨٥ ص ٢١ ــ ٧٤.
وشارك في هذا الحفل البروفسور شموئيل موريه (رئيس) السيدة باتيا شكر، المحامي سليم شعشوع والدكتور محمود عباسي والقاضي نجيب كحيلة بقصائد تأبينية باللغة العربية والقى كل من السيدة فهيمة شاشا وصالح طويق وفكتور د. شاؤل والدكتور مراد ميخائيل والقاضي راسم الناشف كلمة تأبينية مشيدين بذكرى الفقيد واعماله الجليلة.

٦٦. ديوان معروف الرصافي (بيروت، دار العودة، ١٩٧٢)، جزء ٢، ص ٣٢٧ ــ ٣٣١.

فهرس عام

أ

[ب]

[ت]

[ث]

ج چ

[حـ]

[خـ]

[د]

[ذ]

[ر]

[ز]

[س]

[ش]

[ص]

[ط]

[ظ]

[ع]

[غ]

[ف]

[ق]

[ك]

[ل]

[م]

[ن]

[هـ]

[و]

[ي]

المحتويات

الموضوع	الصفحة

تطلب من
رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق في اسرائيل
تلفون ٣٤١٠٤٤ ـ صندوق ١١٤٧
مبسيرت يروشلايم ٩٠٨٠٥

Association for
Jewish Academics from Iraq
P.O.B. 1147. Mevasseret
Jerusalem 90805. Israel

منشورات الرابطة

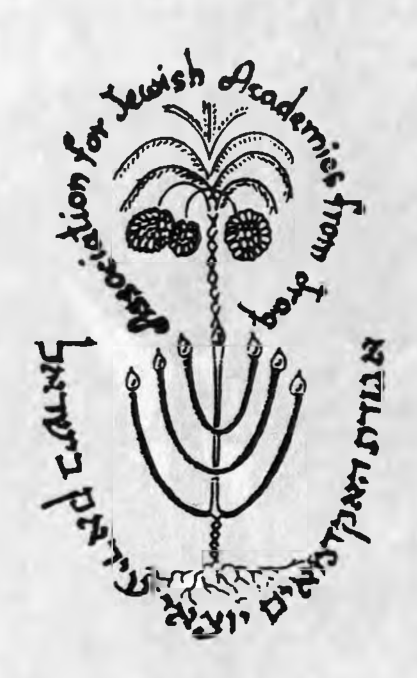
مكتبة الدكتور داود سلمان ـ سالا، لمؤلفات يهود العراق

١. أنور شاؤل: قصة حياتي في وادي الرافدين، (أورشليم ـ القدس، ١٩٨٠).
٢. الدكتور سلمان درويش: كل شيء هادىء في العيادة.
علق عليه وقدمه للطبع نسيم قزاز (أورشليم ـ القدس، ١٩٨١).
٣. شموئيل موريه: القصة القصيرة عند يهود العراق ١٩٢٤ ـ ١٩٧٨، قدم لها مع دراسة وتراجم البروفسور شموئيل موريه، أورشليم ـ القدس، دار النشر ي. ل. ماغنس ومسجاب يروشلايم ـ الجامعة العبرية ورابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ١٩٨١.
(الدراسة عن الأدباء والشعراء اليهود بالعراق كتبت بثلاث لغات هي العربية والعبرية والانكليزية).
٤. أنور شاؤل: وبزغ فجر جديد، (ديوان شعر) (أورشليم ـ القدس، ١٩٨٢).
٥. اسحاق بار ـ موشيه: بيت في بغداد (راوية)، (أورشليم ـ القدس، ١٩٨٢).
٦. مير بصري: أعلام يهود العراق الحديث (تراجم) (أورشليم ـ القدس، ١٩٨٣).
٧. سمير نقاش: نزوله وخيط الشيطان (رواية عراقية)(أورشليم ـ القدس، ١٩٨٦).
٨. سمير نقاش: المقرورون (مسرحية)، مع دار النشر المشرق، (أورشليم ـ القدس، شفا عمرو، ١٩٩٠).
٩. ابراهيم عوبديا: صيحة من عراق العهد البائد، مع دار النشر المشرق، (أورشليم ـ القدس، شفا عمرو، ١٩٩٠).
١٠. ابراهيم عوبديا: الظمأ الحائر (ديوان شعر)، مع دار النشر المشرق، (أورشليم ـ القدس، شفا عمرو، ١٩٩٠).
١١. مير بصري: ديوان أغاني الحب والخلود (أورشليم ـ القدس، ١٩٩١).
١٢. مير بصري: رحلة العمر من ضفاف دجلة الى وادي التيمس، ذكريات وخواطر، (أورشليم ـ القدس، ١٩٩٢).

بالامكان الحصول على الكتب التالية من الرابطة:

١٣. يعقوب «بلبول» ليب: محنة العقل وقصائد أخرى (أورشليم ـ القدس، ١٩٧٩).
١٤. ابراهيم عوبديا: امرأة في شعري (الناصرة، ١٩٨٠).
١٥. ابراهيم عوبديا: اخي ستشرق الشمس (الناصرة، ١٩٧٧).
١٦. عزت ساسون معلم: على ضفاف الفرات، ذكريات أيام مضت وانقضت (شفا عمرو، ١٩٨٠).

مير بصري/ رحلة العمر



منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق
مكتبة الدكتور داود سلمان ــ سالا
لمؤلفات يهود العراق
رقم ١٢

مطبعة الشرق العربية

القدس — شعفاط

تلفون: ٨١١١٤٢ — ص. ب. ١٩٥٠٨

Association for Jewish Academics from Iraq
Dr. Davide Sala's Library
for Jewish Authors from Iraq
(12)

Life's Journey from the Banks of the Tigris to the Valley of the Thames

Reminiscences and Thoughts

by

Meer S. Basri

Revised and Annotated

by

Prof. Shmuel Moreh
&
Dr. Nissim Kazzaz

Jerusalem, 1992